انتحار ليلى

* الكتاب: انتحار ليلىٰ (رواية)
* الكاتبة: ناهد درغام
* مراجعة لغوية: قسم التحرير والمراجعة بدار المنتدىٰ
* تصميم الغلاف: قسم الجرافيك بدار المنتدىٰ
* إخراج داخلي: القسم الفني بدار المنتدىٰ
* رقم الإيداع: ١٩٠٢٢/ 2022
* الترقيم الدولي: 978-977-86240-2-8

المدير العام: الأستاذ عزيز عثمان

لمراسلة الدار: daralmuntadaa@gmail.com
واتس آب: +20 100 518 6476
فيسبوك: دار المنتدى للنشر والتوزيع

صدر عن دار العنقاء للنشر والتوزيع
بالتعاون مع دار المنتدى للنشر والتوزيع

9 789778 624021

جميع الحقوق محفوظة لدار المنتدىٰ للنشر والتوزيع

كل ما ورد في هذا العمل مسئولية مؤلفه، من حيث الآراء والأفكار والمعتقدات، وكونه أصيلًا له غير منقول، وأية خلافات قانونية بهذا الشأن لا تتحملها دار النشر.

(روايـــــة)

انتحار ليلى

للكاتبة

ناهد درغام

دار المنتدى
للنشر و التوزيع

الإهداء .....

إلى ليلى والقمر

إن الواقف عند سفح الجبل تراوده دائمًا فكرة عظيمة، ربما يظن أنه سيرى الله عند قمته، وفي لحظة مغيبة لعقله قد يتجاهل فيها التفكير في المصاعب والمشقات التي ستقابله، يمسك بنفسه، يتسلق الجبل ليكتشف كم المعاناة التي وضع نفسه فيها بعدما يقطع جزءًا لا بأس به من تسلقه، يستفيق ساعتها محتارًا بين خيارين: إما أن يتراجع وينقذ نفسه من أهوال قادمة! أو يستكمل طريقه وليكن ما يكون، وعندما يفكر في الخيار الأول؛ يجد أنه من العبث أن يطيح بكل هذا المجهود الذي قطعه، والذي لولاه لما استطاع أن يقدر حجم المعاناة التي من المؤكد أنه سوف يعانيها في الرجوع، وستكون المحصلة معاناة دون الحصول على شيء. أما بالنسبة للخيار الثاني فسيرى أنه هو الأسلم، لأن جزءًا من المعاناة قد قطعه بالفعل، حتى ولو كان الجزء الأقل، لكنه باستكمال الرحلة سينقذه من أن يضيع هباءً، حتى لو أنه تبقى لديه احتمالًا آخر، بأن كل معاناته ستكون في النهاية من أجل وهم اخترعه لنفسه وأخلص له جم الإخلاص، إلا أن الفيصل في النهاية لجميع هذه الاحتمالات هو الوصول إلى قمة الجبل، لذلك أصبح حتمًا عليه استكمال الطريق.

المدهش أنه عندما وصل إلى قمة الجبل، ورغم كل ما لاقاه في طريقه من معاناة؛ اكتشف أن قمة الجبل لا تختلف كثيرًا عن سفحه بالنسبة لرؤية الله، وتكاد تأكله الحسرة وتذهب بعقله، ولكنه بعد لحظات يرى أشياء أخرى لا يمكن له أن يراها إلا وهو هنا على قمة الجبل.

****

كانت (مروة) جالسةً على مكتبها في الصباح، فتحت هاتفها وهي تتناول فُطورها، سمعت زملاءها في المكتب يتكلمون عن الانتحار، يلعن الأستاذ (دسوقي) (ليلى) التي انتحرت، معلقًا بأنها ماتت كافرةً ولا يجوز عليها الترحم، بينما بقية الزملاء ينقبون عن أسباب الانتحار عبر (السوشيال ميديا)

لم تهتم (مروة) كعادتها بما يقولون، أو بما يدور على صفحات (الفيسبوك) من قضايا ليلتهي بها الرأي العام عن قضاياه الحقيقية، ولكنها عادةً تفتح

الفيسبوك تقلب فيه مسرعةً وهي تشرب الشاي، صدمتها صورة (ليلى) التي أطالت النظر فيها تتعمق في ملامحها، وفي اللوحة المغمسة بالدماء التي تحتضنها، وفجأة صرخت وهي تلهث في قراءة الخبر، ثم أسرعت ذاهبةً إلى محطة الأوتوبيس، تلحق (بالباص) الذى سينطلق بعد دقائق من دمياط إلى القاهرة.

****

كانت (نهال) تراقب الفلاحين الذين يجمعون محصول البطاطس، ينادي عليها مدير مزرعة الدواجن لتأخذ شايها الذي أعده لها، اتجهت إليه تلبي نداءه بينما كان يلتهي عنها بقراءة الخبر بصوتٍ مسموع، وعندما تهكمت على صناعة هذه التكنولوجيا التي أفسدت على الناس حياتها، قال لها أن هناك خبر محزن يؤذي مشاعر الناس؛ هو انتحار (ليلى) لم يكن من عادتها الجري وراء القضايا المشتعلة على الفيسبوك، ولكنها راحت تفتح صفحتها كعادتها لتتابع أخبار الأدب والأدباء والثقافة والسياسة، وتتابع تعليقات أصدقائها على منشورها الأخير، طالما أن جميع من حولها منشغلون عنها، تصدرت لها الصورة في أول منشور، يتهم ناشره الفنانين بأنهم مسئولون عما حدث لـ(ليلى) وهو يترحم عليها، فجعتها الصورة وأخذت تلهث وراء الأحداث تهتم بقراءة التفاصيل، لكنها لم تستطع استكمال السطور عندما أدركت الحقيقة، أفزعت بصراخها جميع من حولها، تتصل بسائقها الخصوصي ليقابلها بسيارتها ليذهب بها فورًا إلى القاهرة.

****

استيقظت (سميحة) من غفلتها الصباحية على غير عادتها على رنة هاتفها، الذي نسيت أن تجعله صامتًا كما تعودت أن تفعل، كان من الممكن أن تغلقه وتلعن الطالب في سرها وتواصل نومها كما تفعل عادةً إذا حدث لها ذلك في أي صباح، ولكن شيئًا ما جعلها لا تفعل على الرغم من أنها لم ترد، ولكن النوم فارقها، تناولت هاتفها تلتهي بصفحتها ربما يعاودها النوم، لكن الخبر المزعج

الذي تصدر أمام عيونها المغشية جعلها تلعن الفيسبوك؛ الذي أصبح لا ينقل سوى الأخبار المفزعة، أغلقت الصفحة وحاولت النوم وأغمضت عينيها، فتتراءى لها الصورة والخبر مشوشين ويصعب عليها النوم نهائيًا، شيء ما يدفعها إلى أن تفتح الفيسبوك مرة أخرى لتجد الخبر أمامها مرة أخرى، يقولون إن (ليلى) ضحية جديدة لمجتمع القهر باسم الدين، استفزها العنوان واعتدلت تدعك جفونها، ينقبض قلبها وهي تمعن التدقيق في ملامح (ليلى) تلهث وراء التفاصيل لتكذِّب هواجسها، ولكن التفاصيل تفجعها، فتقفز من فراشها مفزوعة لا تعرف كيف ارتدت ملابسها، تهرول إلى سيارتها، تختنق بالزحام الذي يوقفها دقائق على بوابة الخروج، من المدينة التي تعلق لافتةً تخطف عينيها، وكأنها تراها لأول مرة "مدينة بورسعيد تتمنى لكم السلامة".

****

كانت (لبنى) تلقي محاضرة على طلابها في كلية الاقتصاد بجامعة القاهرة، يناقشها أحد طلابها في الاقتصاد الذي هو عصب السياسة والحكم، يتحدث عن خلل اقتصاد الدول الذي لا يدفع ثمنه سوى فقرائها، يستشهد بحادثة انتحار (ليلى) مؤكدًا أن (ليلى) ما هي إلا نواة لانتحاراتٍ كثيرةٍ قادمة، سببها سوء التخطيط والهوة التي سببتها الرأسمالية، شردت (لبنى) تسمع حماس الطالب الذي يترحم من قلبه على (ليلى)؛ فقاطعته تغلق باب مناقشة لا تريد الدخول فيها تقول:

- «أنا الحقيقة ماقريتش حكاية انتحار (ليلى) دي، لكن عمومًا جميع الدول اللي بتحاول تحسن اقتصادها عن طريق دعم القوى الرأسمالية وإعطاءها امتيازات حتى تصل عن طريقها لرفع الناتج القومي، لها ضحايا»

انتهت المحاضرة وعندما عادت إلى مكتبها لحقها الساعي بالقهوة فشكرته وهي تفتح هاتفها، تنتوي أن تعرف قصة (ليلى) ودون أن تجهد نفسها في البحث

تصدرت لها الحكاية، ينشرها أحد أصدقائها تحت عنوان "اللعنة على السلطة التي قتلت (ليلى)".

استفزها العنوان تسخر في نفسها منه، تظنه جزءًا من مسلسل الثورات التي لا تنتهي، وكأنه دعاية لثورة جديدة باسم (ليلى) ولكنها مع أول تفاصيل الحكاية عادت إلى الصورتين تدقق النظر، تعود بالذاكرة لأبعد من ثلاثين عامًا، تكتم صرخاتها مندفعة إلى سيارتها، تعافر في زحام القاهرة، قاصدةً حي السيدة زينب.

****

سلكت كل واحدة منهن طريقها الطويل، الذي يكفي لدموعٍ تفيض رثاءً على السنوات الضائعة، يمر بكل واحدة منهن شريط ذكرياتها، هذه الساعات القصيرة تنضح لهن فيها الذاكرة بما عبأته خلال ثلاثين عامًا أو يزيد، مر بهن كثيرًا طيف الانتحار ولكنهن فضَّلن التعايش أحياء في حياة ميتة، لم تأتهن الجرأة لأن يجربن الحياة في الموت، لكن (ليلى) هي التي فعلتها.

****

(١)

قالت (مروة) لنفسها وهي تغسل وجهها على عجل وترتدي ملابسها في هذا الصباح الشتوي البارد، الذي استيقظت فيه منطلقة لما يعج في رأسها من أفكار وفي قلبها من ثورة على غير عادتها في أيام الشتاء، التي لم تستطع مصائب الكون كله أن تخرجها بهذا الاندفاع من دفء بطاطينها، رغم البرودة القارصة ولكن مركز الإحساس ببرودة الجو داخلها معطل لأن عقلها منشغل بقضية لم تكن تتوقع يومًا أن تفرض نفسها على مشهد حياتها، (مروة) الآن لو ماتت سوف تترك الحياة وكل أمانيها المحالة قد تحققت؛ بل معجزة السماء، الأماني يمكن لها التحقق أما ما هي فيه الآن بالنسبة إليها فمعجزة، اليوم هو اليوم الأول لرئيس الشركة الجديد والأخبار تقول أنه رئيس غير عادي.

استوقفتها أمها قبل النزول تؤكد عليها أن تتصرف وتدبر لها ٥٠٠ جنيه، وعندما سألتها مفزوعة متجهمة أجابتها بأن هناك ثلاثة أفراح آخر الأسبوع في يومٍ واحد، ولا بد لها من التنقيط، ومبلغ آخر لجارتهم التي في آخر الشارع المتوفى زوجها بالأمس، من الواجب أن ترسل لها على الأقل "بجوزين فراخ"؛ لأنها عندما توفي زوجها جاءوها بحلل الأرز والسمك والسلطات، فتركتها متأففة تلعن في سرها هذه العادة غير الإنسانية بالمرة والتي بسببها تجعل البيت مأزوما في حالة طوارئ أغلب أيام السنة.

الناس في هذه المدينة يخافون في أحزانهم وأفراحهم ألا يجبر خاطرهم أحد؛ لذلك يربطون المراسم بالتنقيط لأنهم حتمًا سيجيئون لرده، أملًا في أنه سيدور دورته ويعود إليهم في أولى مناسباته بقيمةٍ مضاعفة، دون أن تنتهي هذه الدائرة، يخشون أن يحجزوا القاعات الفخمة في أفراحهم وأن يلبسوا (السواريهات) الغالية ويعدون الموائد الفاخرة، وفي النهاية لا يجبر خاطرهم أحد، إن التباهي عادة أصيلة في نفوس الناس في هذه المدينة، الفقراء فيها قبل الأغنياء، التنقيط دَيْن، ودعوة الفرح مطالبة مهذبة باسترداد الدين، وقد تأتي الأفراح مجتمعةً في يومٍ واحد، أو أسبوع واحد، أو شهر واحد؛ فتحل النكبة

على ميزانية البيت، ويتم ضغط جميع المصروفات ويؤجل كل شيء حتى الأكل والشرب من أجل سداد النقطة. أثارت (مروة) مرة من المرات التي كانت فيها في قمة ثورتها ونقمتها على هذه العادة هذه المشكلة أمام زملائها الريفيين في المكتب، فأثار أحدهم دهشتها وهو يمتدح التنقيط ويعدد لها فوائده وأن التنقيط في الريف الدمياطي هو عصب الحياة؛ فإذا مرت بأحد ضائقة ادعى أنه قد (طاهر) ابنه، ويدور المذياع في القرية يعلمهم أن فلانًا قد (طاهر) ابنه، فيذهب أهل القرية جميعها للتنقيط، ومن الجدير بالذكر أنه هناك محاسبون خريجو جامعاتٍ ينتظرون هذه الليالي التي يخصص لهم فيها مكتبًا على جانبٍ من الحفلة لتدوين الأسماء، وقيمة ما عليه وما قد دفع من النقطة، وذلك مقابل عمولةٍ يتفقون عليها مسبقًا.

تندفع (مروة) مع المندفعين من الزملاء إلى التوقيع في دفتر الحضور على عجل بعدما تقدم موعده إلى السابعة والربع بدلا من الثامنة والنصف، ثم أغلق الدفتر في تمام السابعة والنصف صباحًا، لأول مرة في تاريخ دخولها إلى الشركة، الدفتر الذي كان يظل مفتوحًا حتى التاسعة والنصف من أجل سواد عيون الباشوات، وفي ذات الوقت يغلق في وجه من لا ترضى عنهم السلطة في التاسعة إلا الربع، ولكنه الآن يغلق في وجه الجميع سواسية في السابعة والنصف تمامًا، الموعد الرسمي للحضور كما تقره النظم واللوائح العامة للشركة، "كم أنت جميل أيها العدل"، قالت لنفسها هذه العبارة وروحها مبتهجة مقبلة على الحياة مفعمة بالأمل، دخلت (مروة) مكتبها بعدما سبقها زملاؤها الأربعة إلى مكاتبهم، ظاهرة عليهم حالة من التوتر، يتبعها عامل البوفيه متوجها إليها بالشاي كعادته اليومية، فتوشوشه متسائلة عن أخبار وصول الرئيس الجديد، فينفي متوترًا مجيئه حتى الآن، تتعجلها رئيسة القطاع مدام (سهام) لتشرب شايها قبل أن يفاجئوا به أمامهم، لأن المعلومات التي لديها تؤكد انضباطه وحضوره مع جميع العاملين في السابعة والنصف.

بينما ترصد (رانيا) السكرتيرة من الفتحة السفلية المواربة بزاويةٍ حادة لضلفة الشباك (الألومنتال) العريضة ذات الزجاج الأزرق المعتم من الخارج، ينصتون

جميعًا بتركيزٍ مضاعف ليسمعوا همساتها بما تلمحه من أحداث تدور أمامها في ساحة ديوان عام الشركة، تخلط به ما جمعته من أخبار عنه:

- «ده بيقولوا إنه مرة شاف عامل واقف في ديوان الشركة أصدر قرار بنقله لأبعد بلد في محافظة الدقهلية وماحدش قدر يراجعه في قراره»

أجابها خافضًا صوته المهندس (محمد) المسئول عن متابعة مشروعات الصرف:

- «يا سلام! وهي دي الإدارة بقى؟!»

ردت (مروة):

- «المهم إنه يقيس الناس كلها بمقياس واحد، المساواة في الظلم عدل، ويوقف (مرقس) و(كوهين) و(حسن) عند حدهم، كفاية بقى اللي شفناه منهم»

قالت مدام (سهام) بصوت لا يكاد يسمعه أحد:

- «انتي بتحلمي يا (مروة) دول ما يقدر عليهم إلا ربنا، بكرة يحطوه تحت باطهم»

فسكتت (مروة) قبل أن تطلب منها كعادتها أن تحاذر من المتلصصين المرشوشين في كل مكان يسمعون دبة النملة، لقد جاهدت (مروة) كثيرًا حتى استطاعت التعايش مع مديرتها التي تخاف خيالها.

انكبوا جميعًا يعتدلون على مكاتبهم مذهولين وكأنه قد صعقتهم الصاعقة، عندما فاجأتهم (رانيا) مفزوعةً تجلس على مكتبها قائلةً:

- «إجه»

خيم الصمت المرعب على الحجرة المغلقة على الموظفين الأربعة، تصفع آذانهم خرفشة الورق الذي يفتعلون الانشغال به، ودقات الطبول التي في صدورهم عندما سمعوا أصواتًا بالخارج وأزيز الباب وهو يُفتح، هب الثلاثة يقفون عندما

استشعروا هجوم هذه النظرة الحادة المتفحصة الواعية لهم، أما (مروة) فراحت تقف بتأنٍ مبالغ فيه وكأنها اكتشفت دخوله فجأة بعدما شعرت به واقفًا يتوسط الفراغ الذي يتوسط الحجرة؛ لتثبت لنفسها ولهم جميعًا أن وقوفها له كان احترامًا وليس خنوعًا، لم يمنعها الاحترام من أن تبادله النظرات بنظراتها العميقة الفاحصة، متعجلة بتحليل شخصيته، دون أن تعطي الفرصة للأيام لتقول هي كلمتها عنه، مضت اللحظات القليلة كأنها نهار كامل، وتركهم تاركًا بصمته الحادة في بؤرة أعماقهم، هذا الرجل الطويل الوسيم ذو الشعر الأبيض، إلا إن حيويته ونظراته الحادة جعلته يبدو كشاب ثلاثيني لم يقو الزمن على أن يترك أثرًا إلا على شعره، الذي لم يمنحه شيخوخةً ولكنه منحه وقارًا وهيبة، كان برفقته (طه) مدير الأمن ببدلته الفخمة السوداء، فبدا وكأنه رئيس للوزراء، لم يستغرق اللقاء العابر سوى دقيقةٍ أو أقل، ألقى فيها المهندس (خالد) التحية وقام (طه) بتعريفه برئيسة القطاع مدام (سهام) وأطلق نظرةً شاملةً جامدةً غير مهتم بتعريفات (طه) ثم انصرف بعدما قدم لهم رسالته الأولى، وسقطوا جميعًا على الكراسي يلتقطون أنفاسهم متلهفين على متابعة الأحداث التي تجري بالخارج، يهمسون لبعضهم البعض بانطباعهم الأول.

فقالت (رانيا):

- «شكله صعب أوي»

وأضافت (مروة):

- «شفتم بيتجاهل (طه) إزاي؟»

وقالت مدام (سهام):

- «على الله يكون جالك يوم يا (طه)»

ردت (مروة):

- «آه كفاية عليه لحد كده، حتة موظف مايسواش حاجة بالإعدادية يبقى مدير إدارة، دا مكتبه ولا مكتب وزير»

وراحت (رانيا) تستكمل رصد الأحداث من الفتحة الموازية للشباك، متسائلة:

- «إلا (حسن) و(مرقس) و(كوهين) لسة ماظهروش؟!»

أجابت مدام (سهام):

- «الساعة لسة ٧ ونص وخمسة، هما بييجوا قبل ١١»

قالت (مروة):

- «أيوه يا مدام ده كان زمان»

تتصيد (رانيا) أي خيط يصل بها إلى أية تكهنات، علَّقت تكتم ضحكاتها على أنه لم يهتم بـ(حسن) ولا بـ(كوهين) الذان يمشيان وراءه كالخفر وهو يستكمل زيارة المكاتب التي في المبنى المقابل. تخفض صوتها وهي تقول:

- «(شعبان) لسة ماجاش»

و(شعبان) يعني في لغة السين التي بينهم هو (مرقس) مصمصت (مروة) شفاهها تلفت نظرها إلى أن (كوهين) ينفذ تعليمات سكرتيرته، وقاطعتها (رانيا) تستكمل البث المباشر لما تراه بأن (مدحت) الذي يعني في لغة السين (حسن) قد لحق بهم دون أن يهتم بتوبيخه على تأخره، علقت مدام (سهام):

- «دا جتته منحسة، هو دا بيهمه؟»

خُطفت قلوبهم جميعًا عندما انفتح الباب والتقطوا أنفاسهم سريعًا عندما وجدوه عم (صبري) الذي جاء بالشاي الثاني للأستاذة (مروة)؛ فتوجهوا إليه متلهفين لتصيد أي معلومة من هنا أو من هناك عما يحدث بالخارج.

خفض صوته يتلفت وهو يقول:

- «كنتم تعالوا شوفوه بيبص لـ(شعبان) إزاي وهو بيصبح عليه»

انفرجت أساريرهم جميعًا لهذه العبارة التي تشفي بعضًا مما في صدورهم، بينما (مروة) يرقص قلبها فرحًا وكأنها تتمنى أن ترى هذه النظرة بنفسها

لتتشفى فيه، تأكد لها أن هذا الرئيس لديه المعلومات الكافية عن هذه العصابة ويعرف الكثير عما يدور بهذه الشركة، ويبقى السؤال في عقولهم جميعًا حائرًا: هل سينجرف في تيارهم، أم سيكون ضدهم؟ ما زال كل شيء غامضًا واليوم ما زال في أوله، واستأنف عم (صبري) كلامه وهو يأخذ كوب الشاي الفارغ قبل أن يهم وينصرف:

- «قلبي وقع في رجليا لما نده عليا، مت في جلدي وهو بيسألني وبيشخط: انت بتشتغل إيه يا (صبري) قولته عامل بوفيه يا سعادة البيه؛ فطبطب عليا وبشويش كدا قالي: طب بلاش الرايحة والجاية دي كدا كإننا في قهوة يا عم (صبري) شكله طيب بس يعني بلاش أشتغل وأودي طلبات للموظفين ولا أعمل إيه؟»

الحيرة والمتاهة على ما هم قادمون عليه ترتسم على وجوههم، بينما المهندس (محمد) الذي لا يؤيد التغيير وكان يتمنى أن يظل الوضع كما هو عليه، طالما أن الأمور تمضي في أمان وسلام بين ظالم استطاع أن يصل إلى مرحلة من التفاهم مع مظلوميه، لأنه يظلمهم باقتناعهم بظلمه؛ مع شعارات كثيرة منها: "المصلحة العامة تقتضي ذلك"، و"مصلحة الجميع قبل مصلحة الفرد"، المظلوم ليس مغفلًا لأنه يدرك تمامًا أن المظلوم هو الجماعة وأن أصحاب الشعارات هم الأفراد، وأن المصالح تصب دائمًا في حسابات الأفراد على حساب الجميع، ولكنه على أية حال هناك حالة من التعايش صارت إليها الأمور بعدما قنعوا بأنه لا أمل في التغيير، المهندس (محمد) كان من هؤلاء المظلومين غير القانعين بالتغيير، يفاجئهم مستهزئًا بجملة اعتراضية:

- «قال يعني هيعدل المايلة»

في تلك اللحظة رن جرس الهاتف الداخلي، ردت عليه (رانيا) سكرتيرة مدام (سهام) فأبلغها مدير مكتب رئيس مجلس الإدارة باجتماع عاجل لجميع رؤساء القطاعات حالا مع رئيس مجلس الإدارة الجديد، استنتجت مدام (سهام) الرسالة من الحوار القصير لـ(رانيا) في التليفون، همت بالذهاب قبل أن تضع

(رانيا) السماعة، تغامزت (رانيا) و(مروة) على ضعف شخصيتها، لكن (مروة) ما زالت مشحوذة ضد المهندس (محمد) المقاوم تمامًا لفكرة التغيير رغم ما وقع عليه من ظلم، تحاول (رانيا) أن تجرها لحوارٍ آخر تقطع عليها أفكارها ضد هؤلاء الذين يتعايشون مع الظلم وكأنهم يمجدون الظالم قائلين له: ما أروع ظلمك.

راحا يخمنان بصوتٍ مسموعٍ في مصير (أحمد) مدير مكتب رئيس مجلس الإدارة القديم، تفترض (رانيا) أنه سيقوم بتغييره.

قالت (مروة):

- «إحنا كده دايمًا نخاف من التغيير، رغم إن التغيير فرصة جديدة للحياة إنها تتولد من جديد»

رد المهندس (محمد):

- «أي تغير لازم يكون امتداد لما قبله»
- «أومال يبقى إزاي اسمه تغيير وهو ماشي على نفس المنهج؟»

قال المهندس (محمد) والذي تتفق هيئته مع أفكاره؛ فبدلته العتيقة التي يرتديها تقريبًا يوميًّا دون أن تصيبها الشيخوخة والتي كانت موضة ربما من ٣٠ سنة وهذا ليس يعني أنه يزهد الموضات الحديثة، ولكن (الدمايطة) لا تشيخ ملابسهم ولا أشياؤهم بسهولة، يحافظون عليها وفي نيتهم أن تعيش أبد الحياة، له تعليق لم يبرح ذهن (مروة) أبدًا عن الموضة:

- «هذا الوطن خرب لأن هؤلاء خربوا العلاقة بين الشخص وهدومه، ما عادش حد عنده انتماء حتى لهدومه اللي بيلبسها»

كانت آراؤه تصيب عقلها بالحيرة؛ لذلك ظل مركزًا لاهتمامها تتفحص أفعاله وأقواله، قال الرجل بيقين تام:

- «التغيير مش ممكن يلغي كوادر شغالة بقالها سنين أسست الشركة، وييجي واحد من بره يهدم كل ده، لازم يستعين بقدراتهم وخبرتهم في المكان»

ردت عليه (مروة):

- «وليه بنخاف نجرب فكر جديد؟ وخصوصًا إن النظام كان له سلبياته الكتيرة في الإدارة، نظام يفتقد العدل ومعطل لطاقات بشرية كتيرة عشان يظهر في الصورة ٤ أو ٥ يتقال إن هما اللي شايلين الشركة على أكتافهم، والحقيقة إنهم استغلوا طاقات أصابها الخرس وعطلوا طاقات اللي فاهمين اللعبة عشان يتهموهم إنهم مالهمش لازمة، (شعبان) بنفسه مرة قالهالي: "أنا مايهمنيش كفاءتك ولا شهاداتك المهم عندي ولاءك وإخلاصك ليا"»

وغابت شاردة في ملكوتٍ آخر تدوي في آذانها عبارة قالها لها (شعبان) ذات يوم:

- «مافيش ست في بر مصر بتوصل إلا بقميص النوم»

عادت بها الذاكرة إلى أيامها الأولى في الشركة تتذكر تلك النظرة المشمئزة التي كانت ترميها بها السيدة (سهام) كمن وقع نظره على شيءٍ عفن، تتلصص على زينتها المبالغة بنظراتٍ تحتية تمتم بالسخط واللعنات على هذا الانحلال، السيدة (سهام) رئيسة القطاع السيدة الفاضلة التي حجت بيت الله مرتين وترتدي الملابس الفضفاضة وزوجة سكرتير عام المحافظة، وأبناؤها الثلاثة: دكتورة (رشا) متزوجة بطبيبٍ من أسرةٍ مرموقةٍ ويعيش معها في هولندا لاستكمال الدراسات العليا، وابنها (إيهاب) مهندس صاحب شركة مقاولات كبرى، وابنتها الأخيرة (رانيا) متزوجة بدبلوماسي يعمل في السفارة الأمريكية، هذه السيدة ذات الملامح الجامدة التي لا مشاعر فيها، ارتضت (مروة) أخيرًا أن تعمل معها لترأسها امرأة فاضلة، وكفاها ما عانته من الرجال الطامعين فيها، وعهدت في (مروة) زينتها اليومية غير اللافتة، أما ذلك اليوم الذي تمردت فيه (مروة) متخلية عن جمودها، بحثًا عن الحياة التي أوقعتها في تجربةٍ فاشلة، خاضتها غير عابئة بالفشل تظن أن التجارب الفاشلة أفضل من بلادة الحياة وصمتها المرعب الذي كاد أن يقتلها، لم يعجب مدام (سهام) مظهر (مروة) فراحت تتغامز وتتلامز عليها تفضحها تعبيرات وجهها التي جعلت (مروة) تتمنى

أن تبتلعها الأرض في تلك اللحظة، حاولت الانزواء بعيدًا عن جميع الزملاء حتى لا تتعرض لمثل هذه النظرة، يكفيها ما قرأته في عيون مدام (سهام) ولكن (شعبان) استدعاها؛ فدخلت عليه مكتبه مقتضبة تهرب من العيون يتضخم داخلها شعورٌ بأن جميع العيون تراقبها، استقبلها وديعًا مفعمًا بجمالها وزينتها التي يتأكد له أنها من أجله هو وحده، اقترب منها في شوقٍ جارفٍ ليلمسها، فغلبتها دموعها فجذبها إلى أحضانه مولعًا بضعفها، لكنها ابتعدت عنه بكل قوتها؛ فراح مذعورًا على الحب الذي بينهما يسألها عن سبب دموعها، اضطرت إلى أن تبرر له دموعها عندما احتد غضبه لإصرارها على الصمت، راح يقهقه بأعلى صوته عندما فهم أن مدام (سهام) ترميها بنظراتٍ جارحةٍ قاتلةٍ ريحة وجيئة، قائلا وهو يضمها إلى صدره:

- «يا عبيطة مافيش ست بتوصل في بر مصر إلا بقميص النوم، مدام (سهام) بتاعتك دي ياما طاردتني، وياما عرضت عليا نفسها عشان بس أوافق إنها تطلع مع الوفد المسافر ألمانيا، أيام ما كنت ماسك التنسيق بينّا وبين الدول الأجنبية، لكن هي ست باردة ماحركتش فيا أي مشاعر، صدقيني ماقدرتش أجاريها لكن طلعتها مع الوفد، لكن اللي ماتعرفيهوش إنها رجعت من ألمانيا وهي الصديقة المقربة جدًّا للمهندس (الشربيني) رئيس الشركة اللي فات، وكانت ليل نهار عنده في المكتب، وفجأة بقت مدير عام، وفجأة بقت رئيس قطاع، وهي أساسًا معاها دبلوم زراعة كملت جوه الشركة وأخدت بكالوريوس المعهد العالي للتعاون الزراعي، وبعد كدا لبست طويل ومفضفض زي ما انتي شايفاها كدا، بعد ما حققت كل اللي هي عاوزاه، فصلت الفضيلة على مقاسها، وكان المهندس (الشربيني) مشي، هي بتبصلك يا عبيطة بقرف لأنها بتبص على نفسها فيكي، ولإنها عارفة إنك هتوصلي بنفس الطريقة»

ابتعدت عنه مذهولة تفكر في كلامه الذي تظنه يكذب من أجل أن يسيطر عليها، ولكن شيئًا ما في نفسها يجعلها تفترض صحته، تقول لنفسها: "جميع

النساء في حقيقة الأمر بغايا، ولكنهم يلبسون قناع الفضيلة، جميع البشر يفعلون أشياء ضد طبيعتهم، الإنسان هو الطبيعة، والطبيعة هي الفضيلة والرذيلة، الطبيعة هي سطوة الريح، وعراك الأمواج في البحار، الطبيعة هي الرعد والبرق والسحاب، الطبيعة هي الصحراء التي لا بداية ولا نهاية لها، الطبيعة هي الشمس في عز قوتها وقسوتها وفي روعة وسحرغروبها ورقتها، الطبيعة هي الليل والنهار، الطبيعة كوكب تعيش عليه مليارات من الكائنات الحية والأشجار والأزهار والبحار والمحيطات، وفي ذات الوقت هي حبة رمل ساكنة على شاطئ الكون العظيم، الإنسان هو الطبيعة، لماذا نختزله فقط في الفضيلة؟!، وهو الذي يتسع لأعظم من ذلك".

لاحظت (رانيا) شرودها فنبهتها، اقتربت (مروة) منها تحافظ على وجود مسافة بينهما، لتتجنب رائحة العرق الكريهة التي يتآلفون جميعًا مع تلك الروائح، يغفرونها لبعضهم لأنهم على ما يبدو لهم نفس العادات، إنهم لا يستحمون كثيرًا، ربما من باب ترشيد الاستهلاك الذي هو منهجهم العام في الحياة، وربما من باب المحافظة حتى لا تهلك ملابسهم بكثرة الغسيل، وعلى مر الزمان لا يشعرون بقِدم ما يلبسون ولا يهتمون بمسايرة الموضة، يجدون الألفة في ملابسهم العتيقة، كانت (مروة) تكره نفسها إذا ركبت في المواصلات العامة أو في أوتوبيس العمل تزكمها روائح العرق من جميع الاتجاهات؛ حتى إنها اتهمتهم بأنهم سبب رئيسي من أسباب إفساد جيوبها الأنفية، وكان ذلك يؤكد لها شائعة البخل اللصيقة بأهل دمياط لأنهم حريصون على توفير الماء والصابون ويضمنون الخلود لملابسهم التي لن تهلك من تعدد مرات الغسيل، وتأكدت لها هذه الشائعة عندما ضغط رجل بالخطأ على جرس الباب فخرج عليه زوج أمها يوبخه على خطئه؛ لأن هذه الضغطة التي بلا فائدة عبء زائد على الجرس وعلى الكهرباء وعليه هو شخصيًّا، لأنها كلفته الفتح والرد عليه، هؤلاء لديهم دقة متناهية في الحسابات.

(مروة) جاءت مع أمها إلى دمياط تأمل أن تبدأ فيها من جديد، ولكن أشياء كثيرة في هذه المدينة صدمتها، منها تلك الحسابات الدقيقة حتى للمشاعر وتلك

العبوسة المرسومة على الوجوه التي تقابلها في الصباح، بمجرد أن ينفضوا غبار النوم عن الأعين تستنهض العقول مسرعة تستأنف عراكها الموصول مع الحياة وكأنه لم ينقطع، صخب كألسنة النار التي تلسع وتصعق في كل اتجاه مدعية أنها دءوبة في العمل، بينما هي مجرد شعوطة تعبر عن رغبتها العارمة في السباق واللحاق والخطف والاجتياز، تقذف نفسها في سبق لتفوز قبل غيرها بالحياة، بينما (مروة) تستيقظ من نومها لتستقبل الحياة مستمتعة بهذا السطل اللذيذ، تحاول أن تحتفظ به لأكبر وقت ممكن، لأن مفهومها عن حماس الإنسان الطبيعي لتحقيق طموحاته أنه لا يتعارض مع كونه هادئًا، يمكن له أن يصنع المعجزات بخطوات متزنة دون أن يصدع الآذان بالضجيج عن ذاته.

كانت حريصةً على ألا تكتسب هذه الحمية الزائدة الغالبة على الدمايطة، والتي تجعلهم في حالة عراك مستمر مع كل شيء حتى أنها تظن أن المثل الشعبي الشهير الذي يقول: "دا بيخانق دبان وشه" قد قيل في شخص دمياطي، كانت تشعر في نظراتهم لها باتاهمهم لهدوئها ورزانتها وتصالحها مع الأشياء وابتسامتها الوديعة بالبرود، ورغم ذلك حرصت على أن تظل محافظة على هذا البرود النابع من سلامها النفسي، لأنها في حقيقة الأمر لا تحب ولا تحترم هذه الحالة من الصراع المتأزم، الذي يحيل الحياة إلى معركة تافهة.

أما الشيء الأهم الذي يفصل بينها وبينهم نفسيًّا كان جلافة لهجتهم الممطوطة، والتي فشلت في أن تعرف سرها، يبررونها بأنها لهجة بحراوية مشتركة بينهم وبين مدن القناة وخاصة البورسعيدية، الجدير بالذكر أن أمها تعايشت بألفة بالغة مع كل شيء في دمياط، مختلطة بأهلها الذين نسوا تمامًا أنها قاهرية الأصل كما نسيت أمها قاهريتها.

كانت أمها في بادئ الأمر تحب جيرانها، يبادلونها المحبة متعاطفين مع غربتها، وكانت أقرب جيرانها أم (أمل) ترسل إليها بين الحين والحين طبقًا بأكلة مميزة، مرة أرز باللبن، ومرة كنافة أو المكرونة باللبن أو البصارة أو المسقعة، حتى طمعت فيها أمها وكانت توفر شراء الخضار على حس جارتها فتأخذ منها مرة البصل ومرة الطماطم، ومرة الشبت والبقدونس؛ حتى اعتادت على ألا يمر يوم

دون أن تطلب فيه أمها من جارتها شيئًا، وكانت جارتها تنتظر أن ترد لها الجميل بمثله أو لا ترده كانت ستغفر لها، ولكن أن تطمع فيها فهذا هو ما جعلها تقوم بصد أمها صدًّا منيعًا، فأصبح ردها الدائم "مافيش"، طارقة الباب في وجه أمها، حتى أن أمها راحت تتهمها بين الجارات بالبخل، وكانت (مروة) تضحك في نفسها ساخرة من كل شيء ومن هذا الموقف بالذات الذي جعلها تكتشف شيئًا مهمًّا، هو أن الدمياطي بخيل فعلاً لا شك في ذلك، ولكن انتشار رواية بخله ربما كانت على لسان شخص أبخل منه، ولم تعد تهتم بما يقال عن بخل الدمايطة بعدما قارنته بالبخل والانتهازية الذي لم تكن تدركه في أمها.

نسيت (مروة) رائحة العرق المستفزة المنبعثة من (رانيا) بعدما أثارت فضولها تهمس لها ببعض معلوماتها عن المهندس (خالد) الذي عرفت أنه من أعيان الدقهلية فكان ذلك مدخلاً ليخوضا في سيرة رؤساء مجلس الإدارة وكبراء الشركة، وتمصمصان شفاهما لتبدل أحوالهم، (مدحت) الذي يدهس الشركة الآن بسيارته التي لا يقل ثمنها عن المليون جنيه، كان يدخل الشركة بـ (عجلة) قديمة، (شعبان) الذي كان نجارًا بالأجرة في ورشة نجارة، أصبح صاحب برجٍ على طريق (غيط النصارى) الطريق الواصل بين دمياط وبورسعيد، يمتلك قطعة كبيرة من الأرض الفضاء بوضع اليد لأنها ملك للدولة، لكنه استحوذ عليها بعلاقاته بكبار المسئولين في المحافظة، وفيلا في رأس البر مستغلًا علاقاته بالمسئولين بجهاز التعمير، وصاحب أكبر معرض للموبيليا في دمياط، أما شهادة الخبرة المزورة من إحدى الشركات الليبية ومدة العمل التي ضمها إلى ملفه بالتزوير حتى أصبح في يوم وليلة رئيسًا لرئيسه المحاسب (إبراهيم يحيى) الذي مات غمًّا عندما ضاعت حقوقه وفقد الأمل في استعادتها، مات لأنه لم يتحمل أن ينقلب الحال ويصبح بين يوم وليلة مرءوسًا لموظفٍ بليدٍ كان يعمل في إدارته، ولكنه اليوم يشخط وينتر فيه ويقف أمامه يتصبب في عرقه تحسبًا لأنه يضخم ذاته بإهانته، تحامل على نفسه حتى وصل إلى بيته واقفًا على قدميه، ثم صعدت روحه عندما اختلى في حجرته بنفسه، ومشى (شعبان) في جنازته يبكي وجلس في السهرة مع أهله يتلقى معهم العزاء فيه، وبعد هذه الواقعة

تأكد للجميع أنه قادر على أن يقتل القتيل ويمشي في جنازته، ولكنهم جميعًا خرسوا، حفاظًا على لقمة العيش التي أصبح مصيرها في يده.

أما (سمير) المهندس المنفي في الأرياف، الذي استطاع أن يخدع هؤلاء الريفيين الذين يمثلون نصف عمال الشركة ويضعهم في جيبه، يخلصون له غاية الإخلاص يمنحونه مرتبة الألوهية، يضمن دخوله مجلس الإدارة بكل ثقة مدفوعًا بهؤلاء يحملونه على الأعناق يخلصون له غاية الإخلاص، يسلمونه أنفسهم حتى أن أحدهم قال للناس ذات مرة وهو يدفع من جيبه الخاص ثمن المشروبات للعمال على المقهى أثناء الانتخابات النقابية:

- «لو إن المهندس (سمير) طلب مني أبيعله عيل من عيالي ما أتأخرش»

كان هو الوحيد الذي لم يهتم بعمل دعاية انتخابية في أيام الانتخابات، يكفيه أنه يمتلك أصوات نصف عمال الشركة وهو مغمض العينين؛ ولهذه الثقة حصل على رئاسة قطاع الإنتاج في سن صغيرة دون غيره ممن هم أقدم وأكفأ ويستحقونها، ولكن بعدما تم تثبيته كرئيس قطاع وأصبح وجوده في مجلس الإدارة تعيينًا لا انتخابا تبدل ذلك الوجه الناعم الودود -الذي يبوس ويحضن الحوائط قبل البشر- إلى أسفل شخص في الوجود، وحجب نفسه عن التعامل مع العمال الذين حملوه على الأكتاف مباشرة بعدما صدَّر لهم سكرتيرته وعشيقته وكاتمة أسراره (سلوى)؛ فأغلقت بابه في وجه الجميع بعدما كان مفتوحًا على مصراعيه يتسع بمحبةٍ لمشكلاتهم الشخصيَّة قبل المهنيَّة، انكشفت لهم غطرسته وكبرياؤه ولكن ذلك كان بعد فوات الأوان، أصبح شغله الشاغل أن يستغل منصبه في عمل ثروة، وتكفيه فقط لتحقيق ذلك هذه السكرتيرة العشيقة التي اكتسبت سلطانًا لا حدود له بعلاقتها به، تفتح له بيتها هي وزوجها تجر إليه الموردين والمقاولين الذين تتعامل معهم الشركة لعقد الصفقات وإنهاء الأوراق وتحويل مبالغ المشروعات وخطط الإحلال والتجديد للبنية الأساسية لتصبح هذه الملايين بقدرة قادرٍ تحت تصرف (سمير) ولا رقيب ينقذ الدولة التي تنهار يومًا بعد يوم على يد هؤلاء، تتهالك بنيتها الأساسية بينما تئول أموال الخطط إلى خزائن هؤلاء، يحمون أنفسهم بتعيين مهندسين جدد

من الشبَّان الصغار، مستغلين طموحاتهم في تولي القيادات السريعة ليجعل منهم رجال الصف الثاني على أهبة الاستعداد دائمًا للقفز سريعًا على الكراسي الخالية، تتشابك العصابة وتتشعب وصولاً إلى جميع القطاعات الفنية والإدارية والتجارية والعقود والمخازن و، و، و... حتى أصبح من الصعب على أي نظام مهما بلغت قوته هدمها.

انتهى حديثهما الجانبي عندما انتبها لدخول (طه) فجأة منبهًا على عدم الوقوف في الطرقات، سأله المهندس (محمد) مستخفا بتنبيهاته:

- «هي دي بقا تعليمات رئيس الشركة؟»

لهجة الاستخفاف هذه كانت جديدة على آذان (طه) الذي يظن نفسه من كبراء الشركة حتى ولو كانت شهادته إعدادية، ولكنه يحمل شهادة الحسب والنسب لأن ابن عمه الدكتور (السيد الهباب) كان وزيرًا للتعليم العالي، أجابه (طه) بغطرسةٍ واستهتار رافضًا الاعتراف بأن الأوضاع تغيرت:

- «لأ يا باشمهندس لكن الانضباط مهم عشان سير العمل»

تجاهلوا (طه) وتعليماته بمجرد دخول مدام (سهام) منهكة تلتقط أنفاسها بصعوبة تجيب على تساؤلاتهم بعباراتٍ موجزة تؤكد أنه رجل ليس سهللاً وأن نهاية العصابة ستكون على يديه، أوجزت لهم بعض ما قاله تلخص لهم الإجابة على جميع تساؤلاتهم في أنه طلب من جميع رؤساء القطاعات التوقيع في موعد الحضور مع العاملين في السابعة والنصف، وعندما غضب (شعبان) معترضًا على هذا القرار، أجابه بصرامة بالغة:

- «إزاي أطلب من الموظف الالتزام وأنا رئيسه مش قدوة له؟»

قاطعهم عاملٌ يوزع البريد الذي استلمته (رانيا) تناوله لمدام (سهام) بفرحةٍ مندهشة بعد قراءتها.

- «الحق رجع لأصحابه أخيرًا، البيان دا كان بيتولى إصداره (سمير) رغم إنه مش من اختصاصه، كان عايز يسيطر على أموال خطط المعامل»

تقول لهم مدام (سهام) هذا الكلام مختلطًا بمشاعر الفرح والدهشة والخوف، تفضل أن تؤجل التنفيذ حتى تشرح لرئيس الشركة الوضع السابق، تركتهم يمصمصون شفاههم تلعن (مروة) في سرها هذا الضعف المخزي.

وعندما راحت تشرح مدام (سهام) للمهندس (خالد) الوضع السابق، غسلها بنظرة نارية جعلتها تذوب في جلدها خزيًا وهو يقول:

- «أظن تأشيرتي واضحة يا مدام»

وتوالت الأحداث المربكة تجر بعضها البعض تثبت للرئيس الجديد أن هناك بالفعل خلل مؤكد في هذه الشركة، ربما كانت هناك أيدي خفية تعمدت أن تكشف له هذا المستور، وقبل موعد الانصراف بساعة تسرب إلى غالبية الإدارات خبر يقول إن "الدنيا شايطة على آخرها والجو مكهرب".

وأن هناك أوامر بعدم انصراف الإدارة المالية؛ لأن البنك أخبر مدير مكتب رئيس الشركة بصرف شيك صدر لأحد العاملين بالشركة بقيمة ١٩٥ ألف جنيه فطلب رئيس الشركة الحسابات يستعلم عن سبب صرف هذا المبلغ لهذا العامل، فاكتشفوا أن الشيك كان محررًا بـ ١٩٥ جنيهًا فقط وأن هناك تعديل قد تم على الشيك وقَّع على صحته رئيس قطاع الشئون المالية (شعبان) والمدهش أن هذا العامل في إجازة مرَضية لمدة أسبوعين.

ارتعشت ركب عم (صبري) و(إندلقت) القهوة التي كان يقدمها لمدير مكتب رئيس الشركة في نفس اللحظة التي كان (شعبان) بمكتب رئيس الشركة يستجوبه ليفهم سر توقيعه أمام التعديل في الشيك، يزعق فيه رئيس الشركة بصوتٍ مسموعٍ قائلاً:

- «من قلة الكفاءات في الشركة ماسك قطاعين، إزاي دا يحصل؟ أنا عاوز أفهم إزاي»

ثم نادى على (أحمد) يأمره باستدعاء رئيس قطاع الشئون الإدارية (مدحت)

الأحداث وصلت إلى ذروتها وانصرف عمال الشركة متثاقلين يتمنون لأول مرة البقاء في الشركة حتى اليوم التالي، تجلت لهم أهمية عم (صبري) لأنهم لا يملكون حتى الآن مصدرًا سواه لمعرفة التطورات، بينما قطاع المالية يقف على قدمٍ وساقٍ لدراسة واقعة الشيك، والقطاع الإداري يعد تقريرًا يفسر تولي (شعبان) رئاسة قطاعين في آن واحد، كما طالبهم بتقارير مالية تفصيلية للخمس سنوات السابقة، وتوالت الأيام بعد ذلك في الشركة كل شيء فيها يعمل كعقارب الساعة، كلٌ يعرف مهمته وينجزها على أتم وجه، وبعد عدة أسابيع أظهرت التقارير التي أعدت بشفافية عالية مدى تورط رؤساء القطاعات والمديرين العامين والكثير من أعوانهم من الموظفين والعمال في جرائم كثيرة وأخطاءٍ أكثر وأكثر، سواءً كانت عمدًا أو جهلاً، ولكنها في جميع الأحوال تكشف غياب الرقابة النزيهة، ومن هذه الجرائم جريمة لن يغفرها العمال أبدا لهؤلاء وهي اقتطاع أجزاء من رواتبهم ليغطوا بها عجز الميزانية تحت بنودٍ وهمية، أمر رئيس الشركة على الفور برد هذه الاستحقاقات للعمال، وإحالة المسئولين للتحقيق، شعر العمال منذ تلك الواقعة بأن لهم ظهر، وأن الله أرسل هذا الرجل ليستفيقوا من غفلتهم، ووجد رئيس الشركة نفسه في معركة عنيفة بين ضميره وبين محاسبة من يمتلكون زمام الأمر، ووصل الأمر به إلى أنه تجاهلهم تمامًا وأصبح يتعامل مع العمال والموظفين مباشرةً متجاهلاً جميع القيادات حتى يحسم أمرهم.

أصبح هؤلاء في موقفٍ لا يحسدون عليه بعدما فقدوا سلطانهم على مرءوسيهم، تمر الأسابيع بينما هم معزولون في مكاتبهم، يستدعيهم رئيس الشركة بين الحين والحين بهدوءٍ شديد يواجههم باكتشافه جريمةً جديدةً أو أخطاء مخزية، مؤجلاً المحاسبة حتى يمتلك زمام الأمر ويستطيع السيطرة على الشركة.

في ظرف ثلاثة أشهر استطاع المهندس (خالد) أن يحقق الأمن والأمان والعدل والاستقرار وراحة البال لجميع العاملين ما عدا هذه العصابة التي تمثل رأس العصابة الكبرى، أما العصابة الأخطر فكانت أعوانهم المنتشرين في جميع

القطاعات والتي سقط عنهم سلطانهم، وهي فرصة عظيمة لأعدائهم لتشفى الصدور التي باتت كثيرًا تغلي بسبب تميز هؤلاء وسلبهم حقوقهم، لكنهم أصبحوا الآن لا قيمة لوجودهم بعدما عدل الميزان المهندس (خالد) وأعطى كل ذي حق حقه وتساوت الرءوس جميعها، انزوت (إيمان كامل) عشيقة (مدحت) الموظفة في إدارة التدريب بليسانس آداب، ومن أجل سواد عينيها ضرب (مدحت) عرض الحائط بجميع الكفاءات في القطاع الإداري، لم يسعفه الوقت ليمنحها الإدارة العامة لأن رئيس الشركة الجديد جاء على غفلةٍ دون توقع وقبل أن يستكمل خطته التي بدأها بتجميد جميع الكفاءات في القطاع ليصبحوا كالكراسي التي يجلسون عليها بينما تظهر إيمان دائمًا في الصورة منسوبًا إليها جميع المهام توقع على المستندات والتقارير بأمرٍ منه، على الرغم من أن بطاقات الوصف لمهام الوظائف الخاصة بالإدارات العليا في القطاع الإداري تشترط الحصول على بكالوريوس التجارة في الشعبة الإدارية، ناهيك عن الأقدمية والخبرة على الأقل، ولكنه استطاع أن يفصِّل الإدارة على مقاسها بالقرارات الخاطئة التي يصدرها مجلس الإدارة من أجل سواد عيون عشيقته، ولا رقيب في هذه الدولة يستطيع أن يقف في وجه هؤلاء، (مدحت) رئيس قطاع الشئون الإدارية الوحيد الذي حظي بأكبر كمٍ من عداوة عمال الشركة، (إيمان كامل) كانت سببًا من الأسباب ولكنه كان يكره أن يعطي أي حق لمن يستحقه إلا إذا ناوله المعلوم من تحت (الترابيزة) رفض التسويات لجميع العاملين حتى أنه رفض لـ(مروة) أن تسوي الدبلومة وقال لها بالنص:

- «هتفيدنا بإيه الدبلومة بتاعتك؟ علقيها عالحيطة»

خرجت من مكتبه محبطةً تلغي فكرة استكمالها للدراسات العليا، كان هدفهم إخماد طاقة العمل في روحها كما أخمدت الحياة طاقة الحب في روحها هذه الطاقة التي لم تجد لها أحدًا يحتاجها،

وفي ذات الوقت كان يرسم لـ(إيمان) طريقها وساعدتها الأحداث المتقلبة بعد ذلك حتى أصبحت في دولة الظلم رئيسة قطاع الشئون الإدارية وجلست رغم

مرور الأحداث الجسيمة التي توالت خلال عدة سنوات مرت سريعة وصلت (إيمان) في نهايتها إلى مبتغاها وجلست على كرسي (مدحت)

من المثير للدهشة أن (شعبان) كانت له نفس القصة مع أختها (نجوى) لكن (شعبان) كان يستفيد منها، (نجوى) دبلوم تجارة، ولكنه منحها سلطانًا جعلها تتخطى جميع المؤهلات والخبرات والكفاءات التي في الوحدات الحسابية، أصدر قرارًا بتسريح جميع المحاسبين بالقطاع التجاري وبالأخص الوحدة التي تعمل بها (نجوى) لتحصيل الفواتير، بينما تولت هي الأمور الإدارية وبذلك منحها سلطات الإدارة، وأصبحت بقدرة قادرٍ من موظفة تعمل بوظيفة كتابية إلى رئيسة للمحاسبين والمراجعين بالوحدات الحسابية، وفصَّل لها إدارة تضم عددًا من الوحدات الحسابية، تلعب كما تشاء في القراءات وإصدار الفواتير، وبذلك يضمن لجميع أفراد عائلته عدم دفع فواتير المياه، والأهم من عائلته أصدقاؤه التي تجمعهم به المصالح خاصة أصدقاء الحزب الوطني، ويسهل عليه لي أذرعٍ كثيرةٍ ليلجأوا إلى الدخول إليه من الأبواب الخلفية بالرشى، بعدما تتعطل مصالحهم من إيقاف المقايسات أو المبالغة في تثمينها أو ارتفاع قيمة فواتير المياه، ناهيك عن المخازن وما يفعل بها، كانت (نجوى) ذراعه الأيمن التي يبطش بها وخاصة في قلب المحافظة التي يسيطر عليها أعيان دمياط ممن لهم مصالح كثيرة معهم، وكانت له أذرع يمنى كثيرة يبطش بها في جميع أطراف المحافظة، الفارق بينهم وبين (نجوى) أنه باسم الحب سيطر على (نجوى) أصبحت شائعة بين الموظفين حكايات كثيرة عن سهراته الليلية في بيتها، يبرر ذلك بأن (مسعد) زوجها الفني المسئول عن شبكة دمياط من أعز أصدقائه ولكن الحقيقة واضحة كضوء الشمس، وحده (مسعد) هو الذي يتغاضى عنها، والشائع أيضًا أن (مسعد) و(نجوى) كانا على خلافات مستمرة وأنه هو من يزورهم كثيرًا ليصلح بينهما ويمنع وصول الخراب إلى البيت، (نجوى) حبيبة (شعبان) و(إيمان) عشيقة (مدحت) كانا من أبناء العاملين بالشركة، استطاع عم (كامل) تعيينهم قبل خروجه إلى المعاش، وتولوا هم مسئولية تعين أختهم الثالثة (سناء) حتى أن الشركة اشتهرت في ذلك الحين بشركة عم (كامل) وبناته، أما (سلوى) و(سمير) فكانا حكاية الحكايات، أهم ما في هذه الحكاية أن

(سمير) كان من أهم الأسباب التي سهلت تكوين عصابة الروضة بسبب اعتماده على مهندس جديد من قرية الروضة، استطاع (سمير) هو وسكرتيرته أن يضعه تحت إبطه، المهندس (محمد الجابري) الذي كان نواة للعصابة المتحكمة في مصير الشركة لتقودها إلى فترة ظلامية طويلة، اعتمد عليه في بادئ الأمر (سمير) ليحمله مسئولية التوقيع على محاضر الاستلام المزورة هو وزميله المهندس (محمد عسل) ودارت الأيام سريعًا ونط (الجابري) بسهولةٍ على هذا الكرسي الذي دهس (سمير) على رقاب آلاف العمال من أجله.

كلما أعاد المهندس (خالد) حقًّا إلى صاحبه، كانت تدوي عبارة من عبارات (شعبان) المقدسة في آذان (مروة):

- «أنا مش هدي حق لواحد ماطالبش بيه»

ولكن الحق الآن عرف طريق صاحبه على يد هذا الرئيس، يتجلى لها الفرح الذي يقفز من وجه المهندس (محمد) زميلهم في المكتب عندما دخل عليهم مهللاً يعلمهم أن المهندس (خالد) أعاد إليه الإشراف على الخطة الألمانية، التي أخذها منه (سمير) عنوة، وكانت (مروة) في قمة فرحها من أجله تسأله:

- «إيه رأيك دلوقتي في التغيير يا باشمهندس؟»

ولكنه لم يجد كلامًا يقوله.

وفي تلك اللحظة اتجهت (مروة) متوردة الوجه تلمع عيناها من فرط السعادة إلى النافذة، تجاهد لكي تصل رؤيتها إلى السماء الصافية بضوئها الرقيق، ظنتها (رانيا) تشكر الله على هذا الانتصار، أما الحقيقة أنها كانت تطبع قبلة على وجه القمر، القمر الذي لا يمكن أن يظهر في هذا التوقيت، ولكنها تعرف أن قبلتها ستصله، وسيفهم رسالتها، لأنه الوحيد الذي ابتسم لها ورافقها في محنها الكثيرة معهم، كان يجيبها بابتسامة تفهم منها أن الفرج قريب.

❊❊❊❊

(٢)

أنا في هذا التجويف أتململ يمينًا ويسارًا أتمدد، أسمعها تحكي منهارة أو ربما تهذي:

- «كانت أجمل لحظة في حياتي، لكنها سابت دليل يعيشني طول العمر ذليلة، يا رب خلصني منها.. يا رب خلص جسمي من دليل جريمتي، ناس كثيرة غيري كان لقاهم لقاء عابر، سقطت اللحظة من حياتهم، إشمعنى أنا؟ أعمل إيه ودليل الجريمة محفور جوايا عايش بيتنفس وبياكل وبيكبر وأنا مش قادرة أكتم أنفاسه عشان يموت، أعمل إيه أكتر من إني رحت له أبوس رجليه عشان ييجي ينقذني، لكنه تهرب واتحجج بإنه مسافر يشتغل في الكويت والحل الوحيد أني أنزله، أنا عارفة إنه هو الحل الوحيد، لكن إزاي، الدنيا كلها ضاقت في وشي، ومنفعتش كل محاولاتي إلي أعرفها، حتى الدكتور رفض حتى يسمعني، وهي جوايا قاعدة بتكبر وتكبر ولا هاممها ولا حاسة بإني بأكرهها، أربع شهور وهي ساكنة بدأت أحس بيها بتفلفص وبتقرص على أحشائي كأنها هي كمان مش عاوزاني وكأنها عاوزة تنتحر وعاوزة تتخلص مني لكن مش عارفة، كأنها هي كمان بدأت تكرهني لأنها عارفة إني هاجيبها للعار، أنا كمان بأكرهها إزاي أحب دليل خزيي وعاري، (مروة) (مروة) (مروة)... نعم اسمي (مروة) ذاكرتي اللي لسة بتتشكل مكتوب فيها اسمي ومكتوب فيها حاجات كتيرة تانية، مكتوب فيها إني كنت نطفة مسكينة، خرجت للحياة طفلة شريدة من غير أب عشت سنوات طويلة من عمرى على نظرات الشفقة والعطف الزايد من جدتي وخالتي (نجوى) لكن كنت منبوذة في جميع العيون اللي بتقابلني، لإني جيت الدنيا مشكوك في مين أبوها»

****

تمسك (مروة) كثيرًا بنفسها ساهمة للقمر، تتأوه ذاكرتها بآلامها العميقة التي لا تعرف لها زمنا، ربما نقشت نفسها في لحظة كانت ما زالت فيها نطفة عالقة في أحشاء مجهولة، تحزن تبعًا لحزن ينتقل إليها مع غذائها، لتمنحها أسبابًا للحياة وأسبابًا لتعاسةٍ تلازمها طوال حياتها، هذه اللحظات المدفونة في أعماق ذاكرة البشر غير قادرين على استدعائها، ولكن (مروة) وحدها اكتشفت طريقة تكشف لها عن هذه اللحظات، وهي لحظة التوحد مع القمر، القمر هو الشاهد الوحيد على الأحداث التي يعيشها الناس حتى في الخفاء، القمر جعلها هي الأخرى كانت شاهدة على الأحداث دون أن تعيشها.

في لحظة نادرة من لحظات الصفاء التي جمعت (مروة) بأمها سألتها تبكي:

- «ليه اتجوزتي الراجل دا بالذات واخترتيه عشان يكون أبويا؟! ليه مابتفكروش في إنكم هتجيبوا ولاد تعذبوهم قبل ماتتجوزوا؟!»

فتنهدت (كاميليا) أمها دامعة ساهمة تقول لها:

- «أنا ما اخترتش، القدرهو اللي اختار، منه لله (جمعة) ومراته»

وغابت مع نفسها تسافر إلى سنوات مرت طويلة كئيبة محفورة في زوايا عمرها، تتطلع من النافذة إلى الشارع الطويل في حارتها الضيقة التي تستند فيها البيوت الشائخة إلى بعضها البعض، لولا هذه المساندة لا انهارت تلك الأبنية التي عاصرت أزمنة عديدة، ترتسم أمام أعينها الأحداث المؤلمة خارجة تبدد قفص الذاكرة.

عندما أشعل ولاعة سجائره في تلك الليلة الممطرة ليذيح ذلك الظلام الحالك في مدخل العمارة التي بدت له كمغارة، يدخلها بعدما ينزل ثلاث درجات كسلم بعرض المدخل الواسع، لأنه مع الزمن أصبح الشارع أعلى من المدخل، وأصبح الدور الأول مدفوسًا في باطن الأرض، كان لا بد من عمل هذه السلالم تجنبًا للحوادث الناتجة عن القفز، ولأن المسنين والأطفال لن يستطيعوا تلك القفزة التي يتباهى بها الشباب، مع أول تكة للولاعة، كشف له لسان النار عما يدور في باطن السلم بين (كاميليا) أجمل فتيات الحارة، الجمال الذي له حضور

نجمات السينما، تلك الطفلة التي ما زالت تتفتح للحياة، طالبة في الصف الأول بالتعليم الثانوي التجاري، كانت في أحضان (علي فولة) ذلك الولد الصايع الذي ترك تعليمه وامتهن مهنة السباكة، على الرغم من وسامته الفائقة التي تشبه وسامة (رشدي أباظة) حتى أن بنات الحارة جميعهن تتمنى مغازلته، تغرن غيرة عمياء من (كاميليا) التي هوسته بحبها فراح يطاردها في كل مكان تذهب إليه، حتى جعل أمها لا تنام الليل بسببه، ووصل بها الأمر إلى مرافقتها يوميًّا إلى المدرسة كأطفال الحضانة غير مسموح لها بالخروج وحدها، كانت أمها دائمة التوقع لحدوث الفضيحة، وللحظ المشئوم في تلك الليلة الممطرة تركتها أمها عند خالتها بعدما تعهدت بتوصيلها للبيت، ونفذت وعدها فعلاً ولكنها تركتها عند مدخل العمارة لتستكمل طلوع السلالم وحدها، ووقعت الفضيحة لأن (علي) كان ينتظرها في باطن السلم، هاجت رغبة التلذذ بفضائح البشر في عقل (جمعة) في تلك اللحظة التي اختارته هو دون غيره ليشاهد (علي) يعتصر (كاميليا) عصرًا بين أحضانه، سرعان ما انتشرت بعدما فر مسرعا يقفز على السلالم ليحكي ذلك الاكتشاف المريب لزوجته، التي كانت تكره (كاميليا) لأنها تخطف الأنظار ويفضلها العرسان، على الرغم من أنها حاولت كثيرًا الإيقاع بـ(علي) ليخطب ابنتها (غادة) لكنه كان مولعًا بـ(كاميليا) على الفور نصبت زوجة (جمعة) لهذه العائلة المسكينة معركة الفضيحة، أرغمت طفلتها الصغيرة على التغني مع الأطفال وهم يلعبون على بسطة السلم بأغنية من تأليفها: «يا حبيبة علي يا كاميليا يا حبيبة علي»

فخرجت أم (كاميليا) تشتم ابنتها؛ فخرجت عليها زوجة (جمعة) تفضح (كاميليا) في مشاجرة علنية، خرج جميع سكان العمارة والعمارات المجاورة للتحجيز بين الجارتين، أبدعت زوجة (جمعة) في وصلة من الردح ولم تبرد نارها ولم يفلح أحد في إسكاتها، إلا بعدما أشعلت النيران في صدر أم (كاميليا) قائلة لها على الملأ:

- «يا اللي بنتك بيتعمل فيها كذا وكذا تحت بير السلم»

تمنت أم (كاميليا) ساعتها أن تنشق الأرض وتبتلعها، منهارة تجر (كاميليا) من شعرها تعجنها عجنًا، ثم هاجت على أم (علي) تنبهها بأن تبعد ابنها عن طريق ابنتها، اشتعلت المعركة وازدادت تعقدًا باشتباك أم (علي) في المشاجرة، وراحت ترشق سكاكينها في جسد أم (كاميليا) لتزيده نزفًا، تستكمل هي الأخرى وصلة السب واللعن في قلة أدب البنات التي تشاغل الجدعان وتجري وراءها، ترد الإهانة لأم (كاميليا) قائلة:

- «لمي بنتك انتي عن ابني، لو بنتك آخر بنت في العالم، عمر ابني ما هيتجوزها»

حلت سخطات الذل والعار والمهانة كوحش يفترس هذه العائلة، واضطر والدها إلى أن يقبل أحد الحلول التي اقترحها عليه أصدقاؤه للتخلص من عار ابنته، وهو اصطياد زوج لها، حتى وقع اختياره على ذلك المعتوه الأبله الذي له هيئة الرجال الأصحاء وعقل طفل لم يتجاوز السابعة من عمره، على الرغم من علم عائلته بفضيحة السلم، إلا أنهم تغاضوا عنها يظنون أنها فرصة سيتخذونها سببا لإخضاعها، يأملون بأن تسترهم على هذه الفضيحة سيجعلها كخاتم في إصبعهم، لكن (كاميليا) لم تتحمل حياتها مع ذلك الأبله عدة أيام، لم تتحمل أن ترى لعابه يسيل ببقايا الطعام من فمه كالحيوانات، لم تتحمل همجيته وهو ينفذ تعليمات أهله ليطولها، لم تتحمل تنظيف الحمام وراءه كطفل يستهويه اللعب في القاذورات، لم تتحمل ضحكته البلهاء على ما يستحق وما لا يستحق، بينما كان يثير بأفعاله الساذجة ضحكات أهله كان يصيبها بالقرف والانزواء بعيدًا عنه، حتى انصاعت وراء أهوائها لترتكب النكبة الكبرى التي غطست رأس أهلها في الوحل، عندما هربت (كاميليا) مع حبيبها (علي) راح والدها يحط التراب على رأسه يقسم بأعلى صوته بين أهل الحارة بأنه لن يغفل له جفن حتى يأتي بهما ولو كانا في بطن الحوت، وأنه سيشهد على ذبحهما الحارة أجمع، حتى جاء بها في جوف الليل تفتديها عمتها طالبة منه أن يقتلها معها، وتصدى له رجال الحارة لينقذوها من بطشته، ونجت (كاميليا) من بطش سكين والدها المسنون، ولكنه كان يقتلها بتلامة سكين نظراته في الدقيقة

الواحدة ألف قتلة، وراحت عمتها تقبل أقدام أهل زوجها توسلاً ليصفحوا عن ذلتها مستغلةً سذاجة عقولهم التي تختصر الحياة في اللذات وخاصة الأكل، بضع دجاجات وجوال من الأرز وأقفاص البطاطس والطماطم وفاكهة الموسم كانت أسبابًا كافية تجعلهم يصفحون ويعدلون عن فكرة الطلاق والمطالبة بالتنازل عن كل شيء، يتفهمون مبررات عمتها لهذه الفعلة المفجعة التي تؤكد براءتها التي استغلها هذا المتشرد الصايع (علي فولة) وعادت (كاميليا) مغصوبة تتمنى أن تموت بسكين والدها بدلاً من العودة إلى هذا الحيوان الأليف الذي لا يمكنه أن يفهم إلا ما يهيج معدته أو ينتصب له عضوه الذكوري.

وبعد مرور ما يقرب من شهر ونصف على عودتها إلى زوجها، تمنعت كثيرًا في النوم معه، لم يطَلها إلا لحظةً ساومته عليها ليأتيها من أهله بمالٍ يكفيها لشراء فستان لأنهم كانوا قد مزقوا جميع ملابسها، خطفت نفسها مسرعة من تحته وتناست تلك اللحظة، لكنها فوجئت بعد عدة أسابيع بنقطة دم ظنتها الدورة الشهرية التي تلخبطت أحوالها لسوء حالتها النفسية، ظهرت عليها بعد ذلك أعراض الحمل التي أكدها الطبيب، اغتمت روحها بعدما راح ظنها إلى أنها حملت سفاحا من (علي) وبكت كثيرًا وأغمي عليها كثيرًا، وحاولت التخلص من هذه النطفة كثيرًا كثيرًا، مرت عليها التسعة أشهر وكأن أحدًا قذف بها إلى الجحيم، ذهبت إلى (علي) متوسلة تطلب منه أن يفعل شيئًا فعليًّا من أجلها، تؤكد له أنها على استعداد أن تواجههم جميعًا وتطلب الطلاق بشرط أن يتزوجها، ولكنه خذلها؛ فعادت إلى جحيم معركتها تتصارع مع العيون المشمئزة قرفًا تشير إلى هذا الحمل السفاح، لا أحد يرحمها أو يرحم ضعفها والنطفة التي في أحشائها تتحرك، يصور لها إحساسها بأنها ستسقط منها، وستنتهي رحلة عذابها كلما سقطت مغشي عليها، وعندما تفيق تسأل (نجوى) أختها الوحيدة التي رافقتها في تلك المحنة عن النطفة فتفجعها مؤكدة أنها ما زالت عالقة بها، حتى فقدت الأمل في التخلص منها، وخرجت إلى الحياة هذه الطفلة، التي تتحدى بملامحها جميع الشكوك، كانت تكبر وتتضح ملامحها حتى أصبحت الحقيقة واضحة كعين الشمس، الطفلة وكأنها نسخة نسخت ملامحها بالكربون من زوجها، ومن أخته الصغيرة (نورا) بشعرها الأصفر المجعد وجبهتها

الصغيرة وبشرتها البيضاء وعيونها العسلية الحلوة، كل شيء فيها كان ينطق بأنها من نسل هذه العائلة، وعلى الرغم من ذلك تصدرت مشاعر الكراهية من البعيد والقريب لهذه البراءة التي تحاول بكل قوتها أن تقنعهم بها، ولكنهم يقرءونها آثامًا منقوشة على جبينها.

لم تحكِ (كاميليا) لطفلتها (مروة) ذات يوم هذه الحكاية، الزمن وحده هو من حفرها في ذاكرتها العميقة، دون أن يخبرها كيف تسلل إليها لتسكن هذه الأحداث وربما أحداث أخرى كثيرة سكنت قاع ذاكرتها دون أن تراها رأى العين، ربما لأن الذاكرة سبقتها إلى هذه الحياة بآلاف السنين أو ربما وشى لها القمر الشاهد دائمًا على أحداث البشر في جميع الأزمنة، فهمت ذلك بعدما فسرت لها (ليلى) صديقتها فكرتها عن القمر، ظلت أمها تظن أنها أخفت عنها الحقيقة، تخشى أن تفهم أن أمها ضعيفة تستعذب أن تظل في ذاكرة من يعرفها أنها كانت ضحية.

عندما تستدعي (مروة) طفولتها من الذاكرة لا بد وأن يتصدر الأحداث جدها، كان جدها جلفًا ذا نظرة مروعة غاضبة تهز أعماقها، تفزعها هواجسها برغبته الجامحة لأن يدهسها بقدميه كلما وقع نظره عليها، وعلى الرغم تتملكها رغبة ملحة دون أن تمتلك الشجاعة لتفعلها في أن تتشعلق في رقبته وتقبل خدوده الخشنة بشعرها الأبيض المجعد، وعندما شاهدت أمها تتمتم ساهمة إلى القمر من الشرفة الداخلية الواسعة في بيت جدها، سألتها:

– «بتقولي له إيه يا ماما»

فأجابتها شاردة:

– «بشتكيله همي»

ومنذ تلك اللحظة و(مروة) تشكي همها للقمر، وقالت لها (ليلى) صديقتها المولعة بالقمر أنه يسمع أمنيات البشر ويحققها، فراحت تقلد أمها وتختلي به ساهمة، وتطورت العلاقة بينهما عندما تأكد لها أن القمر هو رب الحزانى

والمهمومين وأصحاب الأماني المستحيلة، وطلبت منه ذات مرة كان فيها حزينًا ولكنه ابتسم لها عندما رآها تهمس له بأمنيتها:

- «أنا نفسي أوي أبوس جدو، تقدر تخليني أبوسه يا قمر»

واعتنقت بعدها حب القمر لأنه حقق أمنيتها. في الليلة التالية كان جدها كعادته ينام في حجرته، وتبدلت حالة الطقس فجأة وتسللت البرودة من أعتاب الأبواب والشبابيك، ولم يهتم أحد بزيادة غطاءه فتطوعت تستغل انشغال جدتها وأمها وخالتها بالتلفزيون وقزقزة اللب ودخلت حجرته على حذر، تحمل بطانيتها متسلقة تجاهد تحاول فرد البطانية عليه من جميع جوانبها، فزع جدها لرؤيتها، ليسبها قبل أن يدرك ما تحملته من أجله، سقطت مفزوعة ترتطم بالأرض تصرخ مفجوعة لرؤية الدماء التي تسيل من جبهتها، خشع قلب جدها واندفع عليها يلتقطها يكتم بكفه سيل الدماء، فتشعلقت في رقبته تقبله وهي تبكي بحرقة.

- «كنت خايفة عليك من البرد يا جدو فكنت بغطيك»

رق قلب الوحش لهذه الطفلة، ولِلحظة الحب الوحيدة الصادقة في حياته، استطاعت (مروة) أن تحفر في أعماق جدها مجرى يسري فيه هذا الفيضان الهائل للحب الذي طفح من قلبه خارجًا إلى النور على يد هذه العصفورة التي يحملها بين كفيه، يجفف دموعها التي حولت كراهيته البغيضة لها ولأمها وللحياة كلها لتجعله راعيًا يخاف عليها من خدش الهواء، يختلق جميع أسباب السعادة لروحها حتى لو كلفته كل ما يملك من كرامة أمام الناس، ومنذ تلك اللحظة و(مروة) ابنة جدها وكل شيء له في هذه الحياة وأصبح جدها والقمر وصديقاتها أسبابًا تجعلها مقدمة على الحياة، وعندما غابوا جميعًا ظل وحده القمر يواسيها ويسمع سذاجة أسئلتها مبتسمًا حزينًا:

- «لماذا ينسبون الأبناء إلى آباء يكرهون وجودهم؟ لماذا يضع المجتمع المرأة في مأزق، لماذا لا ينسبون الأبناء إلى أمهاتهم؟ ويعيد النظر في هذه الحتمية التي سنتها قوانينه الغاشمة بدلاً من أن ينصب لها المشانق

ويجرسها لأنها خطفت من الحياة لحظة حلوة، لماذا يصر على بقاء تلك المعركة التي صنعت من أجل قهر الإنسانية وسجنها في الذل والعار والمهانة؟!»

عندما مات جدها تسلل إليها شعور بالعدائية والكراهية التي وجدت طريقًا ممهدًا في نفسها، بعدما هزم المرض جدها، صدمتها أمها عندما تحولت إلى غولة متوحشة تنقض عليه هي وجدتها، مستغلتان فرصة ضعفه التي جاءتهما للانتقام من جبروته وقسوته على طيش ابنته، لم يرأف بحاله سوى (مروة) وخالتها (نجوى) بينما أمها حبستها بعيدًا عنه، بحجة الخوف الزائد عليها من تلوثاته، لأنه أصبح كريهًا فاقد السيطرة على نفسه، كل شيء فيه غاب عن الوعي، ما عدا عيناه كانت تناديها متوسلة لتظل إلى جواره، ولكنها خذلته مغصوبة، حتى لا يحترق برغبة التشفي التي تسلطت على أمها، متناسية ما تحمله من شماتة الناس واستهزائهم بسبب استهتارها، حتى وصل به الأمر إلى أن يتنازل عن مستحقاته مخافة تجريح الناس له بعدما فعلها أحد زبائنه لاويًا ذراعه متنصلاً من ديونه قائلاً: "مش دافع لك حاجة يا راجل يا خروف".

عاش بين الناس منكسرًا ذليلاً لا يقوى على أن يرفع عينه في عين أحد، متغاضيًا عن نظرات تتهمه بأنه خروف، متنازلاً عن حقوقه ليتفادى النكاية، يتحمل أوجاع كرامته من أجل عائلته الصغيرة، ولكنهم الآن لا يتذكران سوى قسوة نظراته وكلماته التي كان ينفس بها عن آلامه، متناسيتان سماحته وغفرانه بعدما امتلأ قلبه بالحب لـ(مروة) التي جلبت في قلبه الشعور بالشفقة، حتى قضى أواخر سنواته متصديًا لكل من يحاول أن يخدش كرامتهم.

قضت (مروة) طفولتها مشتتة ما بين بيت جدها وبيت أبيها الذي قهر كرامتها، عندما شاهدت الأولاد يزفونه من شارع إلى شارع يقذفونه بالحجر، يجري منهم مبتهجًا يختبئ في الأزقة وكأنه يشاركهم أحد ألعابهم المفضلة "الأستغماية".

قهرتها بلاهته يتهرب كطفل رافضًا حبسه في البيت، محتميًا بجدتها وعمتها، يطالبنها هي وأمها أن تتركاه على حريته، يتهمانها بالتكبر الفارغ، لا تعيان نظرات استهزاء زميلاتها في المدرسة، فتذهب إلى القمر تشكي له القدر الذي اختارهم

من دون البشر ليكونوا أهلها، طردتها عمتها هي وأمها من البيت تتبعهما باللعنات والتعيير وهما يتدحرجان على السلالم قائلة:

- «روحي شوفي أمك جابتك منين، كتر خيرنا إن ربيناكي، انتي ماتستاهليش خيرنا لا انتي ولا أمك اللي مايملاش عينها غير البلطجية»

تهرب هي وأمها مخذولة صامتة تبكي، تتمنى أن تقول أمها شيئًا، يكذِّب أو يصدق ما يطوف بذاكرتها من صور مشوشة لأحداث لا تستطيع أن تلمسها بعين الحقيقة.

عادت (مروة) وأمها إلى العيش في بيت جدها، الذي طفح به الكيل من هذه الزيجة ومشكلاتها، مصممًا هذه المرة على تصحيح خطئه، حصل لأمها أخيرًا على الطلاق، على الرغم من أنه حقق لـ(مروة) أمنيتها، إلا أن شيئًا في نفسها لم يستطع أن يغفر لكل من ساهم في نسبها لهذا المعتوه، ذلك النسب الذي حفر في قلبها مجرى للكراهية له ولنفسها وربما للعالم أجمع، انتبه جدها لجريمته يشعر بالذنب تجاه (مروة) فبالغ في حبها واحتضانها وتدليلها، واستطاع أن يعوضها في ثلاثة أعوام الحب الذي شفاها من جميع أوجاعها، حتى انتهت من الدراسة الإعدادية بتفوق، ولكن الحياة خطفت منها الحب وهي في عز افتتانها به، وكشفت لها وجهًا جديدًا من أوجه قسوتها.

نهش المرض جدها ورحل دون أن يتألم من أجله سوى (مروة) وخالتها (نجوى) الحب العظيم لذلك الرجل كان هو الشيء الوحيد الذي جمع بين (مروة) وخالتها، وعلى الرغم من ذلك بعدما دارت بها الأيام والحكايات تواجه نفسها بسؤال يعذبها تهربت منه كثيرًا، لماذا تكره خالتها (نجوى)؟!، هذه البلهاء الساذجة المعطاءة لكل من حولها، التي تخص (مروة) بأفخم عطاياها، تتفنن في اختراع الطرق التي تجعلها تعيش في مستوى لا يقل عن مستوى أغنى زميلاتها، عوضتها عن رفض أهل أبيها الإنفاق عليها، ترسم لها مستقبلاً برَّاقًا، تأتيها بأفخم الفساتين والأحذية والحقائب، كانت سعادتها الحقيقية عندما تفاجئها بشيء شعرت برغبتها فيه، أخطأت خالتها خطأً واحدًا شنيعًا، وهو أنها

توقعت أن كل هذا الحب والعطاء لا بد وأن يقابل بالحب والامتنان من أختها (كاميليا) وابنتها (مروة) لأن ذلك هو رد الفعل الطبيعي الذي تفهمه، فاكتشفت أن هناك الكثير من ردود الأفعال التي تختلف باختلاف طبيعة البشر.

(نجوى) رفضت فكرة الزواج نهائيًّا بعدما تبين لها طمع الخاطبين في راتبها، ففضلت أن تنفقه على أختها وابنتها بدلاً من أن تنفقه على الغريب الذي سيتلخص دوره في الحصول على طفل، فوهبت مشاعر الأمومة المتأججة داخلها لـ(كاميليا) و(مروة) ولكن (كاميليا) خافت من أن تسحب منها (مروة) أمومتها لأن كفة أمومة (نجوى) لابنتها ستكون هي الرابحة، لذلك أبت أن تشاركها أمومة ابنتها، تتفنن في اختلاق المعارك التي تنتهي دائمًا لصالحها بينها وبين (نجوى) تقنع ابنتها بأنها دائمًا هي الضحية في هذه الحياة التي لا عدل فيها، فتقتنع (مروة) بقناعات أمها المفتعلة لأنها تريد أن تقتنع ولأن أسباب أمها تثير تعاطفها، كانت تتهم والدها بأنه كان دائم التفضيل لـ(نجوى) حتى أنه أنفق على تعليمها الجامعي دم قلبه، بينما كان نصيبها التعليم المتوسط، اتهامات وافتراءات كثيرة من هذا القبيل جعلتها تقتنع أن أمها قليلة الحظ في كل شيء، فانصاعت لمشاعر الكراهية لخالتها، وتعمدت (كاميليا) الاستهتار الدائم بعطايا أختها تشكك في نيتها لـ(مروة) قائلة:

- «بترد لي جزء من الجميل، لأني أنا اللي عينتها في المحافظة»

وكانت هذه هي الحقيقة فعلاً لأن (كاميليا) توسطت لها عند أحد أقارب زوجها الذين كانوا يتعاطفون مع زيجتها، وقد كان أحد الشخصيات المرموقة في المحافظة، لم تعد (مروة) تهتم بما تنفقه عليها خالتها، على الرغم من أن عقلها يقتنع بأن خالتها تستحق الحب كله بل تستحق تمثالاً يخلد معنى التفاني في الحب والعطاء، ولكن كيف لها أن تنتزع هذا السم الذي بدرته أمها في دمائها فطال وتمكن من جميع حواسها.

ولكنها في تلك اللحظة التي يأتيها القمر مصفرًا غاضبًا، تنهار أمامه موجوعةً تبكي، تطهر روحها من آلامها معترفة له أن روحها تتعذب بسبب تلذذها بكل

هذه الكراهية للبشر، تصارع رغبة ملحة للخلاص من هذه الحياة بالانتحار، إنها رغم كل شيء تحب الحياة وتطمح فيها لأشياء كثيرة تأمل أن تحققها، تؤمن بأن معركتها الحقيقية فيها هي أن تجعلها هي الأخرى تحبها، حتى لو قضت عمرها تحارب من أجل هذا الحب، ربما تكون هذه الحروب سببًا لتكشف لها الحياة عن أسرارها، لقد كشفت لها عن السر العظيم الذي يختبئ في أعماق القمر، وكشفت لها سرًا آخر، كان هو الهروب إلى النوم الذي تعود منه شخصًا آخر، ربما كان هذا السر من أهم أسباب توازنها، تظن أن الله هيأ لها عفريتًا يخطفها كل يوم بضع ساعات، لتمارس الحياة في عالم آخر، تختلف أبعاده وخصائصه اختلافا تامًّا عن هذا العالم، تذهب إليه روحها وحدها متخلصة من سجن هذا الجسد ومن كل شيء يعوزه، ذاهبة إلى عالم يتدفق بحوائج الروح، هذا الجسد الممدد على فراشه نائمًا مبتسم الوجه تارةً ومعكر تارةً أخرى، تركته الروح ذاهبةً تعيش أحداثًا وحكاياتٍ شتى في عالم آخر، تندهش أمها عندما تمر بجسدها الممدد وهي نائمة، تثيرها تعبيرات وجهها المتغيرة، حتى أنها اعتقدت فترة من الزمن أن ابنتها ملموسة أو أنها تخاوي أحدًا من الجن، غير مدركة أن هذه اللحظات كانت فيها روحها تحلق بحكايات تعيشها لآلاف من السنوات، وكثيرًا ما كانت تزغدها مزعورة عليها، فترتد إلى الحياة روحها مستيقظة مرتبكة مكتئبة، لأنها عادت إلى الحياة التي كانت تهرب منها مفزوعة وربما جائعة وكأن لها ألف عام لم تأكل، أدركت (مروة) أن روحها الضائعة المخطوفة من العالم الآخر ستظل في هذه الحياة تتعذب حتى تعود إلى عالمها الآخر سواء بالنوم، أو بطرق أخرى، يهاجمها شعور دائم بأن هناك حكاية مبتورة في حياتها لم تستكمل، تظن (مروة) أنها تستكملها عندما تغيب تائهة مع القمر، القمر الذي تقضي معه دقائق معدودة ولكنها بحسابات أخرى تشعر أنها عمر كامل، انشغلت كثيرًا مع نفسها بأن تحسب عمرها بحسابات أخرى، فاكتشفت أن عمرها يتجاوز الآلاف من السنوات، وما زال أمامها آلاف الآلاف من السنوات الأخرى تدعوها للحياة، وتهاجمها سعادة مختفية لا تعرف سر مصدرها.

وعندما يغيب القمر تعاني آلاما كثيرة، تكون في أسوأ حالاتها، تتمزق روحها تصرخ في أعماقها تسأل عنه الأرض والسماء إلى أين يذهب هذا القمر؟ لماذا يتركها لهذه لنيران وهذه الأحقاد تشتعل في قلبها غير قادرة على أن تحرق بها أحدًا؟ تتعذب روحها عندما تكتشف بأنها تتلذذ بأحلام في اليقظة تخنق فيها أمها بقوةٍ جبارة محفورة في كفيها، وتصدع رأسها الأسئلة، لماذا تفعل كل هذا بأمها المظلومة، هل هي تكره أمها كل هذه الكراهية؟! لماذا يتركها القمر ويغيب عنها كل هذا الغياب؟ ربما لتدرك أنه هو وحده القادر على أن يشفي روحها من كل هذه الصراعات المدمرة، صراع بين الحب والكراهية، الموت والحياة، الغفران والانتقام، وقد يخذلها القمر كثيرًا دون أن يأتي، فتلوذ روحها بعالمها الآخر، تناجي فيه الموت، إنه البقاء الأبدي للروح. الموت لم يكن بالنسبة لها شريرًا كما يتهمه الآخرون، لأنه لن يأتي إلا في اللحظة التي لم يعد لها في هذه الحياة حلم يستحق أن تنتظر من أجله الغد لتحقيقه، الموت كائن حنون سيأتي في اللحظة التي تنتهي فيها رحلة هذه الحياة في هذا الجسد، القسوة ليست في الموت وإنما في جميع الأسباب التي أوصلتك إليه، فيأتي الموت منقذًا. على الرغم من أفكارها العظيمة عن الموت إلا أنها كانت تصب لعناتها عليه، تتهمه بأنه غاشم لا يفرق بين من تحب ومن تكره، الموت يأخذ ما يريد أن يأخذه ويترك لها ما لا تريد أن يتركه، الموت يعني لها الطرد من هذه الحياة يائسًا منها نهائيًّا، ربما لعالم آخر لا يأس ولا أمل فيه في شيء، لكنها تكره الطرد بجميع أشكاله، محفورة في ذاكرتها البعيدة طردة جاءت بها إلى هذه الحياة، تئن الذاكرة فينتابها شعور غامض بأنها عاشت حياة بتفاصيل كثيرة بآلامها وأفراحها، تجسد لها ذاكرتها التي ربما تخونها وتنسى ماذا أكلت بالأمس، بينما تتحجر فيها كل لحظة ألم مرت بها، غير قابلة لأن تذوب مع الأحداث والسنين، مشوشة تذكرها بصراعاتها لحظة أن تهدمت جدران رحم أمها فوق رأسها، مطرودة فجأة، مدفوعة بقوة ترج أحشاءها، مفجوعة بالنور ويد قاسية تقطع أوصالها بحياتها السابقة، تجرها بعنف من بين جدرانها المهدمة، فتصرخ بكل قوتها وهي تسبح في كل هذا النور المخيف، دون أوصال مع هذه الهوة الكبيرة، مقدر عليها أن تتعرف على كل شيء فيها بنفسها، تسأل نفسها: ما قيمة الحياة

التي تفتقد فيها الأمان؟! ولماذا بعدما تهدأ الروح وتظن أنها تنعم بالأمان فتتعايش وتتعلق بحياة دخلتها فجأة يتملكها حبها حتى تظن أنها جاءتها بإرادتها الكاملة، لتفاجأ بنفسها مفجوعة بين أنقاض جديدة، ويد غاشمة أخرى تطردها منها إلى مجهول آخر، لماذا كل هذا التمزق والتقاذف للروح في الأزمنة والأمكنة، تسأل نفسها والقمر: هل سيفجعها النور مرة أخرى في عالم آخر يقولون عنه الموت؟! ترى من سيكون صاحب اليد التي ستقطع أوصالها بهذه الحياة المفجعة، ويدفع بها مطرودة منها إلى العالم المجهول، عالم الموتى؟! العالم الذي بلا أم، ولكنها على أية حال لم تكن سعيدة في هذه الحياة التي لها فيها أم، تفتقد الشعور بالأمان لجميع البشر حتى أمها، تقرأ كثيرًا في عينيها تربصها للَّحظةِ التي يسقط فيها كبريائها وعنادها، فتندهش من هذه الحياة التي تظن أن استقبال أمها لها في لحظاتها الأولى مع الحياة سبب كافٍ لتشعر بالأمان، دون أن تأخذ بالها من أن هذه الأم لا تملك الأمان لنفسها، ومن العجب أيضًا أنه هو نفس السبب الذي يجعلنا نخاف الموت، لأننا نخشى أن نولد في عالم آخر ليس لنا فيه أم، ولكن من يدري ربما ينتظرنا هناك من هو أعظم من الأم.

مرت السنوات القليلة الهانئة في بيت جدها الكبير، تتراءى لها السماء التي تطلع إليها من البرندة الواسعة وكأنها سقف في ظلام حالك معلقة به فوهة مضيئة تبعث فيها الرغبة للدخول منها لتسبح في النور تتوقع أنها بوابة مدينة الأحلام، وربما صندوق الدنيا الذي يختفي وراءه سكان القمر الذين يحفظون أسرار الكون كما قالت لها عنه صديقتها (ليلى) تتخيل هي وصديقاتها أن سكان القمر يتلصصون عليهن، كلما تراءى لهن طيف يروح ويجيء في هذا النور الذي يكتسح الظلام ويمنحها البراح، وكان قلب جدها براح كبراح مدن القمر.

مات جدها وهي في الثانوية العامة وفشلت غير آسفة في أن تدخل كلية الطب كما كان يتمنى، نجحت في الثانوية العامة ببركة دعواته بعدما فقدت الرغبة في أن تكون شيئًا في هذه الحياة التي تفاجئها بالطرد دون إنذار، لم تكتف بطردها من أحضان جدها فقط، فطردتها أيضًا من بين جدران بيته بعدما ظنت أنه

الأمان الحقيقي الذي تنسجم روحها مع رائحة جدرانه الشائخة وعبق هذه الحارة العتيقة من حواري السيدة زينب.

بعدما مات جدها لم تعد (كاميليا) قادرة على أن تتوارى من مواجهة الحقيقة المؤسفة، وهي أن أختها (نجوى) هي التي كانت تتولى الإنفاق كليًّا على البيت فتعمق الحقد في بؤرة شعورها، تحاول إخفاءه في الظاهر فتفضحها تعبيرات وجهها تستخف هي وابنتها بكل شيء تفعله (نجوى) من أجلهما، مترفعين عن الانتفاع به، كاد الألم يمزق قلب (نجوى) لفقد أبيها الذي كان هو حبيبها الوحيد في هذه الحياة، وفشلها في أن تحصل على حب أقرب الأقربين لها، على الرغم من جميع محاولاتها لإسعادهما، تسأل نفسها دائمًا ماذا يجب على المرء أن يفعله، لينال حب من يحبهم؟! عبثًا ما كانت تفعله من أجلهما، تمردا عليها وكأن هذا التمرد كان سببًا لهذا التحول المهول الذي حدث في حياتهما، التحول دائمًا يحتاج إلى التمرد.

قالت (نجوى) لـ(كاميليا) وهي بائسة تأسف لحالها، بعدما فشلت في احتوائها وفشلت في إقناعها بالعدول عن هذه الزيجة غير المتوافقة، تهذي حزينةً مهمومةً بكلام لا يفهمه أحد عندما وقع عينها وهي تطل من الشرفة ساهمة فتشاهد جارها منهمكًا يروي قصريات الزرع المرصوصة بعناية على سور برندته:

- «يا ريتني جنايني بيوهب عمره يرعى البذور وهو مرتاح البال، واثق إنها تستاهل لأنها بالتأكيد هتطرح خير، لكن الإنسان مجرد فكرة مبدورة في تربة مجهولة ممكن تكون ملائمة لطبيعته أو مش ملائمة، ممكن تضطرك الظروف إنك ترعاها وممكن توهب لها سنينك بكل إخلاص وأمل وجهد، توقعك الوحيد إنها هتطرح خير، لكن تكتشف بعد فوات الأوان إن البذرة اللي رعيتها ووهبتلها عمرك بمنتهى الإخلاص طرحت نار عاوزة تحرقك»

تقول لنفسها: "الإنسان فكرة خالفت كل التوقعات، ليس بمقدور أحد مهما بلغ من علم أنه يدرك ماهية الأرض التي تصلح لأن تزرع فيها بذور هذه الفكرة".

بينما (كاميليا) و(مروة) كانتا مشغولتين بتجهيز الحقائب.

(مروة) ليست دمياطية، بعدما حصلت على الثانوية العامة، وبعد موت جدها تقدم عريس لأمها، شيخ دمياطي سبعيني العمر، عرضته جارتهم على أمها بعد زيارتها الشهرية لابنتها المتزوجة في دمياط، بغرض توفيق رأسين في الحلال، بعدما عكفت لأيامٍ وليالٍ تدرس بدقةٍ ملائمةٍ ظروف الطرفين، الحاج (صدِّيق) جار ابنتها رجله والقبر، سيترك لـ(كاميليا) معاشه الكبير، وسترث شقته لأنها إيجار قديم ولن يستطيع المالك طردها، وأولاده لن يضرهم شيء لأنهم في جميع الأحوال كانوا سيفقدون بموته معاشه والشقة، لذلك سيباركون زيجته التي ستزيح عبء مسئوليته من فوق أكتافهم وسترتاح ضمائرهم بعدما أصبحوا يتثاقلون في زيارته، خاصة بعدما وزَّع عليهم كل ما يمتلكه من أموال وعقارات، ولم يعد يمتلك سوى معاشه وهذه الشقة المشاهرة، ولم يعد في أنفسهم دافع للسؤال عنه سوى ملاحقة اتهامات نظرات عيون الجيران بالجحود، اقترحت عليه أم جارتهم القاهرية بأنها ستزوجه بمن يخدمه وهي متأكدة من أنها ستراعي ربنا فيه.

صعقت (مروة) من هذا الخبر في بادئ الأمر، ورفضته بقوة وعناد وبكاء مرير وعاودتها آلام الشعور الدائم بأنها مطرودة شريدة لا مكان لها في هذه الحياة، ولكن في بحر أسبوع من التفكير كان ينكشف لها مع كل يوم يمر سبب يجعل من هذه الفكرة شيئًا يقبل التنفيذ، حتى رضخت في آخر الأسبوع لرغبة أمها الجامحة الهوائية والتي لم تكن تنتظر موافقة (مروة) لأنها أخذت قرارًا بالموافقة.

تتهم هوائية أمها بأنها تشبه هوائية القدر، أمها إذا جاء أحد على هواها، باعت من أجله الدنيا وما فيها، أما من لا يأتي على هواها فليرحمه الله برحمته الواسعة من لسعات غضبها ونفورها وغلظة أقوالها وتعبيراتها، وكذلك كانت ترى القدر تتهمه بأنه إذا جاء أحد على هواه، أعطاه كل ما يمكن عطاؤه لبشر، مال وجمال وجاه وعافية وسلطان وعلم، بينما يا ويله من لا يكون على هواه، سيلقي في هذه الحياة المذلة والمهانة، ويخصه بالفقر والقبح والمرض والجهل

والغباء، ولكي يكون مرتاح الضمير سيحاول أن يحقق العدالة بأشياء تافهة، فقد يعطي فلانًا مالاً وجمالاً وصحةً وعافيةً حتى يصبح أهلا للحسد، وفي ذات الوقت يخصه بسماجة تذهب الناس عنه، فيعيش بين مميزاته الكثيرة وحيدًا، بينما من لا يمتلك شيئًا ينعم بدفء التفاف البشر، ربما يكون ذلك الالتفاف من باب الشفقة، ولكنها أشياء ظاهرية تسبب الرضا والفرح في النفوس، يلخصونها في عبارات مريحة قائلين: "صحيح الحلو مايكملش"، أو "يدي الحلق للي بلا ودان"، وتضيع قضية العدالة.

ربما من يخصهم القدر بكرمه لا يرضيهم هذا الكرم يطالبونه بالمزيد، بينما من يسلبهم كل شيء مستسلمون مقتنعون بأن جزءًا من الإيمان يشترط الرضا بالقدر، تحيرت (مروة) كثيرًا من هذه القضية، يتمزق قلبها ألمًا عندما تصطدم بشابة متشردة فقيرة مريضة دميمة، تفرش الكراتين بجانب حائط هزيل لأولادها الضعفاء يتقاسمون أكلهم مع القطط، بينما هي تبيع المناديل الورقية تستدر بها عطف المارة، بينما زميلاتها في العمل يأتين في سياراتهن الفارهة، فارعات جميلات مهرات سليلات عائلات مرموقة وزيجات يتفاخرن بها وأولاد يشرحون القلوب، يخرجن إلى العمل فقط من باب التسلية لأوقات الفراغ، إن ثمن زجاجة عطر من العطور التي يستخدمنها يوميًّا كافٍ لتسعد عائلة فقيرة شهرًا، فتدخل إلى بيتها تلوم القدر تبحث عن القمر لتشتكيه له قائلةً:

– «العدالة أيها القدر، نحن نحارب في هذه الحياة من أجل العدالة، ولكن ماذا نفعل في القسمة التي قسمتها أنت علينا؟»

إن أمها التي لا تدرس الأمور إلا نصف دراسة من زاوية واحدة، هذه الزاوية التي أشارت إليها جارتها قائلة لها:

– «حد يرفض يسكن في بلد بيطل عالبحر؟ دا الناس بتدفع آلافات عشان تروح تسكن هناك شهر»

أما (مروة) فحسمت أمرها بأن الرحيل إلى دمياط، سيشيح عن وجهها شبح هذه البراءة التي لا يستوعبها عقلها، هذا الشبح الذي يضخم لها شرور نفسها،

الشر الذي تتعايش معه بألفة تضمن اتزان روحها، بينما طيبة خالتها البلهاء تنغص عليها هذه الراحة، لم يعد لها هنا شيء بعدما مات جدها أما القمر الذي يهمها فسيرحل معها أينما ترحل، ستنسى أباها وأهله إلى الأبد، وستكون فرصة عظيمة لأن تبدأ من جديد في مدينة البحر والقمر.

ولكنها عندما ذهبت إلى دمياط صدمتها هذه المدينة من أول وهلة، متفاجئة بموقع البيت المحشور في حواري تستند البيوت فيها بعضها إلى بعض، تحرمها من فتح الشبابيك نهارًا، بسبب ورش الموبيليا والنجارة الكثيرة والمفتوحة طوال النهار، ومساءً لأنه عيب على البنات فتح النوافذ أو البرندات ليلاً، فضاع منها القمر، كرهت دمياط وراحت تبكي في نفسها تلعنها وتنعتها بالمدينة التي تسجن القمر، تتمنى في أعماقها الموت لهذا الشيخ الذي لم تستطع أن تجاريه في طوفان العطف الزائد عن حده عليها، لأنها استوعبت من اللحظة الأولى أنها ثمن لخدمته، مضاف إليه أن تأكل وتشرب وتلبس ولكن بحساب، لأن الشيخ يكاد يحسب عدد المرات التي تفتح فيها فمها لتأكل، الشيخ الذي شاخ كل شيء فيه ما عدا ذهنه الذي يحسب ويراقب به جيدًا كم رغيفًا تم أكله في اليوم، وكم استغرقت جوال الأرز وزجاجة الزيت من الأيام، يتهم أمها بملاطفة لتفهم أنها مبذرة، ولكن الأيام كانت تمضي وكل شيء يمضي ببطء مفزع دون القمر.

لا توجد شرفة واحدة يحق لها أن تفتحها لتطل منها على البراح، تعاني من ضيق التنفس كلما التفتت حولها وهي محبوسة وحيدة في حجرتها فتجد جميع المنافذ التي بينها وبين الشارع مسدودة، تخرج إلى الصالة منزعجة من الصخب لأن زوج أمها (يبرطع) على راحته أمامه صينية المأكولات والفاكهة يتابع بحرارة عالية في التلفاز مباريات الكرة، تشاركه التشجيع أمها فتعود إلى حجرتها وحدها تجلس بالساعات تتمنى أن ينشق الجدار أو يقع سقف الحجرة لتخرج أو تطير من هذا السجن وهذا الصمت الصاخب.

الأيام تمر بها ولا شيء هنا يتغير حتى جاءها الفرج وأحدث الشاكوش ثقبًا بعدما انكسر جزء صغير أسفل شيش النافذة الوحيدة التي في حجرتها وهي تضرب على المسمار بكل قوتها المشحونة بغيظها لأنه دائم النتش في الستارة، والذي

مزقها هذه المرة عندما أزاحتها مغتاظة بقوة كأنها تزيح الجدار فسقطت قطعة خشب شائخة من خشب الشيش المتهالك، ازدادت حدة غيظها متوترة تقذف بالشاكوش على الأرض وارتمت مجهدة على فراشها مستسلمة للفرار إلى النوم، استيقظت في منتصف الليل على مفاجأة غيرت حياتها، كأن القمر شق جدرانها المتراصة وتصدر أمامها يبتسم لها من هذا الثقب، لم تصدق نفسها لهذه المعجزة التي أنقذتها من الجنون، تخرج من هذا الثقب إلى عالمها الآخر يخطفها القمر إلى أي مكان أو زمان.

باحثة في شوارعه عن الحب الأسطوري الذي يصارع الحبيب أهوالاً من أجل الوصول إلى حبيبته، تهرب من شعورها الملح بقسوة هذه المدينة التي أهدتها جدرانها الشائخة ثقبًا للقمر لتشكو له قسوة أهلها وتحكي له حكايات وقصصًا كثيرة عاشتها في هذه المدينة.

في هذه المدينة نادرًا ما تقع عينك على وجه له ملامح قبيحة، يمتلك أهلها جمالاً مرسومًا بعناية فائقة، تدلل على تأصل سلالات أهلها وانتماء أغلب أسرهم إلى سلالات تركية، وأوربية، نتيجة اختلاطهم بالدول التي تطل على البحر الأبيض المتوسط، في بادئ الأمر كانت تتمنى أن تهبها الطبيعة جزءًا من هذا الجمال ولكنها عدلت عن أمنيتها بعدما تأكد لها أنه قناع رائع لقبح دفين؛ خاصةً عندما تصفع أذنيها هذه اللهجة الحادة المتعاركة طوال الوقت مع كل شيء، تلهف كل ما يقابلها في (سرسعة) مقززة كلسان اللهب، ترسخ داخلها شعور بأنها تصدر من نفوس لا تعرف الرضا، لهجة (مسرسعة) حارقة كلسان اللهب المفاجئ، تؤكد ثقافة وحيدة لسكان هذه المدينة أن هؤلاء يمارسون بتلقائية عادية العدائية والنهش والسطو ثقافة قطاع الطرق، هؤلاء المتمسكون بمظاهر الدين في طقوس يومية لا تتغير، يتباركون بفتح المرتل على القرآن الكريم في بداية اليوم، يصومون ثلاثة أرباع أيام السنة اثنين وخميس أسبوعيًّا وثلاثة أيام منتصف الشهر وأوله وعاشوراء وتاسوعاء وإلى آخر القائمة، يحرصون على الصلاة في أوقاتها في المساجد، مستهزءون بمن يفوته الصلاة، مشغولة أصابعهم في أوقات فراغهم بفر السبحة، هذه المظاهر التي لاحظت

حرصهم الدائم عليها بينما تصدمها الحاجة (سناء) بطرحتها البيضاء التي تزيد جمالها جمالاً والخارجة لتوها من بين أيادي الله لصلاة العصر هائجة على خادمتها هذه الطفلة الصغيرة، لأنها تلكأت تلعب مع البنات في الشوارع، فتأخرت عليها وهي تجيء لها بالسمك المشوي من الفرن، بقسوة بالغة بركت فوقها تعجن طفولتها بقدميها، تظن أن هناك شيئًا خاطئًا في هذه الحياة، لتكتشف بعد فترة من عشرة هؤلاء أنهم يلبسون عباءة الإيمان التي تزيد وجاهتهم الاجتماعية واحترام الناس، هذه الأشياء المحسوبة بدقة سيتحصلون منها على فوائد عديدة ستأتيهم في موعدها، عند المصاهرة مثلاً سيتشرفون بمصاهرتهم الشرفاء أمثالهم، وفي المعاملات ستجعلهم مصدر ثقة وشيئًا آخر أهم، يشترون البركة من الله لكل شيء في حياتهم، وكانت تتعجب فعلاً من أنهم محروسون محصنون من المصائب، وكأن كل شيء يسير بدقة محسوبة مع الله، فتتعجب (مروة) من قناعتها بالإيمان الذي يهب المرء فيه روحه وعقله لله دون أن يحسب ما له وما عليه، المؤمن من وجهة نظر (مروة) ليس له حسابات مع الله، ولكن هؤلاء دفتر حساباتهم جاهز يدونون به كل حركة يفعلونها والعائد الحقيقي لهم منها، تعتقد أن هناك خطأ بشع في فهم آيات القرآن التي حرصت كثيرًا على صيغة البيع والشراء، كأن يشتري الله من المؤمنين أنفسهم أو أن الحسنة بعشرة أمثالها وكذا، ربما استغلهم رجال الدين ليأصلوا في أنفسهم هذه النزعة البشعة وتتحول القلوب إلى عقول تحسب ماذا ستجني من إيمانها بالله والتزاماتها بطاعته، جميع العلاقات في هذه المدينة صفقة تجارية، حتى مع الله، بعكس جدها الذي تمثلت فيه الناس في القاهرة، فكانت ترى جدها هادئًا وديعًا لا يتشنج من أجل الحصول على شيء، قانعًا راضيًا بعطية الله، لا يحرص في هذه الحياة على شيء، وصديقاتها اللاتي كن يطرن معها إلى القمر عندما يبزغ لهن على سطح منزل صديقتها، فيتركن اللعب وتحكي كل واحدة منهن أحلامها للقمر، ربما كان ذلك لجميع المجاورين لأولياء الله الصالحين، يتمتعون بتلك المحبة الصوفية التي تتفق مع الفطرة، يطلقون سراح الروح لتهيم في الوجود حبًّا وشوقًا وتعطشا لله، بينما هؤلاء الذين يعتمدون على حساباتهم وخططهم للوصول إلى أهدافهم، يلخصون الإيمان في هذه المظاهر

التي تجلب البركة وتسد الطريق في وجه الشياطين، لا يتركون في نفوسهم للإنسانية مساحتها المفروضة، فخرجت الشياطين من أنفسهم الحمقى، التي لا تقتنع إلا بحساباتها الدقيقة.

وكأنهم لا ينسون للطبيعة عدوانيتها الشرسة، حتى أصبحوا مترقبين متأهبين للدفاع عن أنفسهم ضد الغدر أو عدائية متوقعة، الإنسان جزء من هذه الطبيعة، وربما كان هو يد الطبيعة التي تبطش بها على نفسها وعلى الإنسانية كلها، كان هذا هو تفسيرها عندما راحت تستفسر من زوج أمها عن صدقات الشيخ (كامل) المبالغة لفقراء الحارة، فاكتشفت أن الشيخ كامل يدفع إتاوة لأهل الحارة تحت ستار الصدقة والمحبة في الله ولكنه في حقيقة الأمر كان يتقي بها شرهم، كانت (مروة) تقول لنفسها: "ترى هل أهل دمياط يختلفون عن جميع البشر أم أن هذا حال الناس جميعًا حتى في أحياء القاهرة التي تتوق روحها ويأكلها الشوق لليلة من لياليها الساحرة؟".

ظلت سنوات طويلة تكره هؤلاء، ولكن عشرتها الطويلة معهم بحكاياتها المثيرة جعلتها تشفق على الإنسانية جمعاء، خاصة عندما اكتشفت أن أمها القاهرية لأب صوفي النشأة لم تعد تختلف عنهم كثيرًا.

جن جنونها بالبحر بعدما استأجر لهم زوج أمها عشة على البحر، ليقضوا شهرًا في مصيف رأس البر بعد إلحاح أمها عليه تشهر في وجهه اتهامًا بالبخل وتهديدًا بعودتها إلى القاهرة، عندما التقت بالبحر لأول مرة انخطف قلبها وعقلها، كان يحلو لها أن تخرج إلى البحر ليلاً، فيبدو لها القمر حرًّا طليقًا هائمًا في أحضان البحر، كل شيء كان طليقًا هي والبحر والقمر والطبيعة بأسرها، فتتخيل نفسها تمشي على سطح البحر لتصل إلى القمر، البحر أرض رخوة، أرض بلا قرار، أرض لا تحتمل أن تلامسها أقدام البشر، أرض تغوص في جوفها وتغوص في جوفك، تباغتها أسئلة كثيرة تقولها للقمر الذي يضيء لها طرقًا كثيرةً حتى ولو أنها تتوه فيها دون أن تصل إلى أجوبة:

- «لماذا كل هذا الفرح والحب الذي ينطلق من أعماقنا مهللاً للبحار؟!»

ربما يكون البحر هو أرض القمر، إنه هو الوحيد القادر على أن يمشي على سطحه، يستطيع أن يختبئ بأغواره، البحر والقمر بينهما علاقة لا يعرف سرها إلا الله، فتتمنى لو أن قوة إلهية تهبها أقدامًا تدوس بها على سطح هذا البحر، كانت ستدخل إلى القمر في هذه اللحظة بسهولة، ولكن البحار ليست لأقدام البشر، البحر هو أرض للقمر، ولأقدامنا نحن هذه الرمال وتراب هذه المدينة الذي أصبحت تعشق رائحته، كما عششت رائحة البحر في خلايا جسدها، وتصالحت روحها مع هذه المدينة التي اقتحمها القمر يخترق الحواجز، يصنع لنفسه ثقبًا بطريقة هندسيَّة بالغة الدقة متسللًا إليها وهي مستلقية على فراشها في مواجهته، تتلاشى أمامها جميع الحواجز، يأخذها هذا الثقب الصغير إلى هوة واسعة من ظلام الليل الحالك، ينطلق فيه القمر على راحته.

يثير دهشتها أغنياء هذه المدينة الذين يعيشون في الأحياء الواسعة، يمتلكون النوافذ البراقة والحدائق والبرندات الواسعة، ومع ذلك لا يهتم أحدهم بالبحر ولا بالقمر.

كانت السنوات تمر بها تائهة في مدينة الصراعات، التي جاءتها تحلم أن تبدأ فيها من جديد، المدينة التي يتوه فيها القمر بين البنايات المتلاصقة، ويتوه الحنين الذي كان يمزقها لكل حبة تراب في بيت جدها، وتتوه روحها في أسئلة كثيرة: لماذا نتمسك بالحياة في بلاد خربت أرواحنا؟! لماذا نتمسك بالحياة بين أشخاص في الحقيقة يحتقروننا؟! لماذا لا نفكر في الهروب؟! لماذا نستسلم للمدن المفروشة بالحصى؟! ربما كانت وجهًا قاسيًا للقمر، وجه لا علاقة له ببقعة النور اللامعة في الظلام الحالك، وجه يقول إن الحب موجود، ولكنها لن تحصل عليه إلا إذا كانت تمتلك ميزة غير الإنسانية، وجه يؤكد لها أن الحياة معركة بينما تصرخ هي طوال الوقت في وجهه قائلةً: "لا طاقة لي بالمعارك"، وجه يدين الإنسان لأنه يستطيع التحكم في كيمياء جيناته، يمتلك القدرة على الاختيار وأن يبدل بين الحين والحين قناعاته، لا تقتنع بنظرية العلم الذي يؤكد أن الإنسان حيوان ناضج، الحيوان يثير عطفها، لأنه لا يمتلك الطموح أو الخيارات، ليست لديه ذاكرة إضافية ليبني فيها أحلامًا خرافية، القط قدره أن

يظل قطًا والأسد سيظل أسدًا، بينما الإنسان الذي يحمل جينات فأرٍ جبان يمكن له أن يحلم بأن يكون أسدًا، ويمكن له أن يقرر أن يكون أسدًا، ويمكن له أن يضع خطة للوصول إلى أحلامه، الإنسان قادر على تغيير كيمياء جيناته إذا استغل إرادته المعطلة، كانت (مروة) تتعاطف جدًّا مع هؤلاء البشر غير القادرين على تغيير مصائرهم كما تتعاطف مع حيوان ليس لديه خيار آخر.

حاولت كثيرًا أن تروض نفسها لتأتلف مع هذه المدينة التي فرضت عليها، المدينة التي يغلب على أهلها النزعة التجارية، لا فرق فيها بين التجارة في الموبيليا أو التجارة بالإنسان، تدهشها ملاحظة عجيبة لمشهد كانت تمر به يوميًّا دون أن يحرك في عقلها فكرة، لكنها ذات مرة كانت فيها ناقمة على بشاعة الإنسانية في هذه المدينة استوقفها ذلك المشهد الذي لخص لها عبثية الإنسان في هذه الحياة، عندما كانت تدخل الحارة، كان أول من يقابلها الحانوتي عم (سادات) الذي يجلس على باب دكانه يرش الماء والملح على عتبته يدعو الله بالرزق، وفي المواجهة تتصدر لافتة كبيرة لطبيب نساء الدكتور (هشام الفارة)؛ فتقول لنفسها: "مؤكد إنه هو كمان قاعد بيتمتم في سره بيقول يا رب ارزق، الرزق اللي الاتنين عاوزينه إنسان، واحد هيقبض لما يخرجه من الدنيا، والتاني هيقبض عشان يفتحله باب الدنيا".

ومات الشيخ (صديق) بعدما قضت في هذه الحارة سنوات كثيرة، ماتت في أعماقها أحلام ونبتت أحلام كثيرة أخرى، صفعها صراخ أمها وهي داخلة إلى الحارة في لا مبالاة كعادتها، صراخ وعويل انتهى بمجرد خروج جثة الشيخ (صديق) وعاد كل شيء إلى حاله، فقط تبدلت جميع الألوان بالأسود، على الرغم من أنها لم تكن تستلطف الشيخ (صديق) إلا أنها متأكدة أنها أكثر حزنًا على فراقه من أمها وأولاده وجميع أقاربه، على الرغم من إحجامها عن التعبير عن هذا الألم، لكن مرارة الفراق أو الفقد لها رهبتها داخلها، حتى ولو كان الشيخ (صديق) كرسي من كراسي المنزل كانت ستشعر بنفس الألم. الموت سيكون فكرة رائعة لو أن الموتى انتزعوا من خلايانا الذكرى وأخذوها معهم،

الموت في هذه المدينة ليس من المصائب "اللي بيموت بينزاح همه، المهم إلي عايش".

تظن أن المثل الذي يقول: "الحي أبقى من الميت" خرج على لسان واحد من أهل هذه المدينة، الناس هنا يشيعون الموتى عائدين إلى ولائمهم بشهية قليلة بدافع الخجل في بادئ الأمر، وما هي إلا عدة ساعات تمر، يعود بعدها كل شيء إلى سابق حاله، يستشهدون بالمثل الذي ربما يخرج على لسان شخص قرصه الجوع: "الحي أبقى من الميت".

فتنفتح أبواب الفرج ليندفعوا جميعًا يمارسون حياتهم بسهولة واعتياد، وكأن الذي مات كان كلبًا، رغم أنهم يحزنون على القطط والكلاب، ربما لأنهم دفعوا فيها أموالاً.

عندما مات كلب الست (راجية) التي تسكن الدور الرابع في العمارة، خرجت (مروة) من حجرتها مذعورة على صراخها الذي دفع بأهل الحارة جميعهم إلى شقتها ليكتشفوا أن الذي تولول عليه الست (راجية) هو كلبها وليس زوجها أو ابنها، تركتهم (مروة) حائرة يباغتها سؤال كما تباغتها الكثيرمن الأسئلة: ترى هل ملك الموت يهتم أيضا بالكلاب، أم أن ملك الموت مخصص للإنسان فقط، بينما الحيوانات وحدها تولد وتموت بسنة الطبيعة؟

لا تجد إجابة كالعادة على أسئلتها التي تخرج منها دائمًا بأن الحياة لغز محير، لغز كلما انفك تعقد.

ومات الشيخ (صديق) بعدما أتمت دراستها الجامعية وتعينت في شركة الكهرباء بدمياط، وانقلب حال أمها التي أصبحت أكثر همجية تتخبط في كل شيء تشعر بالضياع، وكأن الشيخ (صديق) ذلك الجدار الهش كان مصدر أمان وهدوء للبال، أمها لا تحسن التصرف لا تمتلك القدرة على إدارة حياتها بدون وجود شبح رجل ترمي حمولها عليه، لا تثق في (مروة) مهما حاولت أن تؤكد لها أنها قادرة على مواجهة الحياة وجبروتها لوحدها، لكن أمها لا تثق إلا في الرجال، حتى ولو كانوا "حيطة مائلة".

لديها قناعة أن الرجل قادر على أن يعبر بها المحيط، فقط لأنه رجل، على الرغم من ألسنة النار التي تندفع من لسانها لأتفه الأسباب ملتهمة كل من يقابلها، لكنها كانت تعتبر نفسها امرأة ضعيفة تحتاج وجود رجل، تبدلت حياتها بسبب هذا الشعور المدمر بالضياع، حتى أنها حولت البيت إلى مكان لا يطاق، بعدما أصبح مكانًا لاستضافة صديقاتها التي تتعرف عليهن في الأسواق، حتى أصبح البيت ملاذًا لكل من هب ودب، تلخبط حالها وتبدل أسلوبها وألفاظها ومزاجها، تستهويها جلسات النسوة كثيرات الحديث في الكلام الخارج وخبايا حكايات الفراش، وكأنها تعوض الفعل بكثرة الكلام عنه، يزداد يومًا عن يوم اضطرابها وحدة توترها وتقلبات مزاجها، حتى أنها كانت تضحك أو تبكي كثيرًا دون سبب يستحق، تنتهي من ضحكها باكية، وتنتهي من بكائها ضاحكة، تحتد على (مروة) كلما راجعتها ساخطة على أحوالها، حتى وصلت الخلافات بينهما إلى أقصاها، ووصل بها الأمر لطردها من البيت مرات، أو أن تهجر أمها البيت مراتٍ أخرى، ناقمة على خلفتها، فتتحمل (مروة) عبء البحث عنها عند الجارات، أو في الأماكن العامة معتذرة مغصوبة تترجاها العودة، حتى أصبح التفاهم بينهما مستحيلاً، وأصبحتا تعيشان معًا في منزلٍ واحدٍ يحيطهما الجفاء والعزلة.

وتمضي الحياة بـ(مروة) في قسوة تلاحقها في البيت وفي العمل، حتى أصبحت ناقمةً على كل شيء، تمزق روحها نيران الكراهية، لا مكان في قلبها للحب، إلا عندما يزورها القمر نافذًا إليها من هذا الثقب، ليطبطب عليها عائدًا بها لتتصالح مع الحياة، فتعود إليها هادئة بشوشة وديعة.

❊❊❊❊

(٣)

سيطرت السعادة على الغالبية العظمى من زملائها بالعمل، لكن البشاشة لم تجد لها طريقًا لتصل إلى وجوههم خاصةً في الصباح، لأن هذه الوجوه لنفوس لا تشبع تتطلع دائمًا إلى المزيد، لذلك لم يتغير موقف (مروة) من زملائها في العمل، قضت حياتها بين زملائها دون صديقةٍ سوى (إيمان كامل) كانت تعتقد أنها وحدها صاحبة الوجه البشوش في هذه الشركة، حتى كشفت لها الأيام بعد ذلك حقيقته.

أصبحت الشركة كدولة ذات عهدين، عهد طويل كان فيه الهرم مقلوبًا، وعهد قصير انعدل فيه كل مقلوب بين عشيةٍ وضحاها، عندما تولى المهندس (خالد) رئاسة الشركة، عرفوا لأول مرة على يده ماذا يعني العدل، الذي يرفع رأس الضعفاء والبسطاء يزيح عنهم المهانة والاستسلام والانكسار الساكن في قلوبهم، يرفعون رءوسهم يطالبون بشجاعة حقوقهم، فتأتيهم الحقوق طوعًا دون مساومة أو جدل طالما أنها حقوق مستحقة، حالة من الانتفاخ وعزة النفس تقرؤها صريحة على وجوه بسطاء الموظفين بالشركة، بينما تقرأ على وجوه المغتصبين المتعجرفين الغيظ والحقد على هذا العدل وهذه المساواة التي حطمت تكبرهم الفارغ، ظلت (مروة) على حالها تراقب التطورات بعيدًا في صمت، تخاف على هذه الأماني الرائعة التي نبتت في عيون هؤلاء البسطاء من التحطم على صخرة المغتاظين، الذين ضاعت ممالكهم المزيفة وراء الشمس، مؤمنة بأن المعارك الباردة لا يدفع ثمنها في نهاية الأمر إلا البسطاء، غير مقتنعة بالنهاية البلهاء التي تتصدر الحواديت القديمة، ليعتبر الناس ويقتنعوا بأن الخير يهزم الشر دائمًا في النهاية، ويسود العدل.

القمر وحده هو الذي يدرك مدى كفرها بالإنسانية، تقتنع بأن الإنسان يقاوم رائحته النتنة برائحة حلوة صناعية، صنعها لتزييف الحقيقة عندما أدرك صورتها البشعة، اخترع رائحة حلوة بديلة تجبر النفوس لتتعايش معها متناسية حقيقة رائحته العفنة، الخداع مريح بينما الحقيقة مزعجة لا نقوى على

مواجهتها، يبتسم لها القمر ابتسامته الصفراء لتفهم أنها سخرية من ادعاءات الإنسانية لصناعة الحضارات، لتفهم إنه مثلها يحتفظ بوثائق الحقيقة عبر الأزمنة، يشهد أن الحضارة التي يتغنون بها، ما هي إلا اختراع لرائحة ذكية ليتعالى بها أقوام على الآخرين، أقوام أدركوا أن رائحة الإنسانية الحقيقية تؤذي الحواس فتفننوا في القدرة على إخفاءها، الحضارة طلاء براق يبهر العقول المهتمة بالمقارنات بين الأزمنة، الحضارة وهم بينما الحقيقة هي الغجرية المحبوسة في أعماق البشر، الحضارة تعني أن الإنسان اخترع الأرضية الرخامية الصلبة، بالألوان اللامعة البراقة، ليدفن تحتها هذه التربة الحية، يدفن في أعماقها رائحة الحياة، لأنها رائحة نتنة، يدفنها ويدفن معها الحقيقة.

تغوص في أفكارها مع القمر كثيرًا لتثبت نظرية افترضتها، وهي أن الإنسان اخترع فكرة الأخلاق ليروض بها نفسه، ولكنه اكتشف أنه يصنع بها حروب شرسة بينه وبين نفسه، وأنه يريد أن يبحر في الطبيعة ضد الطبيعة، يتوهم في قلبه آلة تضخ في روحه المشاعر الراقية والأحاسيس الخلابة والحب والرومانسية، بينما الحقيقة أنها عضلة تتعايش وتعمل في آلية مع أعضاء أخرى، لتضخ الدماء في آلة لا تعمل إلا بالدماء.

الإنسان بالنسبة لها ذاكرة مدمجة بجميع صفات الكائنات الحية، ربما يبحث فيها عن صفات راقية تخص إنسانيته المزعومة، فتنكشف له الحقيقة أنه يبحث عن شيء لا وجود له إلا في خياله، هذا الخيال الذي يحدث في ذاكرته الإضافية هو الوحيد الذي يجعله مختلفًا، كانت تعتقد أن القمر يمنحها هذه الذاكرة الممتدة، وأنه قادر على أن تكون ذاكرة بأكبر مدى، لذلك تظن نفسها تختلف، لأن القمر هو هدية الله لها.

تتوالى الأيام، تترقب في صمت طويل يضخم لها الشعور بالبرودة تخترق معطفها الثقيل، تبدو السماء دائمًا بوجه عابس، ورغم ذلك تمنحها النور الذي يسع مقلتيها، نور يمنح الحياة حرارة تحت الصفر، فتشعر بكآبة لأن النور الذي لا يقترن بالدفء نور كاذب.

بالرغم من أن كل شيء كان يسير كما كانت تتمنى، وكان القمر شاهدًا على هذه الأمنيات، وكأن القمر الذي اخترع الأسباب ليلين قلب جدها لها، اخترع لها الأسباب ليحقق لها أعظم أمانيها، حتى انقلب حال الشركة بين يوم وليلة وأصبح الغالب اليوم فيها مغلوبًا، والمغلوب جاء إليه من ينصفه ويسمع شكواه يتقدم به الصفوف، حتى ولو أن دورها تلخص فقط في المراقبة الصامتة، لكنها متأكدة أنها في ظل هذا العدل ستحين اللحظة لترفع هي الأخرى شكواها، لكن الذي يحيرها حقًّا هو بمن ستبدأ الشكوى منه، هل تبدأها بسكان هذه المدينة وخاصة زملاءها في العمل، الذين يقابلونها في الصباح يقتلون البهجة التي يرسلها الله لها كل صباح، يعكرون صفو مزاجها بوجوههم العابسة، التي تبخل عليها بمجرد ابتسامة، وعندما طفح كيلها راحت تنعى الابتسام متألمة في منشوراتها على صفحتها بالفيسبوك قائلة: "إذا صادفتم وجهًا يبتسم في الصباح فهللوا له، واصنعوا له مقامًا؛ لأننا قريبًا سنجعله مزارًا نتباكى عليه".

كانت تغيب كثيرًا مع نفسها صامتة على مكتبها تنشغل عيونها بشاشة الكمبيوتر التي أمامها، تقلب في برامجها الكثيرة التي أعدتها لمواقع العمل المختلفة، تستعيد بينها وبين نفسها ذكريات تعسف رؤساءها معها رافضين تطبيق برامجها، لم ينبها من الطموح الزائد وكثرة العمل سوى الإحباط، بعدما فشلت محاولات رؤساءها في السيطرة عليها باسم الحب، تتراقص أمامها الذكريات تارة بحكاياتها مع (سمير) وتارة أخرى مع (شعبان) أما (مدحت) فقد كان فظًّا واضحًا لا يجيد ارتداء الأقنعة، يشترط على من يحبه أن يقبله كما هو، فكان من نصيب صديقتها الوحيدة (إيمان كامل) جميلة الجميلات، كانت (مروة) مدهوشة بتآلف رقة صديقتها مع جلافة روحه وهيئته، الذكريات كثيرة كثيرة تجمع بين (مروة) و(إيمان) والمغامرات، لكن الفارق الوحيد بينهما، أن (إيمان) كانت تخطط لأهدافها التي ستصل بها إلى رئاسة القطاع الإداري، بينما (مروة) لم تدفع مشاعرها يومًا ما ثمنًا لمصلحة بينها وبين أحد في الحياة، ولم يكن يعنيها حقًّا سوى الحب، الذي وقعت فيه دون قصد أو تخطيط منها على الأقل، كانت تتعجب كثيرًا من صديقتها الرقيقة الناعمة التي وجدت الحب في أحضان خنزيرٍ عفنٍ لا شيء يمتلكه يدلل به على الرومانسية، فافترضت (مروة)

أنه ربما يكون الحب له أشكال أخرى لا تشترط الرومانسية، لكن الأيام فسَّرت لها كل شيء، فأدركت أنه قد يكون (مدحت) خنزيرًا عفنًا واضحًا، ولكن (إيمان كامل) صديقتها ما هي إلا خنزيرة كانت تتخفى في هيكل امرأة ناعمة فاتنة.

تهاجمها الذكريات تقتحم هذا الصمت مستهزئة بخديعتها بالصداقة تارة وبالحب تارة أخرى، بـ(شعبان) تارة و(سمير) تارة أخرى، تدهشها هذه الذاكرة التي تحملت مرارة كل ذلك الخداع، تعبر الأحداث متنقلة بين الحكايات تأمل بأن تداوي مرارة حكاية، فتمنحها الأخرى المرارة التي اعتادتها.

تتذكر أول يوم لها في هذه الشركة، دخلتها شابة طموحة متأججة متفتحة للحياة، تشع بريقًا وحيوية تقفز السلالم بطاقة جبارة، تنتوي أن تقلب موازين العمل، ستحدث ثورة هائلة في نظم المعلومات التي تفتقدها جميع الإدارات بالشركة، كان تعيينها في قسم الحاسب الآلي الذي يفتقد الكفاءات، جميع زملائها في القسم لم يأخذوا سوى دوراتٍ بدائية من أجل حصولهم على امتيازات القسم المادية، ترأسهم مديرة إدارة تصغرهم سنًّا لا تختلف عنهم جهلاً، لكن لها قدرة عجيبة في (بلف) الآخرين وإيهامهم بأنها من العلماء في علوم الكمبيوتر، ربما أرسل الله إليهم (مروة) لتكشف لهم ضآلتها.

عينت (مروة) موظفة في إدارة الحاسب الآلي، كمستخدمة كمبيوتر تختص ببرنامج المخزون السلعي، وقد كان برنامجًا ضعيفًا جدًّا لا يرقى لتسميته ببرنامج، لكن مديرتها أقنعت الإدارة العليا بأنه البرنامج الأوحد في الشرق الأوسط المتخصص في إدارة المخزون السلعي، تتحجج بأنه لم يتم تفعيله بسبب عدم وجود مستخدم، عينوا (مروة) خصيصًا لتفعيله، عندما توسط لها (هاني) ابن الشيخ (صديق) زوج أمها، الذي كانت له علاقة مصلحة برئيس قطاع الشئون التجارية، الله وحده هو من هيأ لها كل شيء لهذه الوظيفة، موافقة رئيس القطاع ثم موافقة رئيس الشركة، التي جاءت بعدما اختبرتها (سهام) مديرة الإدارة، التي توسمت في ملامحها الهادئة القدرة على تطويعها، وطويها تحت جناحها لتعزيز قوتها، لم تكن تستوعب أن الضعف والاستكانة الساكنة في ملامح (مروة) كان سببه يأسها من الحياة، أو أنه حيلة الضعفاء

حينما يستهدفون استعطاف من بيدهم الأمر، من أجل الحصول على الوظيفة، لعنت (سهام) نفسها ذات يوم أنها كانت سببًا جوهريا في تعين ألد أعدائها، حتى جاءت الوظيفة إلى (مروة) بيضة مقشَّرة على عكس ما كان سائدًا من واسطات ورشى هائلة من أجل الحصول على وظائف أقل منها قيمة وراتبًا.

ذاع صيت (مروة) في إدارة برنامج المخزون السلعي ليس بفضل ذلك البرنامج العقيم، ولكن بفضل برنامجها الذي صممته في يومين، وأدخلت إليه البيانات بمنتهى السرعة، وأصدرت التقارير المهمة على غير العادة، ترسلها إلى الجهات المعنية لتعلمها بإمكانية ما تقدم لها من خدمات، واستدعاها رئيس الشركة مباشرةً عندما حدث كسر هائل في خط كبير، أراد له جوان حديد ١٥ بوصة، ومن خلال برنامجها استطاع أن يحدد المخزن الذي يوجد به رصيد كاف من هذا الجوان، بالإضافة إلى المستلزمات اللازمة لإصلاح الخط، ومنذ تلك اللحظة أصبح تعاملها مع رئيس الشركة مباشرة، أو بمعنى آخر كان مع المديرين مباشرة، متجاهلين بيروقراطية رئيستها التي جن جنونها، في ذات الوقت كان (شعبان) مديرًا لإدارة المخازن، وطلب منها مباشرةً إعداد بيان عن أرصدة الأصناف في المخازن والمنصرف منها خلال عام، لإعداد الموازنة السنوية للمخازن، وبالفعل قامت (مروة) بضغطة على زر، أصدرت التقرير وأرسلته مع الموظف الذي جاء يطلبه، وكان يظن أن الأمر يتطلب منها شهرًا، انبهر (شعبان) بالتقرير وذهب به إلى رئيس الشركة، يثني على سرعة ودقة البيان الذي سيساعده في إعداد خطة استراتيجية تحدد الاحتياجات في السنوات المقبلة من أصناف وإلغاء شراء أصناف أخرى، طالبًا من رئيس الشركة نقل جهاز المخزون السلعي وموظفته إلى إدارته، هاجت (سهام) التي انفجرت غاضبة تتصارع مع الجميع وأولهم (شعبان) ترفض نقل (مروة) لأن ذلك معناه تدمير إدارة الحاسب الآلي وعدم استقلاليتها، تقنع (مروة) بضرورة رفضها هي الأخرى، واضطرت (مروة) إلى أن تطاوع مديرتها من أجل المصلحة العامة للإدارة، على الرغم من اقتناعها بأن (سهام) كل ما يهمها هو ألا ينسحب البساط من تحت قدميها لأن هذه الإدارة هي الوحيدة التي ستصل من خلالها إلى المراكز القيادية، خاصة وأنها إدارة فعالة ومستحدثة على هيكل الشركة، تحاول أن تنقذ

سلطانها الذي امتد إلى جميع المحطات ومراكز العمل التابعة للشركة، بسبب احتياجهم الدائم إلى الدعم الفني من إدارة الحاسب الآلي، حتى ولو أن البساط كان ينسحب كثيرًا إلى (مروة) ولكن هذه القضية محسومة لأنها ستظل مديرتها وتستطيع أن تلزم الإدارات الأخرى بتقديم الطلبات باسمها لضبط منظومة العمل، ولكنها عندما تنتقل وظيفة حيوية من إدارتها إلى إدارة أخرى فستفقد السيطرة عليها، وانتهت الحكاية إلى معركة مشتعلة بين (مروة) و(شعبان) عندما تحججت (سهام) لرئيس الشركة برفض (مروة) الانتقال إلى إدارة المخازن، بحجة أنها ستكون الفتاة الوحيدة بين هذا الكم الهائل من عمال وأمناء المخازن، في موقع منفي بعيدًا عن الشركة تبعًا لطبيعة عمل المخازن، واعتبرها (شعبان) إهانة لأنها ترفض العمل تحت إدارته، فأقسم على الملأ أن يلغي هذه الإدارة تمامًا، وبالفعل بنى خطته المستقبلية على ذلك، والمدهش أنه نفذها بمساعدة (سهام) رئيستها التي فطنت أن هذه الإدارة ستعزز من قوة (مروة) على حسابها، وركنوا (مروة) على الرف.

لم تيأس (مروة) ولم تستسلم لهذه الركنة التي طالت، أخذت تطور من أدواتها تتطلع إلى أماكن عمل أخرى، تقدم مساعدات وخدمات للإدارات الأخرى دون تكليف من أحد، حتى اكتسبت خبرة ومعرفة عن طبيعة عمل غالبية الإدارات الفعالة بالشركة، تعد البرامج التي تسهل عليهم سير العمل دون طلب من أحد، حتى طلبتها إدارات كثيرة للعمل لديها، فتفاقمت الأزمة بينها وبين رئيستها ولكن كل شيء تبدل تمامًا في مفاجأة عظمى غير متوقعة، عندما فوجئوا جميعًا بأن (شعبان) أصبح مديرًا عامًّا لإدارة الحاسب الآلي، وبدأت المعركة التي بدأ بإعلانها ضد (سهام) و(مروة) والتي انتهت إلى معركة تكاتف فيها (شعبان) و(سهام) ضد (مروة) لأن (سهام) استطاعت أن تحسن علاقتها به، عندما أصبحت عينه التي يتلصص بها على ما يدور في نفوس الموظفين في إدارتها وفي الشركة جمعاء، كما أنها أعطته وضعه بالتعظيم الدائم وتقديم فروض الولاء والطاعة والمساعدة والخدمات والعطاءات والهدايا، ودعمه بالمعلومات التي تلزمه لإرهاب الموظفين في جميع الإدارات التابعة له، حتى أصبح مجرد ذكر اسمه يرعب النفوس، وسيطر الخوف على العقول من كثرة التهديدات بقطع

العيش والفصل الذي طال الكثير من عمال الشركة على يد (شعبان) و(سهام) وأصبحا بين يوم وليلة عصابة مرعبة لجميع الموظفين في الشركة أجمع، وضمنت (سهام) أنه لن يستغني عنها أبدًا، بعدما أصبحت كفه التي يبطش بها في الوقت المناسب، تزداد الأحوال سوءًا في إدارة الحاسب الآلي يومًا عن يوم، فاتخذت (مروة) لنفسها جانبًا تنأى بنفسها عن هذه المعركة التي لا مصلحة لها فيها، ترفض أن تبدد طاقتها في المعارك، مدركة بأنها سنة الحياة أن يصارع الذئاب الذئاب، لكن ذلك لم يكن هدف (شعبان) الذي لم يخطط ليأخذ هذه الإدارة إلا من أجل أن يكسر شوكتها وشوكة (سهام) وها هي (سهام) أصبحت طوع يمينه، بينما ابتعدت (مروة) عن الساحة متجنبة أن تعطيه فرصة الاحتكاك بها، تتعالى بكبرياء رافضة أن تقدم له أدلة خضوعها وولائها، حتى جن جنونه، وساعدته (سهام) مستغلة تفاقم كل هذا الغضب، تخطط لتتخلص منها نهائيًّا، تشجعه بسذاجة مضخمة له خطورة وجودها في الإدارة ليطردها من الإدارة نهائيًّا، دون أن تدرك أن سعادته في أن تظل هذه العنيدة تحت إمرته، ليستطيع إذلالها وتسفيهها والإقلال من شأنها في كل اجتماع على الملأ، ربما كان يعقد الاجتماعات خصيصًا معطلاً سير العمل من أجل ذلك الهدف، مسفهًا من شأن من يكرههم رافعًا شأن المرضي عنهم، مستشهدًا بقدرتهم الفائقة على التطور شاكرًا لمجهودات وهمية، بينما ينكر عليها أي مجهود تقوم به، يتهمها بالتقليدية وعدم القدرة على الإبداع الوظيفي بعكس جميع زملائها، حتى احتقنت منه ذات مرة منفعلة واقفة دون استئذان تقول له على الملأ:

- «ممكن حضرتك توضحلي بالضبط إيه هو الإبداع الوظيفي؟ وحضرتك أول من بيطلب مننا الالتزام بالتعليمات»

فراح يقذفها بنيران الغضب يتهمها بالغرور وافتقادها لآداب الحوار، لأنها لم تستأذن قبل أن تتكلم، لم تتمالك نفسها وفقدت القدرة في السيطرة على دموعها التي انفجرت تغسل وجهها تاركة له الاجتماع دون استئذان، تقسم بينها وبين نفسها أنها لن تحضر له اجتماعًا بعد اليوم مهما كلفها الأمر من

ضرر، يشن عليها حربًا نفسية أخرى يتهمها فيها بأنها عدوانية غير قادرة على صنع علاقات طيبة مع الزملاء، زادته غيظًا عندما استقبلت اتهامه باستخفاف، بينما هو كان متعمدًا إحراجها في مكتبه أمام جمع من موظفي الإدارات، عندما استدعاها يعنفها على عدم حضورها أحد اجتماعاته، تعودت على أن تبتلع اتهاماته وإهاناته التي يلاحقها بها بصلابة تفسد عليه خطة تدميرها نفسيًّا، فتستفزه ليفتعل اتهامًا جديدًا أكثر دويًّا من ذي قبله، بينما هي تبتلع الاتهامات اتهامًا وراء الآخر دون أن تتنازل لتقف أمامه مدافعة عن نفسها، حتى توحشت رغبته في إذلالها، غير مدرك لضعفها المستتر خلف ستائر هذه القوة، وأنها تبكي منهارة بالساعات أمام القمر، الذي يأتيها متسللاً من ذلك الثقب متخطيًا جميع الحواجز عندما تحتاجه، تنهنه له باكيةً تشكي له جبروته، وقسوة زملائها الذين يبتعدون عنها نهائيًّا إرضاءً لـ(شعبان) يلومونها لأنها لم تساير الأحداث المتقلبة، يوجبون عليها أن تبارك وتهنئ وتضحك وتقدم فروض الولاء والطاعة، يتهمونها بالتقصير في أداء الواجب الذي يتحتم على كل مرءوس لرئيسه، وأنها تتمسك بغطرسة فارغة لن تجني من ورائها سوى التعاسة، لم ينصفها أحد من زملائها، على الرغم من كل الود الذي كان يملأ قلبها لهم، لقد كانت تفاجئهم كثيرًا بمحبة خالصة تتودد إليهم بالهدايا، كأن تفاجئهم بحلوى المولد مثلاً، أو (تورتات) في مناسبات أعياد ميلادهم، أو أن تدعوهم إلى الفطور الجماعي، أو تقوم بعمل المشروبات الساخنة لهم جميعًا، تشاركهم الضحك على نكاتهم الفارغة، تسأل عمَّن يغيب وتعود من يمرض بالهدايا والزهور، ضاع هذا الود هباءً يتجنبونها نهائيًّا، حتى أنهم تخلوا عن مجرد تحية الصباح عليها، أو الابتسام في وجهها إرضاءً لـ(شعبان) وتحولوا جميعًا إلى جزء من الحرب التي أعلنت عليها دون جريمة تستحق، إن جريمتها الحقيقية هي أن مفهومها عن العلاقة بينها وبين رؤسائها، تتلخص في تنفيذ ما يطلب منها من تقارير، وتقديمها على وجه السرعة، تحتقر كل من يلعق حذاء رئيسه من أجل إرضائه، يدهشها أن هؤلاء أنفسهم بشحمهم ودمهم كانوا سببًا رئيسيًّا في أن تكرهه قبل أن تعرفه، عندما كانوا يتغامزون ويتلامزون يوميًّا على فضائحه، وتملقه لاعقًا أحذية رؤسائه من أجل الإدارة العامة، يزيف

الشهادات التي تنسب له مدة عمل كاذبة في ليبيا، وأن مدة العمل المزورة التي ضمها إلى ملفه جعتله يتخطى رؤساءه، حتى أنه أصبح بين يوم وليلة مديرًا على مديره الأستاذ (إبراهيم يحيى) من أين لها أن تعرف بفضائحه مع (نجوى كامل) تلك الحكاية الشيقة المثيرة التي كانوا يتابعونها يوميًّا علنا بشغف، يتغامزون ويسخرون وينكتون، وتحكي لها (سهام) بتقصع -مستمتعة بالخوض في الأعراض- التفاصيل التي تصلها من جواسيسها الخاصة، تبلع الكلام وهي تشرب الشاي وتحكي لها عن (نجوى) الموظفة في الإدارة الحسابية التي بها دائرة (شعبان) والتي تقوم بتقديم جميع التسهيلات لكل من يمت بطرف قرابة له ولعائلته، تستهزئ ساخرةً من تصريحاته لعمال المخازن عن نيته في خوض انتخابات مجلس الشعب القادمة وهي تقهقه قائلة:

- «ماعادش إلا الصيع يدخلوا كمان مجلس الشعب»

جميع العاملين الذين يسبقونها في الشركة كانوا يتغامزون على علاقته بـ(نجوى كامل) أخت (إيمان كامل) التي كانت هي الأخرى تلعب على حبال (مدحت) المهيمن على إدارات الشئون الإدارية وشئون العاملين، على الرغم من جميع هذه المقدمات، إلا أنه لم يتوقع أحد أن (شعبان) سينطلق نفوذه بقوة الصاروخ، ليصبح بين عشية وضحاها الرجل الثاني في الشركة، الذي بيده مفاتيح جميع الأبواب المغلقة، وعندما فاجأهم بتعيين (سناء كامل) الأخت الثالثة لـ(نجوى) و(إيمان) لم يجرؤ أحد في جميع القطاعات أو مواقع الشركة أن يغمز أو يلمز بينه وبين نفسه بكلمة، حتى عندما حاولت (مروة) استفزازهم ساخرة تقول:

- «ما هي بقت خلاص شركة آل (كامل)»

لم يلتفت إليها أحد، وأصبحت التعليقات جميعها تمجيدًا فيهن، يستبشرون خيرًا في النساء الثلاثة، تصفهن بأنهن بجميع نساء الشركة، خاصة في المبالغة في المظهر، والحضور الطاغي المبهر للعقول، الذي يلغي في حضرته الجميع، لأنهن يفرضن شخصيتهن على المشهد بسهولة تخضع العقول مسلمة بأنهن

دائمًا على حق، مهما كانت تفاهة ما يقلنه أو يفعلنه، يشهدون بأنهن يتفوقن على غيرهن في قدرتهن على إبراز ما خصتهن به الطبيعة من جمال الوجه والجسد الفارع الممشوق، حتى أن الرجال يحسدون (شعبان) على فرسته (نجوى) و(مدحت) على فرسته (إيمان) وأصبح تقديم الولاء لهن فرضا كما يقدمونه لـ(شعبان) و(مدحت)

وبلغ الفساد في الشركة في هذه الآونة عنان السماء، وأصبح حالها لا يسر عدوًا ولا حبيبًا، بعدما سيطرت مشاعر الرعب على جميع عمالها، يخشون على قوت أولادهم الذي أصبح على كف عفريت، مهددون دائمًا بقطع الأرزاق لأتفه الأسباب، امتثلوا جميعًا ساجدين لآلهة من حجر، لأن وجوههم تزغر زغرة تزعر القلوب، على الرغم من أن الحكاية كلها كان من الممكن أن تنتهي، لو أن أحدهم تجرأ يمسك فأسًا يهشم بها رأس تمثال واحد من هذه الأحجار البلهاء، كان ذلك كافيًا ليثبت للجميع أنهم أضعف ما يكون، ولكن الدمايطة على وجه التحديد يخافون من يهدد أكل عيشهم.

لم يجرؤ أحد في هذه الشركة، على أن يقف في وجه (شعبان) الذي يتحكم في مصائر وأرزاق أغلبية عمالها، سوى (مروة) التي لا تساوي في سوق النساء قرشًا، لا تنفذ من أوامره التي تلقيها عليهم (سهام) يوميًا، إلا ما يقتنع به عقلها، فتعمدت (سهام) التأفف منها تشتكي له يوميًا، من هذه الموظفة التي فقدت القدرة على السيطرة عليها، لأنها لا تمتثل للقرارات، وقد بلغ بها الحد لأن تصدر قرارًا يوقع عليه رئيس القطاع ورئيس الشركة، مفاده أن يغسل الموظف كوب الشاي فور الانتهاء منه، لأن ذلك يؤذي المظهر العام، وسيحرم من الحوافز من لا ينفذ الأوامر! و، و، و، و... كثير من القرارات التافهة التي لا تمت للعمل بصلة، كانت (مروة) ترفض هذا الحد من الإهانة للكرامة وللآدمية تقول لها في استهزاء:

— «حاضر هاشرب اللبن قبل ما أنام وأغسل رجليا بالمياه والصابون»

وتفاقمت الأزمة عندما بلغت به تفاهته وغطرسته، لأن يجمعهم للاجتماعات ليثبت على الملأ إهمالها وعدم الجدوى من وجودها، على الرغم من أنه هو من

يركنها على الرف، يرفض تكليفها بأي عمل يذكر، وفي ذات الوقت يقول شعرًا في كفاءة أتباعه التي على رأسهم (نجوى) طبعًا، باعتبارها المثل الأعلى الذي يجب على الجميع أن يحذوا حذوها، القديسة التي تقدس العمل وتستحق المكافآت والترقيات، بينما يشير إليها ليفهموا بأن هناك من يكتفي بالفرجة دون أن يحلل مرتبه أمثال (مروة) ووصلت به البجاحة لخصم حوافزها دون سبب، فاشتطاط عقلها وانفجرت نيرانها المحبوسة تنطلق من صدرها، تصب غضبها كله في مذكرة لرئيس مجلس الإدارة، تشرح له فيها كل شيء، لتصبح (مروة) هي الموظفة الوحيدة التي تجرأت وكتبت فيه مذكرة على مدار تاريخه الإداري، شرحت فيها كل ما تعانيه من تجاهل وسوء معاملة مستشهدة بما فعلته من برامج لإدارات دون تكليف، في الوقت الذي كان هو يلغيها تمامًا هو ورئيستها المباشرة، متعمدان تجاهلها التام وعدم إسناد أي عمل لها، طلبت مقابلة رئيس مجلس الإدارة بنفسها، دخلت عليه منهارة تنهنه وتنساب دموعها الحارة على وجهها، غير قادرة على شرح ما بالمذكرة، تعاطف مع حالها الرجل وأنصفها نصفة لم تكن تتوقعها، حتى إنه استدعاه فورًا ليعنفه أمامها، مستشهدا بأنه هو شخصيًّا شهد بكفاءتها، يوبخه بلطف قائلاً:

– «بدل ما ننمي الكفاءات نقوم نهدرها عشان نصفي حساباتنا الخاصة يا (شعبان)؟»

وأصدر رئيس الشركة قرارًا عاجلا لشئون العاملين برد حوافزها، وجد (شعبان) نفسه يقف أمامها غارقًا في عرقه في موقف لا يحسد عليه، لم يكن يتصور أنها سيبلغ بها القدرة لتكتب فيه مذكرة، تشرح فيها كل هذه التفاصيل بكل هذه الجرأة، والحقيقة أن (مروة) نفسها لم تكن واثقة بأن رئيس الشركة سيصدقها، أو أنه سينصفها، لكنها فعلت من أجل إرضاء نفسها، لتحترمها ولتشعر بأنها أكبر من ضعفها، ولولا أن رئيس الشركة له من الدسائس ما يجعله ملمًا بصغائر الأمور، يعرف كل صغيرة وكبيرة وهو يتقوقع في مكتبه، يتابع فصول المعارك التي تنشب في الإدارات على مختلفها صامتًا، لكنه عندما اضطر إلى أن يأخذ موقفًا كان لا بد أن يكون فيه منصفًا للحق، لذلك كان هذا

النظام الظالم محافظا على توازنه، لأن اليد الباطشة تجد من يفرملها وقت الغضب، ولكن ذلك يتحقق فقط لمن يظن أنه قادر على الوقوف بضعفه أمام جبروتهم، لكنه سيفهم بعدما يهدأ غضبه أنه كان واهمًا، وأنها شبكة محكمة، أجادت توزيع الأدوار في هذه اللعبة الهزلية التي يتقاسم أطرافها بين من يضرب ومن يتلاقى، تلك اللعبة التي أزهقت أرواح البشر، يمارسونها بحرفية يخترعون أساليب عديدة لمرمطة النفوس وإذلالها، على الرغم من أنها خرجت مرفوعة الرأس عائدة إلى مكتبها منتصرة، انتشرت حكاية (مروة) بين عمال الشركة متعجبين لجرأتها على (شعبان) وكأن ما فعلته كان صفعة مخزية على قفاه، اشتاط عقل (شعبان) يضرب مكتبه بكلتا كفيه مقسمًا على الطلاق بالثلاثة لأتباعه:

– «لازم أخليها تأكل من اللي تحت رجليها»

اقترح عليه (محمد مسعد) زميلها في القسم وأحد رجاله:

– «ما تريح دماغك منها يا ريس وتنقلها في أي مكان بعيد»

خطر ببال (شعبان) أن يجلدها بيد أحد أتباعه الغلاظ، كان أكثرهم غلظة رئيس الوحدة الحسابية بالزرقا، أجاب (محمد مسعد) منشرحًا لفكرته، تتراءى له خطة إذلالها أمام عينيه قائلاً له:

– «هوديها للي يعرف يربيها»

تلتفت (مروة) لـ(رانيا) التي أطالت فيها النظر مندهشة من سهامها الطويل، تهز كتفها تسألها:

– «سرحانة في إيه كل الوقت دا»

تبتسم (مروة) ساخرة منتبهة لما يحدث من جلبة حولها، تتأمل العمال الذين يعيدون توزيع المكاتب بشكل آخر على الغرفة التي أصبحت براحًا، بعدما أخرجوا مكتب المهندس (محمد) ودولابه ذاهبين به إلى غرفته الجديدة، متوليًا إدارة متابعة الخطط، إدارته التي ردت إليه، انشغلت (رانيا) بإعادة الدوسيهات

إلى الدولاب وهي تعدد في مزايا الرئيس الجديد، بينما (مروة) ساهمة على مكتبها تشخبط على الورق، تكتب أسماءً كثيرة تطفح بها الذاكرة، انتبهت متأثرة حزينة يتصدر أمامها على الورق اسم (سناء) تسيل دموعها تبلل الورق، تسمعها (رانيا) تنهنه تبتلع دموعها تهمس لنفسها:

- «(سناء) يااااااااااه.. الله يرحمك يا (سناء)»

فتسألها (رانيا) التي جلست جانبها مندهشة:

- «مين (سناء) دي»

أجابتها (مروة):

- «مش عارفة إيه فكرني بيها دلوقتي حالا، لقيت اسمها قدامي وأنا بشخبط عالورق، الله يرحمك يا (سناء)»

عندما أصدر (شعبان) قرارًا بنقل (مروة) للعمل بالوحدة الحسابية بالزرقا، بناءً على طلب رئيس الوحدة، الذي تقدم بطلب يطلب فيه موظفة تعد له برنامجًا للمقايسات، بعدما تم استخدام الحاسب الآلي في تجربة مستحدثة لتطوير العمل بالوحدة، بهذه الطريقة نفى (شعبان) عن نفسه تهمة النقل التعسفي، وبدأ تنفيذ خطة إذلالها، لأنها لن تستطيع الرفض، طالما أن حاجة العمل تقتضي الاستعانة بكفاءتها.

هذه المدينة التي لم تتخل بعد عن طبيعتها الريفية، هي إحدى مدن المحافظة النائية، والتي ستعاني الأمرين في مواصلاتها، بعدما كانت تعمل في المقر الرئيسي للشركة بميدان المعلمين، والتي تسكن على بعد عدة أمتار منه، في حارة ضيقة من حواري شارع المطري، المجاور لميدان المعلمين، على الرغم من هذه المعاناة نفذت (مروة) قرار النقل، أملا في الابتعاد عن جو المعارك التافهة غير النبيلة، التي تستنزف حياتها على هذا الكوكب الذي لا تمت له بصلة، لأن القمر هو كوكبها الحقيقي، تنتزعها منه بقوة هذه المعارك، وتتناساه كثيرًا، تقول نفسها عندما يهاجمها شوقها إليه: "لا وقت هنا لك أيها القمر".

ارتضت بهذا المكان النائي، بشمسه الملتهبة وسط روث البهائم وما يجره من ناموس وهاموش، البعيد كل البعد عن جمال (نجوى) و(إيمان كامل) وعطورهم البارسية، في ذلك المبنى الكئيب المحشور في قلب الريف بجلافته، مجبرة على أن تتعايش مع وجوه محترقة بقسوة الطبيعة، متنازلة عن الرفاهية المتدنية، التي كانت تعيشها في حارات المدينة، تتعشم أن تلتقي بقلوب طيبة، لكن عشمها لم يكن في محله، تيقنت ذلك، منذ أول وهلة لها في هذه الوحدة الحسابية.

كان أول القصيدة كفرًا، عندما بدرت ذاهبة في السابعة والنصف صباحًا، إلى موقف سيارات الزرقا، لتتدارك العوارض التي تحول بين وصولها في موعد الحضور، لتؤكد لرئيسها الجديد جديتها وحرصها على الالتزام بالمواعيد، ظنت أنها ستكون هي الأولى في الحضور، وتهيأت لهذه الفكرة عندما وجدت الميكروباص كامل العدد ما عدا الكرسي الأمامي، الذي سينتظر راكبًا آخر غيرها، أخذت تدعو الله في سرها لأن يكون هذا الراكب نحيفًا جدًّا، حتى تجلس مرتاحة دون أن تضطر للقرفصة في قعودها، تجنبًا للتلاصق المحتم حدوثه، انتظر السائق ما يقرب من نصف ساعة دون أن يأتي الراكب المتمم للعدد، عندما وصل الركاب إلى ذروة تأففهم، اقترح أحدهم أن يتحمل كل راكب ربع جنيه زيادة، تحملاً لأجرة الكرسي الخالي؛ فوافقوا مضطرين متأففين، فردت (مروة) نفسها تضع حقيبتها على هذا الكرسي الخالي الذي يفصل بينها وبين السائق، لكن جلبة حدثت في قلب الميكروباص، وقبل أن يدير السائق سيارته هاجوا جميعًا، يطمع كل واحد منهم أن يأخذ هو الكرسيين الأماميين متعللاً بعلل فارغة، أحدهم بمرضه والآخر بطول ساقه ووووو يطلبون منها أن تترك الكرسيين، وجدت نفسها فجأة تصارع في قضية تافهة تضطرها إلى الدفاع عن حقها، وحسم السائق المعركة غاضبًا يحلف طلاقًا بالثلاثة أنه لن يشتغل في يومه، يأمرهم جميعًا بالنزول من الميكروباص، نزلوا مرغمين يشتمون ويسبون ويلعنون الغل الموجود في قلوب البشر، دخلت الميكروباص الذي يليه وهي في قمة اندهاشها، وكان العدد قد اكتمل لأن الراكب المتمم وصل، انطلق

الميكروباص وسط ضجيج البشر وهم يحاولون إصلاح العلاقات التي أفسدوها بينهم وبين بعضهم البعض.

عندما تحدث مواجهة بين الناس في النزاع على الحقوق التافهة في هذه المدينة، لا أحد في هذه المدينة يعطي إنسانًا شيئًا عن طيب خاطر، أما المدهش فعلاً أنه بعد لحظات من انطلاق الميكروباص، عادوا إلى السلام المؤقت مع بعضهم البعض، وكأن شيئًا لم يحدث، ظلت طوال الطريق متأففة تسب وتلعن وجودها في هذا المجتمع المنتفخ كبالونة سميكة الجلد، تتوقع أنها ستنفجر يومًا ما بغليان الأنانية والعدائية المتأججة دائمًا في هذه النفوس.

صدمتها الكراكيب الكثيرة المتربة من الأسلاك والعدادات المخلوعة للمشتركين المنقطعين عن السداد، أو الفائض عن غرف المخازن سواءً كانت المخلفات أو مخازن غرض البيع، في مدخل هذا المبنى الصغير ذي الجدران الملطخة بألوان جرباء وبقع عارية متهالكة، تقطع الممر الضيق الذي يبدو طويلًا لكثرة كراكيبه، والذي سيصل بها إلى سلم الطابق الثاني المخصص للوحدة الحسابية، أربعة من الغرف، غرفتين في مقابلة غرفتين يفصلهما ممر ضيق، سألت عن (محمود) في الغرفة الأولى، التي فهمت أنها الخزينة من بابها الحديدي، رحب بها بفتور (أيمن) أمين الخزينة مشيرًا إلى الغرفة المجاورة، استأذنت تدخل مندهشة بوجاهة الغرفة التي يلمع كل شيء فيها، حتى هذا المدير الضخم ببدلته السمراء وربطة عنقه التي تخطف العين لروعة تداخل ألوانها، انشغلت تدرس تفاصيلها المفروشة بعناية لا تنسجم مع جلافة كل شيء قابلته، استبقاها منشغلاً عنها بمهاتفاته والملفات التي بعضها كان في حجر (فتحية) مراجعة الوحدة، المنشغلة هي الأخرى بملف تعبث بأوراقه تقترب من (محمود) حد الملاصقة، رغم استفزاز المشهد لعقلها إلا أنها انشغلت تتفاعل مع رائحة الزهور الطازجة المرصوصة بعناية على مكتبه، تختلس النظرات لتتفحص رئيس الوحدة الذي قالوا لها عنه أنه يتعامل مع الموظفين كأنهم أنفار يعملون في عزبته.

(محمود المغربي) من أعيان مدينة الزرقا ويمتلك أكبر عزبها، يحتاج من الوظيفة الوجاهة الاجتماعية فقط، هذا المكان الريفي القذر الذي لا يصلح له سوى الجلابية، بينما هو يجلس أمامها بوجاهة الوزراء، لولا معلوماتها عنه لكانت هامت مع عطره الهادئ الساحر، انتهى من هاتفه ملتفتًا إليها مرحِّبًا في غطرسة وديعة، يطلق سراحها مستخفًا بتذمرها الذي قرأه في تململها كأنه اعتراض منها على كل هذا الانتظار، تركها لتتعرف بنفسها على زملائها الجدد، آملاً لها أن تجد هنا راحتها بعدما أخبرها بأن مكتبها سيكون في حجرة (سناء)

على عكس حجرته كانت الحجرات الثلاثة ذات الطلاء الكئيب، والأرضية البلاطية القاتمة، والشبابيك الصغيرة العالية مسدودة بأسياخ حديدية، اختنقت كأنها دخلت زنزانة، ألقت الصباح على زميلاتها في حجرة الموظفات، ذات المكاتب القديمة المتهالكة المتراصة حد التلاصق، تضم أربعة من الموظفات الريفيات البدينات، يكدن لا يبرحن مكانهن خشية المعافرة في هذه المساحات الضيقة، استفزتها هفهفة روائح مختلطة يحاولون إقصاء أحد مصادرها إلى زاوية بعيدة، ذلك البلاص الصغير للمش الفلاحي، بينما العيش الفلاحي الطازج المدسوس على المكاتب بين الملفات، والخضرة (المورورة) تنز بماء غسلها ملفوفة في ورق الجرائد، يدارونها بال(أكلاسيهات) ولكنهم لم يستطيعوا أن يخفوا عنها رائحة أجسادهم الساخنة الطازجة المتفاعلة مع الحياة، رائحة تبتعد كل البعد عن البارفانات البارسية لإيمان و(نجوى) رائحة أشبه برائحة التراب الغارق في ماء المطر، شعرت بألفة روحها مع هذه الروائح، التي قالت لها (سناء) عنها بعدما خرجت من حجرتها لتستقبلها ببشاشة مرحبة بها، مازحة تشدها لتنتشلها من بينهن:

- «تعالي ادخلي أوضتنا انتي مش واخدة على الريحة النتنة دي»

تطاوعها بينما عقلها منشغل بما قرأته على وجوههن الخالية تمامًا من الألوان، ومع الأيام تكتشف بأن الطبيعة خصتهم بفنون الغواية والهوى، هذه العقول الخاوية يعيشون الحياة بطموحات بسيطة، جعلتها تعيش بفطرتها حلاوة الحياة السرية ومتعها، علنًا دون خجل، عالم كبير وحياة أخرى بعيدة

عنها (مروة) كل البعد، قرأت فنونه منقوشة في تعبيرات هذه الوجوه التي لا تمتلك روعة التقاطيع المرسومة لبنات المدن، لكنهن يمتلكن حلاوة خاطفة، تحتاج إلى دراسة طويلة لتصل إلى سرها، خطر ببالها هاجس منذ لقائها الأول بموظفات هذه الوحدة الحسابية، عندما لاحظت نظراتهم الثاقبة المتغامزة عليها، يدرسون تفاصيل تقاطيع جسدها المخروط بخرائط المدن، صور لها هاجسها أن كل واحدة منهن كانت لها عند (محمود) مكانة (فتحية) وأن (محمود) يجمع في هذه الغرفة حريمه الذي زهد الرغبة فيه، وتؤكد الأيام لها ذلك الهاجس، عندما أدركت مكانة (فتحية) التي هي أحدثهم وأصغرهم سنًّا، تحمل نفس مؤهلهم دبلوم التجارة المتوسطة، لكنها ما زالت بعودها الفارع وقوامها الممشوق، تقلد في جلافة صارخة نساء المدن، تخدعهم بعوجة لسانها وترقيق نبرتها، يستسلمن لرغبة (محمود) ليتعاملن معها على أنها الأكفأ.

دخلت بها (سناء) إلى حجرتها دون مقدمات مرحبة تعد لها وليمة صغيرة من الفطور الفلاحي.

سناء سيدة ريفية بسيطة المظهر، قمحية ببشرة صافية تخفي نصف شعرها الأسود الفاحم بطرحة قصيرة بألوان زاهية، تتبدل بلوزتها الرقيقة يوميًّا على جيبتها السمراء، متأثرة بحياة المدن دون افتعال أو تصنع، ربما لأنها كانت زوجة محامٍ من الدقهلية، وخالطت مجتمع المدينة في المنصورة أثناء تعليمها الجامعي.

عندما استخبرت (مروة) عن وحدة الزرقا وعن رئيسها وموظفيها، لتستكشف هذا العالم المجهول المجبرة لأن تتعايش معه قبل الذهاب إليه، كانت أغلب القصص تخص (سناء) يحذرونها منها، يؤكدون على أنها ذراع (محمود) اليمنى، وعينه وأذنه التي يرى ويسمع بها كل ما يفعل أو يقال في غيبته، وأنها امرأة لعوب هوايتها إغواء الرجال، رغم هذه الخلفية التي جاءت بها متوجسة من (سناء) إلا أنها كانت الوحيدة التي فتح لها قلبها على مصراعيه منذ اللقاء الأول، تزول عنها قسوة الطريق التي كانت تعانيه متأففة يوميًّا بمجرد رؤية (سناء) تنعزلان في مكتبهما تتحاكيان وتهرجان وتأكلان الأكل الفلاحي، تفاجئها بين

الحين والحين بأكلةٍ مختلفةٍ من أكلات الريف التي لا تعرفها، فيمر الوقت بمنتهى السرعة وتذوب سخافات البشر في صداقتهما الدافئة ومحبتهما الخالصة، وهذا الوصل الذي لا ينقطع حتى بانتهاء يوم العمل، تظل علاقتهما موصولة عبر التليفون تستكملان الكلام والنكات بالساعات عن الوحدة و(محمود) وحكايته مع الموظفات المركونات البدينات في الغرفة المجاورة، وعن (فتحية) وعوجة لسانها المقززة، كأن الله أراد بهذه العلاقة مداواة جرحها الغائر في أعماقها لافتقادها صديقات الطفولة، صديقات القمر، بعدما ظنت أن الصداقة الحقيقية رحلت عن عالمها إلى الأبد ولم يعد لها سوى توحدها مع القمر، لكن ظهور (سناء) في حياتها جعلها تنسى كثيرًا أن تزور القمر، تدين لها بالفضل لأنها كانت معبرًا، استطاعت من خلاله أن تعبر أزمتها، وتتعايش مع جلافة هذا الريف وجلافة أهله بالساعات، هذه المحبة الحقيقية كانت تفتقدها من العالم بأسره، يمصمص جميع من بالوحدة شفاههم تعجبًا لهذه الألفة التي تطورت سريعًا، حتى أصبحت في ظرف أيامٍ قليلةٍ صداقةً حقيقية.

حكت (سناء) لـ(مروة) كل شيء عن هذه الوحدة بالتفصيل منذ لحظة إنشائها التي كانت منذ عدة سنوات، تولى (محمود المغربي) رئاستها، مستكفيا بهذه الغطرسة بين هؤلاء الفلاحين، استكمالاً لوجاهته كواحد من أعيان البلد، استمد سلطانه بأجولة الأرز وذكور البط التي يرسلها كل حين وحين إلى منزل (شعبان) حكت لها تفاصيل غرامياته وهي تبكي بحرقة الندم، معترفة كمن يتوق ليتطهر بالاعتراف لأول مرة، وكأنها تعترف لإله رحيم يتعاطف مع الضعف الإنساني، نادمة على حبها واستسلامها له باسم الحب، تؤكد لها هاجسها عن الموظفات الأربعة اللاتي وقعن في فخه، وأن لكل واحدة منهن حكاية طويلة مع (محمود) انتهت بدخولها غرفة الموظفات المركونات على الرف، حتى أنهن أصبحن صديقات جمعتهن حكاية غدر واحدة، يستلهمن منها التسلية والتغني بفنون الإغواء التي يتبارين في مقارناتها في مسابقات يومية لا تنتهي، على الرغم من أن جميعهن متزوجات، حكت لها عن (رابحة) زوجة (عبد الهادي) الذي كان يعمل معها في نفس المبنى بمركز الصيانة، والذي كان يتغاضى عن تصرفات (محمود) مع زوجته من أجل أن تطوله مكافأة أو ترقية، مصدومة في

هذه العباءات الفضفاضة التي تغطيها خمارات فضفاضة، وكأنهن يجدن في هذا الزي تكفيرًا كافيًا عن الآثام، وفي أفكارها التي توهمتها عن براءة الريف، لا تفهم من أين جاء عقلها بهذه الأوهام عن قدسية العلاقات وطهارتها وإنسانية البشر، فتكتشف مصدومة أنه لا يختلف عن مجتمع الإدارة، كما أن هناك (نجوى) و(شعبان) و(مدحت) و(إيمان) و(سمير) و(سلوى) كانت هنا أيضا حكايات انتهت وحكايات تبدأ، و(سناء) الساذجة التي أحبت (محمود) بكل كيانها، تصورت أنه سيتزوجها إذا جاءتها الشجاعة وحصلت على طلاقها، واكتشفت بعد ذلك أن متعته الحقيقية عندما يشعر أنه يستغفل الأزواج، لقد كانت تجاهد لتحصل على طلاقها لتكون له وحده، وكان هو يتمرغ في نعيم علاقته الجديدة بـ(فتحية) المتزوجة، يتملص منها متحججًا بأن علاقتهما أصبحت محل شبهة لأنها مطلقة، وحاول أن يستعيد علاقته بها بعدما تزوجت من المحامي الذي رفع لها دعوى طلاقها من زوجها الأول بسبب عدم قدرته على الإنجاب، ارتضت أن تكون زوجة ثانية لرجل لا تربطها به أية عاطفة، ولكنه توسم فيها سعادته التي يفتقدها مع ابنة عمه وأم أولاده، ليكون نصيبها منه ليلة في الأسبوع، لتنقذ سمعتها المنتهكة على لسان الجميع، حاول (محمود) مرة أخرى استغلال ظروف زواجها لوصل الود المنقطع بعدما حليت في عينيه مرة أخرى، مستغلاً حرقة امرأة تعاني من ابتعاد رجلها، ولكنها رفضت مصممة هذه المرة على الإخلاص لزوجها الذي أنجبت منه طفلتها، التي هي الدنيا وما فيها، فتجاهلها تمامًا يحقر من شأنها، ينسب عملها إلى (فتحية) يستغل أي فرصة لمضايقتها أو الاستخفاف بها سواءً كان أمام الموظفين أو العملاء، انزوت ضعيفة منكسرة تنطوي على نفسها غير قادرة على مواجهته، لأنه مسنود من (شعبان) ولن ينصفها أحد ولن يقتنع أحد أنه يستغل سلطته لأهوائه، بعدما سحب جميع مهامها وجعل من (فتحية) الأصغر منها عمرًا، بشهادتها المتوسطة هي الكل في الكل، يصرف لها المكافآت والحوافز، بينما هي يكتب عنها التقارير السيئة، ورغم ذلك لم تكن آسفة على شيء، تستعوض حظها بنظرة في وجه طفلتها التي تهون عليها الدنيا وما فيها، ثارت (مروة) من أجلها تحمسها لأن تكتب فيه المذكرات لرئيس مجلس الإدارة، ولكنها تراجعت عن حماسها عندما

تذكرت أحوال الإدارة التي لا تختلف كثيرًا، وتذكرت أن إنصاف رئيس الشركة كان سببًا لتنتقل من مستنقع إلى مستنقع آخر، وأقنعتها (سناء) أنه لن ينصفها أحد، فقط ستجدد الكلام في سيرتها مستهزئين ساخرين، وستنتهي الحكاية بأنهم سيفسرون شكوتها بأنها تغار على (محمود) من (فتحية)

حكت لها (سناء) حكايات كثيرة عما يحدث بجميع الوحدات الحسابية الموزعة على ريف دمياط، الحكايات التي يتداولها الرجال كمصدر للتسلية في لياليهم على المقاهي، بينما النساء في التليفونات، لأن الريف لا تخفى فيه خافية، الحقيقة عارية تتمخطر على مرأى ومسمع من الجميع، الريفيون يتعايشون مع الواقع السافل دون إثارة أية مشكلة تخوفًا على لقمة العيش، وكأن ثورة الناس التي كانت تهز الأرض من أجل الدفاع أو الحفاظ على الأعراض، أصبحت تراثًا قديمًا للإنسانية في هذه الحياة بسبب لقمة العيش، ولكنها غير مندهشة لأن طبيعة البشر التي تعاملت معهم في هذا الريف لها من البلادة ما يجعلها تقتنع بما تسمع وترى، مستاءة من الريف الذي كانت تظنه أفضل من المدينة، فتكتشف أن مدن دمياط وريفها قد يختلفون في لون البشرة ولهجة اللسان وجلافة نبرته، بينما يعتنقون جميعًا مبدأً واحدًا وهو: "عض قلبي ولا تعض رغيفي"، تتبدل مشاعرها ما بين متعاطفة عندما تتعمق نظرتها للبشرية أجمع، متفهمة أنه اعتناق يتفق مع طبيعة الأحياء في هذه الحياة، التي حاول فيها الإنسان اختراع أفكار تميزه ليتباهى بصناعة الحضارة الإنسانية، لكنه مع الوقت يضيق ذرعًا بأفكاره التي تعاكس طبيعته، فيهجرها متمردًا منطلقًا إلى بهيميته الأولى، سعيدًا بأن تتعرى عوراته على الملأ، يتباهى مستمتعًا بغرائزه المفضوحة، متخلصًا من سجن الأفكار ليعيش بليدًا، مستمتعًا بملذات الحياة الطبيعية التي حرمته الأفكار منها، ولكنها أحيانًا أخرى تكره هذه البلادة التي تشتد وضوحًا في هذا الريف. يتملكها الاشمئزاز والغضب عندما تحتاج إلى شرح طويل إذا اضطرت إلى أن تطلب من عامل أو عاملة مثلاً توصيل ملف إلى موظفة في الحجرة الأخرى، فتكتشف أن طلبها الذي يفهم بكلمتين لا بد له من حكاية طويلة عريضة، تحتاج إلى كوب من الشاي وقعدة بلدية وتمهيدات ومقدمات حتى يفهم العامل ما تقصده، لا توجعه إهانته واحتقاره في نظرة

تعلن عن رغبتها لأن تبصق في وجهه، هذه الأحوال لهؤلاء الريفين شغلتها كثيرًا، مدهوشة بهذا الاستنطاع والتمسك بهذه البلادة المريحة وكأنها أسلوب حياة اختاروه بإرادة تامة، والأدهش أنه لا يوجد اختلاف بين الجهلاء والمتعلمين وأصحاب الشهادات الجامعية، وكأنهم يحتاجون إلى معجزة لتتغير جيناتهم بجينات تفهم معنى الكرامة والإنسانية، فتذكرت وهي تحاول فك شفرة هؤلاء، أن الريف المصري بأجمعه كان عِزَبًا ووسيات، عاصروا أزمنةً قاهرةً تقتل الآدمية من أجل لقمة العيش والقهر بالكرابيج، أي كرامة هذه التي كانت تتوسمها في هؤلاء، فتعود إلى تعاطفها تدين الثقافات التي تعيش في أبراج عالية، دون أن تكلف نفسها بالنزول إلى أرض هؤلاء، ليأخذوا بأيديهم لصناعة واقع إنساني يليق بالإنسانية، الثقافة وحدها هي القادرة على تغيير هذه الجينات، هي القادرة على إحداث مواجهة صادمة لبشاعة صورتهم الخانعة، لكن المثقفين تركوا الساحة لرجال الدين، الذين وجدوا نفوسًا ممهدة للانسحاق والعبودية، فأصبح الريف نواةً لعبودية جديدة، ولساسة جدد يستكملون خطة تجريف معاني الإنسانية النبيلة، وتطويعها لتعزية القهر باسم الدين.

عاملها (محمود المغربي) في بادئ الأمر بلطف، وتأكدت من (سناء) أنه على علاقة بـ(فتحية) عندما سألتها مندهشة عن الباب الذي يغلق عليهما بالساعات، لكنه بين الحين والحين كان يستدعي (مروة) لمكتبه، يطلب منها أن تغلق باب الحجرة وراءها، فيزغر لها من وراء نظارته متأففًا عندما تواربه، وتهجم (فتحية) على الباب بعد دخولها بلحظات، تفتعل ضروريات تحتاج فيها مشورته، فتنقذها من نظرات الرغبة العارية المتبجحة بوقاحة منه تخترق ملابسها، تلمس حلمات صدرها المنتصب على بعد مسافة قصيرة في مواجهة رأسه، وهو محشور في مكتبه كوحش يملأ المكان. (مروة) متوسطة الطول نحيلة كعصفورة صغيرة كما كان يناديها، لكنه كان يثير اشمئزازها بنظراته الوقحة وكأنه يعريها بعينيه، ترتبك أمامه مستأذنة خارجة، تستهزئ بجلافته وسطوة ذكوريته التي يحاول أن يفرضها على الإناث، وكأنهم في حظيرة دواجن وهو كما يطلقون عليه ديك البرابر، لم تمكنه أبدًا من فرصة ليستكمل

قصيدة الغزل المبتورة، التي يبدأها مشعرًا في جمالها وملبسها ورقتها وسحر عطرها الذي يطيح بعقله و، و، و، و... فتصده مستاءة منسحبة إلى مكتبها تحكي لسناء، فتحذرها (سناء) من بقية السيناريو الذي سينتهي باتصاله التليفوني لها في البيت، فاشتركت (مروة) خصيصًا في خدمة إظهار رقم الطالب على التليفون الأرضي لتتجنب الرد عليه، حتى أصابه كل هذا الصد بالجنون، وأصبح مشحونًا ضدها، يستغل غضب (شعبان) عليها كتصريح للانتقام منها، وشعرت بهبوب رياح المعركة الجديدة، عندما لاحظت تغير نبرته معها.

تصدمها (فتحية) التي احتلت مكتبها تنبهها بنبرة ساخرة مائعة، كمتمرسة في أمور كيد النساء:

- «أستاذ (محمود) بيقولك ارتاحي انتي النهارده، أنا اللي هعمل المقايسات»

لم تفهم خطته عندما طلب منها منذ فترة تدريب (فتحية) على برنامج المقايسات، ففعلت لتفوت عليه فرصة اتهامها بافتعال المشكلات، خاصةً أن (فتحية) عملها الأساسي هو مراجعة حسابات الوحدة، والمفترض أن كل موظف له وظيفته التي تلزمه بالمسئولية، انفجرت (مروة) تهجم على مكتبه تستهزئ بما قالته (فتحية) فتجرأ عليها غاضبًا يصفها بالتافهة المتعجرفة، التي لا يرتاح بالها إلا بافتعال المشكلات، مستشهدًا بجرأتها على (شعبان) واشتعلت المعركة بينهما يتبادلان فيها العبارات الجارحة، عن قهره وجبروته وتسلطه وعن عنادها واستهزائها بالمديرين وعدم امتثالها للأوامر حتى انتهت المعركة بطردها من مكتبه، عادت إلى مكتبها مخذولة مقهورة غارقة في دموعها الحارقة، ترتمى على كرسي مكتبها الذي تركته لها (فتحية) بعدما انتهت مهمتها، تمسك بالورقة والقلم لتكتب مذكرة تحكي فيها كل ما حدث، لكن الكلمات تخذلها منحشرة في صدرها، فتشخبط بالقلم شخبطاتٍ كثيرة، ترسم دوائر تتداخل في خطوط متعرجة لا تأخذها إلى بداية أو نهاية أو شكل يشبه أي شيء، وكأنها ترسم بوعي آخر غير وعيها، ترسم القمر الذي هي الآن في أمس حاجتها إليه، بل أشكالا كثيرة لأقمار متداخلة.

كانت (سناء) في إجازة في ذلك اليوم المخصص لزيارة زوجها، وفي صباح اليوم التالي وقفت تستقبل (مروة) التي دخلت عليها عابسة الوجه متثاقلة فاقدة الرغبة في الحياة، جذبتها (سناء) بقوة إلى صدرها وراحا معا ينهنهان بحرقة، تقول لها (مروة) مختنقة بدموعها:

– «شفتي اللي حصل لي امبارح»

تجيبها (سناء):

– «عرفت كل حاجة لما شفت شخبطتك عالورق»

استعادت (مروة) قوتها باحتواء (سناء) وطبطبتها على روحها، اجتاحت روحها طاقة جبارة للتحدي والعناد، استلهمتها من ذلك الانكسار الذي يسكن عيون (سناء) صممت على أن تواجه الموقف بشجاعة لتأخذ حقها من (محمود) وتأخذ حق هذه الضحية التي يحترق صدرها بنيران لا يدري بها أحد، يتهمها الناس بأنها امرأة تغوي الرجال خوفًا من مواجهة الحقيقة.

ذهبت بالمذكرة إلى (شعبان) تدخل عليه متعجرفة شامخة، تعلم علم اليقين أن جزءًا من السيناريو الذي حدث كان برعايته، وأنه الآن ينتظرها كفريسة ستسقط بين يديه وروحها معلقة ما بين الأرض والسماء، ليستكمل الطعنات متلذذًا بصرخاتها، لكنها أبدًا لن تسقط كما هو واهم، فهمت نيته عندما رأت ابتسامته الساخرة، يدعوها برقة مفتعلة إلى الجلوس لتنتظر بين ضيوف مكتبه الممتلئ دائمًا بلاعقي الأحذية، انتهى من توقيعاته ومناقشاته معهم متباطئًا مراقبًا مستمتعًا بانفعالات وجهها الغاضبة، وعصبتها التي تتجسد في هزات ساقيها، يطيل المدة يتلذذ بغليانها أمامه على نار هادئة، بينما هي مشتاطة تنقر بأصابعها على حافة الكنبة الفخمة التي تجلس عليها قبالته، يتأملها مبتسمًا شاردًا عن موظفيه وأوراقه أحيانًا وكأنه يريدها أن تظل هكذا إلى الأبد، حتى انتهى من أعماله؛ فنادى على أم (جمال) العاملة، يطلب منها أن تغلق الباب بعدما فرغت الحجرة لهما، فيبتلعهما صمت يتضخم بحجم هذه الحجرة الكبيرة، صمت كفيل لأن تسمع فيه ضربات قلبها، التي تتضاعف وهو

يدور أمامها ببطء شديد دورة كاملة بكرسي مكتبه، كعادته عندما يريد أن يبعث رسالة من فوق السحاب، للحاضرين إليه من أهل الأرض، يقول فيها أنه هو سيد العالم، فيخر له الحاضرين سجَّدًا ولكنها لن تسجد له أبدًا، ينهشها الصمت وتتوتر أعصابها وهي تتابعه يدور ببرود أعصاب، مستغرقًا يقرأ مذكرتها التي يعرف كل حرف فيها دون أن يقرأه، تحاول فك طلاسم تعبيرات وجهه، تتجهز برد فعل عنيف بنبرة ساخطة حادة، لتطالبه بتحويل المذكرة للشئون القانونية، لكن ما حدث منه أذهل عقلها ورمى بالحكاية إلى ما لا تكن تتوقعه.

استقر من دورانه يعتدل مبتسمًا قبالتها، ينظر إليها بنظرة حلوة ساهمة، يعتب عليها بغيظ طفل مداعب:

— «أنا تشتكيني لرئيس مجلس الإدارة؟»

منحنيًا بجسده العريض على مكتبه ليقترب منها مستأصلًا جزءًا من البعد الذي يفرضه عليهما ضخامة مكتبه، متوعدًا بنبرة مشاكسة هامسًا:

— «انتي لسة شفتي مني حاجة؟»

تستسلم مستغرقة مندهشة لموسيقى نبرته، ولهذه النظرة المداعبة الحلوة، التي تبدلت معها ملامحه، وكأن روحه الشريرة تبدلت بروح وديعة، ترتعش عضلات وجهها مبهوتة لا تعرف ماذا تقول! لقد غير خطته دون تمهيد لتضع هي الأخرى خطة بديلة، وكأنه إله قادر بإشارة صغيرة أن يغير مجرى الكون، قادر على أن يبدل مشاعر البشر ما بين الكراهية والحب في لحظات، الحرب الباردة القائمة بينهما لشهور طويلة ينهيها بهذه النظرة الحلوة وهذه النبرة الساحرة، تمر بينهما اللحظات التي تبدل فيها ذلك الصمت الموحش، إلى موسيقى حالمة كتلك التي تسمعها عندما تغيب هائمة مع القمر، تتعانق النظرات الساهمة الحالمة كأنه لقاؤهما الأول، تبدل لها هذا الوحش الضخم ذو العينين الصغيرتين الماكرتين إلى إنسان رقيق، هذه اللحظة الفارقة في حياتها التي استطاع فيها بهذه السهولة أن يهدم جبل الكراهية الذي كان يطبق على صدرها كلما حلت سيرته، يحل محلها شعور ساحر ينقلها إلى عالم آخر، بستان

يتراقص فيه قلبها على موسيقى الكون الغامضة، كل شيء حولها يتغير، كل شيء فيها يتغير، كل شيء فيه يتغير، تراءت لها عيونه كأنها عيون جدها، تملكها شعور بأن جدها عاد إليها من سفره الطويل، لأنها تعتقد أن الموت سفر، انتابتها رغبة عارمة لأن تصرخ فرحًا مرتمية في أحضانه.

كانت (مروة) تشطح كثيرًا بخيالها تظن أن الله رءوف بالأرواح، حينما يحررها من جسد تسكنه، فتتركه ذاهبة إلى التجدد والانطلاق دون أن يحتم عليها الأبدية في جسد واحد، قد تحل هذه الأرواح في أجساد أخرى بعض الوقت، تروح وتجيء متنقلة بين أجساد من حولنا، فيبدوا لنا الناس أحيانًا أرواحًا غريبة ربما نحبها ونألفها على غير عادتنا معهم، وستفجعنا مرة أخرى حقيقتهم، حينما ترحل عنهم هذه الأرواح، تشطح كثيرًا بعقلها ربما ينفك لها لغز واحد من الألغاز التي تحيط بالأرواح، لكنها في نهاية الأمر لا تصل بشطحاتها إلى يقين، مدركة أن الإنسان الذي يطمح إلى الخلود، هو ذاته الذي يمل الأبدية، ربما يعوضها الله بهذا التجدد عن فكرة الخلود والأبدية.

ترى هل كان (شعبان) يقصد أن يحبها، أو كان يخطط لأن تخضع له باسم الحب؟ أم أنه كان يريد أن تأخذ جميع معاركه هدنة، مستقطبًا أعداءه بطريقة أخرى؟ لكن ما حدث هو ما لم يكن يخطط له، عندما رأى الحب في عيون (مروة) استسلم لحلاوته، وجد نفسه هو الآخر يحبها، يحتاج إلى أن يحبها، على الرغم من أنه ليس لديه وقت للحب، أو أنه يقدس أشياء أنفع له من الحب، لكنه اعترف بينه وبين نفسه أنه يحبها، يحب عنادها وكبرياءها وهو يسقط في أحضانه باكيًا، يحب نقاءها الذي يشبه نقاء طفولته المغتالة، على يد صاحب ورشة الموبيليا، وهو يستقبله يلطم صدغه النحيل بكفه الغليظة عندما قذفه له والده منبهًا عليه:

- «موته من الضرب بس علمه إزاي يجيب القرش»

يحب دهشة نظرتها التي افتقدت فجأة الشراسة وألسنة النار المندفعة نحوه كلما تقابلا، لتصبح فجأة عيون طفلة وديعة تبتغى الأمان في ملاصقته،

فسجدت لها جميع حواسه، مستمتعًا بخفقان قلبها، متلذذًا برعشة كفيها الصغيرتين وهما يفلتان من لسعة لمسته، جلبت (مروة) في نفسه ضعفًا يحتاجه أكثر مما يحتاج قوته، ضعفًا يؤكد أنه ليس شريرًا كما تتهمه تلك العيون الواهنة المستسلمة، التي حرمته من النوم لأنها تفزعه متسللة إلى فراشه، تطعنه ألف طعنة بخناجرها المسمومة في أحلامه، ضعفًا يستغفر الله من أجله، ويشهده أنه ما زال من أبنائه، لأول مرة يعترف فيها بينه وبين نفسه أن جبروته وهم، وأنه في حقيقة الأمر أضعف مما كان يتصور.

انهارت الكراهية في قلب (مروة) حلت عليها نورانية مدن القمر، تتدفق في دمائها أحاسيس الأنثى المهملة لتبهج روحها الحزينة، إن الطفلة الشرسة البائسة الضائعة الساكنة في أعماقها، اكتشفت فجأة أنها فتاة في الثلاثين من عمرها، استنزفت السنين تلاطم أمواجًا دون هدف، تحتاج إلى أن تستسلم لحلاوة أحضان شاطئ هذا البحر الغادر، الذي تجاوز الخمسين من عمره، والذي لا يعرف عن الحب سوى أنه وسيلة يستخدمها أحيانًا، لتزيد أرصدته في البنوك، أو لتجلب له أصدقاءً يخدمون مصالحه، ولكنه الآن لا يعرف ماذا يريد ولا يريد أن يعرف، بعدما وقع أسير هذه اللحظة الصوفية الخالصة، لحظة انبعاث روحه من جديد.

هذا الحديث الطويل للعيون في ذلك الصمت العظيم، صمت كصمت الكون الذي يسبح في حلاوته الملائكة، حتى أنهما لم يشعرا بانتهاء يوم العمل حتى دخلت أم (جمال) العاملة قاطعةً صمتهما الذي لا تفهم له سببًا، انتبه لتجاوزه موعد الانصراف بنصف ساعة وهو ينظر إلى الساعة المعلقة على الحائط المواجه، فراح يقلب في أوراقه يداري ارتباكه قائلًا:

— «امشي انتي يا أم (جمال) أنا هاخلص مع (مروة) كلمتين وأنزل وراكي»

تأكد له بانصراف أم (جمال) أن الطابق الذي يشغل مكتبه مساحةً كبيرةً فيه أصبح خاليًا تمامًا، استدار تاركًا مكتبه يلبس نظارته، التي خلعها وهو مستغرق في عيون (مروة) فهمت (مروة) أن اللقاء انتهى، رفعت حقيبتها إلى كتفها،

ترتعش ساقاها وهي تستعد هي الأخرى للخروج، متسائلة بنبرةٍ واهنةٍ هامسة لمجرد أن تقول أي شيء:

- «هعمل إيه مع (محمود)؟»

بينما هو مستغرق في حلاوة اللحظة الأولى للحب، يمد ذراعه الأيسر لذراعها الأيسر، يتعانق كفاهما يتمخطران يمشيان طريقا يفصلهما صفا طويلا من الكنبات والكراسي، حتى وصلا إلى نقطة الالتقاء، فأصبحا في مواجهة تامة، وكأنها عصفورة صغيرة رقيقة شاردة عن عشها الأول، راح يعيدها إليه برفق، اشتبك الذراعان الآخران وتباعدا وتقاربا، هامت فيه كأنها طفلة قادها القدر إلى البراح الذي يستوعب جنونها، مغمضة العينين تهيم روحها وحيدة ترقص في زيها الشيفوني البنفسجي المهفف رقصة "آه لقلبي والقمر"، تلك الرقصة التي كانت ستحيي بها حفلة المدرسة مع صديقاتها، يهيم في هيمانها يجذبها إليه برفق فتلاصق شفتاها شعيرات صدره البيضاء، تهيجه أنفاسها الدافئة فيضمها ويضمها وتعبر روحه روحها فيذوب جمود جسدها في جسده، محترقًا بنيران مشاعرها المضطربة وهمهمتها المرتبكة، ليرتعشا رعشة لها حلاوة لم يذقها في حياته وكانت الأولى في حياتها، أفاق بابتعادها خائفة تنسحب من أحضانه من هول ما تتحمله من نيران جسدها، فيجذبها إليه مرة أخرى بقوة متلذذًا بحلاوة دفء الرغبة التي تناديه بها رعشة شفاهها، ترتعش هو الآخر كلماته الهامسة:

- «هستناكي بكرة»

يمرغ وجهه في وجهها وصدره في صدرها، تتعانق اللهثات ويحترقا بلهيب الحب:

- «مش عاوزك تمشي»
- «ولا أنا كمان»

يحضنها مرات ومرات حتى كاد يخنقها، أفاقته رعشتها الحلوة تسري في جسده، ولزوجة ساخنة تسري بين فخذيه. راح يتدارك نفسه، ينشف هذه اللزوجة بالمنديل قبل أن تلتصق بملابسه، لكن رائحة جديدة سكنت أنفها وحواسها

وذاكرتها، أين كانت تغيب عنها هذه الرائحة، رائحة لزوجته وعنفوانه، رائحة انفعالات جسديهما، وروحهما، ولعابهما، رائحة عبرت بها إلى الحياة، رائحة كافية لأن تغفر له كل ما كان منه، كافية لأن تتنازل عن كبريائها، ربما من أجلها تتوسل إليه ألا يبتعد أبدًا عنها، إن الحياة التي كانت محرومة منها ظنت أنها ستبدأ من تلك اللحظة، ومن هذه الرائحة، تتوسل له كل ذرة في كيانها ألا يبتعد أبدًا عنها، تدغدغهما نظرة الوداع، بعدما انتهى من استعادة هيأته، يمسح بكفها دمعة على خدودها، يحضنها حضنًا دافئًا قبل أن ينزلا قائلاً:

- «سامحيني على كل اللي عملته معاكي»

قضت ليلتها تهيم في أولها مع ضوء القمر، تستعيد على سطحه لحظاتها الحلوة معه مرات ومرات، تتمنى لو أنه يأتيها خارقًا جميع الحواجز التي بينهما، مثلما اخترقها القمر، لو أنه يخترق حواجز حارتها وجدران حجرتها، متسللاً قافزًا إلى فراشها، لكنه لن يفعل، تسأل القمر لماذا ننشغل بالحروب من أجل أشياء تمنحنا سعادة وهمية، ونأبى أن نحارب من أجل سعادة حقيقية، لقد كان في أحضانها طفلاً وديعًا وكأن القسوة لم تعرف أبدا طريقًا إلى قلبه، ورجلاً حنونًا وهبها لحظة غيرت نظرتها للعالم بأسره، أليست هذه اللحظة هي الأولى بأن يحارب العالم من أجلها؟! يسرح عقلها متجولاً في أحوال الإنسان على هذا الكوكب، ذلك الكائن العجيب، الذي يستطيع أن يمتلك العالم بنظرة حب، ولكنه مصر على إخضاعه بالعنف والكراهية، يتلذذ بنيران الحروب ليصنع بها أمجادًا وهمية، فخورًا بجثث ضحاياه التي ربما يكون من بينها جثة من يحب، يمجد التاريخ الأبله في انتصارات احترقت من أجلها الإنسانية، الإنسانية التي تطلق العنان في النفوس لشهوة الحرب، مختالة بتلك الشهوة المشروعة، بينما تضع جميع الشهوات التي تحقق للإنسانية السعادة في الخانة المخجلة.

ذهبت (مروة) في الليلة التالية إلى (شعبان) متألقة بألوان زاهية، متخلية لأول مرة عن ألوانها القاتمة، ترتدي ذلك الفستان المهمل الذي اشترته عندما داعبت أزهاره المنقوشة خيالها وهو معروض في فاترينة محل من محلات شارع التجاري، سيطرت على عقلها فكرة شرائه غير عابئة بغلو سعره الذي سيربك

ميزانية الشهر، ولكنها أهملته في دولابها حزينة، لأنها اكتشفت لحظة تجريبه أنها لم تجد نفسها فيه، ولكنها الآن تشعر أن روحها ترقص داخل بستان يشف من وروده البديع، يحل سحر عطرها على العقول قبل أن تراها، تبرز انتفاخ شفاهها بـ(روج) صارخ.

صعقت الأخبار آذان (نجوى) التي سارعت إليها أم (جمال) عاملة مكتبه، والتي جندتها بسخاء عطاياها، دخلت عليها في مكتبها بالمبنى الآخر، تحكى لها بإثارة تبدل حال (مروة) بين يوم وليلة.

دخلت (مروة) متباطئة مرتبكة إلى مكتب (شعبان) المزدحم كعادته، يخفق قلبها لجعجعته، التي صعقت أذنيها لحظة أن وضعت قدمها على أعتاب الممر الطويل، التي سيصل بها إلى مكتبه في الدور الثالث، فهمت أنها بسبب سرقة تمت بالمخازن، وأن أمين المخزن المتهم هو (السيد نزهة) أحد رجاله المخلصين، كان (شعبان) منهمكًا يدرس في عصبية مع مدير إدارة التكاليف كيفية تسوية هذه الواقعة، متحججا بأن (السيد) "غلبان وهيروح في داهية"، بينما عيون الحاضرين مصوبة إليه خلسة، تتهمه أنه متورط معه في سرقة المخازن، تجاهلت عيونهم تبحث عن عيونه، يحمر وجهها عندما التفت منتبهًا إلى عطرها، صعق قلبه لسعة التقاء العيون، تمالك نفسه يطلب منها أن تتفضل حتى يفرغ من مشكلاته الكثيرة، التي يبتلى بها القطاع التجاري، يلعن اللحظة التي أصبح فيها رئيسًا له.

جلست قبالته كأميرة، ترفع ساقًا على الأخرى، بينما هو يحاول أن ينتزع روحه من الانفعال بجمالها العاصف، متلذذًا بطزاجته متأكدا أنها من أجله، تمر أمامه لحظاتهما ليلة أمس، تفاجئهما (نجوى) متسللة كمن دخل ليضبط ارتكاب جريمة، استقبلها استقبالاًعاديًّا يدعوها للجلوس، دون أن يهتز لهذه المفاجئة، انهمك مرةً أخرى في قضيته، تتابع (مروة) بشغف تعبيراته المتعاطفة مع (السيد نزهة) أمين المخزن، وتعبيرات مدير إدارة التكاليف التي تستنكر منه هذا التعاطف، ورغم ذلك يوافقه مجبرًا على فكرة تسوية الأمر بطريقة ودية، تنتبه على لسعة نظرات (نجوى) التي تفرز تفاصيلها بدقة، (نجوى) رغم

فجاجة أنوثتها بعودها الفارع الممشوق، وزينتها الخارجة عن اللياقة الوظيفية؛ إلا أنها تقارب (شعبان) طولاً وعمرًا، أما (مروة) تلك التافهة بالنسبة لها كما كانت تظن، تكشف لها هذه المواجهة حقيقة أخرى، أنها تفوقها رقةً وعذوبةً وشبابًا، وبراءة العذراء الجاهلة بفنون معاملة الرجال، ذلك الجهل الذي يمنح جمالها بعدًا آخر، ينخطف قلب (مروة) عندما تلحظ شرارًا يطق من عينيها، مؤكدًا أن الحرب بينهما قد بدأت، يتأكد لها أن (نجوى) قادرة على أن تنتشله من قلب المحيط لتعيده إليها، حتى ولو عاد إليها تمثالاً بلا روح، لكنها لن تتنازل أبدًا عنه، ربما تدرك (نجوى) أن أنوثتها قد تكون مغرية لرجال العالم أجمع، أما بالنسبة إلى (شعبان) الذي لا يطبطب على هذه الأنوثة، إلا تمهيدًا لأن يطلب منها خدمة؛ كاللعب في المستندات للتحايل على اللوائح، أو تصفير حسابات فواتير المياه له ولعائلته، أو اللعب في قيمة المقايسات التي يأخذ هو أثمانها تسهيلات لمصالحه، مستكفيًا باستسلامه التام لإغواءاتها ذات ليلة، على الرغم من فشل جميع محاولات إيقاعه في أسرها مرة أخرى بعد تلك الليلة؛ حتى فقدت الثقة بنفسها، تتفنن أكثر وأكثر في زينتها وملابسها المثيرة، تحكم شباكها حوله من كل اتجاه، تحيطه بدائرة استخبارات محكمة، لتتأكد أنه لا ولن ينشغل بسواها، لكنها الآن واثقة أن (شعبان) فلت من قبضتها واقعًا في الحب، عندما تجاهل وجودها على غير عادته، يطيل بقاءها دون أدنى اهتمام، تدارى حرقتها بأن تهمس لـ(مروة) متوددة مستفسرة عن أحوالها، فيفضح حزنها تجاعيد وجهها، التي كانت تداريها بابتسامتها الشرسة، تجاريها (مروة) بإجابات تظنها كافية لتذهب بعقلها بعيدًا عن الحب الذي أدركت الآن أنه في خطر، تقنعها بأنها لجأت إلى (شعبان) ليسوى لها بعض الخلافات، التي نشأت بينها وبين (محمود) رئيس الوحدة، ثم استأذنت محرجة بعدما التفت إليها تاركًا جميع المشكلات التي تنتظره، يفاجئها متسائلاً عن سبب مجيئها، ارتبكت تفتعل سببًا، سألته عن تفعيل اللائحة الجديدة في تسعير المقاياسات دون تأشيرة، فأجابها بسخرية لطيفة:

- «تسعير المقايسات يا (نجوى) زي ما هو بالأسعار القديمة، لأن اللائحة الجديدة لسة ماعتمدتش»

هامت (مروة) مع نفسها حبًّا فيه، يغمرها شعور بالفرح، لأنه تعمد أن يثبت لها أنه لا يحب (نجوى) كما يقول الناس، وراح ظنها أن هذه الشائعة روجتها (نجوى) بنفسها لتكتسب منها سلطانها، يتملكها شعور جارف بأنها على استعداد لأن تدخل من أجله آلاف الحروب، يكفيها منه هذا الحب الذى ستغفر له من أجله جميع خطاياه، حتى لو كان سارقًا أو قاتلاً، ستصير إلهه الذي يغفر جميع ذنوبه مقابل لحظة حب صادقة.

انتهى من تسوية جميع مشكلاته، وفرغ المكتب من جميع مريديه، وتجاوز الوقت ساعات العمل، وتصرفت أم (جمال) كما تصرفت بالأمس، وعادا إلى ذلك الصمت الحلو الذي يقولان فيه كلامًا لم يقله عاشقان قبلهما، يهيمان في سحر النظرات التي خدرت جميع أوجاعهما، تركت مكانها تعبر هي إليه من بين الكنبات يستدير هو بكرسيه يستقبلها جالسًا فاتحًا ذراعيه، ترتمى في أحضانه ليحترقا بالشوق الذي لا ينطفئ، غابا معًا أكثر من ساعة يتلويان واقفين وجالسين من لسعات الهوى والأحضان والقبل، ينصهران ويحترقان إلى أن تعبأت الدنيا كلها مرة أخرى بتلك الرائحة، فتتمنى أن توصد جميع المنافذ عليهما لتحبس في صدرها حلاوتها، ظلت (مروة) هائمة مخدرة برائحته، بينما كان هو يفيق منتبهًا إلى الساعة المعلقة على الحائط، يطلب منها أن تصلح له بنفسها هيئته، وراح هو الآخر يصلح لها هيئتها، يقبل كل مكان يصلحه، يلف ذراعه بذراعها لتتأبطه، ويتركان مكتبه معًا يتمخطران، يتحدثان وكأنهما في نزهة استرخاء على شاطئ النيل، يهمس لها قائلًا:

- «أنا هانقلك مؤقتًا لوحدة قريبة من الإدارة»

فهامسته تستوقفه تميل رأسها على صدره، تطلب منه أن يأتي بها إلى الإدارة لتكون بجانبه، أكد لها أن ذلك سيحدث، وطلب منها أن تتحمل معه هذه الفترة العصيبة؛ لأنه مقدم على انتخابات مجلس الشعب، مؤكدًا أنها لن تستريح مع (سهام) وأنه يتحاشى بقدر الإمكان إثارة المشكلات معها، فتوقفت قبل أن ينعرجا بالسلم إلى الدور الثاني تلفه بذراعها وعيونها وكيانها، تسأله هامسة تختنق بدموعها التي عصفت بكيانه:

- «طب و(نجوى)؟»

أعادها إلى حضنه متألمًا ألمًا حقيقيًّا تئن به نبرته:

- «ماتصدقيش كل اللي بتسمعيه، الحقيقة غير ما انتي بتسمعي خالص»

وراح يؤكد لها وهما ينزلان السلم يتلاصقان جنبًا إلى جنب وتتعانق الكفوف، أنه يفعل من أجلها الصالح، وعند السلمة الأخيرة التي سيفترقان بعدها على سلالم الدور الأول المواجه لباب الخروج، يقفان في مواجهة، يقبلها كثيرًا يعتذر لها عن كل ما بدر منه من قسوة، هامسًا:

- «تعرفي، لو نجحت في الانتخابات، هعوضك عن كل اللي حصل، هاخدك ونمشي من هنا، هاخدلك شقة في القاهرة، ونعيش بعيد عن كل البشر، بس بطلي عناد»

ضحكت من قلبها وهو يحضنها ليبتلع ضحكاتها الحلوة في صدره، كانت تتلوى في أحضانه مندهشة متسائلة، أيكون هذا هو الوجه الآخر لـ(شعبان)؟ الوجه الذي يداري فيه ضعفه، ليته يدرك أنه بهذا الضعف، أقوى رجل في العالم في عينيها.

لكن الحب ذاته يكره الضعفاء، يكره أن يعيش في المنطقة الوسطى ما بين الأرض والسماء، يكره أن يضعه البشر في صندوق المحرمات الذي اخترعه الإنسان لنفسه باسم الله، لأن الإنسان يحتاج إلى التعايش مع الدناءة والبراءة معًا، كما يتعايش مع النور والظلام في سلام دون صراعات، وقدر (شعبان) أن يعيش معذبًا بين براءة (مروة) ودناسة (نجوى) بينما يحتاجهما معًا، والحياة تفرض عليه الاختيار.

وفي اللحظة التي وجد نفسه فيها مضطرًا إلى الاختيار، غاب في عمق عينيها ليودعها، كاد أن يقرر لحظتها أن يطير بها بعيدًا عن هذا العالم، متنازلاً عن

جميع طموحاته، لكنه سرعان ما أنجز حسبته، وحسم الأمر متنازلاً عن الحب، ذلك الكائن الخاسر دائمًا في جميع المعارك.

ورغم ذلك نسيت (مروة) مع الأيام (شعبان) وعندما مال قلبها إلى (سمير) نسيت كل هذا الحب، وكل هذا الغدر، أدركت أن علاقتها بـ(شعبان) لم تكن سوى مراهقة الحب، وعندما عصف هوى (سمير) بقلبها، فهمت أنه عنفوان الحب، لذلك كرهت غدر (سمير) وتمنت الانتقام منه، بينما تلاشى من ذاكرتها غدر (شعبان) وحبه، ولو كان هناك بد لسبب حقيقي لتكره (شعبان) من أجله؛ فسيكون أنه فتح قلبها للحب، وحرمها منه تاركًا إياها تصارع وحدها مرارة احتياجها إليه، وأنه كشف لها عن أزمتها الحقيقية مع هذه الحياة، الحياة التي تتلذذ بلعبة المنح والحرمان بجدارة، تلك اللعبة التي رمتها إلى أحضان (سمير) الذى ظهر لها فجأة، فاتحًا أبوابه المزدانة بالورود على مصراعيها، فسقطت مغيبة تظن أنها ترتوي من نهر الهوى، لتكتشف أنها بركة قذرة وكان ذلك بعد فوات الأوان.

عندما انتقلت إلى الوحدة الحسابية في قرية (الحوراني) تمهيدا لعودتها إلى الإدارة، كما وعدها (شعبان) في لقائهما الأخير، هذه القرية القريبة جدًّا من المدينة، خلصتها من معاناة المواصلات اليومية، كما أن فلاحين هذا الريف يختلفون كثيرًا عن فلاحين مدينة الزرقا النائية، ربما بسبب كثرة احتكاكهم بأهل المدينة، تتراءى لها المدينة تتجلى، كلما تجلت قسوة قلوبهم وعقولهم المتأججة الطامحة، استقبلوها باحتفاء معنوي كبير، فهمت بعد ذلك أنه ليس لشخصها، وإنما هو احتفاء يليق بالقادمين من المدن، منبهرون يستشعرون جمال المدينة في أناقتها، على الرغم من بساطة مظهرها، لكنه كان رقيقًا يضخم جلافة هيئتهم، التي لا تعرف الكعب العالي ولا الطرح الشيفونية التي تهفهف بألوان رقيقة، وهي تنزلق على شعرها الناعم فتسمح لبعض من خصلات من الشعر، لتنساب على خدودها الوردية ذات البشرة الصافية الناعمة، التي ينعكس عليها لمعان الروج الهادئ الذي يرسم الشفاه ويضخمها، يتطلعون فيها إلى معرفة أسرار جمال المدينة المختفية داخل بيوتها وشوارعها،

جمالاً يتخيلونه ولكنه الآن ينكشف شيئًا فشيئًا، بداية بعطر (مروة) الذي يخدر همجية رغباتهم متبدلين في حضرتها إلى كائنات وديعة تتقبل عذوبة صباحها وهي تقول: "صباح الخير".

إلا أن هذه العذوبة لم تمنعهم من أن يبيتوا النية لهدايتها مستقبلاً، لأنهم يعتقدون أن دعوة الخير للصباح دعوة من قاموس الكفار؛ بينما قاموس المسلم يقول إن التحية هي "السلام عليكم".

وعندما زالت الكلفة بينها وبينهم صارحوها بكفرها، ليردوها إلى دينها الصحيح؛ فيصيبهم الخرس والدهشة عندما تردهم ضاحكة:

- «السلام جزء من الخير، وأنا بدعيلكم بالخير كله»

ورغم ذلك كن يعتقدن أنهن على إسلام صحيح، بينما (مروة) مسلمة بالاسم فقط، لأنها تقلد أقوال الكفار، وتتمسك بزينتهم وحلاوة روائحهم، فارتحن لحل المعضلة وهي الرد على صباحها بالسلام، مبتسمات ساهمات يدرسن روعة تبدلها كل يوم ببريق مختلف دون مبالغة، بينما هن يبدلن عباءاتهن السوداء أول الأسبوع، بكآبة سوداء أخرى، المهم أنها تناسب ضخامة وتهدل أجسادهن دون تفاصيل، لاغين مشدات الصدر؛ فتبدو أجسامهن كأجولة سمراء منتفخة، برءوس سمراء منتقبة، تنكشف وجوههن في خلوتهن في حجرة (مروة) المخصصة للحاسب الآلي، تُفاجأ بهن يلحقن بها واحدة تلو الأخرى كل صباح.

تصور لهن هيئتها القادمة من المدينة أنها من الطبقة (العليوي) التي ستغدق عليهن كل يوم بالهدايا؛ فراحوا دون حرج يطلبونها بأنفسهم، عطر كعطرها، أحمر شفاه كخاصتها، أشياء كثيرة كأشيائها، جاوبتهم محرجة في بادئ الأمر، وتملصت بعد ذلك تواجههم بالحقيقة، وأنها لا تمتلك سوى راتبها، فاستكفوا منها بأن تدعوهم إلى الشاي، أو أن يفرضوا عليها أن يكون الإفطار على حسابها، طلبت منها (ألفت) ذات مرة أن تدعوها إلى الإفطار؛ فناولت ١٠ جنيهات لأم (علاء) العاملة لتحضر ساندوتشين من الفول والطعمية، وكانت الجنيهات العشرة ذات قيمة وقتها، فأخذتها منها (ألفت) ساخرة تقول:

- «ساندوتشين إيه اللي هيكفونا؟ خدي يا أم (علاء) هاتيلنا ٤ (جردوءات) وبالباقى طعمية وجبنة رومي وجبنة بيضا وشكِّلِي انتي بقى»

اندهشت (مروة) تنتظر أم (علاء) لتأتى بال(جراديء) التي أماتتها ضحكًا عندما أخرجتهم لها (ألفت) من الكيس قائلة:

- «أهي دي يا ستي (الجردوءة)»

وكانت عبارة عن عيش (فينو) مستدير يسميه أهل المدن "كيزر".

ولم تنس (مروة) أبدا هذه "الجردوءة".

وكلما جاء ذكر (ألفت) أو التقت بها مصادفة في الإدارة، كانت تقول لها ضاحكة:

- «أهلًا بالجردوءة»

الكثير من هذه الألفاظ ذات الجلافة التي تختلف عن جلافة ألفاظ الحارة في المدينة تفهم منها أن كل مكان يخترع ألفاظا تشبهه، ألفاظا لا تشبه الطبيعة الساحرة التي يخصه الله بها، الطبيعة التي سحرتها مرة في الريف عندما أخذتها ألفت للتنزه في الغيطان القريبة، ومرة أخرى في الساحل الذي أخذها إليه زوج أمها للمصيف شهر في رأس البر.

كانت أكثر من تعودت عليها في هذه الوحدة هي (ألفت) التي تصنع بعفويتها جوًا خالصًا من البهجة، حتى أن الضحك يظل موصولاً لم ينقطع في حضرتها، تتذكر لها الكثير والكثير من التعبيرات الغريبة التي تجعلها غارقة لشوشتها في الضحك، لن تنسى قلبها الذي كاد أن يتوقف من الضحك وهي تحكي لها تفاصيل إنجازات زوجها معها ليلة أمس، بينما هي مستمتعة بدهشة العذراء التي تقرأها في قهقهة (مروة) المنصتة إليها بشغف، دون أن تفهم دغدغة مشاعرها وهي تتخيل (شعبان) هو من يفعل معها أفاعيل زوجها، ووصلت

قهقهتها المختلطة بالدموع إلى حد جعل نساء الوحدة يتقاذفن مندهشات وراء بعضهن البعض، عندما قالت لها (ألفت) بعفوية:

– «أصله لهف لحوقي الحنشان بالبطاطس لوحده، فسوى بالليل الهاويل»

تدهشها دائمًا تعبيرات ألفت وكأنها تتكلم لغة غير لغتها، أو أنها من دولة غير دولتها، فيضحكن عندما تستوقفها غارقة في الضحك متسائلة عن لفظة " لحوقي".

فتتبارين ليفسرن لها جهلها بأن لفظة "لحوقي" تعنى "صينية"، وأن "الحنشان" نوع من أنواع السمك يعرف بثعبان البحر، وأنه أغلى أنواع الأسماك، لا يأكله سوى الأعيان، ومشهور بتنشيط القوة الذكورية.

تعودن أن يتهربن يوميًّا من الحجرة الكبيرة المزدحمة بمكاتب الرجال، كمكتب رئيس الوحدة والمراجع وبعض المحصلين القدامى، يتسلل الرجال وراءهن واحدًا تلو الآخر بحجج فارغة حتى يلحق بهم رئيس الوحدة، لتنتقل الوحدة بأكملها إلى حجرة (مروة) يقضون غالبية الوقت في التنكيت والهزر والغزل والإفطار وشرب الشاي، لتظل وحدها تحمل مهام الوحدة على أكتافها (نوال) متأففة ساخطة تسب وتلعن (مروة) همسًا، تفضحها تعبيراتها الشرسة وتمتماتها بالشتائم عندما تتقابلان وجهًا لوجه صدفة في دورة المياه مثلاً، فتتركها (مروة) مندهشة تسحب ابتسامتها البريئة، يشتاط عقل (مروة) لهذا الغل المتكرر الذي تقرأه في عيونها دون سبب، تسألهم بين الحين والحين متعجبة تستفهم مندهشة:

– «هي مالها (نوال)؟»

فيجبنها بإجابة تزيد دهشتها عندما يسخرن من (نوال) يسبونها بأفظع الشتائم طالبين منها ألا تعطيها بالاً؛ لأنها مختلة عقليًّا، استنكرت تزداد دهشتها، لأن المختلة عقليًّا تحتاج إلى العطف والاحتواء والإنسانية، لا تليق معها كل هذه الشراسة والعدوانية التي قرأتها في إجابتهن، أخمدت دهشتها لفشلها في

الوصول إلى أجوبة منطقية تفسر لها ما يحدث، إلا أنها بين الحين والحين تستفيق مندفعة إلى حجرتهن على أصواتهن العالية، يسبونها ويتأسدن عليها، وهي كالفأر المذعور منكفئة منكمشة تنجز استكمال أعمالها في (الدوسيهات) المتراكمة على مكتبها، وتكشف لها الأيام ذلك الغموض يومًا بعد يوم، وأنهن يتعمدن بشكل يومي إزهاقها، يتناوبن في هذه المهمة تارة (رجاء) وتارة (ألفت) وتارة (ميرفت) وتارة (فاطمة) أما (رحاب) التي "ليس لها في الطور ولا في الطحين" تنجز عملها في صمت، مرتاحة لأن تصنع من أذنيها أذنًا من طينٍ وأخرى من عجين، يستخدمنها فقط عند اللزوم، لتشهد بما يردنها أن تشهد به، كان هذا هو حلها الوحيد لتسطيع التعايش مع هذه الوحوش التي أسمينها "بلهاء الوحدة"، تصدق على ما يقلنه دون أن تسمع أو ترى، بمجرد أن يستشهد بها أحد:

- «صح يا (رحاب) حصل؟»

كانت على الفور تؤمِّن ما يقول، أما (نوال) إذا فكرت فقط محض تفكير أن يعلو صوتها اعتراضًا على شيء، ينفجرن فيها عصبة واحدة بالشتائم والاتهامات يلجمنها بعبارتهم المتهالكة:

- «كفاية إننا مستحملينك يا مجنونة»

يتلذذن باستفزازها واشتياط عقلها، يلقين عليها بالكلام عن الترقية والعلاوات، يستهزئن بحقوقها الضائعة، يتكاتفن معًا هؤلاء الخمسة من السيدات المتحرشات بتعبيرات تثير أعصاب الحجر، لم تعد (مروة) قادرة على التعايش مع هذه الوحشية التي انكشفت لها حدتها، يومًا بعد يوم من خلال معاملتهن لـ(نوال) ومسحتهن من تاريخها نهائيًّا بعدما حدث منهن ما حدث.

في ذلك اليوم الذي كانت فيه منشغلة تغلق بابها عليها مستأذنة منهن لتنجز إصدار دورة الفواتير الشهرية، التي يتعجلونها في الإدارة، لكنها اندفعت مسرعة تهجم على حجرتهن المتربسة من الداخل، مذعورة تصرخ فيهن ليفتحن الباب لتفهم سر هذا الصراخ والعويل المفجع، لتفجع روحها رؤية هذه البائسة منهارة

ترتجف في آخر زاوية لهذه الحجرة الطويلة، منكوشة الشعر غارقة في دموعها ومخاطها، بينما هن يتأسدن عصبة واحدة ينهجن يدارين وجوههن السوداء عنها، صرخت مذهولة منفعلة فهن لا يصدق عقلها ما يحدث، تضم (نوال) لتهدأ في صدرها، بصعوبة تفك لها عضلات ذراعيها المتيبسة، تغطي شعرها المنكوش بطرحتها المرتمية على الأرض، فتشيحها (نوال) متشنجة مصرة على ابتعادها، وكأنها تشيح عنها أحد أفراد العصابة، فتصرخ فيهن (مروة) خارجة من حجرتهن تسيل دموعها قائلة:

– «انتوا وحوش مش بني آدمين»

تغلق باب حجرتها في وجوههن عندما يلاحقنها يدافعن عن سفالة جريمتهن بأنهن لم يتمالكن أنفسهن أمام جنونها، الذي أوصلها لأن تكتب فيهن مذكرة أرسلتها بالبريد إلى رئيس الشركة القابضة، يؤكدن لها أن (شعبان) هو من أعطاهم تصريحًا مطلقًا بضربها بالشبشب، حتى تكف عن كتابة المذكرات التي تسيء إلى سمعة الشركة»

فتجلت لها الحقيقة التي تهرب دائمًا من مواجهتها، لتفهم أن كف (شعبان) الحنونة عانقت كفها، ولكن له ألف كف وكف يبطش بها، ويقهر آلاف أمثال (نوال) و(سناء)

مر عليها في هذه الوحدة الغبراء عدة أشهر كانت تتصبر بأنه سيفاجئها بقرار عودتها إلى الإدارة، لكنه لم يصدر، ولم يتصل بها أساسًا، كلما جرفها الشوق إليه اتصلت به في مكتبه في الإدارة، أو في معرض الموبيليا ليلاً، لكنه كان يتعلل بأنه مشغول، ينهي مكالمتها مسرعًا على وعد بأنه سيتصل بها لاحقًا، ولكنه لا يتصل، فاجأته مرات ومرات في مكتبه يتهرب منها بلطف متعللاً بعللٍ مختلفة، كأن يكون منشغلاً باجتماع مجلس إدارة، أو أنه يستعد للقاء جماهيري يمهد لخوض الانتخابات بعد انتهاء العمل، وعندما تسأله:

– «أستناك؟»

يخذلها آسفًا مختفيًا عنها في أوراقه:

- «لأ هتأخر»

لاحظت (سهام) ترددها الكثير على مكتبه، وفاتحته تستنكر وجودها، جس نبضها يخبرها بأنه يفكر في عودتها للعمل معها مرة أخرى، لكنها رفضت، فاستسلم راضخًا لرفضها، لأنه لم يعد قادرًا على الاستغناء عن (سهام)؛ التي قويت شوكتها، وتوطدت علاقتها برئيس مجلس الإدارة ورئيس الشركة القابضة، مقتنعًا بنصيحتها أنه لا بد أن يتأنى في اختيار أعوانه عندما قالت له:

- «(مروة) مش شبهنا يا ريس»

عاد إلى نفسه مدركًا أن شبكة أعوانه التي اختارها بعنايةٍ فائقة في جميع القطاعات، لتقوم بتغطية و(تستيف) الأوراق من المناقصات والتوريدات ولجان الاستلام والدفع من تحت المنضدة ستتعرض للخطر وسيختل توازنها إذا دخلتها (مروة) ولأنه الآن لم يعد يصلح للحب، بعدما خسر معركة انتخابات مجلس الشعب التي دفع فيها دم قلبه، على الرغم من تكاتف (نجوى) و(سهام) وتجنيدهما لمعظم موظفين الشركة للعمل على توسيع الدعاية، ولكنه خرج مهزومًا هزيمة ساحقة، جعلته يدخل معركة مع الحزب الوطني، يتهمه فيها بالفساد يعلق عليه نتيجة فشله، لأنه لم يدفع أكثر؛ على الرغم من أن المعركة انتهت سريعًا إلى سحب استقالته التي تقدم بها للحزب، بعدما وعده المسئولون بأنه سيأخذها الدورة القادمة، لكنه راح ينشغل باستعادة هيبته بين الموظفين في الشركة مسعورًا نهمًا يفتش عن أي منفذ يمكن له أن يملأ به خزانته، ليعوض ما أنفقه هباءً على الانتخابات.

وقفت (مروة) بعيدًا تتأمل لا تفارق ذهنها صورة (نوال) المذعورة منكوشة الشعر، منزوية تتكوم على روحها في آخر ركن لهذه الحجرة الكالحة الباردة الطويلة، حتى فاض بها الكيل، ذهبت إليه عازمة لأن تضعه في مواجهة تطلب منه أن يوافق على نقلها للعمل بقطاع الإنتاج مع المهندس (سمير) كانت تتمنى منه أن يرفض، أو يتمسك بها حتى ولو بنظرة من عينيه، ولكنه وقع بسهولة

على طلبها بالموافقة، فخرجت تقاوم سقوطها حتى وصلت إلى فراشها فارتمت عليه منهارة تبحث في ثقب شباكها عن القمر.

وازدادت حالتها سوءًا عندما اتصلت بـ(سناء) بعدما انقطعت عن الاتصال بها فترة بسبب هيامها بـ(شعبان) ولأنها لن تستطيع أن تحكي لها عن علاقتها به؛ لكنها الآن تحتاج لأن تبكي على صدرها، تحكى لها أنها تحررت من هذا الحب، لكنها لم ترد، اتصلت مرات ومرات، ولم ترد فاتصلت بزميلة من زميلاتها الأربعة تسألها عن (سناء) فاجعتها بأن (سناء) ماتت في حادث على الطريق ليلة العيد هي وزوجها وطفلتها.

فبكتها كثيرًا عند القمر تقول له:

- «ماتت (سناء) بعد ما كنت خلاص فكرت إن الدنيا أهدتني الصداقة وأهدتني الحب، راح الحب وراحت الصداقة»

أما الفاجعة الكبرى فكانت عندما رحل عنها القمر، وكان ذلك في تلك الليلة الغائمة التي استقبلتها فيها شوارع حارتها بسماء غائمة وهي سكرانة من همسات عيون (سمير) لعيونها، وكأن دلوًا من الماء البارد سكب على رأسها فجأة عندما خرج لها صوت (عبد الحليم) من إحدى ورش الحارة يغني:

- «وعشان نتوه في السكة شالت من ليالينا القمر»

أسرعت إلى غرفتها ينقبض قلبها، وكان هذا الثقب الذي في شباكها منفذًا صغيرًا دخل منه هذا العصفور، هذا العصفور كان هو الوحيد في هذا العالم الذي استطاع أن يقتحم عالمها الموصد بكل هذه الجرأة، مستقرًا بين الشيش والزجاج، ينقر في الزجاج، كأنه يستنجد بها لتفتحه ليطير على حريته في حجرتها، لكنها تجمدت تراقبه مبهوتة لا تعرف هل هي فرحانة أم حزينة، هذا العصفور الذي استغل غيبتها وملأ الفراغ الذي بين الشيش والزجاج بأعواد من القش، يصنع عشًا في نشوة واستمرارية وأمل وزهو من تحقق له أخيرًا فرحة الأمان والاستقرار.

تراقبه مذهولة غير قادرة على فعل شيء، غير قادرة على أن تطرده لأنه سيحجب عنها القمر، فقط تراقب ما يفعل بهمة وحماس وكأنه سيستقر إلى الأبد في هذا العش الدافئ، دون أن يهتم بأنه يسجنها بعيدًا عن القمر، كل ما كان يهمه فقط أن يصنع لنفسه جدرانه الأربعة، يروح ويجيء من هذا الكسر الذي بدا لها وكأنه التأم بعد أن غطته قشاته، ظلت طوال اليوم تراقبه وهو يغيب ويغيب، ثم يأتيها في نشوة الاستقرار سعيدًا هانئًا، يلعب ويتقافز وهو ينقر في الزجاج، يمنحها نظرة امتنان وعرفان، يرقص ويشدو وكأنه يغني أغنية عن الأمان بعد رحلة ضياع طويلة، يروح ويجيء وكأن الشيش والزجاج أصبحا جدرانه الخالدة، باتت ليلتها تنتظر ما سيجيء به الغد، ربما يأخذ عشه الذي بناه ويرحل، ولكن الغد جاء، وجاء وراءه عشرات وعشرات من الغد ولكنه لم يرحل.

قد يغيب عنها فقط في وهج النهار، فتمسك بنفسها مستوحشة غيابه، اكتشفت أنه أصبح هو الآخر كل عالمها ونسيت القمر، تمسك بنفسها تستنزف الوقت مترقبة مجيئه بين اللحظة والأخرى، ربما لأن التوقيت كان شتاءً، ولا حال أبدًا يدوم، في لحظة فاصلة من يوم فاصل، ما بين الصقيع ولهيب الشمس، وعتامة النفس ووهج الحياة، شعرت بأنها تفتقد القمر وتحتاج أن تحكي له أحداثًا كثيرة مرت بها وفاتها أن تحكيها له، شعرت بأنها لا بد أن يدخل غرفتها القمر المسجون وحيدًا في السماء، بينما هي مسجونة في غرفتها، القمر الذي كانت تشعر معه بحريتها، فخضعت لاندفاعها، وفتحت شرفتها، فاندفع العش، ليطيح الهواء به إلى لا قرار، راحت تطل من شرفتها، يرتشف صدرها بهجة الهواء وضوء القمر وهي تنظف آثار عش العصفور، لتزيل من حجرتها رائحته، ولكنها لا تزول، فراحت تطمئن بأن الثقب لا يعلق به أي شيء من آثاره، تحكم سداده بسدادة من القماش نهارًا وتفتحه ليلًا حينما تريد أن تخرج منه إلى القمر، لتمنع هذا العصفور من مغافلتها ودخوله مرة أخرى، وعندما عاد العصفور في موعده، فوجئ بمدخله المسدود، يعتصرها الألم وهي تشعر بهستيريا نقراته وكأنه يستنجد بها، يستحلفها بأيامهما معًا أن تفتح له وكأنه لا

يصدق نفسه، وبعد أن استنفد جميع محاولاته الفاشلة، غاب صوته ولم تعد تسمعه، كانت تكره في نفسها هذه القسوة، فراحت تبكي وهي تناجيه:

- «لا تلمني أيها العصفور، فأنت تمنع عني القمر، القمر بالنسبة لي يعني الحياة، ليس بمقدور أحد أن يفهم حجم معاناتي وأنا أساير حياتي معك دون إرادة، لأنني غير قادرة على أن أتخذ قرارًا بالفراق، وليس بمقدور أحد أن يفهم حجم معاناتي لحظة الوداع، بعدما اعتدت عليك بعد كل هذه العشرة التي كانت بيننا، ولأسباب أجهلها تتبدل مشاعري، ربما كنت أحتاج أن أغدر بأحد حتى تكتمل إنسانيتي، أيها العصفور لن يغفر لك ذنبك أنك عصفور، ولن يغفر لي غدري عشقي للقمر، الذنوب جميعها فيها حلقة مفقودة، ربما كان ذنبي أنني أخذت قرارًا همجيًّا، ولكنه كان قرارًا صادقًا يعبر عن رغبتي الحقيقية، أي منهما تحب أنت خداعي أم قسوتي؟! ورغم ذلك يمزقني الحنين إليك، رائحتك التي تسكن في أحشاء حجرتي تنغص علي الحياة، الحنين هو داء الإنسان الذي لا شفاء منه، تشتد مرارته عندما يكون إلى شيء لا نعرفه»

❋❋❋❋

(٤)

قالت (مروة) لنفسها وهي ذاهبة متعجلة إلى العمل، بائسة ناعسة على نفسها في صباح باكر بارد كانت فيه يائسة من رتابة الحياة: "من يأخذ منى كل شيء، ويعطيني وقتا مطاطًا لا بداية له ولا نهاية، دون أن يسألني أحد ماذا أفعل، أو ماذا كنت أفعل، أو ماذا أنتوى أن أفعل، أو تعدم جميع أجراس المنبهات التي في العالم، لأن وظيفتها أن تقول لك أن الوقت قد انتهى، أو أن الوقت قد بدأ، لم أعد أحب البدايات ولا النهايات ولا ما بينهما من انتظار وألم".

اندفعت بين الجموع مسرعة لتلحق بدفتر الحضور، الذي يغلق في وجه الجميع في آن واحد حتى رؤساء القطاعات، لم تكن سعيدة بهذا الانضباط، ولكنها في غاية السعادة لذلك العدل، ولكن للنوم سلطان وخاصة أنها حتى الآن مع هذا العدل لم يتغير حالها إلى أي شيء، وكأن شمس العدل غير قادرة إلا على أن تمنحها فقط نورًا تلمع فيه أحزانها، نورًا يؤكد المتاهة والحصار، نورًا يؤكد أنه لا أمل للنجاة، نورًا تلمع فيه الحقيقة كلمعان جليد يحاصر المدينة.

فتيقنت أن شمس العدل لا تمنح سوى النور المغلف بالصقيع، يخايلها سؤال يطرح نفسه كثيرًا دون إجابة:

- «هل يجعل العدل الحياة باردة هكذا؟!»

لم تكن تدري وهي تسأل نفسها هذا السؤال، أن هذا الجليد الذي يحيطها، ما هو إلا قشرة هشة، ستنفجر من أعماقها في ذلك اليوم طاقة تقتلع معها كل شيء حتى العدل ذاته.

وقّعت في دفتر الحضور دون أن تعطي بالاً لكثرة الوجوه الغريبة التي تقابلها، والحركة غير العادية في ديوان عام الشركة، دخلت مكتبها كعادتها تفتح الكمبيوتر تقلب في أوراقها لتجهز خطة عملها اليومية، تنتظر عم (صابر) ليأتيها

كعادته الصباحية بالشاي، دخلت (رانيا) مجزوعة تلقي حقيبتها على مكتبها قائلة:

- «انتي قاعدة هنا والدنيا مقلوب حالها برا؟»

وقبل أن تسألها عما تقصد تعجلها (هاني) زوجها، فأسرعت وراءه دون أن تجيب (مروة) عن أسئلتها المتلاحقة، اندفعت إلى الشباك تدفع بالحاجز الزجاجي بقوة إلى أعلى، أذهلها هذا التجمهر الذي اتضحت حدته في ديوان عام الشركة للكثير من العاملين الذين جاءوا من المواقع الأخرى، يحملون لافتات مكتوب عليها: "لا لمجلس الإدارة"، وأخرى "يسقط مجلس الإدارة".

دخلت مدام (سهام) تتقافز من وجهها الفرحة، تلاحقها (مروة) بالأسئلة المندهشة، فتجيبها في سعادة بالغة:

- «(نجاح شهاب) رئيس النقابة، لامم العمال وعاملين مظاهرة، بيطالبوا فيها بإسقاط مجلس الإدارة»

يندفعان نحو الشباك على هتافات تجلجل ترج المبنى لـ(نجاح) الذي يمسك بمكبر صوت، بينما يردد العمال وراءه بقوة ألف ميكروفون، قوة ترج الأرض والسماء:

- «إحنا تعبنا من المرارة.

مش عاوزين مجلس إدارة.

مش عاوزينك يا (سمير)

مش عاوزينك يا (شعبان)

إحنا تعبنا دوخ دوخ...

مش عاوزين (مدحت فرووخ)»

لا تصدق (مروة) نفسها، تخبط رأسها في الحائط للتأكد أنها على قيد الحياة، وأن هذه اللحظة ليست من أهوال الآخرة، أو أنها الأحلام التي تنفجر من

أعماقها وهي نائمة، تعود إلى الشباك لتجد الأعداد تتزايد، ينضم إليهم الباشاوات والأفندية الذين يشغلون الوظائف الراقية بديوان عام الشركة، نزلوا من مكاتبهم يقفون على مقربة من المظاهرة، يستعدون للمشاركة إذا تأكد لهم أن الأمور ليست ضربًا من المخاطرة، ولكنهم على أي حال ينشغلون بتصوير الأحداث والبث المباشر لها على صفحات التواصل الاجتماعي.

يلتهب الموقف اشتعالاً وإثارة عندما يندس وسط الجمع (سمير) كالمجنون زائغ العينين، لا يصدق أن هذه البجاحة لعمال الشركة، الذين كانوا يتكهربون بمجرد ذكر اسمه، تجمهروا متجرئين يطالبون بإسقاطه من مجلس الإدارة، تعلو الهتافات لرؤيته لترج السحاب النائم في السماوات العلى

- «مش عاوزينك يا (سمير)

مش عاوزينك يا (سمير)

مش عاوزينك يا (سمير)»

فيلبس جلده الناعم بنبرةٍ وديعةٍ يستسمح (نجاح) بالميكروفون، يخطب فيهم بنبرة المظلوم مسترسلاً في خطبته رغم الوجوه العابثة المتململة قائلاً:

- «يا إخوانا اسمعوني،

أنا أبوكم وأنا ابنكم،

ومادخلتش مجلس الإدارة إلا بحسكم..

إحنا اللي عملنا الشركة، وبنيناها فوق كتافنا، أنا و(شعبان) و(مدحت)

فاكر يا (حسنين) سهرنا في المحطات مع العمال؟ وانتوا اللي كنتوا تترجوني أمشي وأنا أصمم إني زيي زيكم، فاكر يا (حسنين)؟ فاكرين يا عمال كفر سليمان مين هو (سمير مجدى) وعمل إيه عشانكم وعشان حقوقكم؟ طول عمرنا إيد واحدة بناكل في طبق واحد وعيالكم عيالي

وعيالي عيالكم، من ساعة ما جالنا واحد من برا الشركة ريس علينا، حط الفتن بيننا وبينكم، اصحوا وفوقوا، دا عاوز يخربها.

ماتستمعوش لكلامه، فيه ناس مندسة بينا بتشتغل لحسابه،

بتكرهكم فينا، إحنا وانتم اللي بنينا الشركة دي على أكتافنا، هو اللي غريب، هو اللي لازم ينطرد منها»

يتوتر الموقف ويزداد توهجًا عندما ينفلت من بين الجموع (شعبان) يناوله الميكروفون (سمير) ليصيح فيهم بصوت القائد الجسور قائلاً:

- «يا أهل شركتي،

لا أنا ولا المهندس (سمير) نقدر ننسى فضلكم.

انتوا اللي اديتونا ثقتكم ومش ممكن نخونها،

إحنا ياما سهرنا في الشركة وبيتنا فيها عشان نعرف نوفرلكم أرباح ومرتبات،

انتوا مش عارفين حاجة.

رئيس الشركة مايعرفش التاريخ الطويل اللي بذلناه عشان نوقف الشركة دي على رجليها، الراجل مش عاجبه الوحدة اللي موجودة بينَّا فخطط يفسدها عشان يسيطر عليكم، اوعوا تسلموه رءوسكم، عمر الغريب ما هيكون أمين عليكم،

إحنا طول عمرنا أهل وسند لبعض.. ماتخلوش حد يدخل ما بينَّا.

اهتفوا معايا: "مش عاوزين رئيس مجلس الإدارة"، خلونا ننضف الشركة من الأغراب اللي فيها، اللي عاوزين يفسدوا علينا أكل عيشنا، خلونا نرجع زي ما كنا إيد واحدة»

فيتقدم (محمد الجزار) أحد عمال محطة كفر الشناوي بهدوء يستأذنه في المايك، منطلقًا بجرأة غير معهودة نابعة من الإحساس التام بالمساواة وأن رئيس

القطاع والعامل البسيط في نهاية الأمر سواسية يدورون في ساقية واحدة، لكل منهم دور يختلف، ليس سببًا وجيهًا لأن يستعبده أو أن يتحكم في رزقه، والإيمان الكامل بوجوب انتزاع الحق المسلوب، يقف (محمد الجزار) سواسية يجاور (شعبان) و(سمير) وبصوت واثق هادئ يقتنع تمام الاقتناع بقضيته يقول:

– «الأستاذ (شعبان) مشكورًا قال اللي عنده،

وإحنا بنقول اللي عندنا،

"يسقط يسقط مجلس الإدارة"»

فتلتهب الحناجر تصدر أصواتًا تهز جداران الكون بأسره:

– «يسقط يسقط مجلس الإدارة»

يصيح (الجزار):

– «مش عاوزينك يا (سمير)»

فيردد العمال:

– «مش عاوزينك يا (سمير)»
– «مش عاوزينك يا (شعبان)»
– «مش عاوزينك يا(شعبان)»
– «إحنا تعبنا دوخ دوخ»
– «إحنا تعبنا دوخ دوخ»
– «مش عاوزين (مدحت فروخ)»
– «مش عاوزين (مدحت فروخ)»

تسقط الهتافات على رأس (شعبان) و(سمير) كالأحجار يتعثران في الهرب منها، من بين هذه الجموع الغفيرة التي يأتيها المدد كل لحظة وكأنه يوم الحشرالعظيم الذي وقعه على العقول كالصاعقة، الظالم والمظلوم مبهوتان فيه من هول

الحدث، الذي يزداد إثارة بمرور اللحظات، نزل إليهم المهندس (خالد)؛ فراحوا يحملونه على الأكتاف يهتفون لجسارته، حتى أن الرجل نفسه لا يصدق نفسه، لا يصدق أن العدل بين الناس سيكون نتيجته كل هذا الحب، يقشعر جسده لهذا الصوت المنتشي الذي يرن في أعماق الكون:

- «مهندس (خالد) يا حبيبنا،
  رجعتلنا كل حقوقنا»

يتقدم الجزار بجسارة يمسك بالمايك وفي هدوء يسكب الجازعلى اللهب قائلاً:

- «يسقط مجلس الحرامية»

وقبل أن يرد على هتافه أحد، ينقض (شعبان) كأسدٍ مفترسٍ على المهندس (خالد) يجأر بحنجرة متهالكة:

- «أنا مش حرامي،
  انت السبب،
  انت اللي قلبتهم علينا،
  فرغت عينيهم مننا»

ويهجم (سمير) صارخًا في وجهه:

- «أنا اللي كنت بمشي المحطات كلها بإشارة،
  خليتني ماعدتش عارف أكلم عامل،
  قعدتني طرطور في مكتبي،
  انت جيت الشركة دي عشان تخربها»

يضيف (شعبان):

- «أنا مش هسكت،
  مش هسكت،
  انت فهمتهم إننا حرامية،

أنا مش حرامي،

فاهمين كلكم، أنا مش حرامي»

وإذا به يرتمي ساقطًا مغشيٌ عليه، ربما كانت تمثيلية يحاول بها استدرار عطف قلوب أطلقت للقسوة على الظلم العنان، فانكشف أمامها كل شيء ولن تعود أبدًا للوراء.

ارتبك الموقف قليلاً وانتهت الربكة بعدما استند (شعبان) إلى رجلين من أتابعه إلى غرفة الأمن، بينما المهندس (خالد) ينسحب إلى مكتبه مذعورًا يأمر مدير مكتبه بإحضار الإسعاف فورًا، ويتبعه (سمير) يضرب كفًّا بكفٍ مذهولاً متجهًا إلى مكتبه يزعق ببجاحة:

- «حسبي الله ونعم الوكيل، منك لله يا شيخ، أنا معتصم في مكتبي مش ماشي لما ييجي رئيس الشركة القابضة يشوف حل في الخراب اللي وصلنا له»

يقترب (الجزار) من (نجاح) يسأله ساخرًا سخرية الأسد من الفرائس التي تتساقط:

- «أومال فين الخيبة التالتة؟»

رد (نجاح) ساخرًا:

- «قاعد في مكتبه، ده جبان يخاف يخرج للناس ياكلوه»

يتفرق العمال إلى مجموعات تتهامس بتعليقاتٍ ساخرةٍ من (شعبان) و(سمير) يؤكدون لبعضهم البعض الصمود وعدم التراجع، ينتظرون رد فعل آخر، يتجمهرون مرة أخرى حول المهندس (خالد) الذي نزل محرجًا إليهم، يناوله (نجاح) المايك لأن صوته يخرج منه مكتومًا:

- «يا إخوانًا لو كنتم فعلاً بتحبوني، وبتحبوا شركتكم، كل واحد يتفضل على عمله، وأنا هوصل صوتكم لأعلى صوت في الدولة، وهاجيبلكم حقوقكم في إطار قانوني»

يلحق به (أحمد) مدير مكتبه يستوقفه قائلاً:

- «يا فندم المهندس (سمير) قفل عليه مكتبه، وقال إنه مضرب عن العمل، هو و(مدحت) لحد ما تمشي انت من الشركة، واتصل بمكتب رئيس الشركة القابضة يبلغه الكلام ده»

(نجاح) يستأذنه في المايك صائحًا في العمال يرددون وراءه:

- «وإحنا هنا معتصمين، لحد ما يرحلوا الفاسدين»

فيزداد المهندس (خالد) توترًا:

- «أرجوكم أرجوكم اهدوا،

انتوا مش عندكم ثقة فيَّا؟

انتوا اديتوني ثقتكم ٣ شهور والحمد لله،

كل اللي له حق رجعله،

سيبونى أتصرف بحكمة،

ماتخلوش المركب تفلت من إيدينا»

فيصر (نجاح) والعمال على هتافهم بالاعتصام، وتشتعل الهتافات تأججًا تطالبهم بالرحيل، (نجاح) يقول والعمال يرددون:

- «ارحل ارحل يا (سمير)

ارحل ارحل يا (شعبان)

ارحل ارحل يا (فروخ)»

انسحب المهندس (خالد) بعيدًا، بعدما فشل في السيطرة على هذه الطاقة المندلعة، يائسًا من قدرته على إقناعهم بالتراجع يحترم إصرارهم على موقفهم.

يحدث رئيس الشركة القابضة فاتحًا له السماعة ليسمع بنفسه قوة حناجرهم الزاعقة كقنبلة انفجرت في جوف الصمت، يعلن له فشل قدرته على كتمها، يتضخم صياحهم بمطلب واحد محدد وهو سقوط مجلس الإدارة؛ فيتلقى منه الأوامر بالتوجه حالاً إلى مقر الشركة القابضة بالقاهرة لدراسة الموقف، فيتركهم مسرعًا عائدًا إلى مكتبه، متجهمًا يأخذ حقيبته يطلب سائقه ليحضر السيارة.

يسكت الهتاف فجأة عندما يسمعون طلقات نارية، فينتبهون لهجوم عساكر من الجيش على البوابة، يأمرون الأمن بفتحها، استعدادًا لاستقبال سيارة اللواء حاكم المدينة، الذي تتبعه قوة كبيرة من قوات الجيش.

على الرغم من انقباض قلب (مروة) لهذا الحدث، إلا أن العمال جميعًا تحمسوا في هتاف جماعي:

- «الجيش والشعب إيد واحدة»

وكان الجيش في هذه الفترة التالية لثورة يناير، هو القائم بحماية مؤسسات الدولة.

وراح هتاف العمال يلهب الوجدان حماسًا بالقضية وإيمانًا بها:

- «الجيش والشعب إيد واحدة»

نزل اللواء من سيارته شاكرًا العمال برصانة، يطلب منهم الهدوء، مستفسرًا عن أسباب هذه الجمهرة التي تعطل سير العمل، فهاج العمال في نفس واحد:

- «مش عاوزينهم»
- «مش عاوزينهم»
- «مش عاوزينهم»

مما اضطر اللواء إلى تغير نبرته الهادئة إلى نبرة حادة آمرة، بأن يعطوه الفرصة ليفهم المشكلة، يعدهم بأن هدفه الوحيد هو مساعدتهم وإنهاء الأزمة على خير،

تصدر العمال أمامه بينما تنحى (نجاح) جانبًا حتى لا يتهم بأنه هو المحرض المتزعم لهذه الحركة العمالية، ولكن اللواء نادى عليه بالاسم يطلب منه أن يلخص له المشكلة، فلخصها في أن العمال طفح بهم الكيل وأنهم هنا اليوم على قلب رجل واحد متخذين هذا الموقف بإرادتهم عندما سمحت الظروف لهم بذلك، يطلبون تطهير الشركة من الفاسدين الذين تلاعبوا بأموالها وحرموهم من خيرها، وتأكد اللواء من أن (نجاح) هو الرأس المحركة لهذه الحركة العمالية؛ لذلك أعطاه الأمان ليسمعه باستفاضة، وعندما وصل إليه أن (مدحت) و(سمير) يعتصمان في مكتبيهما، فتركهم متوجها إليهما ليقنعهما بفض الاعتصام.

مر من الوقت ما يقرب من ساعة وكأنها دهر، تحجرت الأخيلة جميعها لتوقع القادم، يتململون من الانتظار في شغف لما ستأتي به اللحظات القادمة، وما إن لمحوا اللواء على طرف باب المبنى حتى اندفعوا إليه متلهفين لمعرفة النتائج، ونجح اللواء في أن يزيل حاجز الرهبة بينه وبينهم، فالتفوا حوله مقتنعين أنه يؤمن بقضيتهم، يتلمسون الأمان في وجوده، مقتنعين أنه جاء من أجلهم، أما (مروة) فتتابع بشغف تطور الأحداث التي لم تصدق أنها حقيقة حتى الآن وكأنها قضت عمرها في هذه الشركة كأهل الكهف، الآن استيقظت فجأة على مدينة تشك أنها هي مدينتها، حاول اللواء بهدوء احتواء الموقف، وبعد مقدمة طويلة يؤكد لهم فيها أنه يستوعب أحلامهم الكبيرة، راح بعدها يطلب منهم أن يعاونوه حتى لا يتصاعد الموقف ضدهم، لأنه لن يستطيع مساعدتهم قبل فض الاعتصام، نفذوا أوامره برحب وسعة، بإفساح الطريق أمام باب المبنى، ليضمن خروج المعتصمين في سلام دون أي اشتباك.

رشقت الأنظار جميعها نحو باب المبنى مشدوهة تنتظر خروجهم، وكأن آلة الزمن قد غيرت الزمان الذي هم فيه إلى زمان آخر، ربما يفوق زمانهم بألف زمن، لا أحد يصدق نفسه أن ما يعيشه في هذه اللحظة حقيقة لا خيال، وأنهم هم صانعو هذه الحقيقة، وأنهم كانوا يمتلكون قوة دفينة قادرة على أن تهد هذه الجبال الشامخة التي لعبت بأقدارهم زمنًا طويلاً، لا يصدقون أنفسهم

عندما خرج عليهم (سمير) تحيطه قوات الأمن مذهولاً زائغ العينين منكوش الشعر مغبر الوجه وكأنهم أخرجوه من حفرة، يرميهم بنظرات هستيرية لا تصدق هذه القوة الخرافية لهؤلاء الضعفاء، واقفًا على عتبة باب المبنى تحيطه قوات الأمن المتأهبة لفض أي احتكاك متوقع، تكاتفت حناجرهم منفعلة بمجرد رؤيته في هتاف واحد:

- «برا، برا، برا»

وإذا بـ(مروة) تندفع أمامه وجهًا لوجه تزغرد وتصرخ في وجهه بهستيرية تهز القلوب، وكأن الحياة أهدتها في هذه اللحظة سرًا من أسرار السعادة التي حيرت العالم أجمع، إنها الآن تسبح في نهرها وتشرب من عسلها، تتمنى أن تصرخ صرخة يسمعها العالم، لتحكي بانتشاء عن سر السعادة، تطول زغاريدها السماء السابعة وكأنها قفزت فوق السحابة التي كانت تجاور القمر تصيح من هناك:

- «السعادة يا عالم، أنه في اللحظة التي تتسند فيها على صوت يخرج من أعماقك قائلاً لا تخف إن الله معك، بينما يسخر من ضعفك جبروت تقاوم شراسته ببسالة، فتمتد يد خفية تهزالأرض من تحته وترج السماء والكواكب لتجثم قدمك الضعيف على أنفاسه، يتعذب بعينه التي تشهد على سخريتك أنت منه»

تهتز قلوبهم لأفعالها يندهشون للسبب الذي أوصلها إلى هذا الجنون، على الرغم من أنهم جميعًا طالهم غدره، أوجعتهم مرارة أوجاعها، التي تقول إن جميع مرارات الغدر تهون، إلا مرارة أن يغدر رجل بامرأة، التفوا حولها منهارين من أجلها يحاولون بقوة إبعادها، تشدها بصعوبة زميلتها (آمال) إلى صدرها متشنجة تغسل أحضانها بدموعها ومخاطها، تصرخ في هستيريا:

- «الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر»

فأبكت الرجال قبل النساء على أوجاعها، بينما يحيط العساكر (سمير) لحجبه عن العمال، وتحجب قوة أخرى العمال التي استمرت منفعلة هائجة تهتف

بطرده، حتى وصل إلى سيارة الجيش التي كانت تنتظره خارج الشركة، وذهبوا به بعيدًا لا أحد يعرف إلى أين، ولكنهم جميعًا تيقنوا أنه ذهب إلى الأبد، ولن يعود إلى شركتهم مرة أخرى، وكما فعلوا مع (سمير) فعلوا مع (مدحت) إلا أنهم تعدوا قوة الجيش التي حاولت أن تحول بينهم وبينه، يتبعوه يزفونه بالبصق على قفاه، يلعنونه ويسبونه بأسفل الشتائم حتى أخذته السيارة وجرت مسرعة.

وبعدما انتهى اللواء من فض اعتصام المعتصمين بالمكاتب، وبعدما تأكد بنفسه من تفاقم الأزمة بين العمال ورؤسائهم، توجه إلى العمال بعطف ليقنعهم بفض اعتصامهم تاركين ديوان الشركة العام، يعدهم بأنه سيقوم بتوصيل رسالتهم إلى أكبر مسئول في الدولة، التف العمال جميعهم على قلب رجل واحد يرفضون أن يتركوا شركتهم قبل أن يصدر رئيس الشركة القابضة قرارًا بحل مجلس الإدارة، وأن يضمن لهم عدم عودة هؤلاء الفاسدين إلى الشركة مرة أخرى، وأن تفتح الملفات ويتم التحقيق في الفساد الذي تجاوز خمسة عشر عامًا، ولكنه انسحب بقواته بعدما فشلت جميع محاولاته لإقناعهم؛ فتركهم يبيتون في الشوارع أمام ديوان الشركة العام غير عابئين بقرصة برد مارس، منبهًا على الأمن أن مسئوليته الأولى والأخيرة الحفاظ على المبنى، فرشوا حصير مسجد الشركة أمام مبنى الشركة ينتظرون قرار رئيس الشركة القابضة الذي كان مفاجأة أذهلت عقولهم جميعًا.

جلست (مروة) على حافة الرصيف تستند إلى عمود النور تحت ضوئه البرتقالي ساهمة لا تنتظر نتيجة شيء، لا تنتظر ضمانات من أحد لأنها تثق في رجاحة عقلها الذي يؤكد لها أنهم رحلوا بلا رجعة إلى الأبد، أية إدارة مهما كانت حماقتها لن تسمح لهم بالعودة بعدما فقدوا ماء وجههم بين مرءوسيهم، ربما تأتي لهم بمن هم أسوأ، ولكن ذلك لا يهم. كان قلبها يرقص فرحًا، إنها لا تريد من الحياة الآن أكثر من ذلك، حتى لو توقفت بها عند هذا الحد، ستخرج منها راضية تمام الرضا، لم تكن تتمنى منها إنصافًا أكثر من أن ترى كل هذا الذل في عيون (سمير) وأن يخرج أمامها مزفوفًا بالفضائح هكذا على الملأ، يفيقها من

نشوتها كف (نجاح) تربت على كتفها، تلتفت إليه لتلتقي نظرتها الساهمة بنظرته الرقيقة الحانية تلمع تحت الضوء البرتقالي، تهيم لحظة في هذه النظرة الحلوة التي سربت الدفء إلى روحها، تشعر بدبيب الفرح يسري في دمائها عندما جلس (نجاح) إلى جوارها، شردت عنه تقول لنفسها هائمة: "وماله إيه يعنى لما في النهاية أحب، وأتجوز واحد من العمال، ليه لأ؟ أنا حاسة إن (نجاح) أرجل راجل شفته في حياتي".

تقتنع أن الإنسان بداخله ممرات مظلمة، متاحة لأن يعبرها الآخرون، يقرؤها هؤلاء العابرون كل على حسب ثقافته، يباغتها سؤال: "ترى ماذا قرأ (نجاح) في ممراتي المظلمة؟".

اعتلت وجهها فرحة عندما قام فجأة متحمسًا لإحساسه بأنها فخورة به وهي تثني عليه، بعنترية يمسك بالمايك صائحًا:

- «يا جماعة إحنا لازم نكون إيد واحدة، لازم نتفق على اللي هنعمله المرحلة الجاية، عشان ماحدش يقدر يفرقنا»

ثم عاد يهمس لها:

- «ماتخافيش، عمرهم ما هيشموا ريحتها تاني، اتطمني يا أبلة (مروة) انتي هزيتيني النهارده هزة جامدة من جوايا، ماتقلقيش أنا رقبتي فداكي»

راحت تعطي لنفسها فرصة هي الأخرى لتقرأ ممراته المظلمة، وتطرق الحديث بينهما إلى أعوان هؤلاء الفاسدين وما يمكن أن يفعلوه من أجل إعادتهم فقال لها:

- «ما أعتقدش، دا الجو فضي لهم»

فحكت له عن التهديد الذي وصلها من أحد أعوانهم:

- «تصور (الدسوقي) باعت يقولي انتي مجنونة وماشية ورا شوية عمال»

- «وقلتيله إيه؟»
- «قلتله:

يا أفندية،

يا نضاف،

يا متلمعين،

العمال هما اللي هيجيبوا حقوقكم اللي انتوا ضيعتوها.

كل ثورات العالم اللي قام بيها هما العمال؛ لإنهم هما الطبقة المهضوم حقها، واللي بايعينها بأصلها، وأنا حاسة بيهم؛ لإني زيهم ضاع حقي، وهأقف وراكم لآخر المطاف.

وعهد بينى وبينكم، ما هتخلى عنكم للنهاية»

- «صحيح يا (مروة) هتفضلي معانا للنهاية؟»
- «معاكم بكل قوتي»
- «بس الموضوع كبير، لسة هيحتاج وقت، ومجهود، ومصاريف، وسفر»
- «مهما كان دي قضيتي، عاهدني انت إنك تفضل للنهاية بطل، وإن عمرك ما هتبيع القضية»
- «أبيع؟! أومال أنا بعمل كل ده ليه؟!

أنا حقي من زمان أدخل مجلس الإدارة، لولا مؤامرتهم الوسخة»

تلمع زخات المطر تحت الضوء البرتقالي، تتنهد (مروة) ساهمة في دفء نظراته غير عابئة بزخات المطر قائلة:

- «وأنا جنبك»

تنتبه لـ(الجزار) الذي يناديها هامسًا لتنتبه للعيون التي تتلصص عليها منشغلة بسيرتها، والأسئلة الكثيرة التي تدور حول ما فعلته عند خروج (سمير) يباغتها هو الآخر مستفسرًا:

- «هو إيه اللي كان بينك وبينه؟! العمال مالهمش سيرة غير الموضوع ده»

فتهرب (مروة) كمن يتهرب من أن يتذكر مرضًا مهينًا شفي منه، حكايتها و(سمير) ماتت بخروجه مطرودًا من الشركة، فأجابته تغلق الموضوع:

- «كلكم عارفين إنه واطي، كفاية إنه سرق شغلي ونسبه لسكرتيرته، وطردني من قطاعه علشان يرضيها»

فطلب منها أن تخرج من شرودها وتلتف مع مجموعة العمال التي تتلهى بالتوقعات، خير من أن يتلهى أحد في سيرتها، يطلب منها هامسًا راجيًا أن تأخذ حذرها من (نجاح) الذي يحوم حولها، كانت (مروة) تظن أن الثورة تطهر نفوس البشر وتجعلهم نورانيين يرون الحقيقة بوجهها الطيب ولكن البشر وحوش في جميع أوقاتهم، والثورة لحظة نور ولكنها سرعان ما تنطفئ وينطفئ معها كل شيء حلو في الإنسان، ورغم كل شيء فلتحيا الثورة التي أزاحت من قلبها مرارة حكايتها مع (سمير) ستنساه وستنسى (شعبان) وستنسى (مدحت) ستفكر فقط في الرحلة الجديدة التي بدأت، تظن أن (نجاح) هو البطل الهمام؛ فتكشف لها الأيام أنه ربما توهمك رقتك أن الآخر عصفور ضعيف يحتاج منك أن ترعاه، فتشحذ كل طاقتك لاحتضانه وإسعاده، حتى تفيق مذعورًا على أنك تحتضن ثعبانًا، يشحذ كل طاقته ليقتلك.

تنخطف القلوب عندما تفتح البوابة الحديدية، يخرج إليهم (أحمد) مدير مكتب رئيس مجلس الإدارة في الواحدة من صباح اليوم التالي، يزعق فيهم متجهمًا:

- «يا جماعة الحقوا، إيجه فاكس من مكتب رئيس الشركة القابضة، مضمونه حل مجلس الإدارة»

يصيح العمال يهتفون بقوة:

- «الله أكبر، الله أكبر»

يستوقفهم (أحمد) يشرح لهم المسألة:

- «مجلس الإدارة ينحل برئيسه»

رد العمال:

- «يعني إيه؟»

أجاب أحمد:

- «يعني رئيس الشركة القابضة، عزل المهندس (خالد) معاهم»

نزل الخبر على عقل (مروة) كالصاعقة:

- «يعنى عملها رئيس الشركة القابضة، بيعاندنا، عشان يحل مجلس الإدارة، يمشي رئيس مجلس الإدارة اللي حبيناه، واللي حسسنا إن إحنا بني آدمين، لا مش هيمشي، المهندس (خالد) لازم يقعد، مش هيمشي»

وراح العمال يخترعون هتافات جديدة قوية رنانة، يهتفون بها حتى ظهيرة اليوم الثاني، جميعها تطالب ببقاء المهندس (خالد) يتوافد إليهم غالبية عمال المواقع الأخرى، يتحسبون جميعًا لتأزم الموقف، يصورون الفيديوهات ويرسلونها على جميع صفحات المسئولين في الدولة.

وحشدوا مظاهرة كبيرة انطلقت في الظهيرة، تجوب شوارع المدينة انتهت بهم إلى ديوان عام المحافظة، يهتفون بقلوبهم باسم المهندس (خالد) أطل المحافظ برأسه من الشباك مجزوعًا من هول المظاهرة، أرسل إليهم مدير مكتبه يستدعي عشرة من بينهم ليفهم المسألة، كانت (مروة) و(نجاح) والجزار من بينهم، وتعاطف المحافظ مع القضية يحاول إقناعهم بفض الاعتصام وأن يتركوا له المسألة لحلها، لكنهم رفضوا وخرجوا يستكملون المسيرة بعدما وعدهم بأنه سيفعل من أجلهم كل ما في وسعه أن يفعله، تملك الحماس من قلوبهم جميعًا رافضين أية حلول يكون فيها إقصاء المهندس (خالد) عن الشركة، وهاتف العمال المهندس (خالد) يؤكدون له أنهم لن يستغنوا عنه مهما كلفهم الأمر، حتى أن الرجل بكى فرحة من كل ما بذلوه من أجله،

صفحات كثيرة أنشئت باسم التضامن مع المهندس (خالد) يشيدون على صفحات التواصل الاجتماعي بجميع ما فعله من أجل النهوض بشركة دمياط على جميع المستويات، وخاصة المستوى الإنساني، وتابعت الصحف بشغف هذه القضية، كقضية من قضايا الرأى العام المشتعلة، واشتعلت المظاهرات أيامًا وليالي تالية، حتى أرسل إليهم حاكم المدينة أحد اللواءات المعروفين بقدراتهم الفائقة في التعامل مع هذه الطوارئ، وكان اللواء (علي العساس) الذي أصبح موجودًا في الشركة بشكل يكاد يكون دائمًا، تمكن من عمل علاقات كثيرة فردية مع العمال، استطاع من خلالها زعزعة الصف، وانقسموا إلى عدة مجموعات، مجموعة تستمع إلى (الجزار) ومجموعة أخرى تسمع من (نجاح) ومجموعة لـ(زيان) و(محسن) ومجموعة أخرى تسمع من الشيخ (جمال) ومجموعة تائهة ما بين المجموعات تضرب كفًا بكف لا تعرف أين الحقيقة، جميعهم ينشغلون بحوارات ظاهرية أما ما يدور في الباطن فلا يعلمه إلا الله، كانت (مروة) تتجول بين المجموعات لا تستوعب كيف وصلوا إلى هذا الانقسام، تسمع الشعارات البراقة وشيء في صدرها يرتجف، شيء يؤكد لها أن القضية انتهت وحسمت، وعليها فقط أن تنتظر الجولة الأخيرة، تلهث دائرة بينهم لتسمع شيئًا يفسر لها هذا الشعور الذي يطغى على تفكيرها دون أن تمسك دليلاً واحدًا.

قال (محسن):

- «الحرامي رئيس الشركة القابضة خاف لا يفضحوه»

(زيان):

- «أنا كنت بسافر مع العربيات اللي رايحة تودي للبيه إشي أوضة نوم جديدة لفيلته ولا طقم صالون لمكتبه»

(نجاح):

- «ده اللي إحنا بنشوفه، ما بالك باللي مابنشوفوش وبيطبخ في الورق من اعتمادات لفوائض الخطط وكله في قروشهم»

زيان:

- «(أحمد) مدير مكتب المهندس (خالد) بيقول إنهم راحوا هددوه وقالوله انت اللي بعت اللي فسد الشركة لا تشيله لا مش هنسكت، فشالهم الأربعة عشان يريح دماغه»

وعندما كانت تلتقي عيون (نجاح) بعيون (مروة) تزوغ منها مفتعلاً شعاراتٍ بحماسٍ باهت يؤكد بها إخلاصه قائلاً:

- «إحنا مش ماشيين من الشركة ولا هنفض اعتصامانا، إلا لو رجع المهندس (خالد) تاني، حتى لو هنضطر نسافر نعتصم قدام الشركة القابضة في القاهرة»

تدخل (زيان):

- «مش هيرجعه ولا هيخليه يستجيب لمطالبنا، إلا لو رحنا اعتصمنا قدام المقر الرئيسي للشركة»
- «أيوة يا (زيان) بس السفر ده محتاج فلوس»
- «الأستاذ (محمود) رئيسي كان بيقول إنه على استعداد يدفع أي فلوس نحتاجها، لو لزم الأمر»
- «الله الله، (محمود) ده مش كان الدراع اليمين لـ(شعبان)؟! إيه اللي قلبه القلبة السودة دي؟!»

رد (محسن) يضحك بصوتٍ عالٍ:

- «كل أعوانك خانوك يا (ريتشارد) ييجي يشوف رجالته اللى كان محمي فيهم وهما بيطعنوه في ضهره»

قال الشيخ (جمال):

- «لو لزم الأمر، تسافر مجموعة مننا تعتصم قدام الشركة القابضة، يوم واتنين وتلاتة لحد ما ينفذوا مطلبنا، ويرجع تاني المهندس (خالد)»

أضاف عامل:

- «وأنا وياكم يا شيخ»

وقال عامل آخر:

- «إيه يعني، إحنا وراهم، ومش هنرجع إلا بالمهندس (خالد)»

فقال (نجاح):

- «أنا رأيي نلم تبرعات من دلوقتي، لأننا داخلين على مرحلة محتاجة مصاريف»

فرد الشيخ (جمال):

- «وأنا من معايا ١٠٠ جنيه»

وأعطاها لـ(نجاح)

وراح (نجاح) يناشد (مروة) بلم التبرعات، وعلى الرغم من إحساسها بأن هناك شيء غامض يحدث في الخفاء، إلا أنها حاولت أن تطرد هذه الهواجس من أفكارها، تقنع نفسها بأن كل شيء يمضي في طريقه، ومن الممكن عودة المهندس (خالد) بالضغط على الشركة القابضة حتى ولو تحت أي مسمى، حتى يحين وقت الانتخابات، ويتم انتخاب مجلس إدارة جديد بدلاً من المجلس المنحل، أخذت تكثف جهودها للم التبرعات وتبرعت هي نفسها بأكبر مبلغ من الممكن أن يتبرع به عامل؛ مما جعل (نجاح) يغدق عليها من المشاعر والاهتمام ما جعلها تستعيد إيمانها بالقضية مرة أخرى، محاولة طرد أفكارها السوداء عن خيانة البشر، واقترحت عليهم أن تجمع توقيعات أكبر قدر من العاملين بالشركة، وإرسالها بفاكس لرئيس الوزراء، مرفقًا بطلب العاملين بعودة المهندس (خالد) ورفضهم قرار رئيس الشركة القابضة التعسفي، وبينما هي مشغولة في حلقة يلتف حولها مجموعة من العمال لإنهاء التوقيعات، كان العمال ينسحبون من حلقتها إلى حلقة أخرى، يتوسطها (أحمد) مدير مكتب

رئيس مجلس الإدارة و(نجاح) و(الجزار) و(زيان) والشيخ (جمال) وأغلبية العمال، ينصتون لـ(أحمد) الذي يقرأ عليهم الفاكس الذي أرسلته الشركة القابضة، والذي مضمونه أنها أرسلت إليهم المهندس (سيد ربيع) مفوض أعمال لمدة ثلاثة أشهر لتسير أعمال الشركة، لحين عمل مجلس إدارة جديد، طارت أوراق التوقيعات من يد (مروة) وهي مندفعة إليهم مذهولة لسماعها العمال يتداولون مستنكرين الخبر، يلتف غالبية العمال حول (نجاح) الهائج المعترض على هذا القرار، يوجههم بإغلاق بوابات الشركة والتجمهر حولها وعدم تمكين هذا المفوض من دخولها، وخلال ثلاث ساعات أصبح ديوان عام الشركة يكتظ بغالبية عمال الشركة نساءً ورجالاً، بينما الشلة المعروفة بالطابور الخامس التي كانت أذرعًا يبطش بها من رحلوا، تجمعوا عصبة واحدة تنتظر استقبال المفوض خارج أسوار الشركة، وعندما جاء المفوض كان الوقت يقترب من المغرب، تجمهر العمال داخل الشركة حول بواباتها يهتفون ضده، يصرخون في وجهه برفضهم دخوله، بينما المفوض ينتصف قلة من كبارات الشركة خارج الأسوار كتمثال أبله، تاركًا أتباعه الذين لا يعرف أحدًا منهم ليحاربوا من أجل اقتحامه الشركة، ولكنه انسحب مخذولاً بصحبة بعضهم إلى أحد فنادق رأس البر، بعدما أعلم رئيس الشركة القابضة بما حدث، والذى أمره بأن يتصرف بنفسه لإيجاد الحل لمشكلته، فراح يدير المعركة بقيادة اللواء (علي العساس) انعقدت الاجتماعات مع الوافدين إليه من رجال الطابور الخامس بقيادة شلة الروضة، (الدسوقي عتمان) و(الجابري) و(محمد عسل) و(ضاحي) و(الشربيني صالح) تنضم إليهم (إيمان كامل) العارفة بكل صغيرة وكبيرة عن شئون العاملين، و(صلاح البحيري) الذي يعلم كل صغيرة وكبيرة عن معامل الشركة، وأصبح هذا الصف هو خط الدفاع الأول ضد العاملين، الذين أوصلوا إليهم التهديدات والتوعدات بالأحكام العسكرية، لأنهم يضرون بأمن البلد ويضرون بأمن الشركة، يلمحون لأن الأمر سيصل إلى تلفيق القضايا الأمنية. لاحظت (مروة) تبدل حال (نجاح) واستنتجت أنه في الليلة التي استأذنهم فيها ليبيت مع أولاده لأنهم أوحشوه، استغفلهم ذاهبًا إليهم مع من ذهبوا، ليقدم فروض الولاء والطاعة ويبيع القضية ويساومهم على الثمن، لأن ما حدث منه بعد ذلك

يؤكد هذا الاستنتاج؛ بل وظنت أن ما حدث من (نجاح) حدث من جميع أفراد العمال، كل على حدة دون أن يعرف الآخر، وبعد عدة ليال تجمهروا جميعا داخل الشركة، بعدما حضر اللواء (علي العساس) الذي أعلمهم بقدومه في صباح ذلك اليوم، وراح يلقي عليهم خطبة طويلة عن الوطن وعن المؤامرات التي ينصبها الأعداء من أجل النيل به، وأن الوطن هو القضية الأولى، وأن تفاقم الأزمة إلى هذا الحد يضر بمصلحة الوطن، وأن الحل الذي يرضي الجميع هو هذا المفوض حتى تستقر الأمور، وبعدها يدرسون حلها بهدوء دون أن يضروا المصلحة العامة، وواجبهم الآن أن يمكنوه من دخول الشركة، فوجئت (مروة) بـ(نجاح) يتقدم الصفوف يؤكد لسيادة اللواء أن العمال ليس لديهم أية مشكلة، وأنهم سيكونون سندًا له، وراحوا جميعًا يهتفون باسم مفوض الشركة الجديد (السيد ربيع) وفتحت أمامه جميع البوابات التي أغلقت في وجهه من قبل، ودخل وسط هتافات العمال صاعدًا إلى مكتبه، وصعد وراءه أتباعه الجدد، بينما (مروة) وقلة من العمال البسطاء الذين مضوا إلى حال سبيلهم، منكسين الرأس يحملون كفن القضية التي ماتت، وبدأ عهد جديد على الشركة، عهد الصف الثاني الذي أصبح من حقه الآن أن يتولى جميع المراكز القيادية، وتفصل من أجله مراكز قوة جديدة ليتمكنوا من السيطرة التامة على عمال الشركة، تدوس أقدامهم على كل شبر فيها، لتموت أي فكرة للثورة قبل ولادتها إلى الأبد.

وراحت (مروة) بعيدًا بخيبتها الجديدة تتفرج، وخرج المهندس (خالد) من الحكاية إلى الأبد، ليظل سؤالاً حائرًا في عقلها وقلبها، حاول (نجاح) ألا يفقد ودها، يحاول أن تظل على عهدها به، يبتعد إذا واجه سؤالاً في عينيها يضطره إلى الإجابة عن الأحداث السرية التي كان هو أحد أبطالها، والتي بسببها تمكن (السيد ربيع) من دخول الشركة، وعندما تقابلا صدفة بعد مرور عدة أشهر دون أن ترد على اتصالاته، أوقفها يسألها عن تغيرها، لكنها لم تنطق بكلمة واحدة، وجد نفسه مضطرًا إلى أن يدافع عن نفسه بصلابة، ويواجه نظرتها الحاقدة بأن يشعب لها الأحداث، ولكى يضمن ثباته الانفعالي أدار وجهه عنها قائلاً:

- «يا ستي افهمي، (خالد) خلاص، (خالد) باعنا هو كمان، (خالد) حكاية وانتهت، اصحي وفوقي، المهندس (خالد) حرر ضدنا محضر في القسم، بإنه غير مسئول عن كل اللي بيحصل في الشركة، وإن لو أي حد جاب سيرته في الحكاية دي هيتعرض للمساءلة القانونية.

الراجل اللي اشتريناه واعتبرناه قضيتنا، هو اللي باعنا، هو معذور برضه، اتهدد بإنه هيرجع مدير عام، وماعادش هيمسك أي شركة.

اشترى مصلحته في شركة تانية، لو مش مصدقة، أدي صورة من المحضر.

انسي بقى الحكاية دي وخلينا في المهندس (سيد) مصلحتنا دلوقتي معاه.

خدي بالك الراجل دلوقتي في حمانا، بعد ما وعد إنه هيحقق مطالبنا كلها، أي معارضة منك هتكون انتي اللي بتحرضى العمال، والنهاية الحاكم العسكرى هيتهمك بالتحريض على أمن الشركة، والناس كلها أهه مقتنعة وعاوزين الأمان»

أنصتت لتسمعه جيدًا، لتتأكد لها خيبتها في ظنها بالبشر، رمته بنظرة حاقدة آسفة، ومضت تتساقط دموعها الحارقة، تقول نفسها: "من غبائي إني ضيعت عمري وأنا بدور في الأرض عن الملايكة، مع إني مابحبش الملايكة، الملايكة مابيعملوش ثورات وأنا بعشق الثورة، الملايكة مابيصنعوش تغيير، مابيتمردوش، مابيتأففوش، وأنا كل ده، يبقى ليه ضيعت عمري وأنا بدور في الأرض عن الملايكة؟!".

وخرجت من الشركة تمشي في الشوارع تهذي يظنها المارة مخبولة ولكنها تهرب من الجنون بالأسئلة:

"بس اللي عاوزة أفهمه.. ليه جه؟!

وليه مشي؟!

وليه قامت الثورة؟!

وكانت لمصلحة مين؟!

ومين اللي دبرها؟!

مين اللي دفع؟!

ومين اللي قبض؟!

ومين اللي ماسك خيط اللعبة من أولها لأخرها؟!

ممكن يكون (خالد) هو اللي دبرها، عشان يمشى مجلس الإدارة، والجو يخلاله!

ولا رئيس الشركة القابضة، قال في عقل باله: أخلص من شلة الحرامية، اللي كل شوية يلووا دراعي، واضرب عصفورين بحجر!

ولا (الجابري) وشلة الروضة، عشان تخلالهم الشركة، وتفضى لهم الكراسي!

مين قبضك يا (نجاح)؟!

مين قبضك عشان تضحك على الغلابة، وتعشمهم ببكرة، وتقيد الثورة؟!

مين؟".

❊❊❊❊

(٥)

هذا اليوم الهمجي كان من أيام الربيع، التي يسطو عليها الشتاء فيسلبها بهجتها، عادت (مروة) إلى منزلها مسرعة بعد فقدانها القدرة على تحمل وحشية العواصف والرياح، وعندما دخلت إلى حجرتها، كان العصفور ينعم بين الشيش والزجاج وقشات قليلة افترشها، بدا لها وكأنه يرقص فرحًا بانتصاره على إرادتها، فرحًا بذكائه وقوته لأنه استطاع أن يفك الحصار، تملكتها غبطة لعناده، لم تستطع السيطرة على ضحكاتها العالية، حتى أن أمها دخلت مفزوعة على هذه المخبولة التي تكلم نفسها، وتركتها مدهوشة تضرب كفًا بكف عندما اكتشفت أنها تكلم العصفور قائلة:

- «أتتحداني أيها العصفور؟ ابن عشًّا آخر، أو ابن حتى أعظم قصر، ولكن بحركة صغيرة جدًّا مني، سأفقدك كل ما بنيت، فابق ما شئت، ولكنني أحذرك ألا تأمن غدري»

ولكنه لا يستوعب ما تقوله، لا يستوعب سوى انتصاراته فقط، فضحكت تقول له:

- «عصفور أحمق»

وحبسها العصفور معه، حتى اعتادت سجنه ونسيت براح القمر، مسجونة بإرادتها باسم الإنسانية، يستفز فيها هذا السجن رغبتها المتأججة دائمًا إلى الثورة، وكانت بين الحين والحين تثور عليه، لكنه لا يعطى باللاً لثورتها، الثورة هي المتنفس الوحيد لانفعالها بقضية، ولكنها تحط قضيتها إلى أرض النسيان، بعدما تبتلع الثورة كل طاقتها، لذلك كانت تموت جميع قضاياها دون أن تصل إلى حلها، لقد كانت تفقد حماسها لقضيتها بمجرد انتهاء ثورتها.

كان الشتاء يهوّن الأمر عليها شيئًا ما؛ لأنها كانت تنام سريعًا تهرُّبًا من البرد، ولكنها في الربيع وتدهور أحداث الشركة واحتياجها إلى القمر، بينما وجود

العصفور يقحمها في صراع بين إنسانيتها وممارسة حقها، كانت تدخل عليه يوميًّا مقتضبة حزينة ليفهم أنها تريد استخدام حقها، وتريد أيضًا أن تضمن له الأمان، تبرطم بكلمات تحذره من بطشها، تمنحه الفرصة ليأخذ حذره من لحظة تتملكها فيها الغضب والتهور، كانت أحيانًا تبكي له متوسلة ألا يعتمد على إنسانيتها، لأنها من الممكن أن تنهار في لحظة اختيار، كانت طوال الوقت تخاف عليه من غدرها دون أن تتوقع ما هي حساباته، كانت تظن أن هذا العش هو مأمنه الوحيد، لم تكن تدرك أن له مخططًا آخر، ولم يخطر ببالها ما حدث.

في ذلك اليوم الذي كانت فيه الرياح عاتية، عندما دخلت حجرتها مستوحشة صوت الرياح التي جاءت كعاصفة مفاجئة، أزعجها الصمت الذي يخيم على حجرتها، أسرعت تنقر في زجاج الشباك تتوقع أن العصفور يختبئ بين قشاته من البرد، لكن لا نبش ولا حركة، راحت مذهولةً خائفةً تسأل نفسها: "أين ذهب هذا العصفور المجنون؟! ربما خرج قبل العاصفة؟! ربما ينتظر هدوء الرياح ليعود؟!".

كان توقعها أنها ستجده في عشه ينتظرها خائفًا عليها، يهديها رقصة الفرح بمجرد أن يراها، تستأنس بزقزقة الفرح والرقص، وستنسى كعادتها حكاية حقها المسلوب، كما تنساها كل يوم مستسلمة لفكرة أنها تنقذه من الضياع، ولكنه أهداها هذا الصمت الموحش، الوقت يمر، والرياح صارت مطرًا رهيبًا، حتى أنها شعرت باهتزاز الجدران من شدة المطر والعاصفة، وقت طويل حتى كشفت السماء عن غيومها، ووقف المطر، واستقرت الريح، وكست الشمس وجه الأرض، وكأن شيئًا لم يكن، ربما كان هذا اليوم من أيام الربيع المزعجة مودعًا نوباته العاتية، ولكن كل شيء عاد كما كان، والعصفور لم يكن له أثر، راحت تعيد التدقيق في العش فبدا لها مختلفًا، كانت تعهده هائشًا كأنه يتصارع ليبنى قصرًا بين الشيش والزجاج، ولكنه الآن هابط وكأنه أخذ قشاته معه، وبعدما جاء الليل تأكد لها أن العصفور خرج ولن يعود، راحت تصارع وحشة الصمت والبرد معًا تناجيه دامعة لأنها لم تطلب منه أن يدخل حياتها،

إنما هو الذي اقتحمها، وأفسد عليها حياتها مع القمر، وتركها في اللحظة التي لم تعد قادرة على الاستغناء عنه، راحت تهذي باكية:

- «أيها العصفور، عشت رحلةً طويلة مرة، أعاني مرارة لحظة تكون أقوى مني فأغدر بك، دون أن أحسب حساب أنك ستغدر أنت بي حين تأتيك الفرصة، حتى أنت أيها العصفور!»

ومرت الأيام رتيبة مملة، بعدما تمكن هذا المفوض من الشركة، أصبحت الحياة مشلولة يغلفها الجليد الذي تجمدت فيه مشاعرها، لم تعد تفكر في أي شيء مما يدور حولها من أحداث، نسيت حتى تعلقها بالقمر، ظل شباكها مغلقًا والقش يغطى الثقب، والأيام تمر والصيف يعلن عن قدومه بحرارة الجو، ورغم ذلك لم تفتح الشباك على مصراعيه كما كانت تتمنى، لم تفعل شيئًا سوى أنها بين الحين والحين ترقب العش ربما يعود العصفور، تهذي مع نفسها أحيانًا في لحظة تتملكها رغبة الانتقام من كل جبروت هزمها، تصب هذه الرغبة على هذا العصفور:

- «لو أنك تعود مرة أخرى أيها العصفور، ساعتها، سأفتح الشباك بكل قوتي على مصراعيه، ساعتها، سأقذف بك وبعشك إلى أقصى مكان في العالم، ساعتها، سأنتزع منك حقي الذي سلبته أربعة أشهر، سأنتقم منك بعدما جعلتني لعبة في يديك، انتزعت مني حياتي لتنعم أنت بالحياة، باسم شعارات بالية، لم تعد تهم أحدًا، ليتني انتزعت منك حقي، ليتني كنت أنا الأقوى، أما أنت... أيها العصفور، فأنت الأقوى، تأخذ ما تريد، وقتما تريد، دون أن تهتم باسم أي شيء تأخذ، يا لصدقك أنت مع نفسك، ويا لقوتك وجبروتك، ويا لضعفي وهزيمتي، العالم كله أنت أيها العصفور، أما أنا...»

يمر شريط حياتها أمامها حتى غفلت.

سافرت أمها وحدها إلى القاهرة لتقضي ليالي العيد مع أختها (نجوى) بعدما فشلت في إقناع (مروة) بالسفر معها، تعللت بأنها مشغولة بمتابعة الأحداث

المشتعلة في الشركة، أوشك الظهر على الاقتراب، والنهار مصبوغ بصبغة بلاستيكية داكنة، لا توحي أبدًا بأن في الأجواء عيد، ربما لأن العيد الحقيقي فارق روحها منذ الطفولة، راحت تختبئ في ملابسها الشتوية تحسبًا لتغيرات الجو، تراقب الأجواء بين الحين والحين من شيش البلكونة الموارب، هذه الأجواء الكئيبة تقودها إلى النوم بسهولة، تهربًا من هذه الحياة دون أن تفقدها تمامًا، لأن هناك أحداث مشتعلة تريد أن تعرف إلى أي نهاية ستنتهي، لكنها استسلمت للنوم.

استيقظت في اليوم التالي بعد العصر كعادتها لو استسلمت للنوم، تنصهر فيه وكأنها تنصهر في الموت الذي تعرفه، وبينما تنسحب شيئًا فشيئًا إلى النور، تصفع أذنها زقزقة عصفور، تقفز من فراشها مذهولة واقفة خلف الزجاج، فيتأكد لها وجود عصفور في العش، ولكنه هزيل بعض الشيء، لم تصدق نفسها، ولم تتمالك نفسها من الفرح، وكأن أحد أحلامها العظام قد تحقق لها الآن، وراحت تلاحقه بالأسئلة في عطف بسذاجة طفلة بريئة، بعدما سحقت رؤيته من وجدانها جميع غلها وحقدها عليه.

تقول له:

- «ماذا حدث لك أيها العصفور؟!»

لكنها لاحظت أنه يتعامل مع العش كغريب عنه، وأن هناك شيئًا يختلف، يقول لها هاجسها بائسًا:

- «ربما كان هذا العصفور، عصفورًا آخر!»

فتجيب هاجسها بائسة:

- «ولمَ لا؟! جميع العصافير حلوة، تجلب في نفوسنا الأمان والفرح، دون أن نرسم في الأذهان ملامحها، إن طبع العصفور يقول إنه عصفور آخر، وأن عصفوري القديم، رحل إلى الأبد دون رجعة، وأنني الآن أمام حكاية جديدة، للائذٍ جديد، كان لا بد أن أبتر هذا العش، قبل أن يتحول إلى ملاذ لكل عصفور ضائع»

راحت تنظر إليه مستسلمة لواقع يفرض نفسه عليها، وكأنه متيقن من أنه لن يرفض وجوده أحد، ربما أبهجها هياج العش من جديد، وانتفاش القش، وكأن الروح دبت مرة أخرى في جسد ميت، لكنها لم تعد تدرك معنى مرور الزمن من حولها، ولم يعد لديها مبالاة بالأشياء، لم يعد يهمها انتفاش القش، أو العصفور الذي يروح ويجيء في حيوية مبهجة، حتى أنها راحت تتأمله مندهشة تقول لنفسها: "سرعان ما نذوب في الأوطان الجديدة، وننسى أنها ليست أوطاننا، وربما نزرع فيها وجودنا من جديد".

انصهر العصفور في عشه، وانصهر العش في العصفور، وهي تروح وتجيء في لا مبالاتها لا تفعل شيء، غير قادرة على الفرح به والاستعاضة به عن عصفورها القديم، وغير قادرة على أن تحسم أمره وتطرده من العش، لتنتقم لنفسها وتستعيد حياتها مع القمر، تطلع إليه بين الحين والحين تسأله:

– «أيها العصفور، ترى من سيضع النهاية هذه المرة؟! أنا، أم انت؟!»

عادت إلى العمل متكاسلة بعدما قضت إجازة العيد نومًا، لم تستطع التواصل حتى نهاية اليوم، سيطرت عليها فكرة (التزويغ) خاصة أنها ستنفرد بنفسها في البيت وحدها حرة طليقة دون رقيب، تتحرك فيه بملابسها أو عارية كما يحلو لها، تتلهى في الطريق بأن تضع لنفسها خطة وهمية لاستكمال اليوم، ربما لا تنفذ منها شيئًا، لا يهم، المهم أنها سعيدة بالتخطيط لوقت تمتلكه كله لنفسها، فكرت بأن تغير غدائها اليوم وتخرج عن المألوف، تذكرت حديث (رانيا) زميلتها مع مدام (سهام) الذي لم يكن مهمًا لها أن تنتبه إليه، ولكنه الآن يقفز من الذاكرة الفوضوية فارضًا نفسه على ذهنها، تسمعها الآن بانتباه وهي تحكى لمدام (سهام) عن غداء الأمس، عندما فاجأها (هاني) زوجها بأكلة رنجة رائعة، شعرت (مروة) باشتهائها لهذه الأكلة، على الرغم من أنها كانت تكره رائحتها، عندما تتسلل إليهم من نوافذ الجيران، ولكن لعابها الآن يسيل عليها، تعيد على نفسها كلام (رانيا) الخبيث عنها، (مروة) لم تكن تكره أو تحب أكلة معينة، الأكل بالنسبة لها من أجل سير الحياة، ما هو متاح مقبول ليسد الجوع، دون

اختيار أو تفضيل، شعورها الآن بأنها تفضل أن تأكل شيئًا معيَّنًا في حد ذاته يشعرها بالبهجة.

سألها البقال إذا كانت تريدها (مبطرخة) فأجابته بالموافقة، توارى ابتسامتها عندما يرن في أذنيها كلام (رانيا) عن سحر (البطروخ) وما يفعله في الجسد، راحت تشم رائحتها بتلذذ، تنتابها فرحة لهذه الفرصة العظيمة التي جاءتها، لإحداث أي تغيير يدخل أي بهجة في حياتها، إنها ليست كئيبة كما يتهمونها دائمًا، إنها في حقيقة الأمر أكثر الناس اهتمامًا بالبهجة واستجداءً لها، أكثرهم حبًّا للحياة، ولكن الحياة هي التي لا تحبها، ربما يعيش الناس حياتهم دون أن ينشغلوا بحب الحياة أو كرهها مثلها.

أحكمت غلق باب الشقة خلفها، وتأكدت من إحكام غلق النوافذ جميعها، راحت تطير فرحة بين الأشياء، تخلع ملابسها جزءًا جزءًا، تطوح بها في الهواء غير عابئة ببرودة الجو، انتابتها سعادة بالغة حين أصبحت شبه عارية، تتحرك دون حذر في أرجاء الشقة، ربما كانت هذه هي المرة الأولى في حياتها التي تدخل فيها المطبخ وهي بالـ(أندر) و(السونتيان) راحت تشوي الرنجة على النار الهادئة تندن:

- «روح قوله يا قمر، ولا انت يا قمر اتعلمت القساوة، وبقيت زي حبيبي، بتنسى يا قمر»

تتلذذ بالدخان الذي كانت تكرهه، يسيل لعابها على البطروخ الذي فظ واللحم الذي ينتفخ كلما مررته على النار، وضعتها في طبق وأحضرت مترددة فحل البصل "تفشه" بكفها كما ذكرت (رانيا) أقدمت عليه متأففة في بادئ الأمر، لم تتصور نفسها يومًا من الأيام ستأكل هذا الشيء الكريه جدًّا لنفسها، لكنها انهالت عليه تلتهمه مع الرنجة التهامًا، متلذذة بهذه الأكلة التي غيرت بها روتين حياتها، وجعلتها تكتشف أن أحكامها الظالمة حرمتها حلاوة الأشياء لسنوات كثيرة؛ فقد كان جدها يحبها، والجيران يأكلونها كثيرًا، وكانت أكلة زوج أمها المفضلة، كان يعزم عليها (عزومة مراكبية) بأن تجرب طعمها فرحًا

برفضها، لأن منابها سيكون من حظه، لكنها تترك نفسها دائمًا لمزاجها المتقلب الذي يهديها الحياة بعد فوات الأوان.

بعدما شبعت من هذه الأكلة التي غيرت وجه الحياة كلها، راحت تنظف آثارها، تعطِّر كل ما يقابلها لتقضي على هذه الرائحة، تناولت شايها تفتح الكمبيوتر على ملف الأغاني، تتمايل مع أغنية "الهوى هوايا" لـ(عبد الحليم)

تاركة نفسها لنشوة الرقص التي تسري في جسدها، تبتهج روحها سابحة في أغوار هذه الحالة التي سكنتها، حتى هدها الرقص وسقطت مسطولة على فراشها، أفاقت على انتهاء الأغنية، راحت تختار في (الساوند) مجموعة من الأغاني التي تهمل سماعها منذ فترة طويلة، حتى سقطت روحها فريسة رغبة أخرى تركت نفسها لحلاوتها دون أدنى مقاومة، تتحرر ما تبقى من ملابسها، تتذوق حلاوة الحياة المحرومة منها، حلاوة مهملة محبوسة تنطلق من جسدها.

وعندما أفاقت من سطلها، غابت في بكاء مرير تصب لعنتها على الرنجة، تنبه نفسها ألا تطاوع هذه الرغبة الخبيثة أبدًا، تؤنب نفسها خجلاً متسائلة: كيف كان سيكون الحال إذا كانت أمها في البيت؟ مؤكد أنها كانت ستتعذب بكل هذه الطاقة الجسدية، التي انطلقت من كهفها تعبر عن وجودها، سيكون مصيرها هو الزج بها مقهورة لتحتبس في كهفها تصارع آلامها، راحت تجر آلامها تبحث في خجل عن ملابسها المبعثرة، تتساقط دموعها وهي تهذي في بحر من الأسئلة: "لماذا أتتلذذ بأن أكون مسلوبة الإرادة مغيبة تحت تأثير حالة تأخذني إلى ما تشاء؟ هل وجود رجل يحل له أن يشاركني هذه اللحظة هو المنقذ من هذا الألم النفسي؟ ماذا كان عليَّ أن أفعل أمام هذه الرغبة الجسدية التي اجتاحتني فجأة دون أن أستدعيها؟ كيف أغلق الباب في وجه لحظة جاءت لتبهج روحي المعتمة، وتهديني سعادة كنت أحتاجها؟ لكنها تركتني مقهورة لأنها تحتاج مني أن أعتذر إلى الله، أعتذر إلى الحياة، أقهر نفسي لأنها تركت نفسها للخطيئة، لماذا كل هذه الألغاز التي تحيط بي في هذا المجتمع الشرس؟!

هذا المجتمع الذي يصر على أن يسجن البشر، يضيع حياتهم في أقفاص اتهام، هذا المجتمع الذي حبس البشرية زورًا، أجيالاً وراء أجيال، كم أتمنى أن تأتيني

القدرة لأنتقم منه وأحرق جميع سجلات المذنبين فيه، هذا المجتمع هو الذي يستحق أن يجلس وراء القضبان لنسأله:

لماذا نولد طالما أن الحياة ذنب؟ لماذا يفرض علينا أن نؤجلها إلى ما بعد الموت حتى لا نتعذب بالذنوب؟

لماذا خُلقت لنا هذه الحواس ثم نعطلها حتى نفوز بالجنة ونعيمها بعد الموت، بينما نحرم أنفسنا من النعيم الذي بين أيدينا؟ لماذا كل هذا العذاب؟ ماذا تبقى لنا لنقول إننا على قيد الحياة، أن نأكل ونشرب، أو نغمض أعيننا، أو نتنفس؟

أو أن أعيش مطالبة طوال الوقت بالتوبة، مطالبة بالاعتراف بأن اللحظات التي عشتها بمنتهى الصدق وعبرت عن مشاعري، ما هي إلا خطيئة عليَّ أن أتوب منها؛ لأن هذه اللحظات دنست الأرض والسماء، وأقلقت الله في عليائه، وخدشت قداسة المجتمع".

لم تكن (مروة) ممن هم منشغلون ليل نهار بالحلال والحرام، كانت تعمل بالآية التي يقول فيها الله -عز وجل-: "لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها".

فكانت تسير على الطريق سواء كان طريق العرف أو طريق الدين، ولكنها في اللحظة التي تشعر فيها بعدم قدرتها على التحمل، في هذه اللحظة تتأكد أن شرعية العرف أو الدين تسقط، لأن نفسها فقدت القدرة على التحمل، عاشت على هذا المبدأ، دون أن تلوم نفسها أو تعذبها، مدركة غاية الإدراك لرحمة الله، وأن الحياة لا تستحق منها كل هذه المعاناة، الدين والعرف فقط لتقويم المجتمع، ورسمه على شاكلة معينة، تتغير من زمان لزمان، ما هو عرف اليوم، ليس بعرف في الغد، وما يصلح للمجتمع الآن، لا يصلح له في الغد، إنها أنماط تحافظ على قوام المجتمع، ليأخذ شكلاً ما، شكلاً مرسومًا لصالح سياسة ما، لا تخص الله في شيء، ما يخص الله هو قلبها، وضميرها، وهما دائمًا وأبدًا ملكًا له.

وعلى الرغم من ذلك أوقعتها هذه الرغبة الجامحة في إحساس مدمر بالذنب، راحت تقاومه عائدة إلى قناعتها ساخرة من كل شيء تقول لنفسها: "اللعنة عليكِ أيتها الرنجة، لن آكلك بعد اليوم، لكنني سأسمع الموسيقى، إنها الوحيدة التي تأخذني إلى الرومانسية، ولو أن الموسيقى أيضا متهمة، في جميع المجتمعات التي تدعي التدين، إنها هنا من المحرمات، يا إلهي، أين أذهب؟ أريد أن أفهم، فقط أفهم، أنا لست من هواة فلسفة الحياة، لكنني فقط من هواة الحياة".

هدأت روحها من التفكير عندما اهتدت لفكرة، أن الله عادل لم يجعل هذه الرغبة المدمرة فينا تنتظر فضها من الآخر، وإلا كانت ستكون مصدرًا للاستعباد، خلق لها القدرة على الانطلاق وحدها، لتتنفس بكرامة دون الاحتياج إلى الآخر؛ على الرغم من أنها خلقت فينا للآخر ولكنها ليست ملكًا له.

فاجأتها أمها في صباح اليوم التالي، دخلت عليها مشحونة تروي لها أحداث شجارها مع خالتها، بسبب رفضها أن تبيع شقة جدها لتحصل على ميراثها الشرعي فيها، لم تعطها (مروة) بالاً فقد كانت في مزاج سيئ، دخلت حجرتها مختبئة في فرشتها حتى الصباح، ذهبت إلى الشركة في اليوم التالي تتلهف لخبر جديد.

كانت ما زالت سيئة المزاج مشحونة العقل بالتفكير فيما حدث لها ليلة أمس، دخلت عليها (رانيا) تبتهج تعبيراتها باكتشاف الفضائح، تنهش في سيرة (رباب) سكرتيرة (شاكر) قائلة:

- «تعالي شوفي اللي بيحصل في أوضة (شاكر) فتحت الباب من غير ما أخبط عشان أسلمه جواب استعجال لبيانات عاوزاها الشركة القابضة، لقيته اتنفض بيجري في ناحية، وهي في ناحية»

وراحت (رانيا) تلطم خدودها وهي تقول متلذذة بالكلام عن الفضائح:

- «كان حاضنها وبيبوسها»

شردت عنها (مروة) تتمنى أن تصرخ في وجهها قائلة:

- «إشمعنى الجنس هو اللي فعل فاضح؟ ليه مابنعتبرش إن اللي بياكل عشان يلبي احتياجات جسمه من الأكل فعل فاضح، أو اللي بياكل في طبق مش طبقه فعل فاضح، أو اللي بيسمع موسيقى لتحليق الروح فعل فاضح؟ اسألوا الطب وهو يقول لكم قد إيه معاناة الجسد وإحنا بنقتل فيه غريزته، مجرد فعل طبيعي لكننا اديناه أكبر بكتير من حجمه، عملنا منه فعل مشين ومهين لصاحبه، رغم إننا جميعًا بلا استثناء لا تستقيم نفوسنا ولا أرواحنا ولا تطيب الحياة لنا بدونه، من غيره هنبقى زي البهايم مطلوب منها تأكل عشان تسمن، ومهمتها في الحياة إنها تعشر، ليه مش قادرين يعترفوا إن أعظم لحظة في الحياة، هي اللحظة الصادقة اللي بتجمع بين رجل وست بأمر الحب، وإنها أسمى شيء في الوجود، الشيء اللي بيخلينا نحلق في السماء، ويغمر روحنا بسعادة مهما كانت الحياة كئيبة ومريرة، الشيء اللي بيهون علينا الحياة، إمتى هنعترف بالحقيقة ونقول إن الفشل الحقيقي في حياتنا هو فشلنا في الوصول للحظة دي، الفشل اللي بيخلينا ننزوي جوه جلودنا لحد ما نموت مقهورين، ارحمونا بقى يا عالم، وافهموا إننا قبل ما ننشغل في الدنيا بإننا نعمرها بالحجارة ونسيبها لغيرنا يتقاتلوا عليها، نعيشها الأول في محبة، كل وليف مع وليفته»

وابتسمت (مروة) ساخرة تهمس لنفسها:

- «ولا يمكن الحكاية تبقى ماسخة لو المجتمع سابها في حالها، لأن جزء من حلاوتها إنها بتبقى مخطوفة»

لم تعتب على حظها الغابر الذي جعلها تتجاوز الأربعين عامًا دون أن تحظى بزوج، لأنها كرهت الزواج في هذا المجتمع الدمياطي، الذي تراءت لها فيه هذه العلاقة الإنسانية الجميلة أنها ما هي إلا صفقة تجارية، الرجل في هذا المجتمع لا يمنح اسمه إلا لامرأة يحترمها، والاحترام يتلخص في مالها، أو حسبها ونسبها،

أو التسهيلات التي سيتحصل عليها بدافع ذكائها وإمكانياتها الأنثوية، لذلك رفضت كل عريس يتقدم لها.

انزوت (مروة) داخل نفسها، بعيدًا عن هذا المجتمع الممزق، الذي لا يلقي تحية الصباح فيه أحد على أحد إلا إذا كان ذلك سيعود عليه بفائدة، أغلب من تقدموا للزواج بها كانوا نجارين، كانت تتأسف على هذه المهانة لأن هؤلاء تجرأوا على التفكير في الزواج بها، فيهون عليها زوج أمها الحكاية، يعد لها قائمة طويلة بأسماء طبيبات مشهورات، ومهندسات ومدرسات وسيدات ذوات مراكز مرموقة في المحافظة، جميعهن زوجات لنجارين، ليقنعها إما أن تتزوج من نجار، أو ممن يعملون في الخارج عند شيوخ دول النفط، هؤلاء يشترون العروسة بالشبكة والمهر وتكاليف فرح مبالغ فيه، ولكنهم أيضًا يبحثون عن عروس تستحق جميع هذه المزايا، عروس ذات حسب ونسب وثروة وشهادة عليا، ربما دكتوراة، ثم يشترطون عليها أن ترتدي نقابًا يحجب عن العالم كله مزاياها، لاغين المشاعر الإنسانية من الحسبة كلها، كل شيء محسوب بالورقة والقلم، المرأة تحسب قبل الرجل، وإذا كان ناتج الحسبة رابحًا يتم الزواج، ويتركها ليسافر بعد قضاء شهر العسل، فارضًا عليها أن تتعايش مع الوحدة والإخلاص له، بناء على العقد الذي بينهما، حتى يعود لها بعد سنتين أو ثلاث، ليعوضها غيابه بشهر كامل في المصيف، وملابس ثمينة وربما خاتمًا أو أسورة من الذهب الخالص هدية على إخلاصها وصبرها، أما هو، ترى هل استطاع أن ينفذ ما في العقد، ويخلص لها طوال غيبته في دول الخليج؟! لا أحد يسأله.

لن تنسى (مروة) هذه الحادثة المفجعة التي حدثت ذات صباح شتوي، في ليلة من ليالي العيد، عندما خرجت (أمل) جارتهم الشابة تستغيث من فرط الطعنات التي تلقتها في صدرها، مرتمية كذبيحة تغوص في دمائها أمام شقتها، لم ينقذ روحها صراخ الجيران، فارقت روحها تاركة للحياة طفلاً رضيعًا، هذا الطفل جعل (مروة) تحمد الله؛ لأن القدر الذي اختار لها أبا أبله يلاحقه الأولاد في الشوارع، يرمونه بالحجارة وهو يجري منهم مسرورًا يظنهم يلعبون معه، كان أحن عليها من قسوته على هذا الطفل الرضيع، الذي رمى به في هذا المجتمع

ذي القلب الغليظ، ترى ماذا سيكون حاله عندما يكبر؟ إن أمه (أمل) التي كانت في العيد السابق عروسة جميلة لم تكمل عامها السابع عشر، تركها عريسها بعد شهر العسل، مسافرًا إلى عمله في الكويت، أغواها (فتحي) النجار الذي يعمل في الورشة التي تطل على بلكونتها، لف الولد على البنت وضربا عرض الحائط بكل القيم المجتمعية، لاحظ كثير من أهل الشارع نزوله من البيت في الفجر؛ فأخبروا زوجها الذي جاء على غفلة، ليضبطه في فرشته، قفز الولد من البلكونة، وأمسك الزوج بالخائنة يطعنها طعنات تغسل عارها، ظلت (أمل) عالقة بذهن (مروة) لليالٍ طويلة، منهارة لا تنام في هذا البيت الملطخ بدمائها، وظلت (أمل) حديث الحارة لشهور طويلة، على الرغم من أن الحارة؛ بل المدينة كلها، تتوالد فيها كل يوم حكايات تشبه حكاية (أمل) و(فتحي) لأنه لا شيء فيها يتغير، بل الذي تغير هو قدرتهم على مداراة الخيانة، لأن الرجل لن يتنازل عن أموال الخليج، ولأن المرأة لن تتنازل عن فسحة شهر في المصيف، وهدايا الخليج من المكسرات والمجوهرات، وكل شيء يهون مع الأيام ببعض من التغاضي، حتى يذبل الشباب وتنكسر حدته، وتنكسر في الإنسان الرغبة، ويصبح غولاً متوحشًا، لا تمتلئ خزائنه ذات المعدة التي لا تشبع.

هذا المجتمع الدمياطي ربما كان يشبه مجتمعات كثيرة، لكن الفارق هو أنه هنا منهج عام متأصل في جميع طبقاته، ربما كان ذلك منهج طبقة من طبقات المجتمعات الأخرى، التي تحتفظ بطبقات تحافظ على الإنسانية، أو ماتت فيها الإنسانية أيضا لأسباب أخرى.

عندما يتحدث المهتمون بدراسة تغيرات المجتمعات، ينسبون دائمًا تدهور هذا المجتمع تبعًا لتدهور حال الموبيليا، التي تدهورت لأسباب مادية، كزيادة سعر الخشب، أو التخطيط الرأسمالي للتجار الكبار، لكن (مروة) وحدها كانت تقول لنفسها: "إنكم أنتم من دمرتم أنفسكم بهذه العنجهية الفارغة".

تأكدت من صحة حكمها عندما ظهر فجأة في الحارة هذا البهلول، كانت تفر مبتعدة مذعورة لرؤيته، بينما هو يثبت نظراته عليها ريحة وجيئة، يجلس على رصيف لا يغيره بهيئته المزرية المثيرة للشفقة والقرف في آن واحد، ينادي على

الأطفال بينما عيونه تلاحقها تناديها، ذات مرة تباطأت فضولاً لتسمعه، كان يحكي للأطفال متحسرًا قصة السلحفاة والأرنب المغرور، يكز على أسنانه مغتاظًا عندما يصل إلى نهاية القصة، يخبرهم بأن الأرنب بعنجهيته أفاق بعد فوات الأوان، في اللحظة التي كان الناس فيها منبهرين مهللين للسلحفاة التي فازت على الأرنب، يضغط على الحروف لتخرج مغتاظة قائلاً:

- «حد يعقل إن السلحفاة تفوز على الأرنب، طب إزاي دا يحصل؟!»

يضحك الأطفال على خيبة الأرنب، بينما كانت عيونه متحسرة دامعة، قال لها زوج أمها متحسرًا عليه عندما سألته عنه:

- «كان صاحب أكبر ورشة موبيليا في المحافظة قبل أن يغدر به الزمن»

تذكرت الأفلام العربية التي تصر دائمًا على أن لكل حارة أو قرية بهلولها، كانت تظن أنها مجرد رؤية فنية، أدركت الحقيقة عندما ظهر فجأة هذا البهلول في الحارة، إن بهلول الحارة هو أحد سكانها الذي توقف عقله مصدومًا في اللحظة التي وصل فيها إلى الحكمة، اللحظة الفاصلة بين تبدل الأزمنة وتجريف نفوس البشر، يتحول أحدهم إلى بهلول الحارة أو بهلول القرية ليروي للأطفال الجديدة حكمته، يظنه العقلاء مخبولاً لا يستوعبون فكرة أنه يعيش في زمان تنفضوا هم منه بسهولة، بينما هو لم يستطع.

كل يوم يمرعليها كان يجعلها تكره هذه الحارة، بل هذه المدينة بأكملها، خاصة بعدما بدأت تنكشف لها شراستها يومًا بعد يوم، في تلك الليلة الشتوية الغائمة دوت في صمتها صرخات، أسرعت إلى الشباك تفتحه، فكانت الورشة مفتوحة على مصراعيها يجر عمالها صبيًا، بوحشية يجردونه من ملابسه، يتناوبون اغتصابه والولد يصرخ ويصرخ ولا أحد ينزل من بيته لينقذه؛ لأن الحارة ملغمة بالبلطجية المبرشمين، يشهرون المطاوى في وجه من يقترب، وفي اليوم التالي كان الناس يتسلون بالحكاية المثيرة، وبعد أيام راحوا يستهزءون بالولد الذي راح يقاوم خزيه بسيجارة بانجو، ولم تعد للحكاية وقع الغرابة على العقول، الحكاية التي أصبحت جزءًا لا يتجزأ من بشاعة الحارة، لأن بلطجية الحارة على

علاقة طيبة بقسم الشرطة يرشونهم بالمخدرات، لم تكن تصدق حكايات زوج أمها عن هذه الحارة، التي كانت ذات ذوق رفيع، يجتمع الصنايعية فيها على حفلة (أم كلثوم) كل شهر على المقاهي وفي الورش.

يستنكر زوج أمها تأففها الدائم من همجية هذه الحارة، شاردًا يقول لها:

- «الحارة دي كانت أغلب أيامها ليالي لله، كل أسبوع واحد مننا يعمل ليلة لله، يأكل الناس محبة في الله، ونقضي الليل في حلقة ذكر لله، لحد ما يقرب مولد الشيخ (سديد) تتنصب الليالي شهرين، كل أهل الحارة يطبخوا كل يوم والأكل يروح المولد للغلابة وللمريدين، لحد ما تيجي الليلة الكبيرة، منها لله الحكومة اللي منعت الموالد هي السبب، قفلوا كل طاقات المحبة بين الناس وبعضها»

قاطعته مستنكرة:

- «غريبة مع إنكم بتحسبوها أوي»

فأجابها:

- «بنحسبها أوي بس بندي كل واحد حقه، ومافيش بينَّا حد بينام ناقصه حاجة، وقلوبنا صافية»

ظنت ساعتها أنه ربما يكون العيب فيها، لأنها تكره أن تعيش الحياة بكل هذه الحسابات وكل هذه الدقة، لكن زوج أمها كان مصرًا على أن هذا الحال هو حال العالم أجمع، يتهمها بأنها تضع أهل هذه الحارة تحت مجهر ضخمها لها بصورة جعلتها لا تتعاطف مع أحد، لأن المجهر يسقط منه تاريخ الحارة، فبدت لها في صورة موحشة غارقة في الحسابات.

يطل عليها قافزًا من الذاكرة وجه (محمد عبد الله) زميلها في القسم الذي رحل منذ سنوات، بينما كانت تسب وتلعن حظها الذي قذف بها إلى قاع الوطن، ليقول لها هذا الوجه أن هذه الأرض الموحشة، يخرج منها الطيبين ولكنهم يرحلون سريعًا.

(محمد عبد الله) ذلك الرجل الأسمر الأربعيني (المتختخ)

بعيونه السوداء ذات النظرة الشريدة الباسمة الغامضة، التي تخطف القلوب من أول طلة، بسطوتها الساحرة وحلاوتها التي تكفي لتحلية المحيط، يحضن بها كل من يقابله، حتى تراب هذه الشركة التي يهجم على بوابتها يوميًّا بفيسبته وبزماميره وأفاعيله الصبيانية، حتى أن غالبية الموظفين يندفعون إلى شبابيك مكاتبهم، بقفزات لا إرادية مهللين كالأطفال في نفس واحد:

- «دي هليلة المجنون (محمد عبد الله)»

كانت طلته على الشركة في الظهيرة يوميًّا كطلة نجم من نجوم الكوميديا الباكية، ربما لأنه يدرك أن تهليل الناس له كان يدفع ثمنه من جيبه الخاص، وأن هذه المحبة زائفة، لكنه لا طاقة له بحياة دون هذا الانفعال حتى ولو كان زائفًا، ولا طاقة له أيضًا بفلسفة أحوال البشر، ربما كان هذا هو سر نظرته الشريدة وابتسامته الغائمة، لكن وجوده كان كافيًا لإخراجهم جميعًا من الصمت الرهيب والكآبة والخمول منفعلين بالحياة، تهون عليهم في حضرته أعظم المشكلات، وتنفك مع تهريجه أعظم العقد، يهل دائمًا بخيراته حاملاً لهم شيئًا مفرحًا، كأن يدعوهم جميعًا إلى الإفطار دون أن ينتظر أن يرد له الدعوة يومًا أحد، كان يقسم أنه سيرمي الإفطار في الشارع إذا أصرت (مروة) على رفضها لأن تفطر معهم؛ فترضخ لرغبته وهي في قمة فرحها، تقول شاردة لنفسها: "عشت حياتي كلها أتمنى أن يعزمني فيها حد ولو على فنجان شاي، من غير ما يكون له هدف".

(محمد عبد الله) وحده الذي يحق له اختراق القوانين، دون أدنى اعتراض من أحد، أو يتجرأ بينه وبين نفسه معترضًا:

- «إشمعنى (محمد)»

لكنهم يفرغون طاقاتهم السلبية علنًا في وجهه على شكل نكات، ينهالون عليه بالسخرية وهم يفطرون عندما ينبس أحدهم قائلاً:

– «أصلها طابونة أبوك يا أخويا»

لقد كان عمله الخاص كمتعهد أفراح يجعله يسهر طوال الليل، ويأتي إلى الشركة في الظهيرة على راحته، استطاع بسهراته مع (شعبان) أن يصبح من رجاله، واضطر (شعبان) إلى نقله بعيدًا عن الإدارة حتى لا يلفت الأنظار، لتساهله معه في الحضور والانصراف، أو يتخذه خصومه في الإدارة خنجرًا يطعنونه به، لكن (محمد) كان لا بد أن يأتي إلى القسم يوميًّا؛ لأنه يحب (سحر) زميلته العانس التي شارفت على الأربعين، والتي أوقعته في شباكها تستغل سوء علاقته بزوجته التي تزوجها بعد قصة حب عنيفة، والتي كان يحكي لهم كثيرًا عنها، ولكنها فترت لأسباب كثيرة، أهمها موضة التدين التي اعترت المجتمع فجأة، فجعلت النساء يتمسكن بمظاهر الدين متخليات عن جوهره، يلخصن علاقتهن بالله في لبس النقاب والصلاة والصوم وقراءة الأوردة الصباحية والمسائية، يعتقدن أن المواظبة الروتينية على فعل هذه الأشياء كافية لأن تضمن لهن الجنة، ولا شيء يهم بعد هذا الضمان، فتخلو تمامًا عن الإنسانية، وعن الحب فلا حاجة لهن به، نصبت زوجته له المحكمة ووضعته بين القضبان تحكم على ماله بأن مصدره حرام، وأن حياته العبثية وسهره بين العوالم حرام في حرام، فمنعت عنه نفسها وحرَّمت أكله عليها وعلى أولادها، وتملكت القسوة من قلبها عندما حرَّمت على أخويه الصبيين اليتيمين من دخول بيتها، بعدما كانت تعد لهم الغداء يوميًّا بعد موت حماتها، ترفض رفضًا باتًّا فكرة دخولهما وخروجهما عليها، تتمسك بحقها الديني فهي سيدة منتقبة والخلوة بهما من المحرمات، وكان (محمد) أكبر أخوته وتبنى الصبيين بعد وفاة والديه، كان يود منها أن تشعر بتمزق قلبه على يتمهما، ولكنها فاجأته بقلب أجوف تتبرأ من إنسانيتها، والحكم الوحيد بينها وبينه هو الحلال والحرام من وجهة نظر شيوخ الدين، الذين غطوا وجه الحياة فجأة، استغلت (سحر) تمزق علاقته بزوجته، أشعلت نيران الرغبة في روحه وجسده، حتى ظن أنه يحتاج امرأة يستطيع أن يفك أغلال همجيته على أعتابها، وأن (سحر) هي القادرة على أن تجعله يعيش ألف قصة حب متوهجة، اعتقد أنه لا طاقة له بالحياة

بدونها، أما من وجهة نظر حسابات (سحر) وأمها، فهو رجل لا يعوض مركزه المالي الكبير، وكثرة إنفاقه عليها جعلتها تتأكد أنه يحبها بالقدر الذي يجعله يبيع الدنيا من أجلها، حاولت (مروة) ذات مرة في خلوة ونقاش دار بينها وبين (محمد عبد الله) لتلفت نظره أن حبه لـ(سحر) حب من طرف واحد، لأن المحب لا يستغل حبيبه، لكنه خذلها مؤكدًا لها أنه يفهم ذلك ولكنه يحبها، ويظن أنه قادر بالحب على أن يغيرها، أغلقت (مروة) باب المناقشة معه تكتم في قلبها مشاعرها له، إنها لم تهدف من هذه المشاعر إلى شيء، فقط يكفيها أن يدخل عليها يوميًّا في الظهيرة، لتنسى آلام العالم كله في الثلاث ساعات التي كان يقضيها معهم في المكتب.

حتى حدثت الفاجعة في تلك الليلة التي كان يسهر فيها عند (سحر) للفجر، يخططان معًا لمراسم الزواج، غادرها مسافرًا مع أخيه (هاني) إلى وحدة التجنيد في الزقازيق ليستكمل معه أوراق تجنيده، كانت الشبورة في تلك الليلة تغطي وجه الأرض، كان يجلس إلى جانب السائق هو وأخوه، كانت فرصة الموت عظيمة، الموت وحده الذي أنقذه من أن يموت بلدغة عقربة كـ(سحر) ورحلت البهجة عن الحياة كلها بعد ذلك.

(محمد عبد الله) كان نقطة النور التي عبرت عن إنسان حقيقي، تعاطفت معه بصدق في هذه المدينة، لكنها انطفأت سريعًا.

إن علاقة إنسانية حقيقية مرت بها في حياتها، يمكن لها أن تغنيها عن العالم بأسره، لكن الحياة لا تجود بها كثيرًا، تقتلعها منها وهي في قمة انتشائها بها، رحل (محمد عبد الله) كما رحل جدها، وكما فرقت الحياة بينها وبين أصدقاء القمر.

هي الآن يتسكع عمرها في نهايات الأربعين، كل خلية فيها ترفض الوصول إلى الخمسين، لأن الناس يستنكرون الحب في هذا السن، دون أن يعطي أحدًا باله ليفهم أن حظها من الحياة كان قليلاً، وأنها لا تعرف كيف لها محطة الخمسين أن تجيء إلى الناس بهذه السهولة، تشعر بالخجل عندما تتذكر جملة سمعتها في

خطبة للشيخ (كشك) كانت تدوي في سماء الحارة مفتون بسماعها صاحب إحدى ورش الحارة، يقول فيها:

- «امرأة في الخمسين من عمرها، تقول خدني في حنانك خدني، خدك ربنا يا شيخة»

الشيخ كان يقصد الست (أم كلثوم) سمعت (مروة) هذه الخطبة في صباها، راحت تسخر بين زملائها بعبارة الشيخ التي تحولت إلى نكتة مثيرة للضحك، لم تكن تتوقع أنها ستصل يومًا ما إلى تلك المحطة، وستصير هي الأخرى ملعونة من هؤلاء الشيوخ وغيرهم، لأن امرأة في الخمسين لا بد أن تدفن المتبقي لها من الحياة في التراب، وتواري سوءات روحها التي تحن إلى الحب، أين لها بهذا الشيخ لتسأله عما فاتها من عمرها ولم تعشه، طالما أنه أعطى لنفسه الحق أن يصادر عليها الأمل فيما تبقى منه، أي عقل يصدق أن الله كلف هؤلاء لينشروا التعاسة في العالم؟!

مرت سنوات عدة تشقلبت أحوال الشركة فيها، السقف صار أرضًا والأرض صارت سقفًا، مرورًا بفترات عصيبة تصارع فيها ذلك المفوض الذي تمكن من الشركة بواسطة عصابة الروضة، التي سيطرت عليه كلية، لكنهم انقلبوا عليه بعدما فصل لكل واحد منهم قطاعًا على مقاسه، حتى أصبحت الشركة تحت هيمنتهم، استخدموا هوجة الثورات لتحقيق أهدافهم التي بدأت بالتخلص من هذا المفوض.

كل شيء يمضي نحو الهدف، كان عليهم فقط أن يحلموا بالسلطة، لتتسخر لهم جميع الظروف من تلقاء نفسها، لأن كرسي السلطة سيندفع ساقطًا في حجر مريده بنظرة متوهجة من عينيه في اللحظة المناسبة، لذلك لا تصل السلطة أبدًا إلى الشرفاء، لأنهم يعتقدون أنها جزء من حقوقهم، وأن الحق لا يختطف، الحق لا بد أن يذهب زاحفًا إلى صاحبه، ولأن أصحاب الحقوق واثقون في القوة العليا، لا يهابون هؤلاء المنقضين على الفرص، الذين يكذبون ويصدقون كذبتهم بأنهم الأكفأ وأنهم الأحق، وأن السلطة جاءت إليهم زاحفة،

كنتيجة طبيعية لمجهوداتهم المزيفة، يتناسون الصراعات والفخاخ والمؤامرات، وجميع الأسلحة الدنيئة التي استخدموها للوصول إلى الهدف.

بعدما نجحت المؤامرة التي افتعلتها شلة الروضة من أجل القضاء على المهندس (السيد ربيع) المفوض، تكاتفوا ليسيطروا سيطرة تامة على مراكز القوى في الشركة، حتى أصبحت جميع المناصب القيادية من بلدة الروضة، حتى أن العمال أطلقوا شعارًا ساخرًا بينهم وبين بعضهم سرًّا: "شركة الروضة وأبناءها".

لقد كانت جميع التعيينات الجديدة لأقاربهم ومحاسيبهم، حتى أنه في فترة قصيرة أصبح حتى فراشو المكاتب وعمال البوفيه من الروضة، أحكموا الشبكة حتى سقطت الشركة أسيرة في قفص هذه العصابة، عصابة الروضة أو "اللوبي الصهيوني" كما كان يسميهم العمال في الخباثة، وأصاب الخرس الجميع لأن الجواسيس منتشرون، حتى أنه تم نفي وإقصاء الكثير والكثير من أماكنهم لمجرد كلمة تافهة، حتى ولو كان مجرد تعبير انفعالي لحظي عما يدور حولهم من اغتصاب حقوق، أو تعليقات ساخرة عن حماقة الثورات، التي يقوم بها العمال من أجل انتزاع حقوقهم، ولكنها تنتهي إلى مغتصبين جدد، أما من يعترض فاردًا صدره ليقول كلمة حق عالية صريحة، تلفق له قضية أمنية، ويتم استبعاده من المناصب الإدارية رسميًّا، وربما إيقافه نهائيًّا عن العمل، شاعت حالة كبيرة من الاستقرار، كان سببها اليأس والقهر، ولأن العمال اقتنعوا بأن أهم شيء هو المرتب، فتركوا المركب للقادة الجدد طالما أن الراتب يصل إليهم دون خصومات، والوعود الكاذبة بتفصيل المناصب الجديدة وتوسيع الهيكل، والقليل من المكافآت والتعينات التي يضمنون ولاءها، حتى توسعت دائرة المصالح وتشعبت، وأصيبوا جميعا بالخرس والعمى.

بعدما نصبت عصابة الروضة فخًّا محكما ليتخلصوا من (السيد ربيع) المفوض، الذي مدت له الشركة القابضة مدة التفويض إلى عام كامل، يفضحون فساده المالي للعمال، يشعلون في قلوبهم مرة أخرى نيران الثورة، حتى خرجوا عليه بلافتات تناشد رئيس الشركة القابضة بطرده، فخرج (السيد ربيع) من الشركة بفضيحة اختلاسات وأخذ أراضٍ من جهاز التعمير لحسابه

الشخصي بأسماء مستعارة، ورِشىً لا مثيل لها في أي عهد من أجل تعيين البسطاء، خرج من الشركة مطرودًا مفضوحًا بثورة، بعدما دخلها محمولاً على الأعناق بالثورة.

أرسل رئيس الشركة القابضة بعدها مفوضًا آخر لمدة ثلاثة أشهر كان اللواء (هشام القاضي) الذي تم تعيينه رئيسًا وعضوًا منتدبًا بعدما قضى الثلاثة أشهر على خير، لقد كان رجلاً عسكريًّا حازمًا أكثر من اللازم، حاول أن يحقق منظومة العدل متربصًا لشلة الروضة التي أخذ يحجِّمها، لكن ذكاءه خانه، لأنه لم يدرك مدى توغلهم ومدى سيطرتهم، حتى أنهم استطاعوا أن يشعلوا مرة أخرى نيران الثورة ضده، يتهمونه بالحزم الزائد والصرامة العسكرية يطالبون رئيس الشركة القابضة برئيس مدني، يصلح للتعامل الإنساني مع العمال، استطاع الأمن إخماد الثورة وإطفاءها سريعًا، لكن رئيس الشركة القابضة لم يعجبه الوضع الذي يؤدي كل يوم إلى الثورات، خاصة في فترة كان اتجاه الدولة القضاء نهائيًّا على فكرة الثورة، والقبض بيد من حديد على زمام الأمور والسيطرة التامة على مؤسساتها، فاختار للشركة رئيسًا من بين عمالها، وعلى ما يبدو أن رئيس الشركة القابضة كان معجبًا بسيطرة شلة الروضة وامتلاكها زمام الأمر، فاختار الرئيس الجديد للشركة من بينهم وكان المهندس (محمد عسل) الذي جاءه الخبر دون أن يتوقعه، لقد كان أقلهم طموحًا في الوصول إلى السلطة، إن أقصى أمانيه في هذه الحياة هو أن يكون رئيسًا لقطاع، وأن يغلق باب مكتبه عليه وعلى سكرتيرة يختارها بمزاج، يطفئ أشواقه الحارقة على جسدها، لكن القدر كان سخيًّا أعطاه أكثر بكثير مما يتمنى، أعطاه السلطان الذي يستطيع به امتلاك نساء الشركة كلهن، وأصبحت فرصة عصابة الروضة عظيمة، لأن (محمد عسل) من السهل جدًّا ترويضه.

عندما كان (محمد عسل) يعمل مهندسًا صغيرًا بإدارة المشروعات، كان يقضي غالبية الوقت بعد توقيعه في دفتر الحضور متأخرًا مع شلته على المقهى المقابل للشركة، يصطبح بساندويتش الفول والطعمية من عند (البربيري) أو ساندويتش الجبنة الرومي من عند (الشامي) مصحوبا بالشاي والشيشة، ثم

ينشغل مع شلته بخطة العمل، والدراسة الشفهية لأصحاب المقاياسات التي من الممكن مساومتهم للحصول على أكبر مبلغ من الإكراميات أو الرشى، التي يقتسمونها فيما بينهم متعمدين أن تتوه المسئولية فيما بينهم.

وعندما يحتاجه رئيس الشركة يطلبه مدير مكتبه على هاتفه الجوال، أو يسرع إليه لاستدعائه أحد السعاة حالاً من المقهى، فيضطر آسفًا أن يترك شيشته وحلقة اجتماعاته مسرعًا إلى رئيس الشركة، الذي يعلم تمام العلم من أين جاءوا به، ولكن أقصى تعنيف يستطيع أن يستخدمه هو أن يبدأ حديثه ساخرًا متلطفًا يقول:

- «أجيبلك بزازة في مكتبك عشان أضمن إنك تقعد فيه، وتسيبك من الخن بتاعك دا يا (محمد)»

(محمد) الآن هو رئيس الشركة، ويعلم خبايا هذا الخن الذي ينصب يوميًّا على المقهى المقابل للشركة، متشوقًا لهذه الاصطباحة التي حرم منها لأنه لا يجوز لرئيس شركة على رتبة وكيل أول وزارة أن يخالط العمال ليصطبح معهم على المقهى، لزامًا عليه أن يلبس ثوبه الجديد، وأن يحكمه تمام الإحكام، حتى لا يظهر في مظهر يقول إن ثوبه غير لائق عليه.

انتهت الحروب إلى السلام الذي شابه السلام مع إسرائيل بعد حرب أكتوبر، السلام الذي نفذ من خلاله الخبثاء من البشر، انتشر الفساد وأرسى قلاعه الجديدة التي طالت السماء، ومرت بهذه الشركة أحداث تجعل البهائم تعتبر، ولكن البشر لا يعتبرون.

وحدها (مروة) هي التي بين الحين والحين تنظر ساهمة إلى هذا الميدان الخالي من البشر، تتذكر ذلك اليوم الذي كانت تصدح في جوانبه وعلى أرضه وتطير في سمائه صيحات العمال، كل شبر فيه كان ينتفض يصرخ صرخات مدوية، كان هول ذلك اليوم كهول يوم القيامة، ولكنها لم تكن القيامة، إنها الثورة، أو الانتفاضة العمالية ضد مجلس الإدارة الفاسد، ستظل هذه اللحظة أعظم لحظة مرت في حياتها، لحظة يقشعر جسدها كلما هجمت على الذاكرة،

اللحظة التي توحدت فيها مع الجموع المقهورة تهتف بحنجرة ليست حنجرتها، حنجرة ربانية يرسلها الله للبشر، حينما يصبحون ربانيون يصرخون من أجل الحق، (مروة) لا تحترم الحروب ولا تحبها ولكنها تعشق الثورات، وتعتقد أن الله يحب الإنسان الثائر من أجل الحق.

ولكن ماذا تفعل لو أن غريمك قادك إلى أرض المعركة؟ هل ستقف مخذولاً تدعوه للسلام وترضى به وفقًا لشروطه؟ أم أنك ستكون شجاعًا لمنازلته مهما كان سلاحك ضعيفًا؟، ترعبه بشجاعتك وثباتك مدافعًا عن وجودك؟ فلنحب ونكره كما نريد، ولكن المواقف التي نأخذها وتحتمها الظروف والأقدار، التي تجبرنا على أشياء لم تكن في الحسبان.

تدوي في رأسها ألف صرخة وصرخة من ويلات حروبها القديمة، والتي ظنت أنها أصبحت بعد كل هذا العمر في سلام وأمان مع كل شيء، ولكنها ها هي عادت من جديد تدخل حربًا غير متكافئة مع هذه الفاتنة التي تمتلك صواريخ الحروب الحديثة، رغم ريفية لهجتها ولكن الرجال لا تعنيهم عذوبة اللهجة أمام هذا الجسد الفائر، إنهم أكثر تحررًا في غجريتها.

"وراء كل رجل عظيم امرأة، ووراء كل امرأة عظيمة رجال عدة، لكل رجل مرحلة".

تدوي في آذانها دائمًا هذه العبارة الذي قالها لها ذات يوم (شعبان) وهو في عز مجده، قبل أن تذهب به الثورة، الثورة التي ما جاءت إليهم إلا بأسفل ممن ذهبت بهم، قالها لها صراحة لإغوائها مستغلاً طموحها في الوصول إلى مكانة مرموقة، حاولت أن تثبت له بكل الطرق أنها تعتمد على كفاءتها لتحقيق طموحها، ولكنه أحبطها قائلًا:

- «مافيش ست في مصر بتوصل إلا بقميص النوم»

وها هو الرئيس الجديد (محمد عسل) بنفس القناعات، لماذا كانت الثورة إذا؟

كان (محمد) يلهث وراءها لتمنحه لحظات المتعة، معتمدًا على سمعتها التي تؤكد له علاقتها بـ(سمير) ومن قبله (شعبان) دون أن يعتني بأن يلمس

الحقيقة، وعندما تمنعت أشهر الحرب عليها يستخدم سلاحًا دنيئًا، أطلق عليها هذه الفاتنة لتحاربها بسلاح الغيرة، ليثبت لها أنها لا تساوي في سوق النساء شيئًا، ليعلمها الأدب في التعامل مع الرؤساء بيد هذه الحسناء التي منحها سلطانًا تمارسه عليها ليكسر كبريائها، اغتمت (مروة) في بادئ الأمر، تتمزق بنيران الغيرة تارة، ونيران كبريائها التي ستهدمه هذه الطفلة التي في عمر بنتها، لو أنها كان لها ابنة، رغم كل الضغوط النفسية التي مارستها هذه البنت عليها، بتفويض من رئيس الشركة، إلا أنها سيطرت على أعصابها تقابل ببرود جميع أفعالها دون دهشة، مقتنعة بأن أقصى أمانيها الآن في هذه الشركة أن تمر الأيام عليها هادئة، دون أن يمس أحد راتبها، الذي أصبحت أكثر احتياجًا له، بسبب الأقساط التي ورطت نفسها فيها، قسط شقة في أحد أبراج حي راقي ستتسلمها بعد عامين على الأقل، وقسط السيارة (الزيرو) التي ظلت سنوات تحلم بها، حتى ولو أنها أصبحت تختنق بهذه الديون، تتمنى أن تعيد كل شيء لأصحابه فلم يعد لديها رغبة في امتلاك أي شيء في هذه الحياة، تحسد من يمتلكون الأملاك الكثيرة، لقدرتهم على المسيرة في الحياة والتعايش مع الخوف على أن تزول أملاكهم، بعدما تعلقوا بها أشد التعلق، تتذكر حلاوة الحياة التي كانت أجمل عندما كانت لا تمتلك فيها شيئًا، لا تمتلك فيها بيتًا، كانت أجمل وهي متأكدة أنها عندما ترحل لن تترك فيها ذكرى، يخايلها هاجس لتبيع شقتها التي لم تتسلمها بعد، وتقضي ما تبقى من حياتها تستأجر حجرة في فنادق متغيرة، حجرة تمحو من ذاكرتها وجودها عندما يستأجرها غيرها، تتمنى أن تنثر أيامها بين آلاف الغرف البعيدة كي لا تترك لها في هذه الحياة ذكرى، لمن ستترك الذكرى بينما الأحياء في حيز النسيان، تقول لنفسها كثيرًا: "أنا بين الأحياء لا يتذكرني أحد".

ورغم ذلك كانت تترقب الشهور لتتسلم فيها شقتها الجديدة، لتخرج من هذه الحارة التي لم تعد تتحمل التعايش مع همجية ناسها.

إنها لا تمتلك حتى الآن سوى الأوهام، ولكنها أسيرة في يد الأوهام التي لم تتحقق بعد، يتملكها الخوف عندما تكتشف أنها في منتصف طريق، غير قادرة

على استكماله، وغير قادرة على اتخاذ القرار بالرجوع، لأنها بذلك ستفقد تحويشة سنوات عمرها هباءً، لذلك انتهت حربها مع هذه الحسناء سريعا تقول لنفسها "تشبع به".

قرأت (مروة) في عين هذه الحسناء الحيرة والتعجب، من هذا الرئيس الذي يصب اهتمامه على هذه العجوز التي تترفع حتى عن الظهور أمامه، بينما فتيات الشركة يستعرضن أنفسهن بأزيائهن الصارخة، يتبارزن على الفوز بلقب عشيقته، لكنها لن تفهم أبدًا أن (مروة) بالنسبة له كانت إحدى أمانيه، في الوقت الذي كانت مشغولة فيه برؤسائه، (شعبان) مرة و(سمير) مرة أخرى، بينما تتعامل بكبرياء مع الآخرين أمثاله، وكأنها لا يعجبها سوى الرؤساء، لم تفهم أنه قد يحب نور الشمس، ولكنه يخشى أن يفضح قوته، فيفضل الغروب الذي سيكون أكثر حنانًا على ضعفه.

"الجحيم هو الإنسان".. قالها (سارتر) وقالتها (مروة) دون أن يدرك عقلها الباطن أنها قرأتها من قبل لـ(سارتر) فخرجت من وجدانها عفوية، منفعلة بها تظن أنها صاحبة هذه الحكمة، التي ربما صدرت من وجدان آلاف مؤلفة من البشر لم يكن لهم علم بـ(سارتر) ولكن لموقف مشابه لما مرت به (مروة) أو ربما مر أيضًا بـ(سارتر)

كانت قد أخذت قرارًا بقطع جميع علاقاتها بزملائها في العمل، حتى أصبح لا يجمعها بهم سوى لقاء فاتر في مصادفة على السلالم أو الأسانسير، ارتاحوا منها وارتاحت هي الأخرى من علاقات مزيفة، مرت الأيام طويلة وهي في صومعتها بعيدًا عما يدور في كواليس الشركة، التي تتبدل كل يوم من حال إلى حال، تتدحرج أمامها الأخبار من حين لحين، تتأسف بين نفسها على ضياع حق البسطاء، الذين لا يطمحون في أكثر من راتبهم الحلال، وفي ذلك اليوم العاصف، الذي لم تطلع له شمس، السلطان فيه كان للريح، كان نذير شؤم من أوله عندما التقت بوجه (حسناء) الذي تخلى كلية عن الحياء، فبدا حضورها قويا مسيطرا على المشهد الصباحي.

فوجئت بزميلتها التي كانت تجلس على المكتب الذي يجاورها في حجرة الحاسب الآلي، في بداية عملها بالشركة، والتي كانت تقضى غالبية الوقت في الكلام عن الموضة والكوافيرات والسهرات وباباه وماماه، كانت عندما يسند إليها عمل أكبر من قدراتها العلمية والفنية والمهارية تستعين بـ(مروة) لتقوم عنها بإنجازه، فتأخذه هي ببجاحة تقدمه بنفسها للرؤساء دون أن تذكر دور (مروة) لكن الرؤساء لا يخفى عليهم خافية، تصلهم الأخبار ربما قبل وصولها بإنجازات (مروة) فينالها التوبيخ الدائم على فشلها، هذه الموظفة الفاشلة بشهادة الجميع، فوجئت بها (مروة) مدير عام للحاسب الآلي، تجسدت لها في تلك اللحظة هزيمتها الحقيقية في هذا المجتمع، بل جميع انهزاماتها في الحياة، تشعر بخيبة عظيمة في كل شيء، أدركت أنه لا أمل هنا في أي شيء، وتذكرت مقولة (شعبان):

- «مافيش ست في مصر بتوصل لمركز قيادي إلا بقميص النوم»

تروح الخيالات وتجيء أمامها على صورة (زينب) بقميص النوم أمام (محمد عسل) ليرضى عنها، لتجلس على كرسي لا تستحقه، منتهزة الفرصة التي جاءتها لتتجأر منتفخة بكل جبروتها أمام (مروة) تهينها متأففة، تشيح وجهها بعيدًا عنها، تبعد الطلب التي تناوله لها (مروة) بعشم الصداقة القديمة التي كانت بينهما، قائلة:

- «والنبي يا (زينب) شوفيلي تاريخ الفتح للراجل ده قريبي، وقاصدني في خدمة»

ساعتها أدركت (مروة) عدد السنين التي ابتعدت فيها عن الأحداث وظلت مركونة في زاوية بعيدة، أدركت أن الشركة من حولها تغير فيها كل شيء، خرجت (مروة) تلملم كرامتها المبعثرة في أرجاء المبنى الجديد، ذات الطلاء والديكورات الغالية الطازجة، والمكاتب والأجهزة الحديثة الفخمة، تنزل من على هذه السلالم الرخامية، التي عندما صعدت عليها لم تكن تدري أنها ستصل بها إلى هذه الفخفخة، لمديرة كبيرة كانت يومًا ما زميلتها الموظفة البليدة جدًّا في قسم الحاسب الآلي.

ولكن ذلك لم يغير في الأمر شيء، عادت مرة أخرى إلى صفوف المتفرجين دون أدنى ثورة منها للتعبير عن غضبها، عادت إلى مكتبها تدعو الله في سرها أن يأتيها بحقها، دون أن تفكر أدنى تفكير في أن تأخذ حقها بيدها أو بلسانها.

دخلت مكتبها تسب وتلعن هذا الرئيس الذي ابتليت الشركة بنزواته النسائية، أعدت الشاي لنفسها لتتدارك الصداع النصفي الذي يكاد يشل رأسها، دخلت عليها العاملة الخاصة برئيس الشركة تستدعيها لمقابلته على وجه السرعة، رغم الربكة التي أحدثها هذا الاستدعاء الغريب على كيان (مروة) تركتها العاملة مندهشة لأن وقع أوامر الرئيس عليها ليس مرعبًا كما يحدث للآخرين، مؤجلة تلبية طلبها حتى تفرغ من شايها.

دخلت (مروة) على رئيس الشركة متماسكة في كبرياء، تقطع مسافة طويلة مرورا بالصالون الفخم الذي يصطف طولًا قبل الوصول إلى مكتبه، ازداد تماسكها لتهلله فوردخولها يستقبلها بحفاوة بالغة، وبعد مصافحتها ودعوتها للتفضل بالجلوس، يفاجئها بسؤال عن السبب الذي جعلها تشتكيه إلى رئيس الشركة القابضة، اندهشت تنفي عن نفسها هذه الشكوى، ففاجأها بأن رئيس الشركة القابضة أرسل فاكسًا يدعوها لمقابلته في العاشرة من صباح الأحد القادم، هذا الفاكس جعله متأكدًا من أن (مروة) تقدمت بشكوى ضده إلى رئيس الشركة القابضة، ولم يصدق نفيها ودهشتها، ظل محافظًا على تودده حتى تتضح سر هذه الدعوة. تركته (مروة) مدهوشة تتخبط التخمينات في رأسها، رئيس الشركة القابضة يطلبها هي بالذات! راح تخمينها الأكثر إلى أن رئيسها يدبر لها بخبث شيئًا، وينفيه عن نفسه بهذه القصة المحبوكة، وهي تقطع الممر الضيق الطويل مبتعدة عن مكتبه تقابلها (حسناء) تلفحها بنيران غيرتها لرؤيتها خارجة من مكتبه، انشغلت (مروة) بـ(حسناء) أكثر من انشغالها برؤية رئيس الشركة القابضة، (مروة) وحدها القادرة على قراءة ثورتها الداخلية التي تفضحها عيونها، وفي نظرة عابرة متأججة جعلتها تتذكر (زينب) فتجاهلتها تمضي مذهولة في ممرها الضيق تقول لنفسها: "عندما تسقط المرأة سقطتها الأولى، أي سقوط بعدها لا يهم، ربما يعتبرونني قدوتهما في السقوط، ولكنهما لن يفهما أبدًا أن الفارق الوحيد بيني وبينهما أنني سلمت نفسي باسم

الحب، وكنت على استعداد أن أواجه العالم بهذا الحب، وأنني واجهت جميع الاتهامات التي كنت أقرؤها في عيون الناس، دون أن أنفي الحب، أو أتعامل معه كفضيحة تستوجب مني أن أتستر منها، لم أحاول ذات مرة أن أستغل الحب وأشتري به مجدًا أو نفوذًا، أما أنتما فستظلان طوال العمر تنفيان عنكما تهمة السقوط، الفارق الوحيد بيننا، أنني شريفة لأنني أقتنع أن الحب شرف، أما المنح فهو بيع للشرف".

تقابلت مرة أخرى و(حسناء) في آخر اليوم، وهي تحشد العاملين من مكاتبهم، للمشاركة في المؤتمر الشعبي الذي أعدته المحافظة، لتأييد التعديل الدستوري، تدون في الخبث أسماء الرافضين في المشاركة، لإضافتهم في التقارير التي تصدر للجهات الأمنية، عن النشاطات السرية، وكانت (مروة) من أول الرافضين فدونت اسمها وهي تحاول محاولات خبيثة إقناعها بالحضور الصوري، حتى لا تتعرض للضرر؛ لكن (مروة) واجهتها بنظرة جامدة صامدة صمود الحق أمام الباطل تقول لها:

- «ماعرفش أبيع مبادئي»

وتركتها تحترق بنيران غلها، ربما لأنها انتبهت أخيرًا للفارق بينهما، لم يعط أحد بالاً لعدم مشاركتها في هذا المؤتمر، لكنها متأكدة أنها منحت رئيسها فرصة عمره، لإزاحتها من طريقه إذا أراد، ولو أنها متأكدة أنه لن يفعل لأن متعته الحقيقية أن يجعلها ترى بابه يغلق بالساعات مع حسنائه، مخدوعًا في كبريائه الذكوري، الذي يصور له أنها تكتوي بنيران الغيرة، لذلك كانت مطمئنة بأن وجودها مهم عنده، ربما كان ظنه صوابًا، لكنها تشفق عليه وعليها أكثر بكثير من الاكتواء الذي كان يقصده.

وفى عتمة الأيام التي غاب فيها القمر وغاب الأمل في أن تستعيد هذه الشركة لحظة إفاقة واحدة تنصف العاملين المقهورين يتدخل القدر، إنه يغيب ويغيب ولكنه يظهر في أحلج الأوقات شدة، القدر هو يد الله التي ينقذ بها غريق في لحظة قاتمة فقد فيها السبيل إلى النجاة، أو يطيح ببطش سلطان وهو في قمة أمنه وإيمانه بأنه لا سلطان فوق سلطانه.

ذهبت (مروة) لمقابلة رئيس الشركة القابضة في الموعد المحدد، استقبلها مدير مكتبه باهتمام، ثم اصطحبها إلى رئيس الشركة القابضة بعدما أعلمه بحضورها، كان ودودًا جدًّا معها، دخل في الموضوع مباشرة بعدما أكد لها قناعاته بأننا جميعًا في هذه الشركة أسرة واحدة، فمن الأفضل لملمة المشكلات ومعالجتها داخل إطار الشركة القابضة دون اللجوء إلى القضاء، الذي سيجعل بعض من كان لنا عِشرة معهم يتعرضون للسجن وتتشرد أسرهم، كلام كثير من هذا القبيل حتى ارتجف قلبها مشحوذة العقل تسمعه منفعلة، تتمنى أن تأتيها الجرأة لتقول له هات من الآخر لتفهم ما صلتها هي بكل ما يقوله، إنها أضعف من أن تمتلك أشياء تضر بها أحدًا، ورغم ذلك انتهى الرجل سريعًا من مقدمته ودخل في الموضوع قائلاً:

- «انتي عندك ميعاد النهارده مع محقق من النيابة الإدارية في قضية من القضايا إلى أثيرت أيام الثورة، بخصوص برامج الكمبيوتر اللي اتوردت للشركة عندكم في عهد (شعبان) و(سمير) زمايلك اللي اتقدموا برفع الدعوة قالوا إنك كنتي تقدري تعملي البرامج دي للشركة وتوفري عليها الملايين اللي اندفعت، المحقق طبعًا هيسألك عن مدى صحة الكلام دا، مطلوب منك إنك تقولي لأ، وتأكدي للمحقق إن البرامج دي برامج كبيرة وأكبر من قدراتك العلمية، أو قدرات أي حد في الشركة، مفهوم؟»

وجاءت كلمة "مفهوم" بنبرة حادة تؤكد على أنها ليس لديها خيارًا آخر، وانهمك الرجل في أوراقه ففهمت أن المقابلة انتهت حين دخل مدير مكتبه يصطحبها بود إلى مكتبه، لتنتظر حتى يجيء موعد التحقيق معها.

إنها الآن في أصعب موقف مر أو قد يمر بحياتها، ليس لديها وقت للتفكير أو للاختيار، إنها الآن في قبضتهم وليس لديها سوى أن تقنع نفسها بأنها ستنقذ أسرًا من التشرد والفضيحة إذا خالفت ضميرها ونفت الحقيقة التي شهد بها أغلب زملائها، في اللحظة التي جاءت فيها شهادتهم لتنصفها، تكون مضطرة إلى أن تخذل هي نفسها بنفسها.

انتهت المهمة وعادت مخذولة إلى الشركة، وفوجئت في اليوم التالي بالخبر الذي عصف بخذلانها، وهو نقل (محمد عسل) إلى شركة مياه أسوان، رغم زلازل المفاجآت الكثيرة التي مرت بالشركة، إلا أن الناس فيها تعود سريعًا للأمان، يظنون أنه الزلزال الأخير الذي يليه الملاذ الآمن، يخدعهم وجه الأرض الوديع الهادئ الذي ما زال يخبئ الغليان في أعماقه، محدثًا زلازل أخرى لم يتوقعها أحد.

وذهب (محمد عسل) كما جاء، ليس لشيء سوى أن رئيس الشركة القابضة يجامل أحد أحبائه، فأهداه دمياط باعتبارها واحدة من العزب التي يمتلكها، ولكن السؤال الذي يدور في رءوس جميع العاملين بالشركة، هل سيتفق هذا الرئيس مع عصابة الروضة ليضمن سلامة بقائه في السلطة، أم أنه سيعتمد في إدارته على تفكيك تلك الرابطة الشيطانية، أما السؤال عن العدل فلم يعد يهتم به أحد.

العدل الذي أصبح مكروها من أغلبية البشر؛ لأنه لو تحقق سيقتلع بسلطان عدد كبير منهم، سيسحق بقاماتهم الأرض، أما العدد الآخر فيكرهونه لأنهم يدركون جيِّدا أنه أضعف من أن يبقى موجودًا على الأرض أكثر من ساعة، وأنهم ربما يفرحون بقدومه ساعة ولكنه سيذهب مع الريح التي تجيء به، بعدما يبنون قصورًا على الرمال، ولشيء آخر أهم هو أن العدل سيطالبهم بأن يدافعوا عنه، وفي الحقيقة هم أضعف من أن يدافعوا في هذه الحياة عن شيء، لأنهم فرادى وكل فرد يحب العدل بطريقته.

دولة الظلم وإن طالت ساعة، ولكن دولة العدل لن تسطيع أن تثبت في مكانها أو تدافع عن نفسها ساعة، لأنه بمنتهى البساطة مريدي العدل أنفسهم لا يستحقونه، إنهم عدة فئات، فئة منهم لم تستطع أن تحقق طموحها في دولة الظلم، لذلك انضموا إلى صفوف المطالبين بالعدل أمثال زملائها (الحاروني) و(عزام) و(نجاح) (الحاروني) مثلاً كان مهندسًا مشرفًا على مركز صيانة، وفي خضم الثورات استطاع أن يقفز بين يوم وليلة إلى مديرعام، وانضم إلى شلة الروضة الذي نال في ظلهم رئاسة قطاع، ولكنهم مع الأيام وبسبب فلتات لسانه

سجل له أحدهم حديثًا مع أحد عماله المقربين له وهو يسب ويلعن في شلة الروضة التي توزع فوائض الخطط دون عدل، وأن نصيبه منها مبلغ قليل لا يذكر، وعندما وصل التسجيل إلى (محمد عسل) رئيس الشركة قرر هو وعصابته أن يعطوه درسًا لن ينساه أبدًا، واستغلوا توقيعاته على استلام خطوط غير سليمة، وكلفوا أحد العاملين بها بكتابة مذكرة يشرح فيها بأن الخط لا يعمل بكفاءة ذاكرًا الأعطال التي تحدث، وحولت المذكرة إلى الشئون القانونية، التي قامت بتحويله إلى النيابة الإدارية، التي أصدرت قرارًا بوقفه عن العمل فترة طويلة، وانتهى الأمر بعودته ومجازاته وعدم التجديد له برئاسة القطاع، انضم بعدها (الحاروني) إلى صفوف العاملين المقهورين ينشد معهم ويتغنى بدولة العدل، العمال المقهورون ذاتهم لو تخيروا بأن يأخذوا حقوقًا غير حقوقهم في مقابل أن يتنازلوا عن العدل سيتنازلون، لكن أحدًا لن يخيرهم، لأنهم لا يمثلون شيئًا يخاف منه على دولة الظلم المتغلغلة، والتي لا بد لها من مطحونين يسندون بظهورهم وجودها، العدل غريب ليس له أحد ينصفه، أما الظلم فله الإنسانية جميعها، لذلك فإن دولة الظلم باقية إلى قيام الساعة.

ثلاثة شهور فقط من تاريخ حياتها كلها بزغت فيها شمس العدل وجرأته، تأكدت (مروة) فيهم أن العدل موجود وأنه ليس مستحيلاً أن يوجد على الأرض، وأن هناك من هم قادرين على تحقيقه، ولكنه رغم ذلك مضى ولن يعود مرة أخرى، لأننا جميعًا ليس من مصلحتنا هذا العدل، حتى البسطاء الذين كان سينصفهم العدل وسيحقق لهم الكرامة، لكنه كان سيحرمهم الفرص، العدل ضد الطبيعة وضد الإنسانية، الطبيعة ذاتها ليست عادلة، الحياة لن تستقيم بالعدل كما تقول الحكم، ولكن ذلك لا يمنع أنه سيظل حلم الإنسان على الأرض، لا يمنع أن باسمه ستقام آلاف الثورات، لا يمنع أن يكون معنى براقًا يجتذب البسطاء في الظاهر، أما الباطن فأشياء أخرى يخطط لها الساسة.

ولأن ميزان الحياة سيختل بهذا العدل.

❊❊❊❊

(٦)

هذا (الباص) الذى يتحرك ببطء أكثر من اللازم، في هذه الصحراء التي لا تنتهي، جعل (هاني) يفقد أعصابه ثائرًا على السائق، يرميه بألفاظ مهينة تستنكر سلحفيته في سواقة الباصات، لقد تحرك من القاهرة قبيل الفجر قاصدًا شرم الشيخ، وحتى العصر لم يقطع من الطريق ربعه، لكن ثورته وألفاظه المهينة كانت تثير في ذلك السائق القهقهة وكأنه يسمع نكتًا، فتراجع (هاني) عن ثورته مندهشًا مراقبًا بلاهته؛ فتراءى له كشخص معتوه، تلفت بين الركاب ليقرأ ملاحظته على الوجوه، فاكتشف أنه وحيد يقظ بين أشخاص يغطون في النوم، عاد يتابع متاهة الصحراء مستهزئًا بينه وبين نفسه باكتشافه الذي جاء بعد فوات الأوان تاركًا مصيره لشخص قد يكون فاقد الأهلية لأن سياسةً ما جعلته مسئولًا، ولكنه ليس لديه الآن خيار آخر.

استرخى متلهيًا بمتابعة الصحراء التي لا تنتهي، لكنها تقول أنها متسع هائل قادر على أن يزيح الازدحام الذي أصبح لا يحتمل في غالبية المدن، لو أن هذه الصحراء وزعت على المواطنين بالعدل سيكون نصيب الفرد من وطنه مساحة تكفي لأن يعيش في قصر ذي حديقة كبيرة يزرع فيها ما يكفيه من الثمار ويربي ما يحتاجه من الطيور والحيوانات، يتمنى لو أنه قادر على أن يشتري من الحكومة مساحة تكفي لبناء مدينة، سيصممها على هيئة قصور وڤيلات، وراح يسلي خياله باختراع حكاية شيقة لتلك المدينة، يكون فيها هو الإله، إله اختار بعشوائية أشخاصًا ليسكنوا القصور، وبعشوائية أخرى أشخاصًا حفاة عراة يصارعون قسوة عراء هذه الصحراء، سيكون سعيدًا وهو يتابع من بعيد ماذا ستفعل غطرسة هؤلاء بضعف هؤلاء، وفي لحظة حاسمة سيأتيهم بريح عاتية تبيد هذه القصور، ليفيق سكانها من غفلتهم على حقيقة أنهم مجرد لعبة في يد إله، وأنهم وهؤلاء الحفاة العراة سواسية، وفي نهاية الحكاية يجلس الإله مازحًا يتذكر مع جميع مخلوقاته حكاياتهم المضحكة، ثم يجلس الإله مرة أخرى بعيدًا يترقبهم، تاركًا لهم إعادة بناء المدينة بطريقة أخرى تروق لهم جميعًا، فيندهش

مقهقهًا عندما يجدهم يصنعون من بعضهم البعض نجومًا بينما البعض الآخر يسبحون بحمد هؤلاء النجوم، تبدو الحكاية في أولها شيقة مثيرة ولكنها في لحظة ما يتملك الجميع الغضب، وتزداد حدة الصراعات بين الجميع وتضيق الدائرة، حتى يشعر الجميع أنه لا مخرج من هذا المأزق إلا بالهدم، في هذه اللحظة يثور الإله ثورة تزلزل أرجاء المدينة، ويفجعهم العراء مرة أخرى، ولكنهم أدركوا أنهم مطالبون دائمًا بإعادة بناء المدينة، ربما يأخذون في الاعتبار هذه المرة أن تكون مدينة بلا نجوم، وربما يشعرون فيها بالتعاسة فيهدوها بأيديهم مرات ومرات، وفي كل مرة يعيدوا بناءها من جديد في محاولة لاختراع مدينة سعيدة، وتستمر المحاولات لأنهم أدركوا أن الإنسان كالإله سعادته الحقيقية تكمن في الهدم والبناء وما بينهما من حكايات البشر.

كل هذه الخواطر كانت تدور بعقله بينما الساعات تتهدل ولا شيء يقابله سوى الرمال والسماوات الصافية وشمس تتغير حدتها مع الوقت، بين الحين والحين يجفف العرق يتلهى بمحاولات فاشلة لتعديل وضع المروحة الصغيرة المعلقة فوق رأسه، ربما تنبعث منها أية برودة، يزعجه تصاعد حدة شخير الرفيق المجاور الذي ارتخت رأسه على كتفه، فيزيحها برفق ليبعد عنه رائحة أنفاسه العجائزية، ناقمًا على حظه الذي لا يقوده إلا لمجاورة الخناشير، تاركًا نفسه لحوارات وخيالات أخرى خائبة عن تبدل هذا الخنشور بامرأة جميلة، تهون عليه طول الطريق، ولكن حظه الأغبر لا يلقي في طريقه إلا بمن يزيدون الحياة كآبة، حتى زوجته التي تزوجها بعد قصة حب كبيرة تحاكت عنها الشوارع والحواري والميادين، فترت بينهما المشاعر، وكأن الحب كان وهمًا، من يضمن للإنسان ثبات مشاعره، كل شيء في هذه الحياة يشيخ وكل شيء يتغير حتى المشاعر، ستصطدم بلحظة لن تصدق فيها نفسك، عندما تكتشف أن الشخص الذي كنت تظن أن الحياة ستتوقف بدونه، هو نفس الشخص الذي أصبح سببًا حقيقيًّا لتوقف الحياة، وماذا تعنى الحياة المحكوم عليها بأن لا تتجدد، هل يظلم الرجل المرأة أم أن المرأة هي من تظلمه أم أنهما اختارا من الحياة منهجًا ظالمًا يضمن لهما الاحترام؟ احترام الناس مقرون بهذا المعتقل الأبدي، يبررون لأنفسهم القدرة على الاستمرار فيه تارة بالمجتمع وتارة بمصلحة

الأولاد، بينما الأولاد يعيشون في عالم آخر من الصداقات والطموحات، الأولاد أكثر عملية منهما، كل الذي يعنيهم هي المادة التي تضمن لهم مسايرة طبقة النجوم، يلحون عليه للتعاقد مع نوادي لأية دولة عربية تدفع أكثر، حتى اندفع فيهم صارخًا ليفهموا أنه يكره الغربة، وأنه لن يترك بلده لأي سبب، ولكنه يؤلمه الشعور بالذنب عندما يصطدم بعيونهم تلومه عندما يعجزون عن تحقيق رغبة كتغيير السيارة بأحدث صيحة للسيارات مثلًا، يلوم نفسه لأن وضعه كلاعب كرة قديم في النادي الإسماعيلي والمنتخب جعلهم يطالبونه بالتمسك بالنجومية، بينما النجومية قانونها هكذا، لا بد أن يأفل نجم ليلمع في الأفق نجم جديد، ترى من المتسبب في أن تسير حياته هكذا؟! إنه فقط كان يحب لعبة الكرة، لم يكن يقصد أن يجعله الناس نجمًا ليدفع عمره ثمنًا لنجوميته! ظل يبحث عن أجوبة لأسئلة كثيرة ليفهم على أي أساس يختار المجتمع نجومه، ولماذا يصنع المجتمع النجوم؟! هل الحياة ستكون سخيفة بدون هؤلاء النجوم؟ هل يدرك المجتمع أنه يظلم من يختاره ليكون نجمًا؟ هل يدرك مدى قسوته عندما ينتزع النجومية منه ليعطيها لشخص آخر؟ وكان جوابه الوحيد أن الإنسان يجد لذته عندما يصنع إلهه بنفسه وعندما أدرك حرمة صناعة الآلهة تحايل على الفكرة بفكرة أخرى تشبهها، وهي صناعة النجوم، لأنه لا يستطيع الحياة على هذه الأرض دون أن يجسد لنفسه إلهه، فاختلق بريقًا يتطلع إليه، يُسقط عليه أحلامه ليدفعه لاستمرار الحياة، الحياة التي لا تستمر بدون الحلم، الإنسان يحتاج مثلًا عظيمًا ليقلده في لبسه وفي كلامه، ليقنع نفسه أنه اكتسب أهمية كأهمية النجوم وبريقا كبريقها، تلك النجوم التي خرجت من أعماقه، والتي يمكن له أن يسحب منها النجومية حين يملها ويعزم الأمر على صناعة نجم جديد، بينما النجم البائس يصدق نفسه ويعيش نجوميته كأنها حالة أبدية، ربما تقوده العظمة والتمرد إلى الشعور بالزهق متمنيًا أن ينزل إلى الأرض ليشارك البسطاء حياة عادية، ولكنه في حقيقة الأمر لم يعد يرضيه إلا أن يعيش نجمًا يلمع في سماء تبهر هؤلاء البسطاء، ولكنه كان يفر هاربًا بين الحين والحين من النجومية إلى قريته لأنه يرتاح إلى العيون التي تمتلئ فرحًا وفقرًا، تحمد الله شاكرة فضله، بينما زوجته وأولاده يستهترون دائمًا بثروته

مقارنة بثروة النجم فلان والنجم علان، زوجته التي كانت ذات يوم فتاته الحالمة الرقيقة، تحولت إلى سيدة مجتمع لا يشغلها سوى متابعة أخبار فلان وثروة علان، والموضة والحفلات و، و، و، و، و... لم يعد يهمها منه سوى أن تدفعه لطريق يتضاعف فيه تلك الثروة، طريق يضمن لها أن يظل قابضًا على دائرة الضوء، غير عابئة بالزمن الذي أعطاه ظهره، حتى أصبح مجرد مدرب للأشبال في نفس النادي، لم يكن حزينًا على نجمه الذي أفل بقدر ما هو حزين على نجومية ذكوريته التي فارقته، في قرارة نفسه كان يتهمها بأنها هي سبب وصوله إلى هذه الحالة، كان ينتابه شعور بالقرف عندما كان يضاجعها، متوقعا أنها تنصب له فخًّا مستغلة ذروة حميميته لتقنعه بطلباتها المادية المفرطة، فتتحول تلك اللحظة التي يطوف فيها حول العالم وعبر الأزمنة، تلك اللحظة التي كان فيها هائمًا يمتصها بأنفاسه لتخترق ضلوعه لتسكن أعماقه، بينما كانت هي شاردة عنه تتلذذ في مخيلتها بمناحرة سيدات النادي عندما تفاجئهم بفستان من الفساتين التي تعرضها كبرى بيوت الموضة، فستان ربما تتجاوز قيمته دخل عائلة في شهر، فستان سيصبح قديمًا لا يستحق أن تلبسه مرة أخرى بمجرد الاستعراض به ساعة أو ساعتين في الحفلات التافهة، التي تكتسب وجاهتها من حضور نجوم المجتمع، حتى أفلت الحكاية بينهما وتلاشت تمامًا، ظنت في بادئ الأمر انه يخونها، وتأكدت بالتكرارات الفاشلة أن عطاؤه كرجل انتهى، وارتاحت لهذه الفكرة التي تؤكد لها أنه سيظل مخذولًا أمامها يسترضيها بالهدايا ليعوضها عن حقها الذي لم يعد قادرًا عليه، على الرغم من أن الأطباء أكدوا لهما أنها حالة نفسية ليست عضوية وعلى الرغم من ذلك لن ينتوي إعادة النظر في حياته، الأيام تسير دون إرادة أو رغبة منه في التغيير، كل شيء مستقر على خطئه إن مجرد تفكيره لحظة واحدة في نفسه هي بمثابة هدم المعبد على من فيه، لن يفكر في شيء يخصه طالما أنهم جميعًا سعداء، سيتحايل لتحمل الحياة بأن يخطف منها عدة أيام بعيدًا في شرم الشيخ، يمارس الحياة فيها كبسطائها دون بذخ.

ربما يجوب شوارع المدينة يبحث عن امرأة يقضي معها سهرته، حتى لو اضطره الأمر إلى أن يشترى منها اللحظات، سيدفع لها ثمن لمسة حارة، ثمن نظرة

يسافر فيها عبر الأزمنة، ثمن حضن يحتويه، ثمن راحة لوجع روحه ووجع أعضائه، ثمن ابتهاج مزاجه، سيدفع لها ثمنًا لأنها أعطته أشياء كثيرة حرمه الزواج منها، لأن زوجته مكلفة بأن تعطيه كل ذلك، لأنه دفع لها الثمن دفعة واحدة، بعقد يضمن أن كل هذه الأشياء حق له تأتيه طوعًا وقتما يطلبها، ولكنه الآن سيتحرر من فكرة العقود، وسيختار كل يوم امرأة جديدة، حتى لو أنه سيدفع بالتسعيرة الجديدة، ربما يخسر كثيرًا من أمواله، لأن من يشترى جملة ليس كمن يشترى بالقطعة، ومن يدفع مقدَّمًا ليس كمن يدفع بالتسعيرة المتغيرة، يدرك أنه سيفقد جزءًا من أمواله ويدرك أيضًا أنه بموجب العقد الذي بينه وبين زوجته سيفقد جميع أمواله، يشعر بغصة كلما تذكر أنه كان يتعرض كل ليلة يضاجعها فيها لابتزازها، وأنها كانت تتفنن في طرق إثارته ليمنحها نطفة ذكورية، وأنها كانت تجوب أبواب العرافات والسيدات الخبيرات ليمنحنها وصفة تجيء لها بالولد، تصلى ليلًا ونهارًا تتوسل إلى الله ليجعل من النطفة التي في أحشائها نطفة ذكر، ليكون لها الحق في أن تمتلك ثروته بأكملها، وأنها أقلعت نهائيًّا عن غوايته بعدما تحقق حلمها وأنجبت الولد، لو أن هناك عدل لكانت تلك التي تمنحه لحظات مدفوعة الثمن قانعة بما تأخذه دون أن تبتزه، هي التي تستحق أن تكون حبيبته، سيغفر لها كمن يغفر لجائع سرق من محفظته ثمن وجبة تسد جوعه ومضى تاركا له بقية نقوده، ولكنه لن يغفر أبدًا لهذه التي وهو في أحضانها يلهث حبًّا كانت تدعو الله لأن يضع في رحمها بذرة ذكر لتسلبه بها جميع ما يملك، اللعنة على هذه الحياة وهذه الخدعة البائسة التي يسمونها مودة ورحمة.

تتنبه حواسه بين الحين والحين إلى الصحراء التي لا تنتهي ولا تتغير، ولكنها تمنحه الخيال والأمنيات، انخطف قلبه مبتهجًا كطفل كان يعبث بخياله ليمنحه كل لحظة فكرة جديدة، عندما لاحت له مدينة ذات أسوار بيضاء تحيط بأبنية بيضاء، ضاعف تركيزه حتى كادت عيونه تقفز من الفرحة تلهث عبر الطريق لاكتشاف المدينة التي تتضح له تارة فتارة، وكأنه اكتشف على الأرض قارة جديدة، ممسكًا بنفسه كسائق الباص الأبله يضحك من أعماقه على أشياء لا يراها سواه، ينشرح قلبه مهللًا يتابع اقتراب المدينة، حتى أصبحت

أكثر ضخامة وابتلاعًا للصحراء، أخيرًا تقابل مع العمار والمدهش أن شاطئ البحر بدأ هو الآخر في الظهور؛ فبدت له المدينة كعروس بيضاء ترتمي على شاطئ البحر، لكن السائق البليد فاجأه بزيادة سرعته في تلك اللحظة التي أصبحت فيها المدينة قبالته، اشتد غضبه وجن جنونه حتى أنه فكر بأن يهجم عليه قافزًا فوقه ليتوقف، عندما راحت المدينة تتضاءل أمامه كلما فر الطريق، فتراءت له وكأنها هي الأخرى تلاحقه، تمد إليه ذراعيها لتخطفه مقتلعة عيونه المشدوهة إليها ورقبته الملوية التي تدور مع الطريق لتتابعها، فيزداد شغفًا ليكشف ستر هذه القارة المهجورة، وفجأة تنكب رقبته الملوية مصطدمة بالكرسي الذي أمامه، فيفيق مفجوعًا برجة الأتوبيس وصخب الركاب وزمجرة العجلات، والركاب الذين يصرخون سبًّا في ذلك السائق غير القادر على التحكم في العجل، مرت لحظات عصيبة رأوا فيها الموت بأعينهم، ولكن الله وحده هو المنجي من هذه المنطقة بعدما نطقوا على أنفسهم الشهادة، يتزاحمون على الخروج، يتناثرون مبتعدين في عراء الصحراء يحمدون الله بينهم وبين بعضهم على النجاة، من هذه المنطقة المشهورة بالحوادث دون أسباب منطقية، يتهمون الشيطان بأنه يسكنها، وأنه بين الحين والحين يرتوي متلذذًا بدماء البشر، يتداولون حكايات ربما تكون خيالات لأن الناس عادة ترتاح إلى الشطحات، فاخترعوا أساطير مريبة عن تلك المنطقة الدائمة الحوادث، ولكن عندما قام السائق بتفحص الباص أدرك أنه كان ولا بد أن يحدث ذلك في هذا التوقيت بالذات، لأن الماكينة شربت زيتا يمتلئ بالشوائب، وأن القائمين على الصيانة لم يقوموا بتغير الزيت منذ فترة طويلة، ولذلك يتحتم عليهم الانتظار فترة في هذه الصحراء الخالية من أي ظل، حتى يرتاح الأوتوبيس ولو ساعة.

التف الركاب حول السائق يتذمرون ويسبون ويلعنون هذه الرحلة، بينما كان (هاني) شاردًا مهووسًا يتطلع إلى المدينة البيضاء التي أصبحت بعيدة، تاركًا نفسه لرغبته في الذهاب إليها، بعدما أدرك أن لديه متسع من الوقت، كلما اقترب منها بانت له ضخامة بوابتها المغلقة وأسوارها العالية، فكر أن يطرق بابها ولكنه تراجع مبتعدًا يلاصق السور، عندما شاهد الأبواب تفتح على مصراعيها بيد بوابين يلبسان جلابيب بيضاء قصيرة تتوه ملامحهم بين لحى كثيفة طويلة

تكسبهم شراسة وقبحًا، ثم تغلق الأبواب بعدما انطلقت سيارة فخمة، دون أن يلتفت أحد لوجوده وكأنه ذبابة تلتصق بالسور، لفت انتباهه أنه على المدى البعيد ترتمي أطراف الأسوار على شاطئ البحر؛ ففكر أن ينزل البحر لأنه هو السبيل الوحيد الذي سيمكنه من أن يستكشف أسرار المدينة، خلع ملابسه الخارجية وتركها جانب السور، ومضى في طريقه إلى البحر، وعندما قطع مسافة تمكنه من اكتشاف المدينة، أدرك أنه عندما يخرج إلى الشاطئ المواجه لهذه المنطقة، سيكون قد أصبح في قلب المدينة، وعلى الرغم من أنه لا يعرف ماذا سيحدث لو أن أحدًا اكتشف وجوده، لكنه جازف بنفسه خارجًا إلى الشاطئ، وكانت الشمس ساعتها تلقي بنفسها في أعماق البحر البعيد، تاركة هذه القصور لتستقبل الظلام مستفحلة في الغموض، وجد نفسه واقفًا على بعد مسافة من أحدها، وعندما قطع مسافة للأمام مبتعدًا عن الشاطئ وجد نفسه أمام قصر أبيض عملاق، تكشف أضواؤه الخافتة عن حديقته البديعة الواسعة، دون أن يظهر له إنسان يسكنه؛ فتزداد رغبته في أن يكتشف سر هذه القصور، التي يختفي فيها الناس في هذا الجو البديع وهذه الطبيعة الساحرة، حزينًا على هذا الشاطئ الذي خلق ليكون مزدحمًا بالبشر وبالصحبة والأولاد والأصدقاء، لا يصدق أن سكان هذا القصر يستبدلون هذه الطبيعة الساحرة، بأجهزة التكييف المعلقة على حوائطه الخارجية، مما زاده شغفًا ليدخله بأي وسيلة مهما تكن، حتى لو أنه سيعرض نفسه للخطر عندما يجاهد متسلقًا هذه الأسوار قافزًا إلى الحديقة، استكمل طريقه متلصصًا يحاذر الشوك الذي يبرز من فروع الشجر، حتى اقترب من البرندة العالية ذات السلالم الرخامية، التي تبتلع في عمقها امرأة ذات عباءة وطرحة بيضاء، ظل مكانه متلصصًا عليها، يجاهد حتى لا يصدر عن وجوده أي صوت يكشفه، يتابع بشغف حالة الاضطراب التي كانت تعانيها تلك المرأة، وهي تتنقل بين الكراسي المبتعدة أو بالتمشية المنفعلة بطول البرندة، وكأنها تخطط لشيء أو تحاول أن تقبض على فكرة أو ربما تقاوم الملل، كانت تفتح الكتب مسرعة بإغلاقها، وتسمع قرآنا بأصوات عالية لقارئ صحراوي بلهجة (مسرسعة) تبعث في الروح الكآبة على هاتفها لحظات، ثم أغلقته باكية تتمتم متنهدة ربما مستغفرة أو

متمنية لا يفهم، ظل يراقبها شغوفًا لأن يتعرف على هذه السيدة التعيسة الوحيدة سجينة هذا القصر وكأنه سجن النساء، الوقت يمر والشمس غابت نهائيًّا، ورغبته لأن يكتشف أسرار المدينة وسر هذه السيدة يتأجج، وخوفه على الأوتوبيس الذي سيفوته، تزاحم كل هذه الأفكار بعضها البعض في عقله، ولكنها تلاشت تمامًا عندما شاهد تلك المرأة فجأة تنهمر بالبكاء، حسم أمره في تلك اللحظة مندفعا إليها، ودون أن يأخذ باله غرز فرع مدبب يخرج من شجرة في فخذه، أفزع بصراخه المرأة التي اندفعت مذعورة مرتبكة في اتجاه الصرخة، تحتار بين أن تلبي استغاثته وتساعده في أن ينتزع فخذه من فرع الشجرة، وبين أن تنادي الحراس ليعرفوا أمر هذا اللص، لكن شدة تألمه جعلتها تسرع إليه ملثمة وجهها بطرحتها فلم تظهر منها سوى عيون تنطلق منها اللعنة والغضب ويخرج صوتها لاذعًا:

- «انت حرامي تستاهل تموت، أنا هنادي الحراس يسجنوك، إزاي تنتهك حرمة البيوت؟»

فراح يقسم لها وهو يعاني من شدة الألم أنه ليس بحرامي، وأنه كان لاعب كرة مشهور بالمنتخب، وأن (الباص) الذاهب به إلى شرم الشيخ يقف بعيدًا ينتظره لأنه تعطل، وأنه فكر أن يقضى الوقت في السباحة حتى يتم إصلاحه، وأن المياه جرفته إلى هذا الشاطئ، وأنه لم يكن ينتوي الدخول إلا من أجل أن يمسح دموعها، استشعرت الصدق في نبرته المتوسلة المتألمة ولان قلبها لاستعطافه ورجائه لأن تساعده، أخذت بيده بعدما جعلت من طرحتها الطويلة حائلًا بين كفها وكفه، وأسندته حتى دخلت به يتحجل إلى غرفتها، أحضرت له مطهرًا ومسكنًا للجروح وناولتهما له على استحياء ليطهر جرحه ويسكنه ويستعد لأن يخرج قبل أن يراه أحد، فشكرها وراح يفعل متابعًا توترها، وعندما همت بالخروج حرجًا من نظراته استبقاها متوسلًا يطلب مساعدتها في تطهير الجرح لأنه لا يمكنه؛ ففعلت مقتربة تشيح وجهها بعيدًا وهي تدور بالقطنة حول الجرح، يؤلمها تألمه فيلتفت وجهها إلى وجهه دون وعي، ولكنها تركته خارجة ليستكمل تضميد جراحه وحده، مخافة لحرمة مشاعر العطف الذي ولده هذا

الاقتراب، فيناديها لتناوله كيس القطن الذي وقع على الأرض وهو يشكرها على هذا المسكن سريع المفعول الذي أسكن الألم، وباغتها يسألها لماذا تتغطى منه بكل هذه الأغطية؛ على الرغم من أن لهجتها ليست بدوية أو فلاحة؟ فاتهمته بلهجةٍ لاذعة بأنه ليس متدينًا وأنه يجهل أمور الدين لأنها تلتزم بالزي الذي يأمر الله به النساء، فسألها مستنكرًا:

- «يعنى تقصدي إن ستات المدينة دي كلها بيلبسوا كدا»

فأجابته بثقة تؤكد له أن سكان المدينة يتبعون السنة الصحيحة، وأن الأزواج جاءوا بعائلاتهم إلى هنا من أجل حمايتهم من الفجور الذي فاق حده في المدن، تدعو له بالهداية والتوبة مقدمة له دعوة وعرضًا لأن يفكر في أن يدخل المدينة من أبوابها، بشرط أن يتبع سنة الرسول وسنة أهلها، تدعو له بأن يتوب الله عليه من الفجور الغارق فيه أهل المدن، فقال لها مندهشًا:

- «ما هو أنا ممكن آجي أعيش هنا من غير ما ألبس جلابية قصيرة ولا دقن، ولا مراتي تلبس الحجاب المخيف ده»

واجهت سخريته بنظرة نارية تتعجله بالخروج، لأن هذه الخلوة محرمة وتركته خارجة إلى البرندة.

تعثر في أن يلف الشاش على جرحه، ناداها:

- «يا حاجة لو سمحتي»

فجاءته متذمرة، استمال قلبها بنبرة تستعطفها لترحم تألمه يحثها على أن تفترض أنها طبيبة تقوم بواجب إنساني، بركت على الأرض تعافر بكف لتلف له الشاش بها على فخذه، بينما تحكم بكفها الأخرى طرحتها لتداري عنه وجهها، حاولت أن تغض البصر عن سيقانه المشدودة العارية، تتحاشى أن تلمس شعر فخذه الكثيف؛ فخانتها عيونها ذاهبة مسلوبة الإرادة لنبض ذكورته كمغناطيس التقط من أعماقها أنوثتها الشاردة، وسقط حجاب وجهها سهوًا كاشفًا روعة استسلامها لنغزات رغباتها المكبوتة، فيقترن شحوبها بألم يزيدها

جمالًا وإنسانية، تزلزل كيانها عندما تمددت نظراتها إلى نبض عروقه، وكأن ماردًا يستيقظ بهوادة متبرمًا بين ساقيه، فأسرعت تجرى خائفة قبل أن يفاجئها وهو ينفجر خارجًا إلى الحياة، سقطت لفة الشاش من يدها وهي تخرج مسرعة مرتبكة تلتقط أنفاسها في البرندة، بينما (هاني) كان سعيدًا منتشيًا بعضوه الذي تأكد له الآن أنه ما زال على قيد الحياة، وكأن إكسير الحياة الذي كان يحتاجه كان مختبئًا في أعماق امرأة حزينة محتجبة عن الحياة داخل ملابسها، فأثارته كما لم تثره امرأة في العالم من قبلها، تحامل على نفسه خارجًا إليها تستلقط أذنيه تأوهات روحها مستفزًا ضعفها وهو يرفع وجهها المخذول للأرض ليقترب من وجهه، متعمِّدًا أن تكتشف سعادة الحياة التي في عيونه وهو يسألها برومانسية مخدرة تسحر خلاياها:

- «ليه كل الحزن ده؟»

تاركًا أصابعه تعزف على خلايا وجهها المرتعشة، مطبطبًا على قسماتها الحزينة المهملة، تلامس أصابعه شفاهها المرتعشة فتذوب عطشًا للمسته، وتضخم شعورها للاحتياج، وانهارت تستسلم لضعفها كسجين يرتمي فوق شعاع من الضوء باغته، ليطير فوقه هاربًا من سجنه، لا يهمه من أين جاء أو إلى أي مكان سيذهب به هذا الشعاع، تخدرت حواسها وانتحى العقل بعيدًا رافضًا أي محاولة منها للتفكير، تحررت من جميع قيودها مستسلمة لحلاوة عمق عينيه، التي تسحبها بقوة دون أن تعطيها فرصة للتفكير حتى غابت عن الوجود، بينما (هاني) سعيد منفعل بطاقته للحياة التي فاجأته معتركة روحه وجسده، يقول لها هامسًا بأنفاسه الملتهبة بعدما بلغا ذروة الاعتصار:

- «أنا محتاجك أوي، ادخلي فيا أوي»

فاستجاب جسدها لنداءاته الملتهبة، وتوحدا في عالمٍ آخر يتراقصان فوق بعضهما نشوة وفرحًا، غابت كآبتها وهي تحلق كعصفورة ترفرف نصف عارية، همس لها يقول:

- «الحياة لذتها في إننا نسرقها لأن الحياة نفسها مسجونة محتاجة اللي يقدر يحررها»

لم يكن يدري أن كلماته ستوقف سريان سعادتها، انتفضت منتبهة لعريها على صوت الأذان، راحت تختطف نفسها من بين ذراعيه، مبتعدة تلملم ملابسها، تحاول أن تختبئ داخلها، تصرخ صرخاتٍ مكتومة مذعورة، تصطدم بفعلتها، تتبدل ملامحها بشراسة تتهمه بأنه شيطان جاء ليدنس عفتها، كيف لها أن تفعل ما فعلت وهي زوجة وأم لشابين أحدهما متزوج، كيف لها أن تفعل ذلك وهي تنتظر أن تصبح في ظرف أيام جدة، كيف لها أن تفعل ذلك وزوجها وأولادها يحجون إلى بيت الله، بينما هي في أحضان ذلك الشيطان الذي جاء ليزني بها، كيف أصابها ذلك الخلل العقلي؟ مذهولة لا تصدق أن الإنسان يمكن له أن يفقد صوابه هكذا في لحظات، وتصدر منه أفعال مشينة، تتهمه بأنه سحرها أو أنه فعل شيئًا أفقدها الوعي، تسقط في نوبة بكاء مرير حين تفقد الأمل في الخلاص، وينتهي بها الندم إلى أنها لا بد أن تقتل نفسها، تنمرت عليه تطرده بكل قوتها، بينما (هاني) يستوعب صدمتها صامتًا متفهمًا ثورتها، انهارت تمرغ وجهها في الأرض تتمنى أن تنشق الأرض وتبتلعها، رفضت يده الممدودة ليلتقطها، ظلت مستسلمة للأرض تسب نفسها بالانحطاط وأنها لم تعد تستحق الحياة، إنها زانية زنى بها ذلك الشيطان البغيض؛ فقال لها مترفقًا بما هي فيه:

- «انتي مش غلطانة صدقيني انتي كنتي محتاجة تسرقي من الحياة لحظة عشان تحسي إنك عايشة، أنا كمان كنت محتاج اللحظة دي، أرجوكِ لو كنتي بتعتبري السعادة اللي كنتي فيها خطيئة، فالخطيئة مش آخر الحياة، ماحدش بيعيش في الحياة كلها صفحة بيضة، زي المدينة الوهمية اللي انتوا عايشين فيها دي، الحياة موجودة عشان نعيشها، نغلط ونطلب الغفران، ونعيد النظر تاني من جديد في كل شيء، ونعرف ليه ماقدرناش نقاوم الخطيئة، اللي انتي بتسميها خطيئة، لكن أنا بسميها حياة، الحياة ماتش كورة الهزيمة مش معناها

النهاية، لسة في ماتشات كتيرة قدامك، ماتشات هتنهزمي فيها، وماتشات تانية كتيرة هتكسبي فيها، الحياة مالهاش طعم إلا إذا حولناها لصراعات وهمية»

حاول مرة أخرى ليأخذ بيدها ولكنها ظلت رافضة متشبثة بالأرض، فراح يقنعها بأن ما حدث ما هو إلا إرادة القدر، وأنه منذ بداية رحلته كان يشعر بأن القدر يخبئ له شيئًا ظل مترقبا لحدوثه، منذ بداية رحلته التي بدأت غريبة بذلك السائق الأبله، وبخيالاته لهذه الصحراء التي كان يبني فيها مدنًا ليهدمها، ويظل شاردًا وهو يحلم بأن يمتلك فيها مدينة، يحاول بأن يقنعها بأن القدر كان يخطط وينفذ، بينما هو وهي ما هما إلا أدوات يعبث بها القدر ليصنع بهما حكاية، لكنها ظلت شاردة مستسلمة للعنات نفسها تجيبه بائسة:

- «أنا اللي أستاهل، إزاي سمحت لنفسي تجمعني بك خلوة الشيطان يدخلها بسهولة؟»

استفزته بكلامها يقول:

- «شيطان إيه اللي بتتكلمي عنه؟ الشيطان ماله ومال سآمة روحك اللي زادت سآمة وانتي بتسمعي القرآن، شفاء الروح في الحب والحياة والانطلاق، شفاء الروح إنها تخرج من القمقم اللي محبوسة فيه، لكن القرآن والأدعية عبارة عن أحكام بيزيدوا قيود الروح، إزاي بتحاولي تفكي أسرها بالكلام عن القيود والمواعظ والحكم، الإنسان طاقة محتاجة البراح اللي يستوعبها»

وكأن أفكاره التي يقولها تؤكد لها شيطنته، أو ربما ارتاح ضميرها بعض الشيء لهذه الفكرة، فراحت تصرخ صرخة مكتومة بحرقة في وجهه:

- «انت شيطان، انت شيطان، انت مش ممكن تكون إنسان»

تركها (هاني) يائسًا حزينًا لبكاءها، مدركًا أنه لا فائدة من مواساتها، راح يسلك الطريق الذي جاء منه ليمضي إلى حال سبيله.

تركها وحدها غارقة في الحزن، تهوي في حجرتها كطير مذبوح يطمح إلى الخلاص، تاركة جرحها لينزف ربما تموت، وفي ذات الوقت تخاف الموت الذي سيذهب بها إلى نار جهنم وبئس المصير، تمر أمام عينيها سنوات عمرها الثلاثة والأربعون موجعة تئن داخلها، (سميحة) الطفلة التي كانت في السنة الأخيرة للإعدادية، ولكنها في نظر من حولها شابة يطلبها العرسان للزواج، عودها الفائر جعلها تبدو فتاة شهية، بينما هي وردة مبهجة تتفتح لتعانق الحياة حبًّا ولهفة، فتفاجئها الأيادي تمتد متزاحمة لتقطفها، بينما هي طفلة منطلقة تلعب وتضحك مع زميلاتها، يمزحن وينكتن و(يزغدن) بعضهن البعض وهن خارجات من المدرسة، يتخطفن من بعضهن قطعة الآيس كريم الوحيدة التي اشترينها شركة، لتلعق كل واحدة منهن لعقة، يتراءى لهن المستقبل زاهيًا حافلًا بشراءات كثيرة للآيس كريم بأنواعه، تشطح (سميحة) هائمة تقول عندما جاء دورها لتلعق الآيس كريم:

- «أنا هدخل معهد التمثيل وهبقى نجمة كبيرة من نجمات السينما، أبلة (كريمة) بتقول إني شبه (كاميليا) الممثلة الله يرحمها، وإني أنفع أبقى نجمة سينما زيها»

فتسخر منها (لبنى):

- «(كاميليا) قتلها الملك، طب وانتي بقا مين اللي هيقتلك»

فتزغدها وتقول:

- «لا يا حبيبتي أنا هبقى نجمة كبيرة ماحدش فيكم هيقدر يكلمني، وهدخل عليكوا الحارة بعربية كبيرة مفتوحة، وهابص لكم بطرف عينيا، ومش هاستعنى أكلمكم، وهغني، كلهم بيقولوا إن صوتي حلو، وبحب الرقص كمان وممكن أبقى زي (فريدة فهمي) عندي فرقة كبيرة للرقص الشرقي تلف العالم، بس المشكلة بقا هاجيب منين (محمود رضا)؟»

وتدور حولهن برشاقة كغزالة تغنى:

- «أنا عصفورة الساحات نتروني أهلى للشمس وللطرقات»

ويرقصن معها، حتى يتساقطن على الأرض من سطل الرقص والفرح.

لم تكن (سميحة) كصديقاتها مولعة بالقمر، كانت تحكي له معهن الحكايات من باب المشاركة فقط، لكنها كانت أجملهن وأكثرهن إحساسًا بذاتها، حتى أن مدربة الرقص التي كانت تدربهم على حفلة المدرسة، كانت تناديها مازحة بـ"النجمة (سميحة)"، وكانت حقًّا لها حضور النجمات، وانهارت (سميحة) عندما تأففت المدربة تعلن استبدالها بأخرى، بسبب عدم انسجام الحركات لأنها أطولهن، لكنها عدلت عن فكرتها مراعاة لتآلف أرواحهن، واقتناعها بموهبتها الفنية، وراحت تدربها على حركات أخرى تنسجم فيها الأطوال، كانت (سميحة) مولعة بالألوان تبتهج فرحة باللون الأحمر، حتى أن أغلب ملابسها كانت حمراء، واضطرت المدربة إلى أن تدرج اللون الأحمر في ملابس الرقص خصيصًا تلبية لإلحاحها، وألحت على أمها لتذهب بها إلى الخياطة، لتصمم لها فستانًا قصيرًا من الساتان الأحمر بكرانيش من الدانتيل وله طرحة من الشيفون الأحمر، تتلذذ يوميًّا بإغاظة صديقاتها حتى ادعين أنهن سيفصلن فساتينهن عند نفس الخياطة.

لم تكن (سميحة) طموحة في العلم والشهادات كصديقاتها، تتخايل بجمالها ورشاقتها وطولها الفارع، وبشرتها الرقيقة الناعمة وشعرها الطويل البندقي وعيونها العسلية، تتلذذ بطفولة إثارة غيرتهن وغيرة بنات الحارة وبنات المدرسة، وعندما كن يجتمعن على سطح منزل صديقتها ليسهرن ويحكين للقمر كن يمزحن للقمر يقلن له:

- «النجمة (سميحة) هتغطي على جمالك يا قمر، بعد كدا هنسهر معاها ونسيبك يا قمر وهنغني للنجوم»

ويضحكن من قلوبهن بينما تتفاخر (سميحة) مختالة بنفسها قائلة:

- «لكن النجمة عايزالها نجم»

وتجثم على ركبتيها تتبتل للقمر:

– «والنبي يا قمر نفسي أتجوز واحد شبه (رشدي أباظة)»

فيغرقن جميعهن ضحكًا، ويغظنها بأن آخرها أن تتزوج صبي الميكانيكي الذي يقابلنه يوميًّا على ناصية الحارة، كانت (سميحة) تتلذذ بأن ترى جمالها في عيون ذلك الصبي الذي يعمل في الورشة التي على مدخل الحارة، تتمايع أمامه في مشيتها لتلفت انتباهه تفتعل المشاوير خصيصًا لتخرج في اليوم عشرات المرات لتمر أمامه تستمتع بنظراته الساهمة الثاقبة تتلمس كل ثغرة في جسدها فتبهجها، لا تبالي بتعنيف صديقاتها، تتهمهم بالغيرة منها عندما يلفتن نظرها بأنها ستكون سيئة السمعة، كل ذلك كان يتم بشفافية الصداقة والمحبة، وينتهى الأمر بأن يجلسن تحت قدميها ينصتن لحكاياتها عن نظرات صبي الميكانيكي وما تفعله في روحها، وفي نهاية الحكاية تؤكد لهن أنه ليس فتى أحلامها، ولكنها فقط تفرح بجمالها الذي يلمع في عيونه، ويصبحن هائمات مع القمر يعشقن دون أن يكن لهن عشيق، كانت (سميحة) هي رائدتهن في خبايا أسرار البنات، كانت أولهن التي فاجأتها الدورة الشهرية، لذلك اعتبرنها خبيرة في التعامل معها، علمتهن استخدام الخرق ليتجنبن بلل ملابسهن ببقع الدماء، يجتمعن كثيرًا ليتكلمن في هذا السر العظيم، يتسابقن ليحكين لها تفاصيل ما يحدث لهن، وكيف يتخفين من أمهاتهن وكيف يخفين أشياءهن، يتفحصن ويتشممن رائحة بعضهن البعض، وكن يضحكن كثيرًا على هذه الأسرار، بينما كانت الأمهات يترقبن حظ (سميحة) يتوقعن دائمًا أنه سيكون أكثر حظًّا من حظ بناتهن، حتى تأكدت توقعاتهن.

استقبلت (سميحة) الزغاريد الآتية من شقتهم وهي على ناصية الحارة، أسرعت فرحة تظن أن خطيبًا جاء ليخطب أختها (ياسمين) التي تكبرها بثلاث سنوات فيستقبلها أهلها بالأحضان، وتُفاجأ بضيوف يملئون شقتهم الصغيرة يتناوبونها أحضانًا، لأن رجلًا من أعيان الحارة جاء ليخطبها لابنه العائد من السعودية من أسبوع، واضعًا لها كيلوجرام من الذهب الخالص على الصينية، أذهلتها المفاجأة، لم تكن تحلم ذات يوم أن تكون فردًا من أفراد العمارة البراقة المطلة

على النيل عند مدخل الحارة، والتي يملكها هؤلاء الأعيان؛ لقد كانت تمتد يدها لتخطف من حديقتهم وردة من الزهور الحمراء، بعد مغافلة الخفير الذي كان يتغافل عنها بمزاجه، لأن الورد لا يهتم به أحد ومصيره الحتمي هو أن يذبل ويموت، وقفت (سميحة) مذهولة لا تصدق نفسها، ولكن الطفلة التي تسكنها تمتلئ فرحًا بالذهب وبفرحة أهلها، لم تفهم حينها أنهم بالذهب يسرقون أحلامها.

كان (كامل) يكبرها بـ١٥ عام، ولكنه كان وسيمًا يشبه نجوم السينما وأبطال الأفلام الرومانسية التي كانت تحبها، بشاربه الأسود وشعره الأسود ولحيته الخفيفة وعيونه الباسمة السوداء، لم يزعجها أنه لا يرتدي البنطلونات والقمصان، يبدو لها وجيها وهو في جلبابه الأبيض، وكان متعلمًا حاصلًا على بكالوريوس الخدمة الاجتماعية، وجدته مميزًا في كل شيء، وحسبت نفسها سعيدة الحظ، وراحت مبهورة بالحياة الرغدة التي ستنتقل إليها، تظن أن جمالها جلب لها فرصة العمر، وأنها ستظل تغيظ جميع البنات، ولن يهمها أنها لن تستكمل تعليمها، البنت مهما أخذت أعلى الشهادات مصيرها للزواج، غير عابئة بحزن صديقاتها لأنها لن تشاركهم حفلة المدرسة، كانت تظن أن لديها براحًا كبيرًا سترقص وتغني فيه على راحتها، تغمرها سعادة خاصة عندما تستشعر غيرة أختها الكبرى (ياسمين) وهي تقول لها يائسة راجية:

- «سيبك من الجواز، انتي لسة صغيرة، فكري في التعليم»

تركت نفسها هائمة تراودها أحلام الحياة الجديدة وتزوجت (كامل) لم يكن جافًا ولا شرسًا، باللين أقنعها أن كل شيء فيها حرام أن يراه غيره، وأن طاعة الزوج من طاعة الرب، وفهمت مع الأيام أنه لم يكن مفتونًا بجمالها، وإنما كل ما كان يهمه أنها طفلة صغيرة يسهل عليه تطويعها على مزاجه، لبست العباءة السوداء الفضفاضة وغطت وجهها بالنقاب، في بادئ الأمر كانت تشعر براحة نفسية لأنها في طاعة الله، وأنها الآن تضمن الجنة، عاشت داخل القصر على النيل ترى الحياة تسير أمامها من وراء حجاب محرم عليها أن تلمسها، أقلت من زيارة أهلها لأنهم يعيشون حياة الفجور، كل من هب ودب من أولاد الخالة

والعم والعمة يدخلون البيت بسهولة، يكلمون أخواتها البنات يضحكون ويمرحون ويتبادلون النكات، حتى شعرت أنها غريبة عنهم، حاولت كثيرًا أن تنتشلهم من الضياع على حسب ما تعلمته من فقه على يد زوجها، ودعتهم كثيرًا للهداية والطريق المستقيم والتحشم والاقتداء بها في اللبس والرزانة، حاملة لهن كتب الفقه، لكنهن رفضن يستهزئن بنصائحها، أصررن على أنهن يحببن الله بالفطرة، وأن الله يحبهن هكذا، ولن يحبهن عندما تصير دماؤهن ثقيلة مثل دمها، تفاقم شعورها بالغربة بين أهلها، شيئًا فشيئًا انسلخت من بينهم، ولم تعد تزورهم، وانحصرت زياراتهم لها في الأعياد والمواسم، وعند ولادتها الأولى والثانية، وقاطعت أختها (ياسمين) التي دخلت كلية الهندسة مصرة على أن ترتدي البناطيل اللاصقة والبلوزات القصيرة، قاطعتها لأنها تتشبه بالفاجرات كما يقول لها (كامل) زوجها، سلمت (سميحة) لـ(كامل) مفاتيح حريتها بإرادتها مقتنعة أنها الآن تسير في الطريق المستقيم، وأنها نجت بنفسها من الهلاك، تخلص لزوجها غاية الإخلاص، وتكرس وقتها لطفليها الذيْن كانا يملآن عليها الحياة في بداية الطفولة، تنتظر الأيام لتفر وراء بعضها حتى تفرح بدخولهما المدرسة، وتسهر جانبهما على المذاكرة، ولكن زوجها كان يتعمد أن يضعف الرابطة بينها وبينهما، كان يأخذهما تحت إبطيه سواءً كان في البيت أو خارجًا؛ حتى تقلص دورها في إطعامهما وتلبية حاجاتهما، حاولت كثيرًا أن تقضي على هذه الفجوة التي تتسع بينهم، والتي يتعمدها زوجها، بأن تختلق في غيابه حالة تعيد إليهما الود والفرح، تخترع أساليب جديدة ليدخلا عالمها عندما ملت حياتها لابتعادهما عنها، يقضيان أغلب أوقاتهما في المساجد، تخترع أي فعل يغير وجه الحياة لتدب الروح فيها من جديد، ربما تعود إليهما الرغبة في الضحك، فراحت تضحك بصوت عال تخرج الضحكات من خلاياها، تدمع عيناها من فرط إحساسها عندما كانت تفاجئهم بقرصة في مناطق الجسد الطرية، فيصرخون من الألم ثم يضحكون من الأعماق ويتغير جو المكان كله بعدما تدب الروح فيه وهو يشهد الكر والفر، ظلت هكذا بهذه اللعبة الماكرة والمفاجئة والكر والفر، حتى خلقت إحساسًا جديدًا بها وإحساسًا جديدًا بأنفسهما، ولكن عندما اكتشف زوجها تلك البهجة، قابلها متجهمًا إثر صرخة

ابنها يصفعها على وجهها أمام أولادها، يتهمها بأنها تصنع بهذا الضحك قلوبًا ميتة، كانت تود أن تصرخ فيه قائلة أن الضحك هو الذي أعاد الحياة إلى هذه القلوب التي يعدها للموت، الضحك هو الذي خلق الألفة بينها وبين أولادها بعدما باعد هو بينهما بسماع القرآن والأحاديث، الضحك هو الذي خلق بينهما حياة بعدما كان كل منهما ينزوي بعيدًا عنها، لكنها انزوت تدفن صرخاتها بعدما سيطر الأب مرة أخرى على أبنائه، وانطاعوا له ينفذون أوامره، مقتنعين أنه على صواب، وأنهم انقادوا وراء شياطين أمهم، راحوا يدعون الله أن يسامحها ويغفر لها زلاتها، تركت له بائسة ولديها لأنهما زهداها، ولم يعد لهما حاجة لديها سوى أن تضع لهما الطعام، وتغسل ملابسهما وتكويها، ومضت الحياة خالية من الحياة مع زوجها الذي كان يسافر إلى السعودية سنويًّا، كان يأخذها معه أحيانًا لتركب الطائرة وتذهب بها إلى سجن آخر، وعندما جمع ثروة هائلة عاد إلى القاهرة ليشتري هو وأولاد أعمامه، وكثيرًا من عائلته وكثيرًا من الرجال العائدين بأموال النفط أراضٍ كثيرة متجاورة في الصحراء، خططوا لإقامة مدينة ليأخذوا إليها أولادهم وأزواجهم، يبتعدون بهم عن هذه الحياة التي تعج بالفسوق، بنوا فيها وحدات سكنية كثيرة للتعمير، ولكنهم اشترطوا على من يدخلها أن يكون ممن ينضم إلى جماعتهم، ويسير على نفس منهجهم، يرتدي رجالهم جلابيب بيضاء قصيرة، يطلقون اللحى ويلبسون شالًا أبيض على أكتافهم وطاقية بيضاء، بينما نساؤهم بالعباءة السوداء والنقاب الأسود، يرون الحياة من وراء ستارة سوداء تختفي وراءها العيون، أخذها زوجها هي وولديها إلى هذه المدينة، لتنقطع علاقتها نهائيًّا بأسرتها، حاولت أن تمحي من ذاكرتها تاريخ طفولتها، لتبدأ التاريخ معه من لحظة ارتباطهما، ورغم ذلك لم تكن ناقمة على شيء ولم يكن زوجها فظًّا غليظ القلب، كانت تفعل كل ما تفعله باقتناع بعدما جاءها بكتب كثيرة ومحاضرات عن التعذيب والنار، وقرأت كثيرًا وكثيرًا في الفقه والسنة والقرآن، وكانت مقتنعة تمامًا بأن زوجها على حق، وأنه يستحق منها كل خير، لأنه أخذ بها إلى الطريق المستقيم، حتى حبها للغناء طوعته في قراءة القرآن، لأن الغناء حرام وزوجها يكره الغناء، كانت متأكدة أنها تمتلك كل شيء يجعلها تشعر بالرضى، وبالرغم من ذلك قضت ما قضته من

عمرها معه تقنع نفسها كل يوم بالرضا، هذا الشعور كان ينغص عليها دائمًا حياتها، ويجعلها تتهم نفسها بأنها ستكون من أهل النار، لأن قلبها معلق بالدنيا وكأن فقاعة صغيرة من الحزن غير مستقرة تسرى في عروقها كلما حاولت الإمساك بها لتفريغها في الهواء كانت تفر، تلك الفقاعة غير المستقرة تارة في صدرها وتارة في قلبها وتارة في عقلها وتارة تتمدد في شرايينها، استطاعت أن تتعايش معها وأهملتها، لكن الفقاعة كانت تزداد انتفاخًا حتى سيطرت على روحها ولم تعد قادرة على تفريغها وتخاف من لحظة تفقد السيطرة عليها وتنفجر، تقاوم خوفها بكثرة الصلاة والصوم، تدعو الله أن يثبت قلبها على الإيمان، ويذهب عنها ذلك الهم والحزن، كل شيء في هذه المدينة أبيض أو أسود، المدينة التي لا تعرف الألوان، الألوان التي كانت تطيح بعقل (سميحة) لم تعد تراها، لكن جميع من بالمدينة تبدو عليهم علامات الرضا، يتعايشون مع ندواتهم ولقاءاتهم وخطبهم وأفراحهم الكئيبة.

تفيق من ذكرياتها على صوت آذان العشاء، لتواجه صدمتها بأن (سميحة) الطفلة هي الآن الحاجة (سميحة) التي تنتظر حفيدها الأول وتنتظر زوجها وأولادها العائدون من الحج، وأن عليها الآن أن ترتب لأشياء كثيرة، لكنها مشلولة غير قادرة على أن تفعل شيئًا، يتحتم عليها أولًا أن تواجه نفسها ماذا ستفعل بها؟ هل ستستطيع أن تخدع الرجل الذي أكرمها ووهبها طريق النجاة؟ هل سيكون كريمًا معها للنهاية؟ هل سيغفر لها خطيئتها لو أنها اعترفت؟ راحت تشحذ نفسها بأن تتجمد وقررت أن تعترف له بخطيئتها، وتطلب منه السماح، ستقبل قدميه ليغفر لها ويتركها لتعيش مع أولادها وحفيدها حتى ولو خادمة، تمر الدقائق والساعات والأيام وهي على حالها شاردة، يأخذها الحنين إلى طفولتها وبراءتها، الحنين إلى أمها وأبوها وأخواتها، وصديقاتها وحارتها ومدرستها، وشعرها المسدل على كتفيها وذراعيها العاريتين وساقيها العاريتين، وفستانها الساتان الأحمر الذي يطيح الهواء بكرانيشه كاشفًا فخذيها؛ فيمنحها بهجة تعترك خلاياها تنشر عبيرها في الوجود، الحنين لأن تخطف الوردة المتفتحة المهملة في حديقة عمارة زوجها البراقة، وهي طفلة تلعب مع صديقاتها تمد يدها من بين الأسياخ الحديدية لتقطفها، يلعنها الخفير ضاحكًا عندما تفر منه هاربة

قبل أن يفجعها بقبضته، الحنين لروحها الموجوعة التي ابتهجت لحظة ملامسة ذلك الشيطان شفاهها بأصابعه الموسيقية، ونظرتهما التي سرعان ما اشتبكتا فتحلقت أرواحهما هائمة في الوجود، فتصرخ مؤنبة نفسها بصرخة مكتومة تهز كيانها، تقول لنفسها أنه الشيطان الذي جاء ليختبرها ولكنها سقطت في أول اختبار، إنها لا تستحق زوجها ولا تستحق ولديها ولا تستحق هذه الحياة، لا بد لها من الخلاص بالانتحار ولكنه الجرم الأكبر، لم تعد قادرة على كل هذا الانتظار، كل شيء هنا يذكرها بخطيئتها لن تسطيع أن تخدع زوجها، ستعترف له بكل شيء، وراحت تجهر بكلمات الصفح والغفران تقولها له، فيتراءى لها واقفًا أمامها بوجه عابسٍ فظٍ غليظ يرفض أن يسمعها، بينما هي تلطم وتبكي تطلب منه الصفح الغفران، فانهار فيها ضربًا ينادي أهل المدينة بأجمعها ليرجموها بالحجر، تتملك منها هواجسها بأن زوجها وأولادها وحفيدها المولود، وزوجة ابنها وأهلها وأهل المدينة بأجمعها يزحفون وراءها على الرمال المبللة بماء البحر يرجمونها بالحجر، حتى ندبت الجروح في جسدها وسالت دماؤها عندما ارتطمت بصخرة، وتلطخت جبهتها وملابسها وتشوهت معالمها، وراحت تصرخ مذعورة تجري على الطريق، فالتقطتها سيارة أسرة عطفوا على حالها وهي تستنجد بهم ليبتعدوا بها عن المدينة، وغابت عنهم مغشيًا عليها، أفاقتها شعوطة الروائح النفاذة لأنفها والصفعات اللطيفة لخدودها، تلفتت حولها فأدركت أنها غادرت مدينتها إلى الأبد، تزاحمت مشاعر القلق والضعف وقلة الحيلة والخوف من المجهول للاستقرار في قلبها وعقلها، ولكنها هدأت عندما فهمت أنهم وصلوا إلى مدينتهم بورسعيد يسألونها إلى أى مكان ستذهب، لم تكن تعلم عن هذه المدينة أي شيء، ولكنها منبهرة برؤية كل هذه الحياة التي تضج من حولها، تنساب مشاعرها لهذه المدينة تبهجها رائحتها المختلفة، مستسلمة للمجهول كمولود فارقته أمه بعد أول لحظة له في الحياة.

❋❋❋❋

(٧)

وجدت (سميحة) نفسها تائهة بعباءتها البيضاء الملطخة بالأوساخ، وشكلها المهلهل في شوارع بورسعيد تلفح وجهها بالطرحة بدلًا من النقاب، تخشى أن تتلامس نظرتها مع نظرة أحد، تداري خوفها وتكتم صرخة تمزق صدرها، كجنين مفجوع بهوة الحياة وشغوف لمعرفة أسرارها، لا تصدق أنها استطاعت أن تجتاح أسوار مدينة الأتقياء، لم يعد يليق بها إلا هذه المدن الكافرة، ربما تبحث عن جبل بعيد تعيش فيه بمفردها تعبد الله وتطلب منه الصفح والمغفرة بقية عمرها، إنها الآن أكثر شعورًا بالاطمئنان، لأن مصيرها في يد الله وحده بعيدا عن هؤلاء الأتقياء القاسية قلوبهم على من يعصي، يجلدون ويرجمون ليطبقوا شرع الله، بينما الله ذاته يصفح ويغفر الذنوب جميعها.

لاذت برصيف بجوار كشك صغير لعجوز يعافر بساقٍ واحدة وعكاز خشبي بديلًا عن ساقه المقطوعة، يبيع أشياء كثيرة مستوردة: (شكولاتات، ومعلبات، وأندرات، وسونتيانات، صابون مستورد، وباديهات، وسكاكين وملاعق) جميعها أشياء صغيرة تصلح في نهاية اليوم للتخزين في ذلك الكشك الصغير، لم تتحدث إلى أحد ولم تطلب العون من أحد، تأخذ على استحياء الساندويتش والشاي من العجوز صاحب الكشك دون أن يسألها عن أي شيء، يسمح لها بأن تتكوم في الليل خلف كشكه كقطة شريدة، لم يكن في وسعه أن يساعدها بشيء سوى بطانيته السوداء المتهالكة، ظلت على حالها هذا عدة أيام مرت عليها كدهر، تسخر من الحرية التي كانت تتمناها وكان ثمنها هذا الضياع والمذلة و(المرمطة) في الشوارع، تعنف نفسها بأنها تستحق أكثر من ذلك، لأنها لم تتحمل أن تستمر في سجن العزة والكرامة عندما كانت سيدة قصر، فيباغتها سؤال يطرح نفسه لأول مرة على عقلها هل العزة والكرامة يلزمهما سجن؟! وذات ليلة في الفجر كانت عائدة مع فرقتها الموسيقية بعد إحياء حفل زفاف في مدينة دمياط الست (بدرية) صاحبة أشهر فرقة لإحياء الأفراح في مدينة بورسعيد، وتذيع شهرتها في بعض المحافظات والمدن المجاورة، أشفقت

عليها الست (بدرية) تظنها عجوزًا بائسة تتخفى في طرحتها، أيقظتها لتعطيها بعضًا من الأكل والكعك والحلوى، كشفت لها (سميحة) عن وجهها الشاحب المجهد بجمال بائس يخطف القلوب ويثير العطف والشفقة، فتصعبت على حالها (بدرية) تعرض عليها الذهاب معها طالما أنها ليس لها بيت ولا مأوى كفيلة بأن تجد لها عملًا، طاوعتها (سميحة) متلهفة على هذا العرض الذي وجدت فيه نجدتها، مضت الأيام عند الست (بدرية) معززة مكرمة، رفضت الست (بدرية) أن تجعلها خادمة، بعدما استشعرت أنها ليست (وش بهدلة) ضايفتها وأكرمتها وخصصت لها حجرة خاصة بها، عاملتها كأخت أو صديقة تخصها بالكثير من الود والعطف والمحبة الخالصة، وعندما ألحت عليها لأن تحكي لها حكايتها، اخترعت لها (سميحة) قصة مقنعة تحكي فيها بؤس امرأة طردها زوجها وطلقها ليتزوج بأخرى لأنها عاقر، وتاهت في البلاد لأن أهلها الفقراء نبهوا عليها ألا تأتيهم مطلقة، تأثرت (بدرية) بحكايتها تدعو الله لينتقم لجميع الزوجات من الأزواج الظالمة، فتندهش بـ(سميحة) تمنعها باكية نادمة، تلعن نفسها في سرها لأنها هي التي ظلمته وخانته وهربت بعارها تاركة أولادها، تتمنى لو أنها كانت تمتلك الشجاعة لتعترف لها بذنوبها، لكن قدر الذنوب أن تظل قابعة في الصدور، يتعذب بها صاحبها لأنه لا أحد في هذه الحياة يطبطب على المذنبين، لكنها تستشعر طبطبة الله على روحها، لأنه سمح لها أن تبدأ من جديد بعدما ستر ذنوبها وأخفاها عن عيون البشر التي لا ترحم.

تمر الأيام تزيد (سميحة) خجلًا من (بدرية) التي تراعيها بإخلاص غير عابئة بتحذيرات أفراد فرقتها من تلك التي لا يعرفون لها أصلًا ولا فصلًا، يفشلون في أن يزرعوا في قلبها القلق عندما يفترضون بأنها ربما تكون قاتلة أو هاربة من أحكام قضائية، يتشككون في قصتها واسمها، يضخمون لها الافتراضات بأنها ربما تكون من الإرهابيين، لكن (بدرية) كانت تحكم قلبها الذي كان يقودها دائمًا للعطف عليها، تأسرها ملامحها الجميلة الحزينة التي تشبه كثيرًا ملامح أختها التي ماتت وهي في مقتبل العمر، بينما (سميحة) يتفاقم شعورها بالخجل لطول ضيافتها، ولهذا الكرم الذي لا بد له من نهاية، يلاحقها الغمز واللمز من أفراد الفرقة، فعرضت على (بدرية) أن تتركها لتذهب إلى حال سبيلها أو أن

تساعدها في البحث عن عمل، رفضت (بدرية) خروجها للبحث عن عمل خوفا عليها من البهدلة عندما سألتها عن شهادتها فأجابتها بأنها لم تحصل حتى على الإعدادية، طلبت منها أن تساعد (زكريا الطبال) الذي يقوم وحده بترتيب أعمال الفرقة ويمسك حساباتها، أقنعتها أن تخلع النقاب لأنه لا يليق بموظفة تعمل مع فرقة عوالم، كما أن النقاب سنة وليس فرضًا وأن ظروف العمل تقتضي عدم ارتدائه كما أن تركه ليس معصية أو خطيئة. فتستهزئ (سميحة) بنفسها عندما اكتشفت أنها ما زالت تتمسك بلباس التقوى بعدما سئمتها روحها، اقتنعت بخلع النقاب وخرجت من حجرتها تخالط أعضاء الفرقة وتشاركهم طقوس حياتهم اليومية بداية بحضور البروفات، وشيئًا فشيئًا انفعلت بحياتها الجديدة ووجدت نفسها تنزلق في تفاصيلها بسهولة تغوص وتتبحر في أمورهم، تنزل الأسواق وتشاركهم مشترياتهم ومدفوعاتهم وأجورهم ومواصلاتهم، فهمت كل صغيرة وكبيرة عن ما يلزم الصرف والقبض، وارتاح (زكريا) لأن يرمي الأحمال على أكتافها مكتفيًا بعمله كطبال الفرقة تاركًا نفسه للاستشارة فقط؛ خاصة أن عمله كمحاسب الفرقة كان إضافة عليه دون أجر. سلمت (بدرية) الأمور المادية جميعها إلى (سميحة) بداية من الاتفاقات على الحفلات، حتى أصبحت كل صغيرة وكبيرة لماليات الفرقة من اختصاص (سميحة) وتعلمت (سميحة) لغةً جديدة تسربت إلى روحها بسهولة، وعرفت البشاشة وجهها معبرة عن طاقتها التي تتفاعل مع أوجه الحياة بطلاقة، وانصهرت في عالمها الجديد المتجدد الذي يعج بالأحداث الكثيرة، الممزوجة بالفرح والحزن والغناء والرقص والمتاعب والهموم والأمراض والأموال الكثيرة التي يقبضونها ولكنها لا تكفي أسرهم الكثيرة، كان يهاجمها الحنين تارة لطفولتها وصديقاتها والقمر والرقص وحفلة المدرسة التي تدربت كثيرًا على إحيائها برقصة القمر هي وصديقاتها، ولكنها تركتهم دون أن تفكر في مصير هذه الحفلة، تتذكر لعقات الآيس كريم التي كانت نصيبها من القطعة الواحدة التي يشتركن في شرائها وكيف كان طعمها لذيذًا، وأمنيتها البريئة بأن تمتلك حديقة الزهور التي تحيط بالعمارة العملاقة المطلة على النيل عند مدخل حارتها، عندما كانت تمد كفها الصغيرة عبر الأسياخ الحديدية تغافل الجنائني لتسرق الورد لها

ولصديقاتها، فتنادي إحداهن عليه لينتبه فيتلذذن بإثارة غيظه ويجرين ويجري وراءهن يسبهن ويلعن آباءهن، فيملأن الشوارع حياة وفرحًا وضحكًا، الضحك الذي مات في قلبها حينما تحققت أمنيتها وأصبحت تمتلك تلك الحديقة، لم تكن تدري أنها ستصبح سجينة مع الورد، لاح لعقلها حقيقة لأول مرة تدركها، وهي أن زوجها هو من جنى عليها لأنه حرمها أن تعيش بين هؤلاء المطحونين بالحياة وهمومها وضحكها وفرحها، حرمها من الحكايات التي تعج بها الإنسانية جميعها، لتعيش حكاية ضيقة قصيرة، تتلخص في الأدعية التي تفتقد الإحساس بها، إنها الآن تدعو الله كثيرًا لأن يغفر لها الخطيئة التي وقعت فيها وهي تشعر بلذة الاستغفار، بعدما كانت تردد أدعية الاستغفار دون أن تشعر بجلالة الذنوب التي تستحق استغفارها، تردد أدعية جوفاء لمجرد أنها كانت أدعية للسلف، لكنها الآن تشعر بلذة التقرب إلى الله وهي تدعوه بأدعية تخرج صادقة من قلبها، تجتاحها شجاعة تجعلها قادرة على أن تقول لزوجها ولمدينتها الفاضلة يا ليتني أخطأت بدل المرة ألف مرة لأتذوق حلاوة الاستغفار، عندما تركت (سميحة) نفسها للحياة لتعيشها كما نادتها، تاركة عيونها لتزوغ على الألوان وتفاصيل الفساتين التي تبرز جمال الجسد، استعادت الروح فيها بهجتها، تراءى لها وجه جديد للحكاية، رأت فيه زوجها مجرمًا ارتكب في حقها أبشع جريمة، لقد كان يخنق طاقة الحياة التي خلقها الله فيها، تلك الطاقة التي تمنحها الرغبة في الحياة، الرغبة في البقاء، الطاقة التي هي سر استمرار الحياة وبقائها، كان زوجها يتفنن لأن يقتلها فيها، حتى أصبحت كأرض تحتاج الفأس لتضرب أعماقها لتشعر بالماء والهواء وأنفاس البشر، تركت (سميحة) نفسها للحياة تجرب فيها كل شيء، جربت أن ترتدي الفساتين العارية وتسدل على الأكتاف شعرها البندقي، جربت أن ترى نفسها في عيون البشر، جربت أن تقرأ في عيونهم الرغبة فيها، أطلقت سراح صوتها فخرج صداحًا شجيًّا يطرب القلوب البائسة، عندما سمعته (بدرية) عرضت عليها أن تكون مطربة بفرقتها، اعتمدت عليها في إحياء الأفراح، استغلت استعدادها الفطري للنجومية لتجعل منها نجمة، وخالطت لمسات الفرح الحزن الغائر في عيونها، فمنحتها جمالًا ذا أسرار تخطف الأبصار وتسحر القلوب، ربما كان ذلك الجمال هو الجمال الذي

يختص بالنجوم، لمع نجم (سميحة) لمعانًا وضَّاءً في سماء بورسعيد، وسماوات المحافظات والمدن القريبة، شعرت (سميحة) بذاتها أكثر مما كانت تتوقع، أدهشت الجميع وهي تختال بنفسها تتعايش مع نجوميتها متناسية ماضيها، والأكثر دهشة أنها داست على (بدرية) التي انطفأ نجمها ولم يعد يطلبها أحد، وتركتها (سميحة) بعدما كونت فرقة خاصة بها، وأصبحت (سميحة) هي النجمة المشهورة، نجمة أفراح بورسعيد الأولى، النجمة (سومة) وتبدلت لهجتها الناعمة الرزينة إلى لهجة فجة ذات قصوعة رنانة تصعق الآذان تتواءم مع لهجة العوالم.

وعندما جاءتها (بدرية) غاضبة منهارة يتأكد لها كلام (هناء) الراقصة بفرقتها، بأن (سميحة) هي من أطلقت إشاعة بين متعهدي الأفراح بأنها مريضة بالسرطان ولم تعد قادرة على العمل، كانت (بدرية) فعلا في بداية معرفتها بمرضها، واستأمنت (سميحة) على سرها ترغب في استعطافها وطبطبتها على روحها وهي في حالة نفسية سيئة، تظن أن (سميحة) صديقتها ستقف بجانبها، فتفاجئها (سميحة) متبجحة على ضعفها تشيح عنها وجهها زاعقة فيها:

- «انتي عايزة تاخدي زمنك وزمن غيرك، انتي عيانة والعيان يقعد في سريره»

لم تصدق (بدرية) نفسها تظن أنها مشحونة بوقيعة ربما قام بها أحد أفراد فرقتها، ظلت تستعطفها بروح منكسرة واهنة:

- «ومين يصرف على العيان؟»

لم ترحم (سميحة) ضعفها ولم يلن قلبها لكسرة نفسها بل طعنتها بسكينها الأخير قائلة:

- «المحسنين كتير»

لم تتحامل (بدرية) وسقطت على الأرض تستعطفها نظراتها لتلتقطها من السقوط، فأشاحت (سميحة) وجهها عنها ومضت منتشية تشعر بلذة القسوة

التي اعترت قلبها، والتي جعلتها تنتزع بجبروت كل ما تريده من الحياة، حتى ولو أنها ستدهس من ألهموها الثقة في نفسها، وأطلقوا لها العنان فتحولت إلى ذلك الجبروت، وعندما جاءتها (هناء) تصرخ تتهمها بأنها كانت سببًا من أسباب موت (بدرية) راحت تبكيها بحرارة جعلتها تتراجع عن اتهامها، تسمح لها بالدخول عليها لتودعها وتقبلها القبلة الأخيرة، لم يخشع قلبها لجثتها الممددة التي لا حول لها ولا قوة، جثة تنتظر أن يغسلوها قبل أن يذهبوا بها إلى عالمها الجديد، جثة تنصت بائسة لولولة أعضاء فرقتها على الخراب الذي حل بهم بعد رحيلها، جثة حزينة تراقب (سميحة) وهي تسرق ما تبقى من صاغتها ثم تخرج تولول على فقد صديقتها (بدرية) بعبارات تفجع القلوب.

لا أحد سيفهم أن (سميحة) كفرت بجميع الأفكار الطيبة التي كانت تعتنقها، لأنها كانت أسباب تعاستها، وأنها الآن تشعر بلذة الانتصارات، وأنها الآن تمنطق الأشياء بمنطق يمليه عليها عقلها الباطن الذي أدرك أشياء جديدة، أدرك أنها كانت باسم الدين أَمةً خانعة مخذولة مقهورة لا وجود لها، بينما هي الآن عندما تخلصت من هيمنة الأفكار الدينية على عقلها، أصبحت قادرة على أن تصنع نفسها بنفسها، كان عقلها الباطن يراقب الأحداث التي تمر بها متأملًا جميع إنجازاتها، فيملي عليها شعورًا بأنها صنعت بمفردها دولة نصبت نفسها سلطانة عليها، تختال بنفسها فرحًا عندما تشعر أنها هنا في دولة العربدة سلطانة على هؤلاء الرجال، تملك أن تصفعهم على أقفائهم، وتملك أن تقهرهم وربما تتحرش بهم إن أرادت، كل هذه الطاقة الجبارة للسيادة على العالم كانت تمزقها، تعذبها ولكنها الآن انطلقت تعبر عن نفسها، لن يستطيع أحدا الآن أن يكبح جماحها، كل هذه الطاقة الهائلة كانت تتعذب بها، كانت تقتلها في الليلة بدل المرة ألف مرة.

عندما كانت تأخذها الذكرى إلى مدينتها البيضاء وحياتها الهادئة المملة الخالية من الصراعات، كان عقلها يقف حائرًا أمام شخصية زوجها، متسائلًا عن أي سلطان هذا الذي استطاع أن يغيب عقل زوجها المتعلم الجامعي الأكثر منها تعايشًا مع الحياة، كيف استطاع كل هذا التعايش مع كل هذا الظلام بمنتهى

البلاهة والانسجام، بينما كانت هي تتمزق ألمًا يرفض عقلها وقلبها ذلك السجن، ولكنها لم تكن لديها أفكار بديلة، إنها الآن تشعر بسعادة لأنها حرة طليقة تمتلك نفسها، وتمتلك القدرة على فعل كل شيء، تمتلك القسوة كما كانت تمتلك الطيبة، تمتلك الشر كما كانت تمتلك الخير.

خلت لها ساحة إحياء الأفراح بموت (بدرية) وتوسعت دائرة معارفها وصداقاتها، صادقت كبار رجال المجتمع البوسعيدي وسيداته، وخالطت الصحفيين ورجال الإعلام، وتشكل وعيها وتهذبت لهجتها وأسلوب حياتها بعدما خالطت الكثير من فئات المجتمع المختلفة، كما أصبحت تلم كثيرًا بالواقع السياسي وما يدور حولها في الحلقات التي تخص أحوال البلاد، بعدما بدلت الثورة الأحوال، فراحت باهتمام مبالغ تتابع تطورات الثورة التي أذهبت حكومات وجاءت بحكومات وأدت إلى الفوضى، التي كان من الممكن أن تذهب بها مع الريح بسبب تفشي حالة البلطجة، لولا شكيمتها وجبروتها وعلاقاتها وصداقاتها، ورغم ذلك عزفت كثيرًا عن الخروج للأفراح لما كانت تلاقيه هي وفرقتها من البلطجية أحيانًا، وأحيانًا أخرى بتهديدات رجال الدين، تفاقم الفوضى كان تمهيدًا -ربما كان متعمدًا- للتدخل العسكري الذي تفاقمت معه الضغوط والأزمات، عندما تجلت سوء قدرته على إدارة البلاد، بسبب فرضه الأحكام العسكرية حتى على المارة في الشوارع، أصابت غطرسته الفارغة البلاد بوقف الحال وقلة الأفراح وقلة المزاج، وانشغل الأصدقاء بتوفيق أمورهم مع الأوضاع الجديدة، كل يوم كان يأتيهم بتخوفات جديدة وتغيرات جديدة وثورة جديدة، ثورة على قبضة العسكر وأحكامهم التي جعلت الناس تنفجر بثورات تنادي في الشوارع برفضهم لحكم العسكر، واندفعت هي الأخرى تؤيد ثورة الشعب لكنها تراجعت لأن أصدقاءها الذين يفهمون الأوضاع السياسية وخباياها أكثر منها في الواقع السياسي، يفسرون لها حمية الشعب التي ألهبت معها حميتها، بأنها اندفاع وقوة وهمية تحركها أيد خفية تريد الإطاحة بالبلد، اكتشفت أنها كلما تكشفت لها رؤية كان أصدقاؤها يشوهون لها رؤيتها، حتى أصبحت لم تعد تفهم شيئًا مما يدور حولها، تصب لعنتها على حظها الذي لم يجعلها تستكمل تعليمها، تظن أن المتعلمين قادرين على قراءة الخبايا، لكنها

سرعان ما تتراجع تقنع نفسها بأن الحال لا بد أن يتغير، وستعود الأيام إلى ما كانت عليه قبل هذه الهوجة الغريبة لكل هذه الثورات، وستعود الأفراح والليالي الملاح ولكن الحال يزداد تعقدًا، حتى أنه في غمضة عين وصل الحكم بالانتخابات الشرعية إلى السلطة الدينية، انقبض قلبها عندما توقعت أن ترى زوجها وأبناءها في السلطة، خاصة بعدما سمعت من أصدقائها الصحفيين عن دور المدينة البيضاء في الوصول إلى الحكم الديني، وأن غالبية الحكومة الجديدة مؤلفة من تلك المدينة، وانشغال الإعلام ليكشف أسرار هذه المدينة، وعن دورها التأسيسي في الوصول إلى الحكم، وعاشت عدة شهور في رعب منزوية تتابع الصحف شغوفة بصفحتها على الفيسبوك، وتفاقم رعبها عندما قرأت في الصحف أسماء من أهل زوجها يشغلون مناصب كبيرة في الحكومة الجديدة، تصطدم برعب المجتمع من خلال منشورات أصدقائها على الفيسبوك وفي نشرات الصحف والإعلام، تحسبًا لتغلغل هذه السلطة وبقائها، كاشفًا خفايا السلطة الدينية وقهرها للإنسانية موضحة أنها تبتعد كل البعد عن علاقة العبد بربه، تتكشف لها حقيقة هذه السلطة التي في عمقها ما هي إلا رغبة في السيطرة والسيادة، لتوجه البشرية لسياسة تخضع لقوانين بشرية لا تختلف عن سيطرة استعمار يحكم قبضته على مستعمرته، فتشعر أنها خرجت من الظلام إلى النور من متابعة البرامج الإعلامية التي تكاتفت جميعها لتفضح القهر المنتظر حدوثه على يد السلطة الدينية، وعن التخلف الحضاري الذي ينتظر الدولة عندما يتحجم فيها أوجه الحضارة كالفنون والإبداع، وكأن الإعلام كان يعيد عليها قراءة زوجها وقراءة ماضيها وقراءة عمرها الذي انقضى هباءً في الضلال، وهي التي كانت تظن أنها كانت تنأى بنفسها بعيدًا عن الذنوب والخطايا، اصطدمت بالحقيقة واضحة أمامها كمن يصطدم بحجر، أدركت إدراكًا بيِّنًا أن زوجها الذي أقام لها معبدًا ليقيم فيه شرع الله، ما هو إلا ترس في منظومة كانت تخطط للسلطة، وأنه هو وأمثاله يحاربون الحياة التي تحمي هؤلاء البسطاء الذين يعرفون الله ويسبحونه بقلوبهم وتفاصيل حياتهم البسيطة، بينما هو وأمثاله تسببوا في اختلال توازن المجتمع، وتسببوا في هذه الهوة الكبيرة التي فصلت أفراده بعضهم عن بعض، وأنهم ارتكبوا جريمة لا

تغتفر، وهي تقسيم المجتمع إلى شرائح وطبقات تفصلها عن بعضها البعض هوة في المال، وهوة في السلطة، وهوة دينية، لأول مرة تتغير لديها زاوية الرؤية تلك الزاوية التي أظهرت لها بأن عفة الروح وطهارتها لا ترتبط بالجسد، وبانت منها طيبة زوجها شراسة ووحشية وعدائية للإنسانية وللوطن، الوطن هو هؤلاء البسطاء الذين يملئون حياتها، وأدركت أن هؤلاء البسطاء يستحقون أن نبنى لهم بيتًا كريمًا قبل أن نبني لهم معبدًا.

تكشفت لها حقيقة مدينتها البيضاء التي كانت تؤنب نفسها على أنها لا تحبها، بعدما أصبحت مكانًا لاعتصام رجال الدين يزعمون أنهم سيطبقون هيمنتهم على الدولة وإجبارها على الخضوع للسلطة الدينية التي رفضتها جميع طوائف المجتمع، فراحوا يعلنون تمسكهم بالحكم وأنهم سيمارسون سلطانهم من داخل هذه المدينة، بعدما رفضهم الشعب خارجًا على قلب واحد يرفض الحكم الديني، بعدما شن الإعلام حربًا دون أن يدرك أحد مدى صدقها أو مدى افتراءاتها، ولكنها قامت بدافع التخلص من الحكم الديني الذي سيقود البلاد إلى التخلف، وأعلن الجيش الحرب على الإرهاب وتسلط الإعلام لحشد المجتمع لمجابهة قيام الدولة الدينية، يحث الشعب على التفويض الشعبي للجيش ليكون له حق الانقلاب على الحكم الديني ومهاجمة المعتصمين في المدينة البيضاء، وهاجت جميع المدن بحرية مطلقة تحميها رجال العسكر يهتفون في الميادين العامة:

- «الجيش والشعب إيد واحدة، لا لا لحكم المرشد»

دون أن يأخذ باله الشعب الطيب أن الحِدأة لا ترمي أبدًا الكتاكيت، وأن من تلجأ إليه ليدافع عنك اليوم، سيطالبك غدا بأن تدفع له الثمن، وأن الثمن الذي يرضيه هو رقبتك، وفي اللحظة التي اندفع فيها الشعب خارجًا على السلطة الدينية يوافق على سحلها وتدميرها وتفجيرها، كانت (سميحة) تولول ذاهبة إلى المدينة لتموت فيها مع أولادها، ولكن العسكر عند أول كمين منعوها، وعندما انهارت أمامهم من شدة توسلاتها، أقنعوها أنه لن يصيب أبناءها ولا زوجها ولا أي شخص مكروه، وأن ما يفعلونه ما هو إلا تهويش لفض هذا

الاعتصام حتى يخرجوا جميعًا إلى المجتمع آمنين، وأن المجتمع كفيل بأن يعيد إليهم قناعاتهم بماهية الوطن، عاهدوها على ذلك بعدما أقنعوها لتعود من حيث أتت، ولكن العسكر خانوا العهد، عندما اشتدت الأزمة وتفاقمت بين السلطة العسكرية والسلطة الدينية، دفع البسطاء دماءهم ثمنًا لمعركة انتهت لصالح العسكر، عندما تفاقمت الاشتباكات حاصروا المدينة، وضربوها بضربة قاضية، أماتت الكثير من أهلها، ومات زوج (سميحة) وأبناؤها وحفيدها، ماتوا جميعًا مستسلمين للشهادة التي ستضمن لهم الجنة، وبقيت (سميحة) وحدها مع خطيئتها تائهة في الحياة، انهارت (سميحة) عندما قرأت في الصحف كشفًا بأسماء المتوفيين، ولاذت بين جدرانها أيامًا وشهورًا طويلة، تندب خطيئتها تسأل الله الرحمة والمغفرة خوفًا من عقابه، الذي يعده لها في الآخرة بعدما أراها عقاب الدنيا، ترفض مقابلة أحد، تستعذب مرارة كرهها لنفسها، وكأنها اهتدت إلى الطريقة المثلى للتكفير عن الذنوب، تناجي أرواحهم أن يسامحوها، تشهد أصدقاءها على صفحتها على الفيسبوك على ندمها واستغفارها فتنشر منشورات تحمل قرآنا وأحاديث وأدعية ترحُّمًا على أرواحهم الطاهرة، ظلت على حالها هذا عدة أشهر لم تبرح فيها منزلها، تظن أنها قد عادت إلى رشدها، وأنها أصبحت قادرة على أن تعتصم بدارها إلى الأبد نادمة تكفر عن الخطيئة، حتى صادفت إعلانًا عن بيع كافتيريا في منطقة دليسيبس في طرح البحر، تذكرت تلك الكافتيريا الساحرة التي أحيت بها ذات مرة حفلة زواج مع فرقة (بدرية) وتذكرت تلك الليالي الشتوية التي كانت تأخذها فيها (بدرية) للغداء والاستمتاع بالبحر وبسحر الطبيعة من وراء زجاجها، تذكرت أنها لأول مرة في هذه الكافيتريا استشعرت أن الشتاء يتجلى فيه غضب الله ورحمته وكرمه، في تلك الليلة المرعبة التي قضتها حتى الصباح ينقبض قلبها من أحداث المعركة الخارجية للظلام والرياح والعواصف والأمطار وموج البحر، وهدأت المعركة وسكنت الطبيعة مسترخية متعبة وديعة مستسلمة ينام كل ما فيها بسلام وأمان متعانقًا مع أول خيط واهن للنور، فتراءت لها الحياة مسلوبة الإرادة تصارع إلهين؛ إله النور وإله الظلام، وأن النور هو الإله الحق لأن خيط واهن للنور استطاع أن يهزم كل ذلك الظلام ويكشف زيف قوته، وتجلت لها عظمة

النور وأدرك قلبها أن الله حقًّا هو نور السماوات والأرض، هفهف قلبها لساحرية المكان، وكأن ذلك الخبر جاء يناديها لتخرج إلى الحياة مرة أخرى، فسيطرت على حواسها الرغبة في الحياة عازمة على أن تشترى هذه الكافيتريا مهما كلفتها، ومهما كانت العوائق ستشتريها.

❊❊❊❊

(٨)

اشتهرت كافتيريا (سومة) الواقعة في نهاية الطريق الواقع على طرح البحر، والملونة بألوان الثلج والسحابات الداكنة تبدو كمكان منفي خارج حدود الحياة والزمان، ذات الطبيعة الساحرة التي تمنحك شعورًا بأنها بنت اللحظة وأنها أيضا قديمة الأزل تحمل أسرار وقسوة أزمنة غابرة، حيث الصخور والرمال والسحاب والماء والهواء وأصوات الرياح والعواصف والليل والغروب والنهار الواهن وموسيقى الكون وطيور النورس، لا شيء يدل على تدخلات البشر سوى أشياء بسيطة كالجدران الزجاجية للكافيتريا، ومناضد بمفارش بيضاء، والكنبات المريحة؛ بينما الممرات مفروشة بالزهور في تلك الصالة الكبيرة التي يفصل بينها وبين العامل الذي يعد المشروبات والمأكولات البحرية والشيشات منضدة رخامية عريضة، تنسجم هذه الطبيعة مع جمال (سميحة) الحزين، ووداعة (ميرنا) النادلة، التي غالبًا ما تكون واقفة تسند رأسها بكفها، تدندن برومانسيةِ فتاةٍ محملة بالحب، تمنح الزبائن طاقةً رومانسية تفيض من نظرتها الباسمة، كمنحة مجانية تقدم مع الطلبات.

عندما أعلنت (سميحة) على صفحتها على الفيسبوك عن حاجتها لفتاة تعمل نادلة بكافيتريا، تقدمت إليها فتيات كثيرات، اختارت منهن (ميرنا) ليس لسبب سوى أنها انشرح قلبها لوجهها البريء.

ميرنا ليست من أهل بورسعيد، إنها فتاة وافدة مغتربة، تدرس في المعهد العالي للسياحة والفنادق ببورسعيد، ونزيلة بدار الطالبات التي تقع على طرح البحر، جاءت إلى هذه المدينة الساحلية البديعة كتكوتًا صغيرًا مذعورًا بكل ذلك البراح الذي يحيطه، فاختار لنفسه محيطًا ضيقًا حواجزه داخله، مقيدة بتعليمات نشأَت عليها مضمونها أن الحياة بكل ذلك البراح محرمة، فتعلمت على يد الحرمان أن تسرق الحياة لتعيشها في خيالها الذي لا سماء له، شيء واحد فقط كان مسموحًا لها، وهو المضي في الطريق الذي رسمته الحياة لها، رغم أن زميلاتها في دار الطالبات وفي المعهد لم يعنهن شيء سوى البراح

والانطلاق والتمرد وكسر كل حصار، والتلون بلون المدينة التي بدلت فيهن كل شيء، لهجتهن، ملبسهن، مشيتهن، تبدلت ملامحهن القاسية الريفية أو الشعبية التي جئن بها، كانت تتمنى أن تمتلك جرأتهن في التمرد و(التزويغ) من المحاضرات ومشاغبة الدكاترة غير عابئة بطردها من المحاضرات، تقول لهن مدهوشة بتفاخرهن عندما يتوعدهن الدكاترة بالحرمان من النجاح، لو أنها هي التي حدث لها ذلك ربما كانت انتحرت، أما دهشتها العظمى فكانت عندما لاحظت أن أغلبية زميلاتها يقمن علاقات عاطفية، تود أن تسألهم كيف لها أن تنشأ مثل هذه العلاقات، مرت ثلاث سنوات من عمرها ما بين الدراسة صباحًا والعمل في الكافيتريا في الفترة المسائية من أجل مساعدة أسرتها الفقيرة حتى وصلت إلى السنة الرابعة والأخيرة، عازمة على البقاء للأبد في تلك المدينة، على الرغم من أنها تستعذب حنينها الجارف إلى أهلها والعودة إلى بيت العائلة، مهمومة دائمًا بالمسئولية فهي الابنة الكبرى التي خرجت إلى العمل منذ صغرها في إجازة المدارس، وبعد الخروج من المدرسة كبائعة في المحلات، تستعذب سعادتها عندما تحرم نفسها من شراء فستان للعام الجديد من أجل أن تشتري أخواتها، لكن الحرية بعيدًا عن وطأة قيود العائلة كشفت لها عن أوهام الدفء المختبئ في قسوة الوجوه والقيود، أيقظها ذلك التضارب في المشاعر لتهتدي إلى أفكار جديدة، راحت تبني عليها ترتيبات جديدة، مدركة أنه ربما يقضى الإنسان عمره مدافعًا عن الفكرة وعكسها في ذات الوقت، تؤمن بأن بيت العائلة فكرة في منتهى النبل، لكن الواقع العملي أثبت فشل تلك الفكرة، لأنه في الوقت الذي يندفع فيه الإنسان بالحنين والأشواق الجارفة إلى بيت العائلة كان يسعى بكل قوته للتحرر من أغلال المجتمع، بيت العائلة هو المجتمع، الواقع العملي أثبت أن الإنسان عندما يعيش بمفرده حرًّا يكون مسئولًا مسئولية كاملة عن تصرفاته متحررًا من أوهام المجتمع التي تفرض على الأخ الأكبر التضحية، الواقع العملي جعلها تدرك أن التضحية تخلق أشخاصًا أنانيين، ينتهزون تضحية الآخرين من أجلهم؛ لأن الطبيعة الإنسانية الأنانية بفطرتها ترفض أن تعترف بتضحيات الآخرين، إنها كانت توفر لأهلها جزءًا كبيرًا من راتبها، لكنهم يسخرون دائمًا من أنه لا يحقق لهم أية طموحات شرائية، يطالبونها بالبحث

عن عمل آخر يحقق راتبًا أعظم، كانت تتمنى أن توفر لهم ما يريدون، ولكنها في ذات الوقت أدركت أن التضحيات لا تنتج إلا شخصًا أنانيًّا لا يرى في المرآة سوى نفسه، فراحت تخطط لبقائها وحيدة في تلك المدينة بحجة العمل، بينما الحقيقة أنها تحب هذه المدينة التي ارتبطت برغبتها العارمة في الحياة المحرمة، والهروب من قيود العائلة ومشاعرها المزيفة.

عندما كانت تعود إليها بعد زيارتها الشهرية لأهلها، كانت تستغفر الله على أعتابها مقدمًا تطلب منه أن يطلق للشيطان في نفسها العنان، ليطيح في شرايينها وأوردتها، تتمنى ألا يكون قدرها في هذه الحياة أن تكون ملاكًا سلك طريق الشياطين، تتمنى أن يمنحها الله الفرصة لتكون شيطانًا يسلك طريق الملائكة، مقتنعة أن الشيطان وحده هو القادر على الشطحات التي لا حدود لها، غير عابئ بجنة أو نار لأنه يكره الجهل بالأشياء، يعبث في جميع الطرق، أما الملاك فذلك البائس الحزين الذي قنع بالطريق المستقيم المرسوم له راضيًا بألا يبحث ليعرف أكثر مما سمح له، تقتنع بأن الجنة أو النار نهاية سخيفة لهذه الحياة العظيمة، يحيرها سؤال: ترى من المسكين حقًّا الشياطين أم الملائكة؟!

تستنكر (سميحة) بينها وبين نفسها حقيقة أن ابتسامة (ميرنا) الصبوحة هي سر من أسرار ساحرية ذلك المكان، تظن أن حضورها الطاغي قادر على أن تضيع أمامه ملامح أية أنثى، رغم العمر والحزن الذي جمد ملامحها، لكنها واثقة من أنها وحدها هي الساحرة، لكن على أية حال أصبح للمكان رواده الدائمين، على الرغم من الأوضاع السياسية التي تزداد تأزُّمًا، لكنها أيضًا ربما كانت سببًا لتجعل من هذا المكان المنفي على البحر مناسبًا للقاءات السياسيين والمثقفين، للمناقشات حول أوضاع البلد، تحاول (سميحة) الخروج من وحدتها أحيانا بمجالسة معارفها، ولكنها تفر منسحبة عندما تحتد المناقشات، لم تعد تنفعل بالمشاركة، لأنها اكتشفت أنها لن تفهم شيئًا، لأن الحقيقة أكبر من أن يدركها أحد، وأن النهاية المحتمة على كل هذه المناقشات الحادة هو عدم الوصول إلى شيء، الأمور السياسية تتحرك بعيدًا عما يدور في جميع المناقشات التي تشارك فيها، حتى أنها لم تعد تصدق ما تسمع، وتوصلت إلى أن هذه الحروب والمعارك

النقاشية ما هي إلا لإثبات الذات، أما الوطنية فهي شيء آخر ربما لا يحتاج إلى الكلام.

وعندما ينتابها الملل تترك الكافيتريا لـ(ميرنا) سارحة تعانق الرمال والنسمات، تلطشها صراعات أمواج البحر، وأحيانا يباغتها القمر فاردًا شراعات الحنين، فتجتاحها رغبة الرقص، تتذكر رقصة القمر بفستانها الأحمر عندما كانت فتاة بأحلامها البريئة، فتذوب هائمة في ذلك الماضي المركون في الذاكرة، إنه الليل والبحر والصيف والشتاء والخريف والربيع والطبيعة الساحرة، التي لا طعم لها بدون لعبة الحب والهوى.

كثيرًا ما تعود بذكرياتها من رحلة الشاطئ والقمر حزينة، تركن في زاوية بعيدة من الكافيتريا تتأمل الطبيعة الساحرة من خلف جدران زجاجية، فيزيدها المشهد ألمًا، لأن الطبيعة التي تحتضن قصص حب وحكايات للفتيات والشبان يتمخطرون على الرمال، يقول الاثنان منهم كلامًا لا يسمعه سواهما، يجريان ويخطفان الحب الخارج من عسل الطبيعة، بينما هي تعيش بين جدران زجاجية تلوم قدرها الذي اختار لها فقط مشاهدة الحياة، يحرم عليها أن تلمسها، تمر الأيام راكدة طويلة ما بين حاضر لا يأتي بجديد، وماضٍ تشعر أحيانًا بأنها غريبة عنه، وكأنه ليس ماضيها أو أنه دخل ذاكرتها بطريق الخطأ، ماضٍ ترفضه وأحيانًا أخرى تستعذب مرارته، يشعرها بأنها عاشت دهورًا عديدة، في حكايات كثيرة مثيرة لا يصدقها عقل، حتى وصلت إلى تلك اللحظة التي انتبهت فيها لنظرات ذلك الرجل النحيل الذي يجلس في الركن الأخير للكافيتريا، تشككت في كثرة رؤيتها لتواجده، وعندما سألت (ميرنا) عنه ارتبكت تقول لها إنه يتردد على الكافيتريا منذ فترة قصيرة حتى أصبح من زبائنها اليوميين.

عكفت تراقبه بشغف، أثارتها نظراته الباسمة التي يرشقها بها دون خجل، ودفعتها ذاهبة إليه تفتعل اطمئنانها على مستوى الخدمة، هم واقفًا يحني لها ظهره كمن يستقبل أميرة مرحِّبًا بلياقة ورقة آسرة يدعوها للجلوس، يعرفها بنفسه بأنه (محمود الأمير) محامٍ في إدارة الشئون القانونية بمطار الجميل

والمهتم بالثقافة والفنون، وفاجأها بأنه يعرف عنها الكثير وأنه يأتي كثيرًا إلى هذا المكان الساحر ينتظر الفرصة المناسبة للحديث معها، لأنه يعد كتابًا عن الفنون الشعبية في بورسعيد، متطرقًا إلى أسماء عدد من الفرق الفنية المؤثرة في المجتمع البوسعيدي، والتي منها فرقة (بدرية)؛ متطرقًا إلى المعلومات التي جمعها عن تاريخ نشأتها ومراحل انتشارها واشتهارها ووصولًا إلى تفككها ونهايتها، وراح يحكي عن ولعه الشديد بـ(سومة) نجمة الفرقة منبهرًا بجمالها وحلاوة صوتها، حتى أنه كان يحضر الأفراح ولو لم يكن مدعوًا من أجلها، حزينًا على توقف نشاط هذه الفرقة بعدما حققت نجاحًا كبيرًا وانتهت إلى ما انتهت إليه فرق شعبية كثيرة، وغابت عن مشهد الأفراح في بورسعيد، واختفت بعدها هذه الظاهرة حتى فقدت الأفراح حلاوتها متسائلًا لماذا لا تفكر في العودة لتفتح الطريق لظهور فرق أخرى؟ لأنها مظهر صحي لمجتمع متصالح مع نفسه، وغياب هذه الفرق يؤكد أزمة المجتمع التي تحتاج إلى الدراسة.

تركت (سميحة) نفسها لحديثه الشيق بفرح وبشغف من يفتقد الاهتمام به، عادت إليها الرغبة في الحياة عندما استشعرت جمالها في نظرات ذلك الشاب الثلاثيني الأنيق المهذب، المترفع في ألفاظه تظنه سليل عائلة أرستقراطية، وتظنه أحيانًا أخرى مخلوقًا ساميًا من كوكب آخر، لا يفقه شيئًا عن التدني والبشاعة والسماجة اللصيقة برجال ذلك الكوكب، انجذبت لحديثه الناعم الذي يتطرق بسلاسة إلى موضوعات عديدة، يدور أغلبها حول الفن وجدت نفسها تتفاعل مع آرائه بفرح من اهتدى إلى طريق يتصالح فيه مع ذاته، عندما قال لها:

- «الفن هو الشيء الوحيد اللي بيعبر عن الإنسانية بصدق، وسيلة عظيمة ابتكرها الإنسان لتخليد رسالته اللي بتتنقل من جيل لجيل، محاكاة للحياة وللتطور وللتغير وللطبيعة، ناس كتير بتغلط وتقول الفن وسيلة لتغيير المجتمع، مع إن الفن الحقيقي هو نبض المجتمع، روح المجتمع، بيلخص إنسان ما في مجتمع ما، صحيح إن الفن بيقدم نفسه من خلال فكرة، ممكن تكون بسيطة أو سطحية أو تافهة أو

عميقة، المهم إن الفن الحقيقي لا ينتصر للأفكار، الفن لن يكون فنًّا إلا إذا كان لفكرة لا تنتصر لشيء، وعندما تنتصر الفكرة من خلال الفن فإنه سيكون أي شيء في الدنيا غير الفن، الفن لا يغير مجتمعًا لأننا في الحالة دي يبقى استغلينا الفن للتأثير على العقول من أجل تمرير الأفكار، أعتقد إن دي وسيلة غير شريفة لتمرير الفكر، وإهانة للفكر، لأن الفكر السليم يواجه العقول بالأسئلة والأجوبة من غير مؤثرات حسية، لأن الفن بيخاطب الإحساس، الفن الحقيقي لا ينتصر لفكرة وإنما ينتصر للإبداع والمتعة الحسية، لأنه تعبير إنساني يترجم من خلاله تفاعله بالزمان والمكان، دا غير إنه وسيلة لتلاقي الأجيال»

انفعلت بآرائه التي شفت آلام شعورها الدائم بأنها تغوص في وحل المعاصي، وجدت بينها وبينه طريقًا ممهدًا لتحكي له الكثير عن نفسها، آملة أن تلمس في كلامه تبرئة من جميع معاصيها.

نشأت بينهما صداقة وحديث مبتور ينتظر لقاءً آخر ليستكمل، وجدت نفسها تتلهف قدومه، تهتم بجمالها، تشتري فساتين جديدة تبرز مفاتنها، تختال بنفسها مدفوعة برغبة للسيطرة على حواسه بجمالها المبهر، حتى يذوب إحساسها بفارق العمر الذي يؤلمها، عندما تعقد مقارنة بينها وبين (ميرنا) في خيالها، لتثبت لنفسها أنها أجمل من هذه الفتاة النحيلة الباهتة، التي لا تهتم بزينتها، ولا تستعرض أنوثتها، ولكن وجهها الصبوح وابتسامتها الساحرة قادران على أن يخطفا القلوب، يتنغص كبرياؤها عندما تلاحظ لمعان عيونه واضطراب نظرته واحمرار جبينه، عندما وضعت (ميرنا) أمامه برقة فنجان القهوة، فيهيم سارحًا بنظراته وراءها وكأنها خطفت قلبه في تلك اللحظة وطارت، لكن (سميحة) مقتنعة بأن أنوثتها الطاغية قادرة على أن تسحق ألف فتاة مثلها، مستهزئة بملاحظتها الواضحة وقرابة ملامحه لملامحها، ورقته وعذوبته لخجلها، تقنع نفسها بأن الرجل الهادئ الوديع يحتاج إلى امرأة تجيد معاركة الحياة، امرأة تستطيع بخبرتها أن تفك قيود مشاعره، بينما هذه الطفلة الساذجة خاملة المشاعر سيملها سريعًا، تقتنع بأنها قادرة على أن تسرق المستقبل

الذاهب إلى ميرنا بسهولة، رافضة أن يفرض عليها بمنتهى القسوة أن تظل أسيرة عمر محسوب عليها حتى لو أنها لم تعشه. أخذت قرارًا حاسمًا بأن تحكم شباكها حوله.

أصبحت زيارات (محمود) يومية في ذلك التوقيت الشتوي الذي تقل فيه زبائن الكافيتريا، بينما تتضاعف ساحرية المكان مع الشتاء والمطر والغيوم وأمواج البحر ولحظات الغروب الساحرة وتكاثف السحب الداكنة، يتسلطن بمراقبة الطبيعة من خلف الجدران الزجاجية حيث يمتزج الحب والحزن والألم والحيرة والأضواء الخافتة ورنين موسيقى الكون وموسيقى (سوناتا) ضوء القمر وأصوات معركة الرياح وأمواج البحر بأحداث المعركة الصامتة في حكاية فرضت نفسها على المكان والزمان، حكاية سيدة جميلة تجاوزت الأربعين، وشاب ثلاثيني نحيل، وتلك الفتاة الحزينة التي تجلس بعيدًا متوجسة، تنتظر قرار السيدة المتربصة لطردها بين اللحظة والأخرى لأسباب مدفونة في الأعماق، تتصيد خطأً يصدر منها بعفوية ليكون سببًا منطقيًا لطردها، ولكن الفتاة حذرة أكثر من اللازم، تستعطفها بنظرتها الواهنة لتتركها إلى الأبد في ذلك المكان الذي تعلق به قلبها، لأنها لم تعد تريد من الحياة شيئًا سوى انتظار (محمود) بلهفة وشوق، ولأن قلبها يرقص فرحًا في حضوره، ولأنها تذوب عشقا في حلاوة نظرته المتلهفة عليها عندما تقدم له القهوة فيحنى لها رأسه تعويضًا عن رغبته في الوقوف والانحناء، متحاشيًا (سهام) عيون ستتهمه بالجنون، لأنه أول رجل في التاريخ يحني ظهره لنادلة تقدم له القهوة تمجيدًا لإنسانيتها، تستعطفها لتترك قلوب ترتعش شوقًا ولهفة وحنين للحظة تتعانق فيها بنظرة خاطفة تفيض كلامًا وفرحًا ورقصًا وحبًّا دون أن تفزعهما بالمراقبة، لتفهم أن نظراته الشاردة تبحث عنها عندما تتأخر بسبب محاضراتها، ليتها تترك لهما لغتهما الصامتة العميقة التي تدور بينهما سرًا؛ رغم سيطرتها التي تفرضها عليه لتستحوذ على حواسه جميعها، وعلى الرغم من ذلك كان ثلاثتهما يتعذبون بسؤال يفرض نفسه على الأذهان بقوة، من أجل من يأتي (محمود) يوميًّا إلى هنا؟! يقنع (محمود) نفسه أحيانًا بأن المكان هو البطل الحقيقي في تلك الحكاية، لكنه يدرك أن المكان يفقد جزءًا كبيرًا من سحره إذا افتقد إحداهما، يدرك أنه

اندفع إلى هنا مجذوبًا بجمال (سميحة) التي اقتحمته تستلقي بثقة على شاطئه، فمنحته شعورًا برجولة كانت تائهة في نحولته، تتجسد في تجربتها أفكاره التي أثبتت صحتها، وجعلته منتشيًا بنفسه عندما تنفعل فرحًا لأنها تكتشف نفسها من جديد في أفكاره، فراحت تبكي وتعترف وتحكي عن حياة عاشتها بطولها وعرضها ورغباتها المتعطشة للحياة، تكشف له عن أسرار تعاستها، وعن زوجها الذي كان يعطل طاقاتها الجبارة التي تتفاعل داخلها حتى انفجرت بالخطيئة، تحكى له عن حبها لهذه الخطيئة، التي جعلتها تقتحم الحياة وتدور في فلكها وتكتشف أسرارها، عن شعورها أنها عاشت كثيرًا في هذه الحياة القصيرة، ربما عاشت جميع الأرواح التي مرت عبر الأزمنة، الأرواح الطيبة والأرواح الخبيثة، تحكي له عن (بدرية) وعن اكتشافها لرغبتها الجامحة لأن تجرب قدرتها على ارتكاب الجريمة، وتهدأ انفعالاتها عندما يعتصر كفها المرتعشة الباردة بقبضة كفه الدافئة دامعًا منفعلًا بمعاناتها يقول لها:

- «انتي مالكيش ذنب في أي حاجة يا (سميحة) انتي كنتي زي اللي ربطوا إيديه عمر بحاله، أول ما اتفك كان عاوز يجرب كل الأحاسيس اللي اتحرم منها، كان عايز يحس إن إيديه بتضرب وتطبطب، وتسلم وتخنق، عايز يجرب يعمل بيها كل حاجة، لازم كان هييجي وقت يختار لها دور واحد بس، انتي خلاص وصلتى للحظة دي، واخترتي، إيه معنى إن الإنسان يعيش عمره كله طيب من غير ما يجرب يمارس الشر؟! انتي كنتي بتكرهي الشر من غير ما تعرفيه، ومليتي الخير بوجهه الكالح، الخير اللي اتفرقت على إيديه البشرية، واكتشفتي وجه جديد للحقيقة هو أن الشر هو أصل الحياة، أما الخير فضيف ثقيل الدم عليها»

انفعلت لحظتها بكلامه الذي أراح قلبها، واستفز رغبتها في الدفاع عن رغباتها أمامه تقول له:

- «أنا كنت عاوزة أصرخ بكل قوتي أنادي العالم كله عشان يحب الخطايا، لأنها بتدفع بالإنسان للحياة، عندي إحساس إن ربنا بيستبدل أرواحنا في أجساد كثيرة عشان نعيشها أكثر وأكثر، الخطيئة

اللي دفعتنى أعيش الحياة أفضل عندي ألف مرة من الفضيلة اللي بعدتني عنها»

وفى حوار آخر لهما انهارت ترتمي في أحضانه تبكي على صدره، وهي تحكي له عن موت أولادها تحمل نفسها الذنب لأنها زوجة خائنة، وأن الله ربما يغفر لها كل شيء ولكنه لن يغفر لها خيانتها، قال لها لحظتها كلامًا يحترم شجاعتها، كلامًا ينطقه لسانه ولكنها تشعر به يخرج من عقلها:

- «الإخلاص حالة مستحيلة، عشان كدا المتدينين بيحاولوا يقنعوا الست بالإخلاص لجوزها لأن منزلته من منزلة الإله، عشان تقدر تتعايش مع فكرة الإخلاص، لكن الحقيقة إنها لما بتعيش جوزها بتلاقيه إنسان عادي، مابتقدرش تقتنع بألوهيته واستحقاقه للإخلاص، أو تقتنع بإنها تلغي مشاعرها لما تحس إنها عايزة تلاقي نفسها من جديد، ولأن الراجل هو اللي ماسك زمام المجتمع، فألزم الست بالإخلاص، ولأنه مدرك إنه حالة مستحيلة، خباها وعماها وقهرها عشان يقتل جواها أي إحساس بالحياة، لكن في نفس الوقت ما ألزمش نفسه بنفس المنهج، مافيش علاقة على الأرض تضمن عدم فتور المشاعر، أو تضمن عدم موتها أو شيخوختها، حتى الروابط المقدسة لم تحم مشاعرنا من الفتور، أقوى العلاقات الإنسانية هي علاقة الإنسان بأمه وأبوه ورغم قوة العلاقة إلا أنها مع الزمن بتفتر وتتحول إلى عبء بنأديه من باب الواجب، وأحيانًا بنتمنى يخلصنا القدر منه أو يحمله شخص تاني عننا لمجرد أن حياتنا دخلتها علاقات جديدة، بندَّعي أحيانًا إن انشغالات الحياة تحول بينا وبين أداء الواجب، والحقيقة أننا انشغلنا بعلاقات جديدة سيطرت على مشاعرنا، بعدما فترت مشاعرنا بأيامنا الأولى وأصبحنا نرضي ضمائرنا بوهم الحنين، على الرغم من إننا متأكدين إننا مش هنقدر نرجع لها تاني، لأن الماضي كشف لنا عن أسراره والمستقبل جماله في أسراره، عشان تستمر لعبة الحياة، هي دي الطبيعة والفطرة اللي بتنحدف

ناحية الاستمرار والتجدد، شرعية العلاقة بين الراجل والست بتبدأ وبتنتهي بميلاد المشاعر أو بموتها، يبقى ليه يكون الجواز سجن بيحكم على اتنين يعيشوا مع بعض عشان يخنقوا في النهاية بعض، أو كل واحد يعيش حياته في السر عشان يكملوا التمثيلية اللي ترضي المجتمع، هتظلمي نفسك لو حاولتي تبصي عليها في مراية مشوهة، المجتمع هو المراية المشوهة»

وعندما بكت منهارة يائسة تشعر بأن الله عاقبها في الدنيا بموت أولادها، وأنه لن يسامحها وسيكون مصيرها في الآخرة إلى النار مسح دموعها الساخنة التي تسيل على خدودها وهو يقول:

- «فكرة الثواب والعقاب فكرة مهينة للإنسانية، دا غير إنها فكرة غير عادلة لأن الإنسان مايعرفش حاجة عن الدنيا قبل ما يدخلها، وماحدش أخد موافقته في إنه يعيشها أو مايعيشهاش، الإنسان أجبرعلى دخولها من غير ما ياخدوا موافقته على شروط حياته فيها، أو حتى يعلموه بالضوابط والمخالفات وعقوبات المخالفة، الإنسان أجبر على كل شيء ولقى نفسه في حياة مدفوع لكل شيء فيها برغباته وفي نفس الوقت مكبل بالقيود ومحظور عليه كل اللي بتدفعه ليه رغباته، أي عدل في كدا؟ أظن من العدل أنه يعيش زي ما هو عايز يعيش وزي ما بتوجهه رغباته وقدراته لأنه مدفوع بقوة جبارة بتعذبه اسمها الغرائز والغرائز متفاوتة في حدتها من إنسان لإنسان، كل واحد على حسب بيئته اللي هو برضه ما اختارهاش، الغرائز دي هو نفسه ماجريش وراها ولا زرعها لنفسه ولا بينشطها بمزاجه، لكنها بتسيطر عليه وبتعذبه وبيتعذب بها، الإنسانية كلها بتحركها الغرائز اللي ممكن تحول الإنسان لوحش لما بتزيد حدتها وشراستها أو يبقى شخص رقيق وديع لما تقل حدتها، لكن امتحان قدرته على السيطرة على غرايزه فهو وهم وامتحانات ظالمة وفي منتهى القسوة، لأنها بتطلب منه إنه يمشي عكس الاتجاه، وبيعيش حياة تعيسة لإنه هيفضل يدور على الحاجة

اللي بيتحقق فيها، وتحققه الحقيقي هو أنه يعيش نفسه زي ما بتوجهه غرايزه، وإنه يعيش كل الأدوار اللي يحب يعيشها من غير ما يتلخص حياته في دور واحد يزهقه. فين العدل والإنسان مهما حاول يغير مستقبله، يلاحقه حظ أهله المكتوب في جيناته اللي بتقرر قدراته العقلية والذهنية والاستيعابية، كيف لا تزر وازرة وزر أخرى والإنسان طول الوقت بيدفع تمن جينات ما اختارهاش؟ دا غير إن الحياة اللي ما اختارهاش كمان بتتسحب منه في وقت هو ما اختاروش، ممكن واحد يبدأ حياته وَحش وبعدين الحياة تدي له فرصة من العمر إنه يعيد حساباته مع نفسه ويتغير، أو لما حدة سيطرة غرايزه عليه بتقل ممكن جدًّا يتغير ويبقى شخص أكتر ألفة وأكتر محبة، وفي نفس الوقت الحياة ممكن تتسرق من شخص تاني من غير ما تديله نفس الفرصة يعني واحد عاش ٣٠ سنة زيه زي عاش ٦٠ سنة، يبقى فين العدل؟ وواحد أخد فرصة وواحد ماخدش غير وقت صغير من الحياة ماقدرش من خلاله ياخد قرار هو عاوز يكون إيه، حياة عاشها مدفوع فيها بموروثاته البيئية اللي هو برضه ما اختارهاش وجيناته الناتجة من تفاعل جينات عائلتين بطبائع مختلفة نتج عنها جين بانفعالات جديدة تتنحى فيها صفات وتظهر صفات وتختلق صفات جديدة جميعها بتقوده إلى أفعال تشبهه هو ومش من السهل قمعها أو السيطرة عليها باستخدام العقل، ولو قدر يقمعها بيعيش حياة معذبة يفعل أشياء يقتنع بها ولكنها تعاكس طبيعته، وتفضل روحه شاردة ومعذبة لحد ما يلاقي نفسه بيعملها خلسة، ويلاقي نفسه وقع تحت تعذيب الضمير، اللي نشأ جواه من اللحظة اللي بدأ فيها غيره يغير اتجاهه، أي عدالة في أن ينتهي مصيره إلى الجنة أو النار لمجرد إنه كان عاوز يعيش الحياة بالطبيعة اللي فرضت نفسها عليه»

سألت (سميحة):

- «طب نعمل إيه في الدين وأحكامه المتعسفة؟»

أجاب (محمود):

- «الدين هو السلطة الروحية التي بتستخدمها السياسة عشان تنفذ أغراضها، السلطة اللي بتمكنها من الهيمنة على البشرية باسم السماء، الكبت بيجعل الروح تتشوق للذنوب وتتشوق للحظة اللي تطهر فيها، بيخلق فيها الرغبة في التمرد وشوقها الدايم للبدايات الجديدة ولهفتها على النهاية، مش ممكن يكون ربنا خلق الكون العظيم ببراحه من أجل الإنسان، وبعدين يبعتله أديان يحارب بها نفسه ويحجمها ويحدد إقامتها ويشل حركتها باسم الدين والأخلاق والفضيلة»

انبهرت (سميحة) بأفكاره التي وجدت فيها سبيلًا لتبرئة نفسها أمام نفسها من التهم التي كانت تلاحقها في صحوها ومنامها، كانت تستيقظ كثيرًا مفزوعة من نومها، تتوارى عن نفسها يمزقها الخجل حينما تتذكر ذلك الحلم الذي يهاجمها كلما غفلت عيونها، تتلذذ بمضاجعة عدة رجال في آن واحد، تؤنب نفسها متألمة من ذلك الخلل الذي يسكن عقلها، لقد كانت تتعذب بكم طاقتها الجنسية التي لا تجد مخرجًا ولا سبيلًا طبيعيًّا لتنفس عن نفسها، هذه الطاقة التي تعذبها والتي لا تستجيب لزوجها ولا تشعر في وجوده بأدنى إثارة أو رغبة فيه، دائمًا ما تنتهي الحكاية بينهما متألمة بطاقتها المحبوسة ولا شيء يفعله زوجها ليساعدها على خروجها، كان لقاؤهما معتادًا يهاجمها مشحونًا بكامل طاقته وينتهى اللقاء دون أن يبارز ذلك الجسد الذي كان يحتاج منه هجومًا مختلفًا، وتنتهي المعركة بينهما دائمًا لصالحه، معركة تثبت أن كل شيء فيها خامل لا يقوى على تحقيق شيء.

حكت له بجرأة عن ذلك المنام لتخلص نفسها من أعباء تهمة الشهوانية، تؤكد له أنها حاولت ترويض مشاعرها، لكنها انهارت تسقط في الخطيئة بلمسة

جعلتها تصطدم بهشاشة جبل الفضيلة التي كانت تعتصم فيه، فيربت على كتفيها (محمود) ويرفع رأسها المخذولة وهو يقول:

- «الجنس دافع للراجل والست إنهم يدوروا على بعض لكنه مابيمحيش الحقيقة، الإنسان بيدور على حد يلاقي فيه نفسه، الجنس ممكن يكون سبب للعلاقة لكنه مستحيل يكون سبب لاستمرارعلاقة بين اتنين أساسًا رغبتهم في بعض بتنتهي أول ما بتنكشف لهم الحقيقة، وبيكتشف كل واحد فيهم إنه ماكتملش في وجود التاني، وإنه لسة بيدور على حاجة عاوزها، ممكن تكون وهم، وممكن مايكونش لها أساس، لكنها سبب بتخليه عايش شارد متلهف على إنه يبدأ علاقة تانية، وفي النهاية يلاقي نفسه بيدور على شيء مش عارفه في شخص مجهول، ويلاقي نفسه بيتعذب وهو تايه بيدورعليها في العيون، الراجل بيفضل يهيم في عيون ستات، والست بتفضل تهيم في عيون رجالة، ممكن قيود المجتمع على الست بتكون أكبرعشان كدا بتحس إنها مجرمة، لكن الراجل قيوده بتختلف؛ فبيندفع على حسب درجة قيوده، لكن في الحقيقة الست والراجل إنسان تايه عن نفسه، إنسان مقيد بالقيم فيفاجأ بأن القيم سواء كانت دينية أو اجتماعية بتنهار وبتثبت هشاستها مع أول مواجهة لها بالواقع، فجأة ممكن الإنسان يلاقي نفسه صفر لا يعتنق شيء، وإنه في حاجة لإنه يبدأ من جديد، ويبدأ من جديد بإنه يعيد اكتشاف نفسه»

فتختطف كفه تقبلها بفرح، وكأنه التقط جميع الأفكار التي صاغها في كلامه من ذهنها، وجَسدها أمامها بعبارات حقيقية بعدما كانت تظنها وهمًا اخترعته لتريح به روحها المعذبة، وكأن الإنسان يسهل عليه الوصول إلى الحقيقة، ولكنه لن يعترف بها إلا عندما تصدر على لسان آخر ليتأكد من صحة نتائج خبراته مع الحياة، وتأكد لها أن (محمود) هو الشخص الذي يستحق أن تقيم من أجله معركتها الحقيقية مع الحياة.

وكان هو أكثر منها فرحًا لأنه استطاع أن يريح قلبها بأفكاره واختطف كفها هو الآخر يقبلها بحنان يسترسل أفكاره قائلًا:

- «العلاقة الإنسانية بين الرجل والست مش وظيفة مشروطة باتفاقات والتزامات، ده ارتباط روحي قوامه المشاعر، التزامات العلاقة هي اللي بتفرض نفسها بنفسها، إذا فترت المشاعر، انتهت الحالة تلقائيًا، لكن بيفضل الاحترام إلى هو سيد العلاقات الإنسانية، والاحترام مش معناه الحجر على المشاعر، المشاعر اللي فاجئتنا وبتدفعنا للانفعال بالآخر مش جريمة، لكن الخبرة بتعلم الإنسان إنه من الأفضل التمهل قبل التقاط شرارتها عشان مانعيشّ حياتنا في صدمات، في نهاية الأمر المتضرر الوحيد هيكون اللي اندفع ورا مشاعر من غير ما يتأكد من حقيقتها، العلاقة بتبدأ بعد مرحلة نضج، المشاعر اللي وصلت لحالة النضج بتختلف عن اندفاع الغرائز، لما يوصل الإنسان للحظة دي معناها إن مشاعره حقيقية، يبقى ليه يحرم نفسه ويحرم شريكه فيها من إنهم يعيشوها لمجرد فكرة الإخلاص لحالة ماتت وانتهت»

لم تعد تشعر أنه غريب عنها، بعدما تجاوزت مشاعر الخجل تتمادى معه في حوارات تريدها ألا تنتهي، تسأله أي سؤال يخطر ببالها:

- «ليه الراجل مابيحسش إنه مجرم لما يعيش مشاعره لاتنين في وقت واحد، لكن الست بتحس إنها مجرمة؟»
- «الاندفاع نتيجته إن الإنسان بينصدم في نفسه وفي الآخرين، ممكن جدًّا المشاعر تتلاقى بينك وبين راجل واتنين وتلاتة، لكن أكيد لو بعدتي شوية وبصيتي من بعيد، هتكتشفي إنك مالاقتيش نفسك في حد فيهم، لأن كل واحد منهم فيه جزء منك، والإنسان محتاج واحد بس يلاقي نفسه كلها فيه، يعني الإندفاع في العلاقات في النهاية بيوصل لصدمة، لأن الإنسان مش ممكن هيقدر يكمل في علاقة ناقصة، ولا هيقدر يشتت نفسه ومشاعره، الراجل مندفع أكتر من الست، لكن بينهي العلاقة ومابيكملش، ويدورعلى غيرها وغيرها،

والست ممكن تكون بتعمل كدا، وممكن بتعيش علاقات عميقة أو علاقات سطحية، لكن خوفها على سمعتها بيخليها تستسلم لنهاية مابترضيهاش، وممكن عشان مش قادرة تكمل ومش قادرة تنفصل بتعيش في الضل علاقاتها السرية، والراجل زيها. المجتمع هو اللي لازم يتغير ويدي فرصة للعلاقات إنها تتبني في النور من غير اتهامات ولا تجريمات، الأزمة الحقيقية هي إن الإنسان والمجتمع ضدان، والقضية الحقيقة هي في الإجابة على السؤال دا: لماذا يقيد الله الإنسان بالمجتمع؟! على الرغم من إن المجتمع ممكن يكون ضد الله، بينما الإنسان بمفرده بيحب العدل ويقدس الحب والإنسانية، هو أكثر من المجتمع إيمانًا وحبًّا وطاعة لله، هل سيرضي الله ذلك المجتمع الظالم الذي يدوس فيه القوى على الضعيف، ويعلي شأن الظالم، ويقهر المظلوم، والغلبة فيه لمن يملك أكثر، مجتمع النفعية والشللية، مجتمع يدهس الحق طالما أنه وحيدا لا عزوة له؟!»

كانت تدهشها إجاباته وتأخذ بها إلى أفكار جديدة، ولكنها كانت تشعر دائمًا بشروده وكأنه يقول لنفسه كلامًا لا تسمعه.

لم تكن تدرك (سميحة) أن (محمود) الذي يسمعها بشغف كان يتحسس جراحه وهو يطبطب على جراحها، يتمنى أن يمتلك شجاعتها ليحكي لها هو الآخر عن حقيقته، يتمنى أن يقول لها أنها مخدوعة في وجاهة هيئته، وأنه كان أكثر منها فظاعة وإجرامًا، وأنه كان يخنق القطط والطيور لينفس عن رغباته العدائية والانتقامية التي تسيطر على حواسه، ورغبته المجنونة لقتل أمه لأنها كانت تفضل أخيه الصغير عليه؛ لأنه أفضل منه بنيانًا وذكاءً، ولأنها كانت تكرهه لأنه يذكرها بضعف أباه الذي تفننت في امتهانه وإذلاله حتى مات وحيدًا في غرفة بعيدة ككلب منبوذ، يريد أن يقول لها أنه كان يغتصب الأطفال مدفوعًا بغريزة ذئب يتلذذ بصرخات فريسته، ولكنه كان يرقد بجانب فريسته يبكي، يتمنى أن يدافع عن ذئبيته يسألها ويجيبها: هل يرق قلب ذئب للرعب الذي يراه في عيون فريسته، ويقرر أن يعفو عنها، ويتركها لتفلت من بين قبضة

أنيابه؟ الذئب لن يفعلها، ولكن الإنسان قد يكون في موقف مشابه ذئبًا، ولكنه يختلف في الوصول إلى النهاية التي تليق به، لأن الذئب تدفعه غرائزه المطلقة، بينما الإنسان قد تنهزم غرائزه أمام أشياء أخرى، كان يريد أن يقول لها أنه عاش بين أهل حارته منبوذًا يرميه الأولاد بالطوب والألفاظ المهينة عندما افتضح أمره، وأنه كان طفلًا بذيئًا يبتعد عنه الأطفال ويبصق في وجهه المدرسين لرائحة تبوله الفجة، التي تستدعي الذباب ليتجمع حول ريالته التي تسيل من فمه ببلاهة، بلاهة تفضح عجزه على أن يعبرعن تألمه من أجل أبيه المريض المقهور، بلاهة لشدة الخوف الذي يتملكه متربصًا كف أمه لتصفع وجهه كلما استعطفتها عيونه لترحم ضعف أباه، كان يتمنى أن يمتلك الشجاعة ليقول لها أن هذا الرجل الوديع، الفيلسوف الحكيم، الذي تحسبينه عصفورًا رقيقًا يسمو فوق الوجود بأفكار رائعة تعجبك، أنه هو الآخر يمتلك تاريخًا لا يشرف، ولكنه يشفق على نفسه ولن يكرهها، لأن الإنسان لا بد وأن يكون له في هذه الحياة صحيفة سوداء يخفيها عن الآخرين، ولكنه لا بد أن يكون أمينًا ويحكي عن الحياة التي تحكم قسوتها على البشر ولكنها تمنحهم بصيصًا للنجاة، الأذكياء فقط هم من يلمحون ذلك البصيص، ويتعلقون به بكل قوتهم، ربما بدافع التمرد وربما بدافع التطهر وربما بدافع التجريب لدور آخر من أدوار الحياة، وكان ذلك البصيص بالنسبة له أن أمه تركته دون أخيه للتعليم لأنه لا أمل في هزاله وبلاهته ليمتهن المهن، التي تحتاج القوة والذكاء، تركته للتعليم رافضة الإنفاق عليه، فظهرت (الأخصائية الاجتماعية أبلة كاميليا)

التي جاء بها القدر لأجله فكان حظه أن يكون تعينها في المدرسة الإعدادية للبنين، والتي آلمتها هيئته دون غيرها من المدرسين، وراحت تبحث وراء أسباب رسوبه في الإعدادية ثلاث سنوات متتالية، وتغيرت حياته كلها بلمسة حنان واحدة كانت كافية لتقلب موازين العالم، ولأن الجريمة لم تحقق له تصالحه النفسي، لقد كانت تنتابه حالة من البكاء والتعذيب تنتهي بالبلاهة والشرود، ربما كان ذلك دليلًا مؤكدًا أنه لن يتحقق في الجريمة، وأنقذته (أبلة كاميليا) من أن يعتاد الجرائم، وأنقذته من أن يعتاد البلاهة، وأنقذته بمساعدتها ليكتشف

الطريق الصحيح لتصالح روحه، تاركًا لها نفسه لتخرج به إلى الحياة بهيئته البراقة الجديدة، تستعطف المدرسين وتحفزهم لفعل الخير من أجله بإعطائه الدروس الخصوصية مجانًا؛ حتى حصل على الإعدادية بتفوق، وظلت تتابعه وتذلل له الصعاب حتى حصل على الثانوية العامة، وتوسطت له للعمل في مكتبة ليوفر مصاريف الجامعة، وانطلق يمرح في حياته الجديدة دون خوف يحمل للمستقبل آمالًا كبيرة تفتحت له من بين آلاف الكتب التي كان يبيعها ويقرؤها، وكأنه يعوض طفولته التي ضاعت يمرح بفرح في الحياة وبراحها، يعيش في العام ألف عام بآلاف مؤلفة من التجارب مع كل من يقابله من البشر، ومنحته الحياة بصيصًا آخر عندما خصته وحده بفرصة عظيمة ليبدأ من جديد في مدينة جديدة، حينما تقدم للمسابقة التي أعلنها مطار الجميل عن حاجته إلى محامي حديث التخرج، وكأن ملاكه الذي أرسله الله إليه فجأة ظل يلاحقه يذلل له الصعاب، حتى كان هو الوحيد الذي من بين أبناء دفعته الذي قبلته وظيفة عظيمة بمنتهى السهولة، لتمنحه وجاهةً ومستقبلًا قادرًا على أن يمحي صحيفته السوداء، ومنحته فرصة عظيمة للحياة في مدينة البحر والليل والقمر، ويبدأ منها حياته دون أن تلاحقه صحيفته السوداء.

كان يريد أن يقول لها أفكارًا كثيرة عن العدالة الإلهية، التي كان يسخر منها متهكمًا عليها لأنها خصته بأمٍ قاسية على بنيانه الهزيل، فتجيبه الحياة بسؤال مباغت: وأين هي العدالة الإلهية حين يصارع الأعمى وحشًا لا يراه؟ عندما أرسلت في طريقه زميلًا في الجامعة فقد بصره وهو طفل صغير، ولكنه راح يواجه الحياة صُلبًا قويًّا متجاهلًا إعاقته، يمضي في طريقه يقتحم المستقبل بأسلحته البسيطة، وكأن ذلك الأعمى جاء إلى الحياة لننسى جميع الأفكار التي نعرفها عن العدالة، حينما يفاجئنا منتصرًا على الحياة، لنفهم أن غياب العدالة فتح طريقًا لطاقته الدفينة، التي كان هو ذاته يجهلها، ليدرك أن العدالة الإلهية اختارت العمى لصديقه ليكون محفزًا يكشف له عن طاقاته الدفينة، واختارت له أمًّا قاسية تجسد له قبح القسوة فيكرهها، ويختار لنفسه طريقًا يخالفها، مبتعدًا عن الأسباب التي من الممكن أن تؤدي به إليها، وليفهم أن هناك أمور لا تصلح لها الرؤية السطحية، أمور تحتاج لرؤيتها عيون

تخترق الأعماق، وتقرأ الماضي والمستقبل، لندرك أن هناك مفاهيم لا تخضع لقوانين البشر كالعدالة الإلهية.

لكنه لم يقل لها شيئًا، لأنه اكتشف أنه أسير المعركة الصامتة، التي وصلت إلى ذروة أحداثها ذات ليلة شتوية مرعبة، يتصارع فيها الليل والرياح والعواصف والأمواج، وكان القمر فيها سجينًا ينتظر معجزة تنقذه من بين سحب ضخمة كثيفة كحائط أسمنتي أسود.

يمزقه الإحساس بالذنب لأنه جاء إلى هنا مدفوعًا بجمال (سميحة) يقنع نفسه بالكتابة عن الفنون الشعبية، لكنه فقد الإحساس بجمالها عندما اصطدم بحدة نظرتها الواثقة، الثقة تستحضر في نفسه القوة، والقوة تستحضر القسوة، والقسوة تستحضر أمه، وأمه تستحضر في نفسه الكراهية، بينما نظرة (ميرنا) المسترخية الوديعة تستحضر في نفسه إنسانيته التي يحبها، ويحب كل من يجلبها ويخرجها من مخبئها، أو ينبش في أعماقه ليكتشف طريقًا جديدًا لها، إنه يحب كل شيء يرى نفسه فيه إنسانًا رقيقًا عذبًا طائرًا هائمًا في الملكوت.

كان (محمود) يتابع من خلف زجاج الكافيتريا من ذلك الركن الأخير مع قهوته الباردة عراك الطبيعة، وكأنها طرف من أطراف المعركة الصامتة بين امرأتين وليل بارد بأضواء خافتة وموسيقى حزينة، تحاصره عيون (سميحة) الجالسة أمامه بنظرات هامسة تستعطفه بآخر أسلحتها في المعركة الحاسمة وهي تقول:

- «حبك آخر فرصة ليا في الحياة، كنت محتاجة حد يحب فيا شيء غير جمالي، حد يلاقي في حضني مدينته»

بينما عيونه ذاهبة إلى (ميرنا) البعيدة:

- «المدن هي اللي بتختارنا، والحكايات هي اللي بتختارنا، وأنا وانتي حكاية ندهت علينا لكن إحنا فهمنا الحكاية غلط»
- «انت الشمس اللي نورت ضلمة روحي»

- «الشمس بترحل من بلاد غريبة، لبلاد غريبة عشمانة تستقبلها بفرح»
- «انت قولتلي إنك كنت مهووس بجمالي، إيه اللي حصل؟ يمكن صراحتي خلّتك تفقد إحساسك بجمالي؟»
- «ممكن تحبي الجمال، وممكن تحتاجي تحبي حاجة تانية غير الجمال»
- «أنا غلطت لما عريت نفسي قدامك، انت خفت من إني أكون ست مش مخلصة»

شرد عنها بنظرات إلى السماء يقول لها كدرويش هائم في الملكوت:

- «الإخلاص اللانهائي في المحبة حالة لا يستحقها سوى الإله، وانتي مش إله ولا أنا إله، طول ما في حياة وناس بتحب الحياة فالإخلاص حالة مستحيلة، أنا عارف إني هعيش تعيس، لإني حاسس إن روحي شريدة، عايشة في كل الأزمنة، وساكنة في عيون كتيرة، وعاشقة كل المدن اللي شافتها واللي نفسها تشوفها»
- «أنا مَرسَى بيندهلك، خايف عليك من شرودك، ومن أوهامك»
- «في ناس بتشدك عشان تعيشها، غصب عنك بتلاقى روحك مندفعة وراهم، ممكن تلاقي نفسك بتعيشيه حبيب، وممكن أخ، وممكن أب، وممكن كل دول، المهم إن بتتملكك رغبة إنك تعيشيه، والحل الوحيد إنك تعيشيه، وإلا هتفضلي عايشة تعيسة حاسة إنك ضيعتي منك سعادتك، وممكن جدًّا لما تعيشيه يطلع حاجة أتفه من إنها تتعاش، وإنك تحسي بالضياع، لكن كل ده مش هينكشف إلا بعد ما يكون بينكم حياة»
- «طب وأنا؟ أنا عاوزة أعيشك، انت بالنسبة ليا الحياة، انت الراجل اللي ممكن أسكن فيه من غير ما أحس إني بدور على غيره»
- «وهم يا (سميحة) وانتي أكتر واحدة عارفة إنه وهم»
- «الإنسان تعيس لما بيفقد حريته، وتعيس أكتر بحريته»

غاب عنها شاردًا يتابع السحاب الذي بدأ يفك حصاره حول القمر هامسًا:

- «ما أسوأ حظ امرأة تهيم عشقًا برجل من الدراويش»

ولكنها لم تفهم مما يقول شيئًا، فراحت هي الأخرى شاردة تلمع عيونها للقمر الذي يعافر ليفك عنه الحصار، قالت (سميحة):

- «نفسي أرجع تاني بنت صغيرة، نفسي أروح أرقص في حفلة المدرسة، يا ترى عملوا إيه في الحفلة من غيري، أكيد الرقصة كانت بايخة لأنها متصممة على أربعة، إزاي عرفوا يرقصوها تلاتة؟»

فقال (محمود):

- «أنا عاذرك بس مش بإيدي، عارف إنك بتهربي للماضي، كلنا بنهرب لامبارح لأننا بنحس بقوتنا وإحنا بندوس فوقه، رغم إنها قوة وهمية لأننا في الحقيقة بنهرب من مواجهة عصيبة بنعيشها في نفس اللحظة اللي بتدوس هي بكل قوتها علينا، وبتبين ضعفنا وبتقول إننا أضعف من أي مواجهة»

انهارت (سميحة) تبكي تقذفه بحجرها الأخير قائلة:

- «المواجهة الحقيقية اللي لازم تواجهها هي إنك بتحبني زي ما أنا بحبك»
- «انتي ماحبيتنيش؛ انتي حبيتى فيا نفسك اللي اكتشفتيها. يمكن يكون دا نوع من الحب، وممكن يكون الحب غير كدا خالص»

قاطعتهما (ميرنا) لتأخذ الفنجان الفارغ تسأله في خجل إن كان يريد غيره، وكأنها جاءت في اللحظة المناسبة لتحسم المعركة لصالحها، فتجلت الحقيقة لـ(سميحة) واضحة لم يعد ينفع معها أي نكران، إن وجودهما معًا في مشهد واحد يؤكد أن (ميرنا) و(محمود) كيان واحد، وأنهما كانا شاردين وأن الحياة جاءت بهما إلى هنا ليتعارفا، الحياة التي لعبت بـ(سميحة) وأدخلتها طرفًا في هذه

الحكاية لحُبكتها، لأن الأشخاص يوضح بعضهم بعضًا، لتصبح سببًا يؤكد لكليهما الحب.

تركتهما ذاهبة بائسة تتعثر في الرمال متجهة إلى البحر، تنظر إلى السماء التي زالت عنها سحبها الكثيفة وظهر القمر، انهارت تبكي وتغني وترقص للقمر، بينما أمسك (محمود) بكف (ميرنا) التي ردت لها روحها، تاركة له نفسها ليخرجا معًا يعبران الطريق الأسفلتي، ليذهب بهما إلى قلب المدينة والعمار، ليبدأ حكايةً لا يعرف مصيرها إلا الله وحده.

❊❊❊❊

(٩)

كان حتمًا عليها أن تخرج في ذلك اليوم الشتوي العاصف شديد البرودة، والتي أبدًا لا تسافر في مثل هذه الأجواء حتى ولو كانت ستجني السعادة، حسمت أمرها وخرجت من دفء بطاطينها الذي لا يساويه شيء في الوجود، كجنين خرج إلى الحياة مذعورًا، ولكنها سرعان ما انهمكت تبدل ملابسها وتتزين كما لم تتزين من قبل بأدوات الزينة التي أحضرتها خصيصًا لهذا اللقاء، ارتدت بلوزة داكنة شتوية قصيرة لاصقة بالجسد، كاشفة لأعلى الصدر والرقبة، وبنطلونها الجينز اللاصق، أطلقت سراح الشباب المدفون في أعماق روحها للانطلاق، ثم راحت تلفه بشالها الأسود، خشية نظرات هؤلاء الريفيين المتربصين دائمًا لأفعالها، باعتبارها أرملة وحيدة في هذه البلدة الريفية النائية من ضواحي المنصورة، خرجت في العاشرة والنصف صباحًا تعافر الرياح والطين متجهة إلى موقف سيارات القاهرة الموجود في مدينة المنصورة، لتصل إلى القاهرة في حوالي الثالثة عصرًا بناءً عن الموعد الذي حددته، مع مدير دار النشر التي وافقت على طباعة أولى رواياتها، هذا اللقاء الذي انتظرته عمرًا طويلًا، وكان هذا دافعًا قويًّا لأن تطرح من فوقها كومة البطاطين الدافئة، وتستسلم لهذه الرياح والعواصف، لتفعل بها ما تفعل وليكن ما يكون، تلعن هذه الحياة القروية التي قيدت حريتها وجعلتها تلغي فكرة السفر بسيارتها، ترتضي قسوة الطبيعة فضلًا على أن يطَّلع سائقها على حياتها الخاصة.

في موقف سيارات القاهرة كان هناك ميكروباصين، أحدهما ستنتهي رحلته إلى موقف (العاشر) والآخر إلى موقف (عبود) و(نهال) تجهل هذا وذاك؛ لأنها منذ زمن لم تقصد القاهرة في المواصلات العامة، أخرجت ورقة من حقيبتها بالعنوان، ناولتها إلى السائق الذي أصر أن تركب معه لأن موقف العاشر ستجد به جميع المواصلات، لم تشعر براحة نفسية داخل هذا الميكروباص ذي التصميم الضيق، والذي ستجلس فيه ما يقرب من ثلاثة ساعات متواصلة، مر من الوقت حوالي نصف ساعة وهي داخله تنتظر استكمال العدد الذي لم

يكتمل بعد، أعادت السؤال على السائق متذمرة للمرة الألف هل سيكون موقف العاشر هو الأقرب لعنوانها، أجابها متذمرًا بإجابة مختلفة هذه المرة قائلًا:

- «أما تنزلي هتلاقي مواصلة لرمسيس، ومن رمسيس هتروحي عنوانك بسهولة»

قفزت من ميكروباصه الكئيب؛ فلحق بها يسترضيها لتعود، صرخت في وجهه قائلة:

- «طالما هركب من رمسيس، يبقى آخد أوتوبيس شرق الدلتا؛ هو موقفه رمسيس أساسًا»

وتركته ينادي متحسرًا على الزبون الذي ضاع، دخلت محطة الأوتوبيس تستعلم عن موعد الأتوبيس المتجه إلى القاهرة، كانت الساعة الحادية عشر والنصف، أعلمها الموظف أن موعد انطلاقه في الساعة الثانية عشر والنصف، قررت الانتظار في المحطة في هذا الطقس الذي يزداد سوءًا بعدما جاءت الرياح العاصفة بالمطر الغزير، فضلًا عن الانتظار في الميكروباص الذي لن يكتمل في هذا اليوم الشتائي العصيب، تذكرت دفء بطاطينها وندمت على أنها لم تتراجع عن موعدها كعادتها في مثل هذه الأجواء، ويغيب الندم ويذوب الصقيع وراح الدفء يسرى في روحها عندما خطفتها حلاوة عينيه، عندما ظهرت لها صورته وهي تتلهى بصفحتها على هاتفها، وصورته المحفورة في ذاكرتها لما يفوق العشرين عام، ولهفتها على طباعة روايتها الأولى والتي ستفتح لها باب الأحلام المؤجلة.

جلبة من الطلبة والطالبات يحتمون بالاستراحة من شدة المطر، أحدثوا فراغًا كبيرًا وصمتًا موحشًا عندما خف المطر ومضوا إلى حال سبيلهم، وجدت نفسها وحدها مرة أخرى في هذه الاستراحة المفتوحة على كافيتريا المحطة، زاغت عيناها رعبًا وقلقًا من هذه القطة الوحشية ذات العيون الخضراء والفراء الرمادي المزركش، وهي تتقافز على الكراسي والمناضد، لن تغريها حلاوة فرائها

لتتعاطف معها، إنها تكره القطط والكلاب ولا ترى فيها أية ألفة، ولا تعتبرها حيوانات أليفة، بل تعاملها معاملة قاسية متربصة بها؛ كأنها تجابه وحشًا ينتوي افتراسها، ربما يستدعي الأمر أن تقذفها بحجر دون رحمة منها، دفاعًا عن نفسها من إيذاء تتوقعه، حتى لو أنه لن يحدث، تتعجب من هؤلاء الذين يحبون القطط والكلاب، يتعايشون معهم بهذه السهولة دون أدنى حرص، صرخت تقفز في هلع من مكانها عندما شعرت بالقطة تفر من بين ساقيها أسفل مقعدها، بعدما ظنتها خرجت بعيدًا عن الاستراحة، انكمشت في قعدتها متعكرة المزاج بسبب هذه القطة تلعن كل شيء حولها، تشعر بحرج من هذه القلة الموجودة من البشر، التي راحت تترقب صرخة هلع أخرى منها ليضحكوا عليها، بينما جلست القطة قبالتها في هدوء في هذه البقعة المستديرة الصغيرة من ضوء الشمس، ذلك الضوء الذي لا دفء فيه، تلف ذيلها حول نفسها لتعتدل في جلستها بحركة حلزونية رائعة، أذهلت عقلها، جعلتها تتابع بشغف ما تفعل، وهامت تسبح الله متعجبة من ملكوت مخلوقاته، بينما القطة هي الأخرى تنظر إليها مندهشة كأنها تفعل مثلها، تسبح الله وتتعجب من ملكوت مخلوقاته، أو ربما كانت تسخر في نفسها من هذه العملاقة التي تخافها وهي الضئيلة التي تلتصق بالأرض، وفجأة قفزت القطة فوق طاولة تجاورها، كتمت (نهال) صرختها هذه المرة منشغلة تفكر بما تنتويه هذه القطة، التي راحت تواصل القفز على طاولات الكافيتريا، وكأنها تغيظها متلذذة بذعرها، التقطها شاب وفتاته التي راحت تستعرض الرقة والعطف عليها، تتنازل عن أكلها للقطة، فتركها الشاب منشغلًا بهاتفه يبتسم لها ابتسامة إعجاب بهذا العطف، هناك أشياء تبرز نفاق البشر، تعتقد (نهال) أنه ذلك العطف المبالغ فيه على الكلاب والقطط، بينما لم يعط أحد بالًا لامرأة مسنة نحيلة فقيرة منكمشة تحتمي بجدارٍ شائخ على رصيف المحطة، في هذا البرد القاسي تسأل عطف المارة، دون أن تلفت انتباه بعضهم، بينما البعض الآخر يرميها بنظراتٍ مشمئزة قاسية، يشيح يدها الممتدة بمنتهى القسوة رجل يقول لها مشمئزًا:

- «مش عاتقينّا حتى في الجو المرعب ده»

ارتاحت (نهال) من أمر هذه القطة التي انسجمت مع البنت في تمثيليتها، تترقب الساعة عندما فوجئت بعامل الباص يفتحه لينظفه، سألته إن كان من الممكن أن تنتظر النصف ساعة المتبقية داخله، لكنه أشار إليها بكفه لتفهم أنه لم يحن الوقت بعد، مرت الدقائق متثاقلة، فجأة امتلأت الاستراحة بركاب الساعة الثانية عشر ونصف، ورغم ذلك كان العدد لا يملأ صفًّا من الكراسي، لم تعد تشعر بوجود القطة، لأن بالها أصبح مشغولًا مرة أخرى بلقاء صاحب دار النشر.

الشاعر (إبراهيم فتحي) الذي تعرفت على صفحته على النت، ظهرت لها صفحته عن طريق أصدقاءها الشعراء الذين جاءوا إلى مدرستها التجارية للبنات ذات مرة لعمل ندوة أدبية، يلقون قصائدهم ويسمعون المواهب الجديدة لتشجيعها، (نهال) كانت تظن أنها تكتب الشعر، ولكنها لم يقرأ لها أو يوجهها أحد، وعندما علمت بالندوة خشيت أن يكون ما تكتبه مَضحكة للبنات ولهذه القامة من الشعراء الأجلاء، فرفضت إلقاءه أمامهم، ولكنها خرجت من الندوة مفتونة بما سمعته من قصائد، ودونت أسماءهم في ذهنها وأضافتهم إلى صفحتها على الفيسبوك؛ لتتواصل معهم من وراء حجاب لأن صفحتها باسم مستعار "بنت القمر".

وصورة مستعارة كانت للقمر، تتحاشى أن يحرجها أحدهم بانتقاد لاذع لما تكتب، لفتت انتباهها تعليقاتهم الكثيرة لأشعار الشاعر (إبراهيم فتحي) ينشرون على صفحاتهم قصائده ودراسات كثيرة قرأتها عن تجربته الشعرية، أضافته إلى قائمة أصدقائها، كانت أشعاره لونًا غريبًا عليها، كلامًا يشبه كلام البشر منحوتًا من الحياة اليومية بنغمات ساحرة، يختلف كثيرًا عن القصائد التي تتعالى باللغة، تعايشت مع صدقها وانفعلت بهذا اللون المختلف بمفرداته المنحوتة من الحياة تعبر بصدق عن الإنسانية، عرفت بعد ذلك أنها قصيدة حديثة تسمى بقصيدة النثر، وأنه من رُوَّادها، تعاطفت مع هذا اللون تمردًا على ما كانت تقرؤه من أشعار المدرسة للقصيدة المفعلة والمقفاة التي رغم حبها لها إلا أنها كانت تشعر فيها بالأغلال تغلغل الشاعر وتغلب عليها الصنعة، بينما هي

تهرب من الأغلال وتهوى التحليق والتحرر والبوح الصادق، كان له الفضل في تغيير أسلوبها في الكتابة، وتمنت أن تتخلص من خوفها وتبعث له برسالة، تقول له فيها أي كلام يحمل مشاعرها وإعجابها وفضله عليها، ولكنها كلما كتبت رسالة كانت تمحيها متراجعة خائفة.

أصابتها فرحة عارمة عندما قرأت منشورًا على صفحتها يعلن عن أمسية ستقام الخميس القادم على مسرح قصر ثقافة المنصورة، تستضيف فيها الشاعر (إبراهيم فتحي) والدعوة كانت عامة.

كان مسرح قصر الثقافة مزدحمًا عن آخره بالجميلات المثقفات، اللاتي يخطفن الأبصار منذ اللحظة الأولى لطلة إحداهن، هذا الحضور الطاغي للشباب والرجال والكثير من قامات الشعراء، وهذا الحشد الهائل من الفتيات اللاتي جئن من غالبية المحافظات القريبة لمحافظة المنصورة كدمياط وبورسعيد وكفر الشيخ والزقازيق وطنطا، جميعهم جاءوا للقاء هذا الشاعر المشهور، ويضيع هباءً كل ما فعلته (نهال) من قلب موازين شكلها من أجل أن تلفت انتباهه، كانت نكرة بين هذه الغلبة المبهرة من الفتيات المثقفات المتفتحات الفارعات الممشوقات، ذوات الحضور الطاغي لشخصياتهن، القادرات على فرض وجودهن بقوة ساحقة للأذهان، وجدت (نهال) نفسها رغم كل ما تكلفته من عناء كي تصل إلى هذا المستوى من الوضوح ما هي إلا نكرة بينة، حتى درجة انفعالها به وبأشعاره التي طوحت بعقلها وجعلتها تتحدى ظروف قريتها النائية، تغافل خالتها وزوجها مدعية أنها ذاهبة إلى مراجعة مجانية، مع مدرس المواد التجارية قبل دخول الامتحان، مستعينة بإحدى صديقاتها لتؤكد كذبتها، ولكنها كانت أقلهن انفعالًا ووعيًا لما يكتب، فهمت ذلك من مناقشاتهن الجريئة المرتبة الواعية؛ لتتأكد أنها الأقل في كل شيء، لا شيء كان يميزها، حتى محبتها لأشعاره، التي جعلتها تتوهم أنها الوحيدة التي وصلت إلى أعماقه، والتي جعلتها لا تنام الليل تتمنى لقاءه، لم تكن تدرك أنه معشوق كل هذه الفتيات بكل هذا الوعي، وأنهن جميعًا يقرأنه أفضل منها، انزوت في كرسيها وفي ضآلتها رغم أنها في الصدارة، لكن شعورها الجم بالدونية جعلها تشعر أنها منفية في آخر زاوية

للكون، ورغم ذلك حاولت أن تقول شيئًا، دوَّنت على استحياء اسمها بين المندفعين لتدوين أسمائهم ممن سيلقون أشعارهم، فجاء اسمها في المؤخرة، راح مدير الندوة يناشد الحاضرين بالالتزام بالهدوء، وأنه لا داعي للعجلة والتسابق الذي يثير الهرجلة والصخب مؤكدًا للجميع أن الشاعر (إبراهيم فتحي) سيسمع جميع القصائد، لم تعد متحمسة لإلقاء قصيدتها بعدما أذهلتها مستويات القصائد التي ألقتها الفتيات بثقة عالية، وكأنهن اخترعن كلمات لا تعرفها وتركيبات للجمل تذهل عقلها، وكأنهن يقلن كلامًا لا يخرج من الحناجر، حتى أنه راح يصافحهن منبهرًا بالقصائد، يحادثهن جنبًا إلى جنب متبادلًا معهن أرقام الهواتف، كان يضحك ويطبطب على كتف من يصافحها دون خجل، وكان يهمس لبعضهن في أذنهن، وربما تلامس خدوده خدودهن أو تلمس شفاهه خصلات شعرهن، ومؤكد كانت الصدور تمتلئ بأنفاس ذات عطور ساحرة، حينما تتلاشى بينه وبينهن المسافات بحجة عدم السمع بسبب كل هذا الصخب، أو لأن فتيات المدن يعرفن كيف يتدللن ويقبضن بذكاء بارع على قيادة الموقف ليصل بهن إلى ما يبتغين.

انتهت الأمسية بعدما ألقت قصيدتها وهي فاقدة الثقة في نفسها، وكأنها تتهجى صفحة جرائد، وتكعبلت على المسرح وهي في طريقها للمنصة، انزوت تتوارى خجلًا كفتاة بائسة، لم تأتها فرصة لتجرب أية مهارةٍ من المهارات الطبيعية للأنثى.

شعرت بأن جميعهن يخططن لمطاردته، وأن أي محاولة منها للتقرب منه ستكون مجرد سبق بائس غير متكافئ، عادت حزينة مخذولة إلى مدينتها النائمة التي تهنأ بأحلامها البسيطة، والتي لا يعنيها من الشعر والموسيقى شيئًا، ولا تعترف إلا بهؤلاء المزارعين الذين يحرثون الأرض ويجنون الثمار لبيعها، أو القادمين من دول الخليج يحملون حقائب تمتلئ بالمكسرات والشكولاتة المستوردة والأرصدة في البنوك، يشترون بها أطيانًا وبيوتًا وأثاثًا وأشياء لتتفاخر بها النساء بين بعضهن البعض.

لاذت بحجرتها تبكي عجزها لأن تلفت انتباه الرجل الذي اختاره قلبها، قلبها الذي يهوى الشعر والموسيقى والرقص والمسرح وضوء القمر.

عاجزة عن أن تنقذ صباها المدفون في قلب هذه القرية النائية، لتفر هاربة من حجر خالتها التي خطفتها من الحياة لتخدمها، اختطفتها وهي الأميرة التي كانت تسكن القمر، لتنزل بها إلى الأرض تغرز في نفسها ولاءَ الخادمة المطيعة، لم تفهم خالتها أنها استطاعت أن تخطف جسدها فقط، ولكنها لم تستطع أن تقتلع من عيونها ضوء القمر، وأن روحها انزوت في مدينة الشعر والموسيقى تبكي صديقاتها والقمر.

خالتها التي منحها الله ثراءً وزوجًا عقيمًا، ليس في وسعه أن يهبها طفلًا يؤنس وحدتها، أو يعينها عندما تدهورت صحتها، جاءت كعادتها تزور أختها التي تجاور السيدة زينب، تحمل إليها خيرات الريف لتطعم أبناءها السبعة طعامًا مغمسًا باللحم والزبد، تمنحها مبلغًا من المال لا بأس به لتسد به أية خانة من الخانات الفارغة، لقد منح الله أم (نهال) الفقر والعيال، ومنح أختها المال والوحدة، فكرت خالتها في أن تغيِّر بعضًا من حسبة الله، بعدما ضعفت صحتها، ضاعفت هي عطاياها هذه المرة، وضاعفت ودها وحنانها على (نهال) الصبية التي اشتد عودها، طرحت الفكرة على أختها أم (نهال) متوددة تستعطفها لتأخذ منها طفلتها الكبرى؛ لتعينها على حالها وتذهب عنها غم وحدتها، رحبت أم (نهال) ورحب أبوها بالفكرة وراحت تزف الخبر لـ(نهال) وكأنها تزفها إلى السعادة والفرح، لم تفرح (نهال) بهدايا خالتها هذه المرة، ولم تفرح بالسفر والرحيل كما كانت تفرح به كثيرًا، عندما كانت تأخذها خالتها لتقضي عندها إجازة نصف العام أو الإجازة الصيفية في قرية زوجها، قضت ليلتها تبكي تهمس لأمها أنها لا تريد الذهاب مع خالتها، لأنها ستشارك في حفلة المدرسة التي ستقام آخر العام بعرض راقص مع زميلاتها، وأنها تدربت على العرض، وأن المدربة تحبها واختارتها من بين بنات المدرسة كلها لتكون إحدى فتيات العرض، وكانت دائمة التشجيع لها، يطربها غناؤها وتشيد برشاقة رقصها، تقول لها دائمًا:

- «انتي اللي هتخلينا ناخد الكاس برشاقة حركاتك يا (نهال)»

بكت في صدر أمها تستعطفها ألا تذهب مع خالتها هذا العام بالذات، لأن حلم عمرها هو هذا العرض، عرض "آه لقلبي والقمر".

تستعطف أمها قائلة:

- «القمر هيخاصمني، وماعدش هيظهرلي أبدًا، ولا هيسمع مني أي حكاية»

ولكن أمها لا تفهم ما تقول، تشرح لها أشياء أخرى، وهي أن خالتها هي التي ستحقق لها أحلامها، وهي التي ستنفق على تعليمها، وهي التي ستختار لها أحسن زوج في العالم، وستأتيها بأحسن جهاز وأجمل الفساتين، تمسكت (نهال) برفضها ونحيبها لتفهم أمها أنها لا تريد الفساتين، إنها لا تقوى على فراق صديقاتها والقمر، وتتوق إلى اللحظة التي سينافسن فيها المدارس الأخرى بالعرض، فصرخت فيها أمها باكية لتفهم أنهم فقراء، وأنهم يعيشون على منح خالتها، وأن أباها كان يخطط لأن تترك المدرسة، لتعمل بائعة في أي محل، وأن الحل الوحيد لإنقاذها هو أن تقبل أن تتبناها خالتها.

لكن خالتها حطمت أحلامها، خالتها جاءت بها فقط لتطبخ وتكنس وتغسل وتنشر الغسيل، تساعدها في العناية بهذا البيت الكبير ذات الطابقين الذي يشبه القصور، لا يهمها التعليم ولا المدارس في شيء، إنها تريد من يناولها الدواء وتتكئ عليه وهي تطلع على سلالم الأطباء، رفضت خالتها أن تتعلم أي شيء سوى هذه الأمور، ومع بكائها الطويل وإلحاحها وافقت على عودتها إلى المدرسة، ودخولها امتحان الإعدادية، وأدخلتها المدرسة التجارية بدلًا من الثانوية العامة، وذلك بعدما تدخل زوج خالتها الذي كان عطوفًا عليها أكثر من خالتها، يتخفى بحنانه عليها خشية أن تتهمه زوجته بأشياء أخرى لمحها في نظرتها، حتى أنه ترك لها أمر (نهال) مبتعدًا نهائيًّا عن أي شيء يخصها.

هجرت (نهال) القمر بعدما كانت تخرج إليه خلسة لتراه من البرندة الواسعة شاحبًا حزينًا يرفض أن يقول لها شيئًا، أو يجيب سؤالها: لماذا يهبنا الله آباءً يبيعوننا إلى من يدفع لهم ما يسد جوعهم؟!

لا يحكي لها شيئًا عن صديقاتها أو عن العرض، ينظر لها حزينًا عندما تسأله: هل وجدت المدربة من يحل محلها، أم أنه حزين لأنها تخلت عن رقصته التي كانت ترقصها له هي وصديقاتها كثيرًا على سطح صديقتها (ليلى)؟ توسلت إليه أن يسامحها تحاول إرضاءه هائمة ترقص له، تدور وتدور، حتى سقطت في أحضان زوج خالتها سهوًا، وهو يطلع السلالم خلسة مبتهجًا برقصها، فرت من أحضانه تجري إلى حجرتها يغمرها الخجل، ومنذ تلك الليلة كلما سمعت صوته كانت تختفي في حجرتها حتى يخرج، قضت فترة طويلة من عمرها يعصرها الخجل منه، تتحاشى الخروج إلى البرندة ليلًا مخافة مقابلته، تزور القمر من شباك حجرتها الموارب لحظات، لأن خالتها تلمح بالكلام قائلة:

- «البنت اللي تفتح الشباك بالليل مش متربية»

فلم تعد تلتقي بالقمر لقاءات خاطفة، لكنها ظلت تستدعيه في سرها لتحكي له عن حبها لـ(إبراهيم) (إبراهيم) الذي تؤكد لها صوره الكثيرة التي ينشرها على صفحته يستعرض فيها عشيقاته، الصور التي لا تخلو من زجاجة البيرة على مكتبه والسيجارة التي لا تفارق أصابعه، وهذا الكرسي الأبيض البلاستيكي من ماركة الشريف للبلاستيك، الذي يجاور كرسي مكتبه، تتبدل عليه العشيقات بينما الكرسي لا يتبدل، تظن أن جزءًا من موافقته على الطباعة مرهون بأن تمر بهذا الكرسي، يؤكد لها هذا الكرسي أن الأمر سيتطلب منها التنازل، إنها الآن وبعد كل هذا العمر، وبعد كل ذلك العذاب لم يعد يهمها الحب، إنما تريده أن يقدمها بنفسه للمجتمع الأدبي، كما قدم أديبات كثيرات، لم يعد الحب يعنيها في شيء بعدما تمزق عمرها، كل الذي يهمها الآن أن تخرج روايتها الأولى إلى النور، كان من الممكن أن تطبعها في دار أخرى، ولكنها تود أن تقابله هو بالذات بشخصيتها الجديدة، تقنع نفسها بأن تمسكها نابع من ذيوع صيت الدار، وأن اسمها سيجاور أسماء كبار الكتاب ممن تطبع لهم هذه الدار الشهيرة، تتهرب من أن تواجه نفسها بالحقيقة، الحقيقة التي تقول أنها تخون العهد، عهدها الذي قطعته على نفسها لتستكمل حياتها مخلصة للرجل الذي منحها حبًّا حقيقيًّا، ورغم ذلك سقطت في قصص كثيرة، حكايات عصفت بقلبها عاشت

فيها قصصًا حقيقية، وسهلت (الميديا) عليها الدخول والخروج في الحكايات، بالكاميرات والميكروفونات وكأن الميديا شيطان جاء ليسكن القرى المغمورة، يساعد أهلها بالأوهام للتنفيس عن الرغبات المكبوتة، ولكن الحكاية التي كانت تعيشها على الميديا بكل تفاعلاتها الحسية والجسدية كانت تموت لحظة اللقاء الحقيقية، عاشت قصصًا كثيرة ماتت جميعها لحظة اللقاء الأول، تعود بعد كل حكاية منهارة إلى فراش زوجها نادمة تؤكد له نيتها المخلصة هذه المرة، تعاهده على الإخلاص له ما تبقى من عمرها، ولكنها مع أول رسالة تأتيها عبر هذا (الماسينجر) اللعين تدغدغ مشاعرها الأنثوية، كانت تسقط في حكاية جديدة وإحباط جديد، حتى اعتادت التعايش مع إحباطاتها، تتهرب عيونها من عيون هؤلاء الريفيين البسطاء من اتهامها بالفضيلة، لأنها الأرملة المخلصة التي دفنت شبابها وفاءً لزوجها، تتحدى نفسها كثيرًا من أجل هذه الفكرة، ربما يتحقق لها في هذا اللقاء ذلك التحدي، لتثبت لنفسها ولو لمرة واحدة أنها تستطيع أن تتخلص لفكرة نبيلة، وأنها تختلف عن هؤلاء الأدباء، الذين انكشف لها زيفهم، لتفهم أن الأفكار النبيلة والمبادئ العظيمة من مخترعات الشعراء والكتاب، اخترعوها للبيع فقط، اخترعوها لتصل بهم إلى المجد، المجد الذي يشترط في أصحابه المقدرة على التنازل، مفارقات كثيرة كانت تصدمها وهي تكشف لها عن نفسها شيئًا فشيئًا خاصة عندما تعمقت في سير عظماء الأدب، وتعمقت في تاريخ الشعراء القريبين في دور الثقافة، وتعمقت في معرفة الشخصيات العظيمة من خلال تواصلها معهم عبر الماسينجر، لتنكشف لها حقيقة هذه الأفكار البلهاء التي لا تصلح للحياة وتتأكد أفكارها التي تقولها لنفسها ساخرة: "كل النساء عاهرات، وأنا أكثر الناس إدراكًا لهذه الحقيقة، الزوجة في أحضان زوجها عاهرة، تبيع له عمرها وأحلامها من أجل ثروته، النسوة اللاتي يبتعن الأشياء من البقال والسماك والجزار يبتعن جزءًا فوق الميزان بضحكة وغنجة وحركات مائعة، زميلاتها اللاتي كن معها في المدرسة التجارية يحصلن على الأسئلة التي ستأتي في الامتحان من المدرس بغمزة عين ولمسة دافئة، زميلة لها تزوجت من مدرسها بغمزة عين دغدغت كيانه بها".

لم تكن تتمنى أن تتزوج مدرسًا، ولكنها تمنت كثيرًا أن تجرب الإغواء أو أن تحصل على أي شيء من الرجل بإغواءات أنثى، إن الكون لم يهتز أو يزأر من العهر، وكأن السماء تباركه، وكأنه سر من أسرار بقاء الإنسانية، قالت لنفسها وهي تدمع: "أنا ضاعت كل أحلامي، كل الأبواب اتقفلت في وشي، ماعادش عندي غير أمل واحد هو إني أكون أديبة".

انطلق (الباص) في الثانية عشر والنصف تقريبًا بعددٍ قليلٍ جدًّا من الركاب؛ مما أتاح لها أن تأخذ كرسيًا خاصًا دون أن يجاورها أحد، لكنه كان من سوء حظها أنها اختارت الكرسي الذي يلي السائق مباشرة.

بعد معاناة مع هذا الباص البطيء وسائقه المزعج، الذي ظن نفسه ضيفًا على الهواء في إحدى القنوات الفضائية، انطلق يروي للمشاهدين حكاياته التي مر بها على مدى عمره الوظيفي من حوادث ونوادر كنوادر عمنا (جحا) يعقد في منطقة اللاوعي من عقله مقارنة يفهمها من يسمع حكاياته الشيقة عن الطبقة التي اكتشفت أنها بعد عمر طويل كانت تدفع كل ما تملك لتأكل لحم الحمير، وعن أولاد الذوات ونوادرهم التي من إحداها أنه أنقذ ابنًا من أبناءهم على هذا الطريق ذات مرة، وعندما هاتف الفتى أمه سيدة الأعمال المشهورة يتأسف لها عما حدث لسيارته الجديدة (اللانج) أحدث موديل والتي لا يقل ثمنها عن مليوني جنيه، ردت عليه قائلة:

- «سيبها مكانها، فداك يا (وائل) هاجيبلك أحسن منها»

ولم يكلفوا أنفسهم عناء إعادتها حتى أنه هو الذي جاء بونش يحملها إلى المدينة وباعها هو والميكانيكي صديقه خردة، حكايات كثيرة عن هذه الطبقة، وحكايات أخرى أكثر منها عن طبقة أكلة لحوم الحمير، حكايات تلخص الفجوة الطبقية التي كالسرطان يسرح آكلا وسائل الحياة في القاهرة، وكأنه يبكي القاهرة التي وقعت أسيرة في أيدي الرأسمالية السلطوية الجشعة، تنتظر منقذًا لا يأتي.

كان يحكي حكاياته بطريقة شيقة عن الطبقة التي ظلت تأكل لحم الحمير حتى نهقت، وعن الرئيس الطيب الوديع الذي ظن في شعبه من أكلة لحوم الحمير،

أنه حين يعلن أنه سيغير الدستور للبقاء في السلطة، لن يفهم ولن يرفسه، وعن صاحب أكبر محلات لبيع ساندوتشات الكفتة، والذى كان يتفاخر بين زملاء العمل بأنه النزيه الذي يصطحب المدام والأولاد يومًا في الشهر ويأتيهم بساندوتشات من عنده، حتى فوجئ بزملائه يتخذونه ذات يوم مادة للسخرية عندما انتشر خبر تشميع المحلات بالبنط العريض في الجرائد، حكايات كثيرة شيقة تحتاج كتابًا لفردها، ولكنها هي التي لم تكن في وضع يسمح لها بالتعايش مع حكاياته.

وباغته أحد الركاب مازحًا:

- «بس مانتاش معايا إن أهل (كايرو) نصابين؟»

فالتفت إليه محللًا يشرح له الحالة بجدية:

- «أغلب أهل (كايرو) نصابين وبيعتبروا النصب فهلوة والفهلوة دي بالنسبة لهم خصلة حميدة، لازمت أغراب المدينة اللي بيجولها من آخر الدنيا يدوروا فيها على الرزق، داقوا عشانه المرار ألوان، كان لازمهم شوية تحايل لكن التحايل قلب لنصب والنصب سموه فهلوة، اغتصبوا حقوقهم عشان يفرضوا وجودهم على المدينة، المدينة اللي مهما ضاقت تحس أنها واسعة قد العالم كله، والفهلوة بقت لغة أهل (كايرو) وخدها مني نصيحة: عد رموشك قبل وبعد ما تكلم حد من أهل (كايرو) وخصوصا اللي دخلوها أغراب لكن بالأقدمية بقوا هما أهلها؛ ما هي بلد مالهاش صاحب والحق فيها تايه عشان قلبها مفتوح للكل»

كان للرجل لهجة تشد انتباهها وتغصبها على الإنصات، ورغم ذلك كانت بين الحين والحين تفلت شاردة في الذاكرة، تخرج شالها الأخضر الشيفوني الذي خبأته في حقيبتها تستبدله بشالها الأسود، يتسرب الدفء إلى جسدها فترتخي جفونها هائمة تطير طفلة بشالها الأخضر، وشعرها الأسود المجعد في مساحة مظلمة يطل من سمائها القمر، وأربع فتيات يتابدلن الحركات المدروسة

المنتظمة، كل واحدة منهن يهفهف شالها في الظلام فتهفهف الألوان على بعضها البعض تخطف ضوء القمر، وكأنهن قوس قزح يتماوج في الظلام بألوان الكون الأزرق والأخضر والأحمر والبنفسجي بينما الأبيض يطير دون أن يجد راقصة تلبسه، كانت تلعب مع صديقاتها الأربع على السطح، وجاء دورها لتقف أمام القمر لتوشوشه بحلمها الذي تتمنى أن يحققه لها، لأن (ليلى) صديقتها قالت لها:

- «إن القمر يحقق للإنسان أحلامه مهما كانت مستحيلة»

وظل سؤالًا محيِّرًا في عقل (نهال) لا إجابة له تسأله كثيرًا للقمر:

- «يا ترى حققتلهم أحلامهم، ولا هما كمان نسيوا أحلامهم عندك»

كانت تطير كل يوم كفراشة ذاهبة إلى المدرسة لتلتقي صديقاتها، وتأخذهن مدرِّسة الموسيقى مستأذنة من الحصص لتدريبات الرقص، في المسرح ذي الأضواء الخافتة، مرسوم على اللوحة السوداء بعرض الحائط في سمائها القمر، خطفتها خالتها دون أن تودع طفولتها، دون أن تودع صديقاتها، ذهبت معها إلى المنصورة مخدوعة بعدما قالت لها خالتها أن القمر في المنصورة بيكون أقرب، لم تكن تدري أن القمر الذي كانت تسهر من أجله مع صديقاتها في القاهرة، لا يهم أحدًا في هذه القرية، وأن هذه القرية لا يحلم فيها أحد بالقمر، ولا يجهد نفسه لينظر إلى السماء، الناس هنا يدفنون عمرهم في الطين، ليطرح ثمرًا يباع ويشترى، لا أحلامًا تسكن القمر.

انتهى المشوار بأن تاه بها صاحب التاكسي عن العنوان مشتبهًا به في منطقة أخرى تمامًا، وراح يحاول مرة أخرى في زحام القاهرة وبين عملقة مبانيها، وفي السادسة مساءً وصلت أخيرًا، لا تصدق نفسها وهي تسأل البواب الذي يؤكد لها أنها الآن أمام العمارة، تجول بعينيها متعجبة من عدم وجود أية لافتة تشير إلى الدار، تقول لنفسها متعجبة إنه لو أن هذه الدار كانت دكان بقالة في قريتها، لكانت هناك ألف لافتة تدل عليها، ولكنها هنا في القاهرة المدينة التي تبتلع الأفيال في جوفها دون حشرجة، لا يوجد شيء هنا يدل على شيء، المدينة

التي تبتلع أمها وأبيها وإخوتها، المدينة التي تبتلع حي السيدة زينب، الحي الذي خطفتها خالتها من أحضانه، المدينة التي تبتلع صديقاتها تبتلع طفولتها وأحلامها، لكنها واثقة أنها أضعف من أن تبتلع القمر، وأن القمر هنا حر طليق، ملك لجميع أطفالها، يحقق الآمال جميعها لكل من يعيش هنا في القاهرة.

قال لها البواب إن مقر الدار في الطابق الأول حتى لا تستخدم المصعد، هذه العمارة العملاقة العتيقة جدًّا التي ما زالت تتمتع بالصبا، ولكنها الأشياء التي تؤكد عتاقتها، هذا (الأسانسير) القديم الذي كان يظهر في أفلام الستينات، تستحضر روحها عملقة القاهرة وشموخها ورونقها وأنها الباقية إلى الأبد.

استقبلها شاب بملابس صيفية متأسفًا من الكركبة التي تكعبلت فيها وهو يصطحبها إلى مكتب مدير الدار، لتنتظره حتى يعود من المتحف الفرنسي القريب جدًّا من هنا، يشرح لها معتذرًا أنه هو وزميله منهمكان في تجهيز الكتب تحضيرًا للمشاركة في معرض القاهرة الدولي للكتاب، بينما انشغل الآخر بأن يحتجز بين قدميه كلبًا بفراء أبيض حتى لا يضايقها، انزعجت مقتضبة تتذكر قطة المحطة، تندب حظها العاثر في هذا اليوم مع الكلاب والقطط، لكنها شردت في أفكارها تظنه يتهرب من لقائها لأنها تأخرت عن الموعد المحدد، وأنه خرج لقضاء سهرة من سهراته ولن يهتم بمجيئها، راحت تشرح للشاب الذي استقبلها ظروف تأخرها، تطلب منه أن يتصل به ليذكره بموعده معها وأنها تعتذر عن تأخرها، سمعها الشاب بلا مبالاة منشغلًا بتهدئة الكلب الذي أفلت من بين قدميه ليحوم حولها، بينما هي مذعورة تقاوم ملاحقته، تصرخ فيه بعصبية: فيبتعد قليلًا ثم يحوم حولها مرة أخرى، تصرخ فيه مفزوعة تدفعه بعيدًا عنها بحقيبتها، فيناديه أحدهما زاجرًا إياه يداري سخريته من هلعها:

- «تعالى هنا يا (جلجل)»

يخرج به مبتعدًا للحظات، تلتقط فيها أنفاسها وحيدة تستنشق رائحة عطره المحبوس هنا في حجرة مكتبه، تجول جولة عميقة متأملة في هذه الحجرة، تلك الحجرة التي شاهدتها كثيرًا في الصور، لكنها في الحقيقة كانت شيئًا آخر، هذه الجدران الحزينة التي تسبح في جوانبها فوضى مذهلة.

الفوضى بالنسبة إليها حياة، لكن الفوضى أيضًا تعني أن هناك أشياء كثيرة تستحق أن نعلن في وجهها عدم جدواها، نقول لها بصرامة وشجاعة أن إنهاء علاقتنا بها أصبح شيئًا حتمي، لكن شيئًا ما في النفوس يبقيها، شيئًا ما يصعب علينا أخذ قرار الاستغناء عنها بهذه السهولة، فنتخذ قرارًا لا إراديًا مريحًا للضمير، وهو بقاءها مهملة، هذه الجدران الكئيبة الشاحبة، لا بد أنها ذات يوم كانت تلمع بالبهجة، وتحولت مع الأيام إلى هذا اللون الرمادي الكئيب، الفوضى تعني أنك لا تستطيع أن تأخذ قرارًا بصياغة حياتك من جديد، وأن هذه الأشياء جزء لا يتجزأ من أيام رحلت، وكأن هذا المكان الفوضوي هو قلب (إبراهيم) الذي خطف قلبها منذ سنوات طويلة، يتركز نظرها على الكرسي الأبيض البلاستيكي الذي رأته كثيرًا في الصور، الكرسي الذي لا يتبدل ولكن صديقته هي التي تتبدل، تهمس لنفسها:

- «كرسي العرش اللي بتقعد عليه كل ليلة أميرة للحظات، أميرة على عرش قلب (إبراهيم) أميرة لهذه الجدران، أميرات قلبك يا (إبراهيم) كتير جدًّا، أنا مش ممكن أكون جزء من فوضويتك، لإنك مش هتقدر تاخد قرار بإنك تنهي الحكاية في اللحظة اللي لازم تنتهي فيها، أنا واثقة إن كل اللي قعدوا على الكرسي ده أصبحوا جزء من الفوضى اللي تايه فيها الزمان والمكان، كل اللي قعد على الكرسي ده سابه ومشي، وساب هنا لحظات مكتوب عليها اسمه، وساب الكرسي فاضي مستني واحدة تيجي تشغله بلحظات، لحظات يجرب فيها معاها الحياة، النتيجة في النهاية واحدة، وهتبقى جزء من الفوضى، وهيفضل الكرسي يستنى يجرب يبدأ الحياة تاني من جديد»

انتبهت مفزوعة إلى (جلجل) الذي كان يلعق ساقها، لولا حرجها من الشابين الذيْن اندفعا إليها فزعًا لصراخها لزغدته بحذائها تبعده عنها بشراسة، أنقذه أحدهما يمسكه خارجًا يتأسف لها يسألها إن كانت تفضل الشاي أم القهوة، لكنها اعتذرت؛ فغاب عنها (جلجل) لحظات أخرى، راحت شاردة مع هذا الكرسي الذي ربما يدعوها للجلوس عليه، تتخيل نفسها جالسة عليه قبالته،

شاردة مستسلمة لحلاوة نظرته، تتذكر تلك الليلة التي كابدها الشوق تبكي إلى الله تطلب منه في صلاتها أن يضع حبها في قلبه، لكنها أفاقت من صلاتها على صوت يخرج من أعماقها يلومها: "إن الله خلق الثمار على الشجر ليتعلم الإنسان أن يطلع الشجر، وينزع بيده الثمر".

قالت لنفسها ساعتها: "ليه أقف في مكاني عاجزة، ليه ما أبدرش أنا حبي في قلبه، الحب لا يختلف عن أي شيء في الحياة، ممكن إنك توجده، تصنعه أو تزرعه، ممكن نخطط عشان نخطفه، طرق الوصول للحب كتيرة، مش هتفرق لما نوصل كانت إيه هي الطريقة، لإننا ساعتها هنكون مشغولين بإننا نعيشه، هيكون قلبه أسير في إيدي، هيكون كل همي إني أخطط إنه يفضل لعبة في إيدي للأبد، اختاري حاجة من الاتنين، إما إنك تعترفي بضعفك، وتنسى الحكاية دي للأبد، أو إنك تخليه هدفك وتعرفي إزاي توصلي لأهدافك ماتستنيهاش تجيلك هي على طبق من فضة، هي دي قيمة الحياة".

لكنها للأسف كانت تفتقد فنون غواية النساء، فراحت تكتب له الشعر، تجرأت مندفعة بسذاجة ترسل له من حسابها الذي كان باسم "بنت القمر" رسالتها الأولى:

****

«لا تسألني من أنا/ لا تسألني عن بلادي أو من أكون/ لا تحاول أن تستنتج ملامحي/ لأنني الآن شخص آخر/ يسكنه الوجع الذي في ملامحك/ وبلادي مدينة مسحورة/ وهبتني نفسها من أجل عينيك/ مدينة توفر لي الهدوء اللازم/ لأكتب لك رسائل عشق أمزقها/ أنثرها للرياح/ ربما تلتقي بها في طريقك صدفة/ دع القلق بعيدًا يا سيدي/ لا تؤنب ضميرك على شيء/ فأنت لم تستهدف يومًا مشاعري/ وإنما أنا التي أومن بأن الحب ليس حبًّا/ إلا إذا كان فصلًا من حكاية مستحيلة»

****

وعندما قرأ الرسالة اتصل بها من الماسينجر، ولكنها ارتجفت ولم ترد، كانت هذه هي الفرصة الوحيدة التي منحها لها، ربما كان سيفتح لها بابًا لتدخل منه وتصبح إحدى عشيقاته، لكنها لم تقصد أن تصل إلى هذه المرتبة، إنها تفضل أن تتعذب بالحب طوال عمرها، فضلًا عن أن تنتهي الحكاية إلى لحظات على هذا الكرسي، تتمنى لو تأتيها الجرأة الآن لتكسره، وكأن كسره سيجعله يفهم المعنى الذي تفهمه عن الحب، استغل (جلجل) استغراقها في التفكير مرة أخرى وأخذ يلعق شالها المطروح على ركبتها يتدلى أطرافه على الأرض، فتصرخ مذعورة عندما تشعر بشالها ينسحب من على فخذيها، يسعفها أحد الشابين ممسكًا بالكلب ليزيحه بعيدًا عنها، يكتم ضحكاته التي أثارتها شدة هلعها وانزوائها بعيدا في زاوية باب البرندة، وتعبيرات تتهمها بالمبالغة في الخوف من (جلجل) وعندما صرخت صرخة قوية لا إرادية عندما فوجئت به مرة أخرى خارجًا من بين ساقيها، أحرجها الشاب ساخرًا وهو يلتقطه:

- «معقولة؟ مش للدرجة دي»

استوعبت لحظتها مدى سخافتها، فحاولت أن تتراجع عن موقفها ضد (جلجل) الذي يتعامل معه الشابان بألفة دون حذر ورغم محاولتها السيطرة على نفسها إلا أنها لم تستطع، الغريب أن (جلجل) هو الذي عدل عن موقفه، وجاءها هذه المرة على حذر يرقد أمامها في جلسة يستقيم فيها ظهره رافعًا وجهه إليها محدقًا فيها كما فعلت في الصباح تلك القطة، شردت في نظراته مذهولة بتعبيراته التي يرسلها إليها من على الأرض، تعبيرات أخذتها إلى فضاء لا يوجد به سواهما، وكأنها إلهة قاسية وهو عبد يتعمق في إلهه الذي يقابل الحب بالكراهية، إله لا يفهم أن عبده يحبه بطريقته، وفي عمق نظرته تراءى لها القمر منكسرًا حزينًا، وكأنه يقول لها أنا هنا في جميع العيون الحزينة، وكأن الانكسار هو اللغة التي توحد بين هذا الكون العظيم وجميع كائناته، ظل (جلجل) لحظات كأنها ساعات هادئًا وديعًا متعجبًا ينظر إليها نظرات لن تنساها، جعلتها تفكر هي الأخرى في تعبيرات الأسى التي تقرؤها على وجهه، استطاع (جلجل) أن يقتلعها من الغوص في فوضى (إبراهيم) لتكون له وحده بكامل تفكيرها ووجدانها

واندهاشها، تنتبه إلى حقيقة كانت تجهلها، أن الإنسان ما هو إلا حيوان أليف لهذا الكون العظيم وأن الكون العظييم هو الآخر يهاب الإنسان ويخاف على نفسه منه، يدافع عن نفسه ضد خطر يتوقعه دائمًا منه، يعتبره وحشًا، (جلجل) جعلها تؤمن أن الآخر ليس عدوانيًّا بحتًا، طالما أنه يمتلك القدرة على توجيه مشاعرك نحوه، أسرتها الهالة البنية الداكنة حول عينيه، رق قلبها له متعجبة تسأل نفسها: "هل هذه الهالة تصاحب جميع عيون الكلاب، أم أن هذه لفصيلته فقط؟"، لم تأتها فرصة ذات يوم لتحدق في عيون الكلاب، إنها تجهل كل شيء عن فصائلهم كل ما تعرفه أن هذا الكلب ذا الفراء الأبيض يسميه الأولاد بالكلب الكنيش، وأنه من الكلاب المستأنسة التي يسعى الكثيرين لتربيتها في المنازل، استدرجها (جلجل) إلى نظرة عميقة آسرة، وكأنه يسألها لماذا كل هذا العداء الموجه له دون سبب؟ يلومها على القسوة التي قابلته بها وكأنه يقول:

- «أنا لم أفكر في إيذائك أنا فقط كنت أظن أنكِ ستحبين أن ألعب معك كما يفعل كل من يجيء إلى هنا»

شعرت بخجل من نفسها، تحتار في نظرته الطويلة المتسائلة، التي اشتبكا فيها فترة جعلتها نسيت كل ما جاءت من أجله، نسيت حتى جميع المناكفات التي مرت بها في هذه الرحلة الطويلة السخيفة منذ مطلع اليوم حتى السادسة مساءً، لم تتلمس لمسة دافئة طوال ذلك اليوم سوى دفء لمسة عيونها بعيون (جلجل) لمسه رقت لها روحها، تسأل نفسها: "لماذا نظن أن الإنسان وحده هو من يمتلك العاطفة؟!"، قالت لنفسها ذلك عندما استشعرت الحب هنا في عمق عيون (جلجل) وفجأة وجدته يفر هاربًا من أمامها إلى الخارج، سمعت جلبة بالخارج و(جلجل) يعود إليها فرحًا وكأنه يسوق إليها خبر قدوم صاحبه، يسبقه إليها يجري ويتقافز خارجًا إليه وعائدًا إليها في غمضة عين وهو بين ذراعي صاحبه، لقد جاء (إبراهيم) الذي بدا لها يمشي على مهل في الممر المظلم نحيلًا منكمشًا داخل معطفه الداكن العتيق، بدا لها منسجمًا مع كل شيء هنا، ارتبكت ينخطف قلبها تترك هاتفها قبل الرد على الاتصال الذي جاءها في

نفس اللحظة، ترتعش كل ذرة في كيانها عندما وجدته أمامها، وجدت نفسها دون إرادة واقفة تستقبله، بينما (جلجل) يتنطط على ساقه بفرح طفل يعود أبوه بالحلوى، يفشل في تهدئته قليلًا حتى يرحب بالضيفة يدعوها للجلوس، يتراءى لها وكأن روحه الخاملة الفاقدة الرغبة في الحياة تبدلت في لحظة إلى روح منتعشة جاءها سبب جديد لتستكمل الحياة، إنه هو (إبراهيم) الذي التقته في الندوة منذ ما يقرب من عشرين عامًا، تختلس النظرات لتتابع تغيرات الزمن عليه، حتى أصبح ذلك الرجل النحيل المنكمش دائمًا في معطفه، وكأن البرد يسكن روحه.

استغرقا وقتًا قصيرًا جدًّا في التعارف، طلب له ولها الشاي من الشاب الذي دخل معه، يتبعه الكثير من الشباب يعرض كل واحد منهم مشكلة تخص المعرض، على ما يبدو أنهم يجهزون للعمل في الحجرات الأخرى، عرض عليها سيجارة، لم تكن مدخنة ولكنها أرادت أن يفهم عكس ذلك، فأخذتها، انحنى عليها يقصد إشعال سيجارتها من سيجارته التي في فمه، واضعًا لها السيجارة في فمها، أغمضت عينيها تذوب مخمورة بأنفاسه التي خدرت سنوات عذابها، وأعادتها صبية رقيقة بائسة نحيلة، ترفرف بأحلامها الكبيرة وبشعرها الأسود المجعد، ترقص رقصة الفرح على ضوء القمر، منصتة إلى همسات تعبيرات وجهه، وكأنه أكثر منها حبًّا، ربما حكى له القمر ليلة أمس عنها كل شيء، وربما يكون شخصًا متأهبًا دائمًا لهجوم الحب، وربما يكون مثلها له أحلام منسية ترقص عند القمر، اعتدل مبتعدًا بعدما أشعل سيجارتها، أسرعت تطفئها قبل أن يفضحها السعال ودموع العيون، تفتعل الثقة في نفسها لتداري كذبها، تتعلل بأنها دخنت كثيرًا هذا اليوم.

كل شيء في هذا المكان اكتمل الآن بوجوده، منذ لحظة دخولها وشعور غامض كان ينتابها بأن هناك شيء ينقص هذا المكان، كأن أشياءه المهملة كان تنتظره لترتد الروح فيها، كل شيء أصبح دافئًا رغم شيخوخته.

لحظات تمر مندهشة تتأمل سعادة جلجل الذي يجلس على الكرسي الأبيض بجوار صاحبه، وهو منشغل عنها يلاطفه يستسمحه لأن يعطيه فرصة ليتحدث

مع ضيفته، أدهشتها حميمية علاقته بـ(جلجل) وكأن (جلجل) يرى فيه أشياء لا يراها غيره، أو ربما كان (جلجل) يرى في البشر أشياء لا يراها أحد.

هدأ (جلجل) جالسًا على الكرسي يسمع كلام صاحبه، التفت إلى (نهال) مرحِّبًا بأنها اختارته لطباعة روايتها، وكان ذلك مدخلًا لطيفًا للدخول في موضوع تكلفة الطباعة، وبحرج أرادها أن تفهم أن روايتها ستتكلف مبلغًا كبيرًا لتجهيزها للطباعة، لأنها تحتاج إلى مراجعةٍ دقيقة بناءً على تعليمات لجنة القراءة، ورغم حديثه عن الماديات إلا أنه ظل محافظًا على أن يبعد عن ذهنها فكرة أنه تاجر، يعرض عليها مطبوعات الدار لتتأكد بنفسها من جودة الإخراج، ذاكرًا أسماء الأدباء الكبار الذين تتعامل الدار معهم لتدرك قيمة موافقة الدار على نشر روايتها، كانت تسمعه باهتمام وهو ما بين ذلك وذلك يلاطف (جلجل) الذي مل جلوسه على ذلك الكرسي قافزًا ليجلس على ركبته لحظات، ثم يفر إليها جالسًا على الأرض أمامها وكأنه متشوق لربكتها ودهشتها وربما إلى نظرة العطف التي لمحها أخيرًا في عيونها، اقترب منها يلاطفها ولم تكن تصدق نفسها عندما وجدت نفسها هي الأخرى تلاطفه، تمسح بكفها على فروته غير مكترثة بدورانه حول ساقيها، بل كانت سعيدةً تاركة له نفسها ليفعل ما يحلو له، لم تكن تصدق أن هذه اللحظة كان من الممكن أن تعيشها في حياتها، وأن تسمح لنفسها التعاطف يومًا ما مع حيوان أليف، لكن على ما يبدو أن (جلجل) كان يختلف، تركت (جلجل) لتستكمل حديثها معه بجدية عندما شعرت أنه يريد أن يعرف قرارها؛ فسألته مباشرة عن المبلغ الذي يريدها أن تتحمله، فصدمها يطلب مبلغًا كبيرًا لم تسمع عنه من أصدقائها الكتاب الذين ينشرون كتبهم في دور نشر ذات شهرة أكبر بكثير من هذه الدار، ولكنها رغم ذلك وافقت، وطلبت منه تحديد الموعد الذي يراه مناسبًا لتوقيع العقد واستلام المبلغ، اتفقا على الخميس آخر الأسبوع، انتهى اللقاء، مذهولة عندما همت بالخروج يصطحبها (إبراهيم) لتوصيلها إلى الباب، وإذا بـ(جلجل) يسبقهما مستلقيًا بعرض الباب على الأرض وكأنه يسد عليها فتحة الخروج، لم يلق (إبراهيم) بالًا لفعلته وأمسك بيدها لتعبر قفزًا من فوقه، يضحك على أفعاله المباغتة، بينما (نهال)

يقشعر جسدها وتلمع عينيها فرحًا، تملس على شعره تتوحد الدمعة الساكنة في عينيها مع نظرته العطوفة المنكسرة تهمس له سرا:

- «من قال لك يا (جلجل) أنني أتشوق إلى لحظة حب صادقة كهذه اللحظة، الإنسان يا (جلجل) كائن نفعي، تحرك مشاعره النفعية من الآخر، أما أنت وفي هذه اللحظة التي لم أتوقعها، أهديتني لحظة حب صوفية، أحببتك يا (جلجل) وربما أجيء هنا كثيرًا من أجلك»

وصل بها (إبراهيم) إلى الباب يصر على أن يسبقهما إليه (جلجل) وعندما مدت إليه يدها لتصافحه مصافحة الوداع، اعتصرها وهو يقبلها وتحضنها نظرته الحالمة الدافئة، كادت تتكعبل على السلالم من الفرحة، أخيرًا وبعد كل هذا العمر وبعد كل هذا اليأس، بكل هذه السهولة يهديها كل هذا الدفء، قد يكون هذا هو الحب، وقد يكون أيضًا شيئًا آخر غير الحب، ولكنها تحتاج إلى أن يتجسد لها لتراه حقيقة ولو للحظة واحدة، حتى لو اضطرت بعدها لتحطم هيكله الذي دمر حياتها، تعلق عليه في خيالها جميع آمالها في الحب.

عندما خرجت من العمارة وقفت لحظات تتأمل شوارع القاهرة العظيمة في أحضان ليل شتوي، تتراجع عن فكرة زيارة أمها في السيدة زينب، كل شيء هناك يناديها ولكنها لن تلبي النداء؛ لأن شيئًا في روحها منزوٍ مكسور لا يريد أن يلتئم، أخذت التاكسي إلى عبود، مخدرة لا تشعر بالبرد أو الجوع بعدما انقضى اليوم دون أن يدخل جوفها سوى بعضٍ من دخان سيجارته، عندما وصلت إلى الموقف، واستعلمت عن مكان سيارات المنصورة اشترت بعضًا من البسكوتات التي تحبها، وراحت تتلمس مكانًا يتسع لذكرياتها وحلاوة اللحظة، في هذا الميكروباص الذي ما زال خاليًا.

ينتزعها من غمرة نشوتها به طيف خالتها وهي عائدة بها في ليلة مثل هذه الليلة، وفي ميكروباص يشبه هذا الميكروباص تتحسس آلام ذراعها الذي حاول أن يفلت من قبضتها المحكمة عليه، كلص يكبش على غنيمته، ظل هناك شيء حائل بينها وبين خالتها، لم يستطع كلًا منهما أن يحب الآخر، تتظاهر لها بالود

على الرغم من أنها لم تكره أحدًا في حياتها كما كانت تكرهها، وكانت خالتها تشعر بذلك، ربما لولا حاجتها الماسة لها لأعادتها إلى أمها غير نادمة، لأنها لم تستطع أن تشتري منها الحب، الأمومة غريزة؛ فهمت ذلك خالتها بعد فوات الأوان، ولكن كلًا منهما كان يمثل على الآخر تمثيلية يراها الآخرون مقنعة، الممثلون فقط هم من يدركون أنها تمثيلية تنتظر النهاية، الممثلون فقط وحدهم يدركون اللحظة الفاصلة بين الحقيقة والتمثيلية، أدوار يخرجون ويدخلون إليها دون أن يشعر المتفرجون، حاولت خالتها أن تمارس عليها سلطان الأمومة، تتحكم حتى في أحلامها، ترسم لها مستقبلًا يناسب مصلحتها؛ فغيرت المستقبل الذي رسمته (نهال) لنفسها، المستقبل الذي باعت من أجله أمها حاضرها لخالتها، لكن خالتها ذبحت ماضيها وقتلت حاضرها وخنقت مستقبلها فأماتتها بدلًا من المرة ألف مرة، رفضت أن تدخل التعليم الثانوي، ورفضت أن تستكمل تعليمها الجامعي، بصعوبة بالغة وافقت على أن تدخل المدرسة التجارية، لتحصل على الدبلوم كغالبية فتيات القرية، كانت ترفض ذهابها لندوات الشعر وأمسياته متحججة بأنه لا يصح للبنت في القرية أن تعود متأخرة ليلًا، وأنها تخاف عليها من مخالطة الرجال، ولكنها كانت تغافلها ذاهبة أحيانًا وأحيانًا كثيرة تفشل، ورغم قدرتها الفائقة على التمثيل إلا أن كلمة "ماما" التي ألحت عليها لتناديها بها كانت تتحجر في حلقها، كما أن خالتها نفسها ظلت تتلعثم في نطق اسمها وكأنه أصبح غريبًا عليها، لم تستطع الأيام ترويض لسانها لينطقه بطلاقة، كانت تنطقه كل مرة بشكل مختلف، حتى وصل بها الأمر إلى أن تناديها:

- «يا بت انتي يا اسمك إيه؟»

خالتها رفضت أن تشارك في حفلات المدرسة، لأنه لا يصح للبنت المحترمة أن ترقص، ولكنها اشتركت سرًا دون علمها، رغم ثرائها إلا أنها كانت ترفض أن تشتري لها فستانًا يغويها جماله، تفرض عليها ذوقها الذي يتماشى مع طبيعة الريف الذي يصب اهتمامه على حشمة النساء، منعتها منعًا باتًّا من ارتداء البناطيل الجينز التي كانت تبرز جمال رشاقتها، أرادت خالتها أن تطويها تحت

جناحها تكبت فيها جميع رغباتها، وعندما كانت تقرأ الجحود في عينيها، كانت تستدر عطفها بافتعال آلام المرض، ومع ذلك مرت سنوات صباها مع خالتها متجاهلة مشاعرها، سواء كانت كرها لقهرها، أم عطفًا على ضعفها، تلاحقها نظرة عطف ساهمة متوارية في عيون زوج خالتها، بعد تفسيرات خالتها المهينة لكرامته عندما عنفها اعتراضًا على معاملتها القاسية لـ(نهال) لكن (نهال) كانت تحمل له في نفسها شيئًا لا تعرفه، تتلمس له العذر لأنه كان مثلها مغصوبًا على أمره، يتعايش مع قهر امرأة ارتضت بأن يضيع شبابها مع رجل عاجز عن أن يثبت لها رجولته، عاجز عن أن يهبها طفلًا، رغم أنه يعلم علم اليقين أن الصفقة تمت بالتراضي بين الطرفين، لأنه دفع لها كل هذا العز الذي تعيش فيه، تاركًا لها سنواته مستسلمًا يقرأ في عيونها انتظار موته لتتحكم وحدها في فدادينه وأمواله الكثيرة، التي صب همه في جمعها، تاركًا وظيفة التدريس.

زوج خالتها كان حاصلًا على دبلوم المعلمين، عمل سنوات قليلة في شبابه مدرِّسًا وكانت له طموحات كثيرة ماتت جميعها، عندما مات الأمل في تحقق رجولته أمام البنت الحلوة التي كانت تخايله في أحد أحياء السيدة زينب، عندما جاء تكليفه بالتدريس بإحدى مدارسها الابتدائية، استقال من الوظيفة عائدا بها إلى قريته، راح يصب اهتمامه على رعاية بضع فدادين ورثهم عن والده المسن الذي أنجبه على كبر بعد يأس طويل في الإنجاب لتلحق به والدته، وجد نفسه وحيدًا مع قدره، لقد كان والده قليل الذرية لم ينجب سواه، أما هو فلن تكون له ذرية أبدًا. وافقت خالتها على ظروفه في بادئ الأمر على أمل العلاج، لكن كل يوم يمر عليهما كان يموت في قلبها الأمل في علاجه، ويكشف له جزءا من توحشها، وافقت على الاستمرار معه عندما تصدرت لها الحقيقة، بنى لها دارًا واسعة يأمل أن يدفئها بحب الناس، واستضافة أهل القرية وإطعام فقرائها، يتبنى بالحب جميع أطفالها، كان يتمنى أن يكون بارًا بأهل قريته الفقراء وهذه المهمة كان لا بد أن تتم من خلال زوجته التي كانت تكره الفقراء، تظنهم يحسدونها على النعمة، تداري عنهم جميع خيرها، تتشكي كما لو كانت أفقرهم، تشتري الخبز من المدينة حتى لا يرى أحد خبزها، ماتت أمنيته أن تسكن رائحة الخبيز داره، عاش مخذولًا يعزف على وترٍ وهي تعزف على وتر آخر

في حياة واحدة، أصبحت حياتهما لحنًا شاذًّا زاعقًا، ووجد نفسه مضطرًا إلى أن يتنازل عن جميع أحلامه، وراح يصب انشغاله في رعاية فدادينه، ومزرعة الماشية، ومزرعة الدواجن، ومنحل العسل ومعمل الألبان، مهملًا قراءة الكتب التي كانت هوايته الأولى، ولكنه سمح لـ(نهال) أن تستخدم مكتبه، وصرح لها بأن كل شيء فيه تحت أمرها، بداية من مكتبته الصغيرة وحاسبه المهمل، وعندما قامت (نهال) بتوصيل الإنترنت خلسة عن طريق التليفون الأرضي، وجاءته فاتورة التليفون مرتفعة مذكور فيها خانة استخدام الإنترنت، دفعها دون أن يعلم خالتها.

صنعت (نهال) لنفسها عالمًا آخر على صفحة التواصل الاجتماعي تستعيض به وحشة هذه القرية، وكانت خالتها تجهل كل شيء عن هذا العالم وتظن أنه يساعدها فقط على المذاكرة، أو تطبيق دورات الكمبيوتر الذي دخل حديثًا إلى مدرستها، وبعدما حصلت على الدبلوم كان هو سلوتها الوحيدة، وتركتها أيضًا خالتها لأن (نهال) أصبحت أكثر استسلامًا، تلبي جميع أوامرها دون أدنى مناقشة، بينما زوجها فر هاربا إلى أعماله، بعدما كشفت له الحياة عن وحشية الحبيبة الملهمة التي كان يكتب فيها الشعر حتى كره الشعر، وكره ذلك الخيال الذي يجعل الإنسان يصنع أوهامًا يعيش فيها وهو وحده الذي يدفع الثمن، مضطرًا إلى أن يتعايش مع ذلك الوحش لأن وجوده يستر عار الرجال في هذه القرية، ولأنه يخاف من أن ينام على فراشه وحيدًا يبتلعه الظلام والصمت بين هذه الجدران الواسعة، أصبحت الفِلاحة عشقه الأول والأخير، يقضي في أرضه مع الفلاحين غالبية الوقت، لا يدخل داره الكبيرة ذات البرندة الفسيحة بمقاعدها الكثيرة، التي صنعها من أجل مجالسة الريفين والاستدفاء بطيبتهم، لكن خالتها لا تحب أن يرى خيرها أحد من هؤلاء الفلاحين، تظنهم يحسدونها على كل شيء، تظنهم سببًا في التدهور الدائم لصحتها، اختارت العزلة عن أهل القرية، حتى كتب علي هذه الكنبات أن تظل مهجورة لا يجلس عليها أحدًا، وكتبت على زوجها الوحدة والوحشة، كانت البهجة الوحيدة له في هذا البيت عندما يلتقي صدفة بعيون (نهال) (نهال) التي أصبحت عانس القرية التي لم

تتزوج، على الرغم من أنه هناك من هن أقل منها جمالًا تزوجن، ومن هن فقدن أهلهن وتزوجن، لذلك كانت (نهال) تظن أن خالتها تبعد عنها العرسان، ولكن عنوستها هذه كانت تسعدها، لأنها تنتظر معجزة السماء التي تجمع بينها وبين الحبيب الذي اختاره قلبها، ذلك الشاعر الذي طوحت أشعاره بعقلها وقلبها، كانت تفتح النت بالساعات لتقرأ كل حرف يكتبه، تعيش مع صوره هائمة في قسماته، وتجرأت (نهال) متخذة قرارًا بأن تهاجمه بحبها، رغم تأكدها أنها ستكون واحدة من بين آلاف المعجبات، وربما لا يهتم برسائلها، ولكنها لم يعد لديها طاقة لتتحمل فوران الحب في قلبها دون أن يعرفه، تقنع نفسها بأنه ربما يساعدها صده لأن تنساه، ربما تكشف لها ردوده سماجة شخصيته، وتكتشف أنه وهم من صنع خيالها، ولكنه حتمًا لا بد أن تأخذ قرارًا حاسمًا بالمواجهة، وأن تحاصره برسائل الحب المهملة في قلبها وعقلها، حاولت أن تقنع نفسها بالتراجع خشية أن يهدر كرامتها، لكنها مقتنعة بأن الاعتراف بالحب سواء كان من الرجل أو من المرأة لا يهين الكرامة، بل إن الذي يبدأ يستحق التقدير، تحاورت كثيرًا مع نفسها قبل الإقدام على فتح صندوق رسائله مرة أخرى بعدما مرت كل هذه السنوات، وكانت النتيجة أنها صممت على قرارها، لأنها تحتاج إلى مغامرة تعيدها إلى الحياة، الحياة التي لا تستحق أن تعاش دون أن تكون فيها مغامرة، ولأن المواجهة أصبحت تلح عليها، ولأنه هو الحلم الوحيد الذي تبقى لها في هذه الحياة ويستحق أن تدافع عنه، كفاها تنازلًا عن جميع أحلامها، إنها المعركة الوحيدة التي لا بد أن تخوضها بجسارة وليكن ما يكون، لن تخسر أكثر مما خسرته، ستراسله باسمها المستعار، ولن تكشف له عن نفسها، إلا بعدما يقع أسيرًا في هواها ملحًّا عليها لتكشف له عن شخصيتها، وسترفض بدلالٍ أن تصرح له عن شيء، رغم أنها متأكدة أنها لن تقوى على الدلال، وستخر أمامه ساجدة تعترف بكل شيء دون مناهدة، وعندما طلت من شرفة المكتبة فاجأها القمر متلصصًا مبتسمًا، فظنت أنه جاءها يبارك قرارها؛ فراحت تجرب أن تلقي أشعارها التي كتبتها هائمة في عينيه، فتراءى لها وجهه مبتسمًا يجاور القمر، أسكرتها طلته، تفتح الكمبيوتر ترتعش عضلاتها عندما تفتح صفحته ترسل له رسالتها الثانية:

****

«الناس يا حبيبي يتهمونني/ بالبلاهة والجنون/ لأنني... دون أسباب واضحة... أبتسم/ إنهم في الحقيقة معذورون/ كل هذه الأخبار السيئة، المنتشرة في شوارع المدينة/ عن أبرياء وقتلة/ بينما أنا أشرح لهم/ أن وجهك المرسوم على جميع حوائطي/ يبتسم لي ابتسامة حلوة/ خدرت أوجاعًا، كانت تسكن روحي/ كل شيء هنا يا حبيبي، يعادينا/ الشوارع والميادين التي كانت بالأمس/ تفرح برقصتي/ تحاصرني الآن بالخوف/ وتهامسني عيونك

أعود للنسيان مرة أخرى، وأبتسم/ كيف لي أن أشرح لهم/ أنني الآن لا أسمع سوى الموسيقى/ وأنا أذوب رقصًا مع البنفسج/ على هذه الأرصفة الميتة»

****

أنهت الرسالة وجميع عضلاتها ترتجف، وأسرعت بإغلاق الكمبيوتر فور إرسالها، حتى لا تفاجأ برد منه يربكها، راحت تدور وتدور حول نفسها خارجة تارة للقمر، جالسة تارة أمام الكمبيوتر مترددة في فتحه مرة أخرى، تنفخ متمنية أن تدخن، لو أنها تسرق سجائر زوج خالتها وتدخنها كلها مع بعضها في أبخرة واحدة، لتخرج من صدرها دخان اللهفة على معرفة رد فعله، تهرب من التخمينات، تنتظر بشغف المفاجأة، انتظرت ساعة تحملتها على أعصابها، حتى تجرأت وفتحت الرسائل وفهمت أنه قرأ الرسالة، ثم أغلق صفحته دون أن يرد عليها بحرف، كادت تنهمر بكاءً ولكنها أقنعت نفسها بافتراضات كثيرة ربما يكون مشغولًا، أو كان بين أصدقائه يؤجل الرد عليها حتى يخلو له الجو، لكنها انتظرت كثيرًا تتلهى بأشياء كثيرة كأشغال المطبخ، أو التنظيف أو مساعدة خالتها في الاستحمام، أشياء كثيرة استهلكت الليل حتى طلوع الفجر، وفتحت صفحتها دون أن تستقبل أية رسالة تأتيها من أي شخص.

مرت الأيام بعدها وهي تنتظر منه أن يقول شيئًا حتى ولو في منشوراته، ولكنه كان يرسل أشعارًا تبكي حبيبته التي ضاعت، ولاحظت أنه لم يعد يلتفت إلى تعليقاتها على منشورات أشعاره، حتى شعرت بالإهانة، وأخذت قرارًا بأن تتجاهل منشوراته نهائيًّا، وعزمت على أن تحذفه من بين أصدقائها حتى تنساه، ولكن قلبها لم يطاوعها على هذه الفعلة أبدًا، قررت أن تتعامل معه كشاعر تعجبها أشعاره فقط، كجميع الشعراء الذين تحب أن تقرأ لهم وفعلت ذلك لعدة أيام ولكنها لم تستطع مكابدة حبها الذي يفيض وكأنه يتحدى عناده، وراحت تكتب له مسطولة بنوبة هيمان أخرى في عينيه، التي هاجمتها تبتسم تجاور القمر، عندما كانت تستعطف القمر تتودد إليه ليحقق لها أمنيتها، ليخفق من أجلها قلبه، وكان القمر منصتًا حزينًا، لكنه على أية حال كان يبتسم، كتبت تقول له:

****

«لست نادمة يا حبيبي على شيء/ لأنني اكتشفت مؤخرًا، أن الشعراء يبحثون لحكاياتهم عن أميرة/ وما أنا سوى امرأة عادية/ تبكي كالأطفال الذاهبين إلى المدارس في الصباح، يغلبهم النعاس/ ولكنها في المساء/ تطوف بالمانيكانات التي في محلات الملابس/ وكل الذي تستطيع أن تفعله من أجلك، في هذه الحياة/ أن تسرق هذا الفستان المصنوع من الورود/ قبل أن يرتديه هذا المانيكان/ تتوهم أنها قادرة على أن تسحرك لحظات بورود حقيقية/ لكنك كنت مسحورًا بالعطر الذي يفوح من كف الأميرة/ لك الآن أن تفرح يا سيدي/ لأنني أخيرًا اقتنعت/ أن المسافة التي بيننا كبيرة/ ولكنني عندما عدت إلى قريتي/ كاد يقتلني الرعب/ وجدتهم يزفون صبيًّا سرق خبز جارته لأنه جائع/ خلتهم يزفونني معه، لأنني سرقت فستانًا من أجل حلمي/ ولكنهم يا حبيبي لا يزفون من يسرق أحلامنا/ إنهم يا حبيبي يمجدون اللصوص/ يمجدون لصًا يسرق بيتًا من قصيدة/ ودولة

سرقت حضارات الشعوب/ لذلك سأحاول أن أسرق بطريقة أخرى/ لن أسرق فستانًا من أجلك/ سأحاول أن أسرق أشياء أخرى/ لأن المجد على ما يبدو دائمًا للصوص»

****

انتظرت ساعات طويلة دون أن تغلق حسابها هذه المرة، ظلت عاكفة أمامه تعبث بصفحته، تترقب ظهوره حتى يقرأها، ولكنه أيضًا قرأها دون أدنى تعليق، فراحت تبكي بكاءً مريرًا للقمر، نادمة على ما فعلت، تتهم نفسها بالتسرع الذي يقودها لمعارك لم تخلق لأمثالها، وفي الليلة التالية وجدته ينشر صورته التي كان يلتصق فيها بكتف إحدى نجمات المجتمع، فاشتاط عقلها وقلبها غيظًا، وأرسلت له رسالة تقنع نفسها بأنها الرسالة الأخيرة تقول له فيها:

****

«العصر يا سيدي هو عصر الصور/ والكاميرا لا تألف وجهي/ فلا تنتظرني يومًا بين النجوم/ إن كان ولا بد أن تراني/ فأنا هنا/ اخترت أن أكون بين الوجوه المتعبة/ التي تحب في السماء أشياء أخرى، سوى النجوم»

****

وقرأها أيضًا مسرعًا دون تعليق، ولكنه بعد ساعات نشر قصيدة يقول فيها، أنه ينتظر الحبيبة التي ستأخذ بيده إلى القمر، ساعتها دق قلبها ورفرفت جناحيها وشعرت أنه كتب هذه القصيدة من أجلها، وأنه كان يزور معها كل يوم القمر، وراحت للقمر تسأله أسئلة كثيرة، والقمر كعادته كان يبتسم دون أن يجيبها على سؤال واحد، ظلت لليال طويلة بعدها هائمة تنتظر أن يرسل لها رسالة لتبدأ حكايتها مع الحياة، ولكن الأيام تمضي والليال ويغيب عنها كثيرًا، ويظهر كثيرًا، ويسهر كثيرًا، وتسهر هي الأخرى معه ومع القمر، دون أن يحدث شيء، فأرسلت له رسالة تقول له فيها بعدما غاصت عيونها في إحدى صوره الحزينة:

****

«تهديني الصمت، وأنا التي أهديك الكلام/ الكلام لغة والصمت لغة/ ولكل لغة حروفها السرية/ نظنها تخفى عن المتلصصين الغرام/ أراك في صمتك تهذي/ أبلغ من هذياني أنا في الكلام»

****

ولكنه لم يعطها بالًا رغم قراءته للرسالة، أخذت وقفة حاسمة مع نفسها تحاول أن تتلهى بأي شيء يمكن أن تنسى فيه هذه القصة الخائبة، انشغلت بمكتبة زوج خالتها تبحث فيها عن الكتب التي من الممكن أن تقرأها، وجدت بها كتب في السياسة والأدب والفلسفة، قررت أن تتلهى بالقراءة وعكفت عليها فترة، لكنها كانت بين الحين والحين تفتح صفحته تتابع أخباره بشغف، بينما هو يرسل بين الحين والحين منشورات يحكي فيها الفشل في قصص حبه، متألمًا من وحشة الوحدة، فكان ذلك دافعًا لأن تترأف بحاله، وتفرض نفسها على مشهده مرة أخرى برسالة جديدة، ربما يفهم أنها تنتظره:

****

«لم يعد لي يا حبيبي من الأماني سوى اثنتين/ أن يختل ميزان الحياة وتميل كفته/ ساعة واحدة/ ناحية البؤساء/ وأن يتعانق الشوق الحارق في عيوني وبريق عينيك/ لحظة واحدة»

****

انقضى جزء من سنوات عمرها هكذا بين القراءة ورسائلها له، التي يقرأها دون أن يكلف نفسه مرة بأن يرد عليها بكلمة واحدة، حتى يئست من فكرة أن هذه الرسائل ستكون يومًا سببًا لعلاقة حقيقية بينهما، ولكنها اكتشفت قدرتها على كتابة القصة، راحت تكتب قصصًا وتعرضها على أصدقائها في الأمسيات القليلة التي كانت تجاهد لإقناع خالتها حتى تسمح لها بحضورها، أو عن طريق الفيسبوك، قوبلت تجربتها القصصية بالقبول ومع الأيام بالاعتراف بموهبتها، ومع الأيام انصرفت عن كتابة القصة إلى كتابة الرواية، وبدأت في كتابة أولى

رواياتها، وعندما نشر صورة جديدة كانت ابتسامته فيها تضيء لها العالم، تملؤه نعيمًا وفرحًا لم تستطع أن تكبح جماح رغبتها في أن تقول له "صباح الخير".

أرسلت له رسالة تقول له فيها:

****

«صباح الخير يا حبيبي/ أرسلها إليك أمام العالم/ لأنك ترفض أن أهمس بها لك وحدك/ ولأنها زهقت من احتباسها في أعماقي/ تتمنى أن تخترق المسافات/ فتلامس نبرتي أذنيك/ ستسمعها وستمضي كعادتك دون اهتمام/ لكنها يومًا ما ستصير لحنًا/ تهرب من سيطرته عليك/ صباح الخير يا حبيبي»

****

على الرغم من أنها سئمت الرسائل، إلا أنها كانت تتلهف في الأعياد والمناسبات، تنفس عن نفسها مرسلة له رسالة، ليفهم أنها ما زالت على عهده رغم انقطاع رسائلها، وأنه الحب الذي لن تزحزحه السنين من قلبها، فكتبت له ذات عيد تقول:

****

«أعطني بعضًا من صمتك/ على الكثير من كلامي/ ربما أستطيع أن أصنع لحنًا/ أهبه للفقراء والمحرومين/ أن تصنع عيدًا لهؤلاء/ هو أسمى ما في الوجود/ لهم العيد ولي أنا أن أحبك/ كل سنة وأنت حبيبي»

****

ترسل له الرسائل المتقطعة دون أن تنتظر ردًّا يأتيها، لأن الرد جاءها فعلا من نظرته الحلوة لصورته الجديدة، وكأن هذه الصورة نشرها ليقول لها في ملامحه كل ما تريد منه أن يقوله، حتى أنها وهبت عمرها لهذه الصورة، وكأنها تتلقى الرد على رسائلها من نظرته الحلوة لها في تلك الصورة فتقول له:

****

«اتصور يا حبيبي اتصور/ تصور/ بحبك أكتر كل ما تتصور/
بأشوفك من زاوية جديدة/ بتأكد إني بعيدة بعيدة/ تصور/
أنا كنت زمان بحب القمر»

****

وذات صباح مشرق نشر فيه صورة له وهو يدخن سيجارته، ويطل على العالم بنظرة رومانسية حالمة دوختها، وكأنه يتأملها برومانسية ساحرة سطلتها، جعلتها تكتب له:

****

«الرومانسيون يا حبيبي/ يفضلون الليل/ الليل الذي لا
يبدل سوداه/ الرومانسيون يا حبيبي/ يتبرءون من الصباح/
لأنه يسجن القمر/ لكن الصباح الذي يطل من عينيك/
يبدر الدفء في قلوب الحالمين/ يتراقص فيه النور منفعلًا/
برائحة الخبز والطين والعرق/ أحب هذا الصباح/ الذي
يهديني حصانًا بأجنحة/ أطير به إلى مدينة السحاب/ لأتأكد
أن الله الذي صنع/ للفقراء مدنًا فوق السحاب/ عادل/ لأنه
صنع لي وحدي/ صباحًا رومانسيًّا كهذا الصباح»

****

ساعدها هذا الحب البائس على الاستسلام التام للحياة في القرية، رغم أنها تتمنى الذهاب إلى القاهرة لحضور ندواته، ولكن هذه الرغبة لا تلقى حماسًا منها، بسبب أميراته اللاتي يلاحقنه كما تؤكد لها الصور، ومع مرور السنوات علمت أنه أنشأ دارًا للنشر، راح خيالها يبني أوهامًا جديدة، وهي أن تستكمل الرواية، وتذهب لمقابلته بغرض طباعة روايتها، فكتبت له رسالة واهمة لأن يفهمها:

****

«ذات شتاء سنلتقي/ ربما في صباح رومانسي/ كهذا الصباح البارد/ ربما يرق قلبك/ وتختطف كفي الباردة/ ساعتها/ سأفك قيد مشاعري/ لأنني عاهدت الصباح/ ألا تكون حرة/ إلا عندما أخرج من أجله/ لا من أجل حفنة جنيهات/ تضيع في وجبة ساخنة/ الوجبة الساخنة التي/ يضيع من أجلها كل شيء.

****

ولكنه كان أيضًا مشغولًا بصوره مع الأديبات اللاتي يتوافدن عليه كل يوم ليطبع لهن القصص والروايات والدواوين الشعرية، أصبح الفيسبوك يمتلئ بصور له ولهن حتى أنه لم يعد يقرأ رسائلها إلا بعدما تمر عليها عدة أيام، ولكنه على أية حال كان يقرؤها، وراح ظنها أنه ضاق ذرعًا بهذا الحب الكئيب البائس قليل الحيلة، فكتبت له رسالة تقول فيها:

****

«أتوقع أنك ستنسف/ هذا المكان الذي يجمعنا/ بقنبلة ذرية/ يمكنك أن تفعل أشياء أخرى/ فتتخلص مني بطريقة ليست دموية/ تساعدني أن أرحل

يمكنك أن تحذف صورتك التي تغويني/ فمدينة الفقراء التي في عينيك/ هي التي تبتسم في وجهي/ وهي التي تناديني/ ولكنني منذ اللحظة/ سأحب ألف رجل سواك/ سأكون امرأة حطاب/ يعود إليَّ آخر اليوم/ بابتسامة جمعها من أجلي/ ولن أقف آخر الطابور/ ألقف ما تبقى من ابتساماتك»

****

ولكنه على ما يبدو لم يعد لديه وقت لهذا الحب الأبله، لأنه أيضًا على ما يبدو لها من كثرة المنشورات أنه يصب كل طاقته في ازدهار الدار وانتشارها على مستوى العالم العربي، أدركت ذلك من الفرحة التي تسكن وجهه في صوره التي

يعرضها دائمًا وهو يوقع العقود مع الأدباء، وتحقق له فعلًا في فترة قصيرة شهرة عريضة، بعدما استأجر مكانًا لها في وسط البلد، وراح يطبع لكبار الكتاب ويقيم حفلات التوقيع والندوات التي يستدعي لها أسماءً شامخة، وزادت شهرته واتسعت دائرة علاقاته ومعارفه وأصبحت الدار في ظرف سنوات قليلة رائدة من رواد الثقافة في العاصمة، يزورها قامات المثقفين والمسئولين عن الثقافة والإعلام، والتف حوله الفنانون المشهورون المهتمون بالثقافة، وتحولت الدار إلى منبر ثقافي وثوري يستوعب اندفاعات الشباب الثائر ضد فساد الحكومة، وذاع صيته أكثر عندما تعرض لمهاجمات أمنية أغلقت الدار على أثرها فترة، وكأنها كانت حيلة اخترعها لبلوغ الشهرة ذروتها، فأصبحت تنافس دور النشر العظمى في الرواج والإقبال على الطباعة لديها، وتأكدت (نهال) أن النجم الذي كان قريبًا وكانت تأمل في الوصول إليه وكان الأمل شبه مقبول، أصبح الآن نجم النجوم وانطفأ في قلبها وميض الأمل الأحمق، الذي كان يصور لها أوهامًا أضاعت كرامتها من أجلها هباءً، وحاولت ببلاهة مشاعرها أن تقترب منه ذراعًا بينما القدر كان يبعده عنها أميالًا، فقررت أن تنشئ حسابًا جديدًا باسمها وأن تهمل هذا الحساب الوهمي، وهذا الصندوق الذي يحمل رسائلها لا بد أن تنسفه، ولكن كيف لها أن تنسفه نسفًا من قلبها، فتركته مهملًا في قلبها كما تركت صندوق رسائله مهملًا بما فيه وستترك له فيها آخر رسائلها الحزينة:

****

«كنا ثلاثة/ نتقاسم الشاي والقهوة/ على الطاولة/ قال الصمت/ وقال الحزن/ وقلت أنا في آن واحد/ يومًا ما/ ستعود الحياة إلى الحياة/ ربما أكون مع الناجين من الخطر/ وربما لا/ لم يعد يهم/ لا تبحث في هذه المدينة عن الحقيقة/ المدينة التي بلا عيون/ ليختبئ الحزن، والصمت فيها/ لم تعد طيبة

الحزن الذي صار حرًّا طليقًا/ يتقافز على العيون بجنون/ يمنع قلبي الرقص مع الألوان/ يصبغها بلون واحد/ يقف

حائلًا بيني وبين الموت/ الموت الحقيقي أيها الحزن/ أن تغلق المقهى والمرقص/ أن يمزق الصمت رسائلي/ قبل أن تصل إلى الرجل الذي أحبه/ أو يمزق له رسائله/ ليفرق بيننا الصمت الذي يشترط/ أن يلاعبني الطاولة أولًا/ لا يصدق أن المقاهي قد أغلقوها/ والمدينة التي بلا ليل ولا قمر/ لا مكان فيها يصلح للعاشقين/ النجوم التي تمشي على الأرض/ تتصارع على سلم وحيد/ موصول بسمائك البعيدة/ تفضل أن تدوسها العيون بحقارة/ كأنها شذرات/ زجاج منكسر سعادتها أن تلمع بين المتناحرين على الأرض/ النجوم التي تمشي على الأرض/ تشكرك/ لأنك تسمح لها بأن تحبك/ وهذا الرحم المنكمش/ متقرفصًا في أحشائي يتمزق/ ترتعش جدرانه ألمًا وخوفًا/ ملَّ مقاومة البرودة التي تأتيه من كل اتجاه/ يكتم ثورته/ كي لا يفهم أحد أنه/ يموت عطشا إليك/ ولكنه الآن قرر أن ينفجر/ دون ثورة/ لينهي عذابًا بلا معنى/ سيموت دون لقاء أو وداع/ ستتحطم جدرانه تائهة في هذا الكون الأعظم/ دون أن يتألم من أجله أحد/ سيشيعون جنازته/ دون أن يمشى فيها أحد/ لأنه مات كافرًا منتحرًا/ يرفض العطش والانتظار/ يرفض الثورة والألم/ انتحر ليفسح طريقًا/ لسكان هذا العالم/ ليقيموا ثورات تليق بهم»

****

وتفر منها السنون دون أن تأخذ بالها، حتى أفاقت مصدومة بقدوم أمها لتعزيها في موت خالتها، تعانقها دون شوق ولا حزن ولا فرح، لأن ذهنها منشغل ساخر من الحياة التي جعلتها لا تعرف ماذا تقول لأمها، التي جاءت تعزيها في أمها، ولكنها رغم كل شيء تلمح في الأفق بصيصًا للفرح، لأن مهمتها انتهت، وحتمًا ستعود مع أمها إلى القاهرة، وستلتقي أخيرًا بصديقاتها، ستحكي لهن عن حبها البائس، وستحكي لهن كثيرًا عن حياتها الكئيبة في هذه القرية، تتشوق لأن ترى

شغفهن للحكاية يلاحقنها بالأسئلة، وسيحكين لها عن حفلة المدرسة، وعن العرض الذي قدمنه بدونها، تتمنى أن يكن ما زلن أطفالًا مثلها، وأنهن ما زلن ينتظرنها على سطح منزل صديقتها (ليلى) ليسهرن عند القمر، القمر الذي كان شاهدًا على سنواتها التائهة هنا، وعلى حبها التائه عبر إشارات الشبكة الفضائية، وتبخر بصيص الفرح، ولجمتها أمها تفاجئها بولولتها، لأنها فقدت إعانات خالتها، ولأنها ستثقل عبئها الذي لم يعد يحتمل، تمنت لحظتها أن تنشق الأرض لتبتلعها، أو أن يكون الله رحيمًا بها ويرسل إليها ملك الموت ليأخذها، وباتت ليلتها على الكنبة التي في حجرتها ترفض أن تجاور أمها على فراشها، ولاحت لها فكرة الهرب، لتعيش على أرصفة الشوارع تجاور الكلاب والقطط، بدلًا من أن تعود مع أمها الحزينة لعودتها، لكن القدر كان له ترتيب آخر.

دخلت عليها أمها مشرقة الوجه بعد انقضاء اليوم الثالث لعزاء خالتها، تبشرها بأن زوج خالتها رفض رفضًا باتًّا أن تعود (نهال) معها، وعندما واجهته بأن وضعها لم يعد يصلح لبقائها معه وحدها، لمح لها خجلًا بأنه يريد الزواج بها، وأنها أولى من الغريبة بماله، لأنه لن يستطيع أن يعيش وحيدًا في هذه الدار الواسعة دون ونس.

باتت (نهال) ليلتها مندهشة متحيرة في ذلك القدر، الذي دار بها كل هذا الدوران، متحيرة تسأل نفسها: "ترى هل يفعل القدر هكذا بجميع البشر؟! لماذا لم تكن أمها ككل الأمهات؟ لماذا لم ترض بأن تجوع أو تتعرى دون أن تفرط في ليلة واحدة تكون فيها طفلتها بعيدة عنها؟! لماذا لم تكن خالتها هي أمها؟! لتعطيها الحب الذي كانت تحتاجه حقيقة لا تمثيلًا، لماذا لم يكن زوج خالتها هو أباها الحنون؟! لماذا كل هذا الدوران وهذه الألعاب الساخرة بأحلام البشر؟!".

قررت أن تنفذ قرارها بالهرب، لتختار مصيرًا آخر غير هذا المصير العبثي، وبعدما جمعت أشياءها المهمة، رنت في أذنها عبارة أمها التي قالها لها زوج خالتها:

- «(نهال) أولى بمالي من الغريبة»

هبطت عزيمتها هذه الجملة قليلًا، وجعلتها تفكر في أشياء لم تكن تخطر ببالها. أفاقت من دفء الذاكرة على صوت السائق يطلب منها على استحياء أن تدفع الأجرة، ناولتها له تسأله:

– «فاضل قد إيه على المنصورة؟»

اكتشفت أن ساعة ونصف الساعة كانت كافية لأن تتذكر أحداثٍ تجاوزت الثلاثين عامًا مرت بحياتها، وهاجس يقول لها:

– «إن الحياة كلها بما فيها من أحداث مفجعة، ما هي إلا ساعة وستنتهي إلى لا شيء»

عادت إلى منزلها بتاكسي مخصوص تدخل به القرية النائمة في عسل الشتاء والليل، بينما هي هائمة دافئة بـ(جلجل) وصاحبه، تبحث في السماء عن القمر الناعس خلف السحاب.

تتذكر (جلجل) وعيونه الحزينة ينظر إليها متعمقًا، وعندما خرج يسبقها ليقف بعرض الباب ليمنعها من الخروج، فترقص روحها تتمنى أن تلمح على سلمها كلبًا أو قطةً شاردة لتنقذهما من البرد، لتمنحهما عطفًا وهي تملس على فرائهما، تتمنى لو أنها تستطيع أن تعانق جميع كلاب وقطط العالم، معتذرة عن شراستها لتدفع عن نفسها خطرًا توهمته، تسخر من نفسها كم ابتسمت من قلبها لوجوه ناعمة، دون أن تحذرها أو يخطر ببالها أن الإنسان هو الوحش الأعظم لهذا الكون.

❊❊❊❊

(١٠)

كان يومًا ساحرًا، كل شيء في الكون متصالح مع الآخر، الشمس ترقص مع الرياح، والرياح ترقص مع الشجر، والشجر يرقص مع العصافير والعصافير ترقص مع الصياد، والصياد يرقص مع مركبه، والمركب يرقص فوق سطح النيل، الكون اليوم كان مزاجه عاليًا جدًّا، انتقل إليها سريعًا هذا المزاج المبهج، وانتعشت روحها هائمة في أحضان الطبيعة، تستشعر جلال الله وعظمته فيها، كثيرًا ما يسيء مزاجها، عندما تكون الشمس شرسة ناتئة تسبح وحدها في ملكوتها الخاص، تتخاصم وتتعالى على الوجود، أو عندما يكون الريح شرسًا متحديًا لا يقبل أن ينام أحد في أحضانه، أو تغطى السحب وجه السماء وتتكاثف طبقات فوق طبقات، فتتوارى الشمس عن الأرض ذليلة أسيرة، كل ما في الكون في أغلب الأحيان يشعرها بالتحدي والصراع والاستعلاء والرفض التام للآخر، أما اليوم فهو حالة نادرة الوجود، كل ما في الكون يحني رأسه للآخر، ينام في أحضانه وديعًا مطمئنًا، وكأنها دعوة صريحة للحب والسلام، تتمنى في نفسها أن تشهد هذا الانسجام للبشر، ولو يومًا واحدًا على هذه الأرض، الإنسان يشبه هذه الطبيعة التي في عراك مستمر مع بعضها البعض، كل منها يحاول السيادة، كل منها يحاول أن يقهر الآخر، الطبيعة يمكن لها أن تتنازل عن جبروتها يومًا من الأيام، لكن الإنسان لا يتنازل حتى وهو على فراش الموت، وربما يكون مظلومًا، ربما يتلهى بمعارك وهمية تهربًا من أفكار قد تجره إلى العبثية.

لم تعانِ كثيرًا في رحلتها من المنصورة إلى القاهرة هذه المرة، وصلت في الموعد المحدد تقريبًا الثالثة عصرًا، فتح لها الباب (إبراهيم) يستقبلها وحيدًا مبتهجًا بمعطفه النبيتي العتيق، ينتعش شبابًا وحيوية أكثر مما كان عليه في لقائهما السابق، يتسلل بين قدميه (جلجل) ليسبقه إليها، انحنت تملس على شعره وهو يتقافز على ساقها فرحًا، اصطحبها (إبراهيم) إلى مكتبه متأسفًا لما تمر به من كركبة كثيرة لرزم الكتب المرصوصة جنبًا إلى جنب، معللًا ذلك بأنه ما زال

يستعد للمعرض، صافحها مقبلًا كفها يدعوها للجلوس على الكرسي الأبيض بجواره، ارتبكت تجلس قبالته على الكرسي الذي يفصل بينها وبين مكتبه، فجلس هو على مكتبه مخذولًا يعيد صياغة نبرته إلى نبرة ترحيب ملتزمة بتعبيرات المجاملة الجادة وهو يملس على شعر (جلجل) الذي قفز على الكرسي الأبيض جواره، أخرجت المبلغ الذي حدده لتكاليف الطباعة من حقيبتها، وناولتها له تطلب منه أن يتأكد من صحته بعده؛ ففعل شاكرًا مؤكدًا أنه سيحيل روايتها إلى مدقق اللغة اليوم، وستستلمها مطبوعة فور انتهائه من المعرض، أخرج عقدين من درج مكتبه وناولهما لها لتوقعهما، قرأت مسرعة بنود العقد، وتأكدت من مطابقة الأصل للصورة، ثم وقعت وناولته الأصل محتفظة هي بالصورة، توقعت أن يأخذ لها صورة لينشرها على الفيسبوك كصوره مع صديقاته الأديبات ولكنه لم يفعل، على ما يبدو فالصورة شرطها أن تجلس بجانبه على كرسي أميراته، استأذنها ليصنع لها الشاي، تاركًا زجاجة البيرة التي كان يشربها، راحت تتفحص الحجرة بنظرة شاملة كان كل شيء فيها كما هو في مكانه، وكأن الزمان لا يغير في هذا المكان شيئًا، جاءها بالشاي وراح يعرض عليها بسيجارة، بينما (جلجل) يحوم حول ساقيها، راحت تبادله مداعبته تحاول مع نفسها لأن تستسلم لرغبته لتأخذه بين ذراعيها، وفعلت تقاوم خوفها من أن يغافلها ويخربشها أو ربما يعضها، لكنها استسلمت له تداعبه سعيدة بجلوسه على فخذيها تملس على شعره، بينما عيونه تلمع فرحًا منفعلة بمشاعرها الفياضة نحوه، متشعلقًا على كتفيها وكأنه يعلن لها عن حبه بالتجول على جسدها، صاح فيه (إبراهيم) ليتركها ويأتي جانبه، متأسفًا لها على كل هذه المضايقة، لكنها هامت شاردة تحكي له عن قسوتها معه، وكيف استطاع (جلجل) بذكاء تعديل موقفها وجعلها تحبه، لكنه لم يكن يسمع شيئًا من كلامها، كان هائمًا في وادٍ آخر، متأثرًا بنبرة صوتها العفوية الدافئة، ودون إنذار وجدته واقفًا بجانبها يمسك بكفها، تلمع عيونه الوديعة الحزينة وكأن الحزن هو الحب يقول لها:

- «تعالي هنا جنبي على الكرسي دا عشان أسمعك كويس»

وجدت نفسها فجأة أميرة على كرسي أميراته، أشعل لها سيجارة يضعها برقة بين شفتيها، بعدما اقترب بكرسيه ليلاصق كرسيها، هائمًا في نظراتها المستسلمة، وبرقة راح ينفض رماد سيجارتها المتساقط على فخذيها، وتسرح كفه الدافئة تعزف على أوتار جسدها، تسطلها أنفاسه المثيرة برائحة التبغ، لم تفهم كيف وصلت شفاهه المرتعشة لتلتهم رعشة شفاهها، لم تصدق نفسها عندما أدركت أنها الآن في أحضان الرجل الذي ضاع عمرها وهي تتمناه، الرجل الذي لم يهتم برسائل حبها وعذابها، يشدها إليه بقوة لتنتفض واقفة، يعتصرها بقوة تجعلها تتفتت في أحضانه جمرًا، يذوبان في القبل والعناق، أفلتت من قبضته بصعوبة عندما هجم (جلجل) عليها متسلقًا ساقها، تصدر لها لحظتها وجه (فتحي) بنظرة بائسة، ابتعدت تداري خجلها من نفسها، تصلح هيأتها، تتصنع الجدية وهي تستأذن لأنها تأخرت، عبثًا توهمت أنها استطاعت مقاومته، بينما كان هو منشغلًا يخدع (جلجل) ليخرج به من الحجرة، عاد مسرعًا يغلق الباب في وجهه، يضحك لتفهم أنه أبعده لأنه يغار عليه منها، ظل (جلجل) يخبط رأسه في الباب حتى يئس جالسًا جانبه، جذبها إليه مسيطرًا على تغيرها المفاجئ بلمسة من عيونه الحارقة الهائمة، فاستسلمت لحلاوة اللحظة ودفئها بسهولة، وسقط من أمامها وجه (فتحي) يظن (إبراهيم) أنه اقتحمها بخبرة صياد يلتقط لحظات الضعف بذكاء، وأنها استسلمت وسلمت له جميع حصونها دون أدنى مقاومة، لن يفهم أبدًا أن تلك الحصون انتظرته كثيرًا، وسجدت له في خيالها كثيرًا كثيرًا، وأنها كانت عازمة على المقاومة، كانت تتمنى أن يتعذب برغبته فيها، ولكنها انتهزت اللحظة خوفًا من أن تضيع في المقاومات الفارغة، لأنها تعتقد أن الحب الحقيقي هو الذي تسجد له جميع حواسك لحظة أن يناديك، الحب لا يصلح له التخطيط، لأنه النور الذي لا يعرف قيمته سوى الأعمى، ربما نحكي للأعمى ألف حكاية وحكاية عن النور، ولكن هذا لا يساوي أبدًا لحظة أن يلمس النور عينيه، هذا بالضبط هو الفارق بين من تناديه الحياة وبين من يسمع عنها، فتركت نفسها لتعيشها.

مر بهما وقت طويل تائهين في جنة الحب وسطله اللذيذ يرفضان الخروج، أفاقهما جرس الباب، انتبه يناولها ملابسها المتناثرة في أرجاء الحجرة، يستعيد

هو الآخر ملابسه، يساعدها وتساعده، يمسح لها لخبطة ألوان وجهها وتمسح له رائحتها التي عبأت خلاياه، ورغم كل ما فعلاه لإصلاح هيئتهما إلا أنه كان لا بد أن يفهم من يدخل الآن أنه جاء في وقت غير مناسب، لأنه أفسد على الحبيبين لحظة بداية الحب، غرقا ضحكًا عندما فُتح الباب وفوجئا بـ(جلجل) راقدًا مستسلمًا يوزع نظرات العتاب بينهما، تجاهله مسرعًا ليفتح الباب، بينما هي تلخبطت مشاعرها بين الألم والفرح تجول بعينيها على الجدران التي أصبحت شاهدة على لحظات ضعفها، ترمي هذا الكرسي بنظرة احتقار، وكأن سر السقوط مدفونا فيه، أفاقت من سكرات الحب على الألم والندم، تحولت في لحظات إلى محللة شرسة لجميع أفعاله، تتلمس خيطًا تدافع به عن نفسها أمام نفسها، ربما يكون خدرها بمخدر في الشاي، أو في دخان سجائره، ينتابها شعور أن كل شيء يقابل عينيها يخفي عنها حقيقته، وأن الحقيقة الوحيدة أنها دخلت عالمه وستخرج منه دون أن تلمس حقيقة.

لكن شفاهها لن تنسى أبدًا رعشة قبلته، ولن ينسى جسدها رعشة ضمته، لن تنسى سحب وغيوم نظرته، (إبراهيم) كان ليلة شتوية همجية، ربما أخطأت لأنها تعاطفت مع قسوتها، وتركتها لتهدأ قليلًا على نهديها حتى صارت مطرًا رهيبًا، ربما أنقذ أرضها التي كادت تموت عطشًا، (إبراهيم) كان حلمًا نائمًا في خيالها، وجدت نفسها فجأة طائرًا شريدًا في سمائه، واستطاع أن يمحي التاريخ الذي سبقهما، ويأسرها في لحظة تعيشها وتعيشه بكل كيانها، قرأته وقرأها دون أن يبوح أي منهما للآخر بشيء، إنها على ثقة أنه لا يتذكر اسمها كاملًا، وربما ينسى اسمها بعد ذلك نهائيًا، ولكنها أيضًا واثقة أنه يستطيع أن يحكي عنها أهم تفاصيل حياتها التي أرست قلاعها في أحضانه، لن تنسى أبدًا نظراته البلهاء تجول بجسدها متلذذة بعريها، منبهرًا بقدرته على أنه استطاع أن يعريها، إن الذي يتعسها الآن حقًا هو أنها خرجت من حياته قبل أن يفهم، أنها تمتلك الشجاعة لأن تواجه العالم عارية، لأنها لا تعترف بالحياء والخجل الذي يلازم العراة، لكنها نادمة على أشياء أخرى، لأنها لم تكن ملكًا لنفسها وأنها كانت أسيرة حب آخر، أسيرة عهد قطعته على نفسها، لأن تظل مخلصة للرجل

الوحيد الذي اقتنعت برجولته، الرجل الذي وهبها المعنى الحقيقي للحب، إنها الآن نادمة تلعن رغبتها المتأججة في الحياة لأنها خانت العهد.

عاد إليها بعد لحظات كانت كافية للخبطة مشاعرها، يقدم لها صديقه (حامد) الذي رحب بها منفعلًا بالمفاجأة، (حامد الزيني) روائي معروف من قرية تجاور القرية التي تعيش بها (نهال) وله بيت بها يزوره في المناسبات لأن استقراره الأكثر في القاهرة، قابلته (نهال) ذات مرة عندما احتفت به محافظة الدقهلية في أحد مؤتمراتها الثقافية، عرفها عليه صديقهما المشترك الشاعر (جمال مرعي) وتعمقت صداقتهما على الفيسبوك وهو يقرأ ما تنشره من قصص، ولكن علاقتهما بهتت بعدما انكشفت لها خسته وهو يحوم حولها، بعدما علم بقصة زواجها التي كانت حكاية الحكايات لقريتها والقرى المجاورة، يحاول استغلال مشاعرها كزوجة شابة، لزوج يذاع عنه أنه غير قادر على إسعادها كزوج، دون أن يدرك أن للحقيقة دائمًا وجوه عديدة، على الرغم من أنه أحد كبار الكتاب لكنه لم يقرأ الحكاية إلا من زاوية واحدة، زاوية تظهر له فيها كزوجة بائسة استعاضت بالأموال إرضاء أنوثتها، وقرأت في مصافحته الحميمة تخيلاته عن ما دار بينها وبين صديقه (إبراهيم) في هذه الخلوة، التي لن تسمح لرجل وامرأة بمقاومة نداء الحياة، تجلت لها رؤيته العقيمة للضعف الإنساني، دون أن يتوقع خياله أبدا أنها كانت تتمنى هذه اللحظة منذ أن تفتح قلبها للحب، وأنها لم تكن تعيسة في زواجها كما يظن، وأن زوجها الذي مات أحبته الحب الذي ستغلق قلبها عليه إلى الأبد، حتى لو أنها سقطت مرات ومرات في حرقة الرغبة والجسد، تلعن بينها وبين نفسها هذه الرواية التي فتحت الباب بينها وبين (إبراهيم) لن يفهم (حامد) ولن يفهم جميع من يدعى الثقافة، أن المرأة في نهاية الأمر تستفيق مسرعة من آلام الجسد ولذاته تبحث في الرجل عن لذة المعنى، بينما يظل الرجل متمسكًا بأن يبحث فيها عن لذة المادة.

استأذنت منهما تلملم نفسها بنفسها، تحاول ألا تعطي اهتمامًا لشخص سقط من حساباتها منذ زمن، بعدما فاجأها في إحدى رسائله المتبادلة بينهما تحديدًا بعدما هبت عليها تلك الثروة، يسألها مازحًا بخبث فضح لها ماديته:

- «طالما أن الثروات بتقع بسهولة على رءوس البشر كدا، ليه مانزلش على راسي ولو مرة واحدة رزمة جنيهات؟!»

وانقطعت بينهما الرسائل نهائيًّا بعدما رفضت عرضه بالزواج، لم يكن رفضها لأنها وفية لزوجها كما قالت له، أو لأن قلبها الذي تمرمطت كرامته في بلاطه دون جدوى لم يعد قادرًا على الحب، ولكن لأنها وهي فتاة بائسة فقيرة كانت تحتاج طبطبة الحب من أي رجل في العالم ليداوي لها جرحها، لم يفعلها ولم يطلبها للزواج، ولكن ثروتها جعلتها تليق به كزوجة، صادفت (نهال) في حياتها الكثير من أشباه (حامد) ورغم ذلك حاولت أن تتعايش مع انتهازية البشر، وتركت الباب بينهما مواربًا ليفهم أنها تحتاج الأصدقاء وقالت له ذلك صراحة، ولكنه هو الذي رفض صداقتها مصرا على إغوائها برسائل تتصيد ضعفها لتهوي بها في حرقة الجسد، بينما كان عقلها يقظًا يراه على حقيقته مصرًا على أن يصده، وانفجرت تكتب له ولأشباهه على صفحتها هذا النص:

****

«يا صديقي الذي هنا على الفيسبوك/ إذا أردت أن تغازلني/ فليكن هنا/ أمام العامة والمارة/ فأنا كأنثى أهوى مغازلة الرجال/ وأنت أكثر مني علمًا

أنه ليس كل الذكور رجال/ كي لا يروح ظنك بعيدًا سأشرح لك المسألة/ الرجل جسور لا يتوارى بأفعاله وراء حجاب/ الرجل يا صديقي هو البراح/ الذي يستوعب جنون امرأة، دون أن يضعها وراء القضبان/ الرجل يا صديقي هو الكف التي تستر الجروح/ لأن الرجل هو الإنسان الشارد في ضعفه/ أنصحك بأن تبحث داخلك عن الرجل/ وحينما يباغتك انفعال لتقول لي شيئًا/ فأنا هنا/ بسيطة أحيا مع هؤلاء البسطاء/ والبساطة ليست قدري كما تظن/ إنما هي اختيار/ والبسطاء ليسوا طيبين أيضًا كما تظن/ فكفوفهم الناعمة رمتني كثيرًا بالحجارة/ لكنني صامدة أواجههم

بجسارة/ لأن دمي لن يضيع هدرًا/ يومًا ما ستنهار لرؤيته قسوتهم/ يومًا ما سيفهمون/ أن هذه الكفوف الناعمة/ تصلح للطبطبة/ وجبر الخواطر/ يومًا ما سيدركون المعنى الحقيقي للفرح»

****

انسحب من حياتها ولم تعد تشعر بوجوده على الفيسبوك إلا نادرًا، لكنها متأكدة أنه الآن يسخر في أعماقه منها، وأن قصة حبها لـ(إبراهيم) أصبحت الآن حكاية شهية مسلية للصديقين.

لم تكن زيارة (حامد) مفاجئة لـ(إبراهيم) كما ظنت (نهال) ولكنه كان موعدًا اتفقا عليه ليدرسا معًا مشكلة صديقه (إبراهيم) التي تتعقد يومًا بعد يوم دون أن تنكشف لها كاشفة، لكن (حامد) راح يطمئنه بقدوم الفرج، لأن الحل سيكون على يد (نهال) التي أصبحت صديقته.

أخذت (نهال) تاكسي إلى عبود مرتبكة تتخبط في مشاعرها المتلخبطة، أخذت الكرسيين الذين بجوار السائق في الميكروباص الذي لم يدخله سوى راكب واحد، لم تعد تنتبه إلى شيء مما يدور حولها، تهيم سابحة في هذا الغروب الذي تقرؤه في تلك اللحظة قراءة مختلفة، إن الشمس التي كانت تسكن بكل قوتها هنا لا يفرق معها أن تسكن في بلاد غريبة، لم تعد تشعر بضجيج هذه التوليفة من الأصوات المختلفة، مناداة السائقين على الزبائن، ونكاتهم مع بعضهم البعض، أصوات لاعبي الطاولة في المقهى المجاور، تتداخل مع أصوات الممثلين في المسلسل التركي الذي يغطي شاشة العرض الضخمة، وكأنها السينما في أوج عصورها، بينما الباعة المتجولة يستعطفون المنتظرين في الميكروباصات، ليجبروا الخواطر بالشراء، تتعثر مشاعرها في طريق يبدأ بالنشوة وينتهي بها إلى لحظة يمزقها الألم ندمًا على سقوطها في أحضانه، ليته ظل في أعماقها حلمًا تعيش من أجله، بدلًا من حقيقة تخجل منها، وتسعى جاهدة لأن تنساه وتنساها، تلعن ضعفها الذي جعلها تحطم ذكرى الإنسان الذي وهبها حبًّا عظيمًا، بعدما قررت أن تقضي عمرها راهبة في معبده، آخذة

عهدًا على نفسها لتكون كزوجات الأنبياء، يحرّمن على أجسادهن أن يدنسهن العاديين من البشر، الذين تقتات حياتهم على الشر والحقد والاستغلال والشهوات، انتوت أن تصبح قديسة، لكن المواجهة دائمًا تفضح قداستها المزيفة، لن تسامح نفسها أبدًا على هذا الضعف الذي عاشت فيه أروع وأقبح لحظاتها.

استسلمت للغفوة ربما يمحي النوم من الذاكرة دناستها، وتعود بها إلى معبدها الذي وهبت نفسها له، تتراءى لها نفسها تصارع وحشية ضباب بذراعيها، لينكشف لها قصر بأضواء خافتة، أسرعت لتحتمي به تدفع بكل قوتها بوابته الحديدية العملاقة، ينقبض قلبها وهي مدفوعة تمشي ممرًا طويلًا تغوص في رماله تفزعها الأشجار العارية، تدفع الباب الحديدي الكبير الذي وجدت نفسها أمامه، فتسقط في عمق بهو واسع ذي جدران كئيبة شائخة، تصطف النسوة في عمقه حول عجوز شامخة يحيطها النور، تصيح فيهن هذه العجوز ليفهموا أنهن هنا لا يحتجن إلى الملابس المبهرة الفاخرة أو الزينة، تأمرهن بارتداء عباءة بيضاء، تستكمل صياحها ليفهمن أن هذه هي الشروط المفروضة على من يريد البقاء هنا، ثم تتبخر ولا يعود لها أثر، يتلفتن يبحثن في دهشة عنها في كل مكان دون أن يعثروا على أثر لها، فتصير جلبة بينهن يؤكدن لبعضهن البعض أنها شبح لا وجود له، أو أنها وهم خرج من عقولهن، وأنهن الآن بين خيارين، إما البقاء هنا مع الوهم في هذا القصر المنفي، أو أن يخرجن إلى المتاهة، فتصيح فيهن إحداهن:

- «حرام نعيش حياتنا كلها هنا في المنفى دا عشان غيرنا عايز كدا، إحنا نسينا شكلنا، لازم نخرج للحياة»

فتظهر لهن العجوز الشبح مرة أخرى تعنفهن، انقضت عليها (نهال) لتمسك بها لتتأكد من حقيقتها، ولكنها اكتشفت أنها تمسك فراغًا، وأن البركات والدعوات والصلوات والعقاب التي كانت تأمرهن أو تتوعدهن بها فراغ، ورغم هذه الحقيقة التي تأكدوا منها إلا إنهن جميعًا يخفن الخروج إلى الحياة ببشاعتها، يفضلن البقاء في هذا القصر من أجل الاحتماء من العالم الخارجي، وتظهر مرة

أخرى السيدة الشبح، تدفع بهن للنزول على السلالم التي تأخذهم إلى سرداب مظلم، على حوائطه لاصقات مضيئة،

"جسد المرأة عار".

"جسد المرأة يكمن فيه الشر".

" المرأة بنت الشيطان".

"احبسوا الإناث من أجل صلاح البشرية".

وفي آخر السرداب تمثال أسود لامرأة عارية مشوهة الجسد، ترميها العجوز بالشتائم القذرة، وتشد أزرهم ليفعلوا مثلها، فينهالوا عليه ضربًا بالشباشب، بينما التمثال صامد لا يتحرك، يتلقى قذائفهن ماثلًا أمام أعينهن يشمئززن من قذارة الدمامل التي تطفح فجأة على جسده ووجهه، تصرخ العجوز فيهن قائلة هذا الوجه كان جميلًا وتشوه، هذا الجسد كان فاتنًا وتعفن، فتخشع قلوبهن يبكين، يدركن أن هذا المصير هو المصير المحتم لأجسادهن.

تفزع (نهال) من غفلتها مقبوضة القلب غارقة في دموعها على رنة هاتفها، كان مدير مزرعتها متحسرًا يبلغها بموت الكثير من دواجن المزرعة وهو يتعجل قدومها، فتجيبه بائسة تجفف دموعها بأنها في الطريق.

تسأل السائق:

- «لسة قد إيه على المنصورة؟»

فيجيبها:

- «لسة ناقص اتنين ونطلع»

فتتعجله بالطلوع متحملة أجرة الاثنين لأنها متعجلة.

انطلق الميكروباص تقاوم البرد الذي تسلل إلى روحها بشالها المهمل جانبها، تاركة نفسها للشرود عندما يتسلل إليها الدفء، تتصدر الذاكرة لحظة موت خالتها التي تشقلبت من بعدها حياتها، تزوجت الحاج (فتحي) الذي كان زوج خالتها، تزوجته مستسلمة لقدرها الذي فرض عليها أن تعيش حياة مرغمة فيها على كل شيء، تزوجته تفضل البقاء بين جدران كئيبة، بدلًا من أرصفة الشوارع التي لا جدران لها، لم يعد يعنيها في هذه الحياة سوى أن يترك لها حاسبه، لتكتب أشعارًا وقصصًا وتنشرها على صفحتها على الفيسبوك، ربما

يتفاعل مع كتاباتها يومًا ما حبيبها، أو ربما تصدر يومًا ما كتابًا يضم قصصها وأشعارها ستجعل الإهداء له، لكن (فتحي) غير حياتها تمامًا.
طلب (فتحي) زوج خالتها من أمها البقاء حتى إحياء ذكرى الأربعين، شهد المنزل الكبير الذي كان يئن من الوحدة والصمت ضجيجًا هائلًا وحركة كثيرة منذ بزوغ الفجر حتى اندلاع الظلام، وكأنه الفرح الذي جاء يرتدي ثوبًا حزينًا، أصبح البيت عامرًا تدب على سلالمه العريضة أرجل كثيرة للفلاحين والفلاحات، يدخلون ويخرجون يعجنون ويخبزون، يحملون الصواني العامرة بأصناف الأكل داخلة خارجة، يساعدون في تهيئة المضيفة واستقبال المعزيين، ولائم وذبائح وتجهيزات وجبات الرحمة، سواءً كانت من الذبائح أو الأرز باللبن أو الأرغفة الساخنة والبيض المسلوق، أربعون يومًا من الشقاء لجميع المقيمين بالمنزل، سواء كانت (نهال) أو أمها، أو الست أم (رمضان) مساعد الحاج (فتحي) وذراعه الأيمن، والتي كانت ترفض خالتها خدماتها، لكنها الآن تقيم بالدار بعدما طلب منها ذلك الحاج (فتحي) لأنها عليمة بهذه الأمور أكثر من (نهال) وأمها، هذا الضجيج يعنى الحياة بالنسبة للحاج (فتحي) يلعن في سره سنوات الصمت والكآبة والعزلة التي فرضتها زوجته عليه بأنانيتها ووساوسها، وبعد الأربعين بأسبوع واحد أعلن الحاج (فتحي) زواجه بـ(نهال) دعا أصدقاءه من كبار البلد ليحضروا كتب الكتاب، غير عابئ بالهمز واللمز والاعتراض من جميع من أطلعهم على قراره، غير عابئ بالصبايا اللاتي بتن يخططن للإيقاع به طمعًا في مكانته وثروته، ولكنه كان يحب (نهال) دون أن يعلم أحد عن سره شيئا، (نهال) كانت فتاة أحلامه الحقيقية، الفتاة التي يرضيها من الحب أشعار الحبيب أكثر من أن ترضيها ثروته، إنه متأكد تمام التأكد أنها تجهل كل شيء عن هذه الثروة، وأن كل ما تعرفه عن أمواله أنه رجل ميسور الحال، كان يثق كل الثقة أنه الوحيد في هذا العالم القادر على إسعادها، ظل طوال حياته متمنيًا أن تأتيه الفرصة لينزع القهر من نبرة صوتها، والبؤس الساكن في عيونها، أن يحضنها ولو لمرة واحدة حضنًا حنونًا يعيد لها ثقتها في هذا العالم، تملكته هذه الثقة من نظرة واحدة التقت فيها عيونهما، قرر بعدها ألا يلتقي بها أبدًا خوفًا عليها من ضعفه، لكن هاجسًا كان يقول له أن سعادته مؤجلة، وأنها

ستكون يومًا ما له، قضى عمرًا طويلًا يخطط للأوهام لأن تصبح حقائق، وها هي الأوهام أصبحت حقيقة.
بعدما أتم المأذون كتب الكتاب، وصافح كل من جاء مغصوبًا على أمره ليباركه معتقدًا أنه قرار طائش، لا يعطي بالًا إلى تلميحاتهم لتوقعاتهم بانهيار هذا الزواج غير المتكافئ.
دخل عليها حجرتها، وهي منكمشة خائفة في فستانها الأبيض الذي لم تعط بالًا لروعته، أو تنتبه لروعة جمالها الذي فوجئ به الحاضرين، كان جمالها مدفونًا يحتاج يدًا تخطف ملامحها من بين غبار الزمن، ترسم لها الحواجب والعيون والشفاه، راح يتأملها في بدلته الأنيقة السوداء يستعيد فيها أناقته الذابلة، بدا لها شابًا وسيمًا مبهرًا يخطف العقول والقلوب، تأملته وتأملها وكأنهما يلتقيان في هذا الصمت لأول مرة، لأول مرة تكتشف أنها كانت تمتلك جمالًا لم يره سوى (فتحي) بينما جميع من قابلتهم لم يفهموا من جمالها شيئًا، (فتحي) وحده الذي استطاع اقتلاعها من بين خشائشها؛ لتصبح أجمل امرأة في الوجود في لحظات، وكأنه يعطيها أول درس في الحب، لتفهم أن الحب الحقيقي هو الذي يستطيع أن يعيد صياغة البشر، تحركت له مشاعرها عندما اقتربت أنفاسه الدافئة تلفح وجهها وهو يقبل رأسها، ويخبرها بأن تجهز حقيبة ملابسها للسفر في الصباح إلى الإسكندرية.
أفاقت على صوت السائق يجمع الأجرة من الركاب، ناولته أجرة أربعة كراسي، وانشغلت تتصل بمدير المزرعة تستعلم عن الأحوال مؤكدة له أنها بالكثير نصف ساعة وستكون أمامه، أخذت تاكسي مخصوص إلى المزرعة.
انشغلت (نهال) بعد ذلك كليًا بالمزرعة ومشكلاتها التي تضخمت فجأة، بسبب انتشار أنفلونزا الطيور التي قضت على الكثير من دواجن المزرعة، تفاقمت في ذات الوقت مشكلاتها مع المزارعين والمستأجرين، وانتشار فيروس "جنون البقر" بين البهائم الذي كاد أن يدمر مزرعة البهائم، كاد يأكلها الغم تتهم نفسها بأنها أهملت وديعة (فتحي) زوجها التي تركها أمانة بين يديها، هذه الأمانة التي هي مصدر رزق لقرية بأجمعها، أهملتها من أجل أن تتفرغ للكتابة، تلوم نفسها

متهكمة: "هل سيدفع هؤلاء الفلاحون ثمن كتب ترص على الأرفف، لن يهتم أحد بقراءتها؟ هل كانت ستغير العالم عندما يقرأ الناس روايتها؟".

كان من الأولى أن تعطي أولويات الأمور حقَّها، لكنها أهملت مصالح هؤلاء الفقراء من أجل أن تحقق حلمها التافه، تتوه في غيابات الأسئلة والأجوبة المحيرة: "هل الكتابة لا تستحق أن تتفرغ من أجلها؟ الكتابة هي المعبر الحقيقي الذي سيعبر بالفقراء إلى حياة أفضل، الكتابة أهم من الاهتمام بالدخل، لكن الفقراء يحتاجون أولًا إلى أن يأكلوا، أو أن تكون لديهم أموال ليشتروا بها الكتب، يحتاجون أموالًا ليلتحقوا بالمدارس والجامعات، يحتاجون ثمن المواصلات التي ينتقلون بها يوميًّا إلى المدينة ليلتحموا بالثقافة، الناس تحتاج لأن تقرأ ولكن بعدما تشبع ولا يجوز العكس".

تاهت بين مشكلاتها وأسئلتها تغوص لآخرها في حل المشكلات التي تتجسد كل يوم في مشكلة جديدة، نسيت (إبراهيم) الذي أيقظ فيها رغباتها المهملة وساعدها لتخرج من كهفها، منطلقة تصرخ فرحًا بالحرية والوجود، جعلها تدرك أن الجسد كهف مخيف، وأن الإنسان لا يقوى على أن يعيش محبوسًا في كهف، على الرغم من ذلك فرت منه هاربة تفضل الاختناق في كهفها المظلم؛ لأن الإنسان يكره أن يلخصه أحدا في فكرة واحدة، يكره أن يكون آلة وظيفتها أن تمنح المتعة، لأن الإنسان يمل المتعة، المتعة التي تجعلك تلملم ما تبعثر منك وترحل منكس الرأس تتخبط في فراغك المرعب فاقد الهوية.

مر أسبوع دون أن تجد لنفسها وقتًا ليخطر ببالها (إبراهيم) أو رغبتها في رؤية كتابها الأول، وفي صباح يوم جديد، كانت فيه نشيطة جدًّا، مشحوذة بأفكار كثيرة للأرض والمزرعتين، بدأته خارجة مع شعاع النور الأول بصحبة الطبيب إلى المزرعة، لتشرف بنفسها على خطة تعقيم المزرعة واستكمال خطة العلاج لتحصين الدجاجات، وفرزها لتسليم حصص التجار، هاتفها (حامد) ليعلمها بأنه يعزم نفسه هو و(إبراهيم) صديقه على الغداء عندها اليوم.

❋❋❋❋

(١١)

قطع (حامد) بسيارته ممرًا طويلًا، حتى وصل بصحبة (إبراهيم) إلى المنزل الكبير، المنفي إلى مؤخرة حديقة ذات أحواض من الزهور الكثيرة على اليمين، بينما الناحية الأخرى كانت للفواكه، يشعران بضآلتهما على سلالمه وفي عمق برندته الواسعة، فتحت لهما أم (رمضان) الباب تصطحبهما إلى الصالون، تعلمهما بأن الست (نهال) في المزرعة وستأتي حالًا، اتصل بها (إبراهيم) يطلب منها أن تسمح له بذهابه إليها، بينما (حامد) راح ينتظرهما في البرندة، يسأل أم (رمضان) عن الشاي والشيشة.

انتبهت لوجوده من الجلبة التي أحدثها العمال ترحيبًا بالغريب، تطلع إليها مندهشًا من حالها وهي منهمكة وسط البهائم، مبتسمًا لربكتها وهي تجفف الطين الذي يلطخ كفوفها في بلوزتها السوداء لتصافحه، يقول لها مازحًا:

- «معقولة؟! طب والأدب؟!»

تبادله الابتسام قائلة:

- «مش عارفة إن كنت هكتب تاني ولا لأ، ماعدتش لاقية وقت»

استأذنت من العمال والفلاحين الذين يعملون حولها في دأب وصخب في أعمال كثيرة؛ كتجميع محصول البطاطس الذي تتناثر على الأرض أجولتها، والاهتمام بالطيور والمواشي والخضر والفاكهة، وأشياء كثيرة أخرى من هذا القبيل، تصطحب ضيفها لتضايفه في مضيفة المزرعة، تستبعد نهائيًا فكرة أن الحب قد يكون سببًا لهذه المفاجأة، ولكنها هي التي فاجأته بهيئتها العملية الخالية من الزينة، شامخة كالرجال بدت له وكأنه يراها لأول مرة، كانت سعيدة بدهشته وهو يعتصر كفها يقرأ تعبيرات وجهها المختلفة هذه المرة، يثني على قدراتها التي تجمع بين الأدب والمحافظة على الثروة، يؤكد لها في بؤس أن الأديب الذي لا يمتلك ثروة يضطر إلى أن يبيع مبادئه، فعارضته مستنكرة رأيه، لأنها ترى أن

الكاتب الحقيقي يفهم أن الثروة سجن، وتحررت هي من هذا السجن لأنها تسير على منهج زوجها، الذي أهداها أفكارًا عظيمة، تمنحها الحرية وتحملها مسئولية هؤلاء الكادحين، على الرغم من أن ثورة يناير العظيمة جاءت إليهم بحكومة بددت أحلامها، حكومة تكاد تخطط لإفلاس الشعب؛ بالمغالاة في الأعباء والتكاليف، والمبالغة في الضرائب والمصالحات و، و، و، و، و، و... وعلى الرغم من أن كل الحسابات تؤكد لهم أن المزرعة تخسر، وأن المحاصيل الزراعية تخسر، لكن ما يجعلها تستمر هو وصية زوجها للثبات من أجل هؤلاء الكادحين، تقول له بأسى أن الأمر سيضطرها إلى أن تهمل الكتابة فترة، حتى تعبر هذه الأزمة، أو تتغير هذه الحكومة الفاشلة المستبدة، التي ما جاءت إلا لإفقار الشعب وتزهيقه، تنفجرغاضبة متسائلة:

- «الثورات بتقوم عشان الفقراء يتنصفوا، لكن الشعوب العربية بتعمل الثورات عشان يقضوا على الفقراء نهائي، بيتظاهروا بالشعارات، لكن للأسف هما أبناء ثقافات مؤمنة بأن قوام الحياة في الطبقية»

تهدأ بائسة تؤكد له أنها رغم كل شيء تكابد من أجل هؤلاء، سعيدة لأنها تعيش في حياتهم ألف حياة وحياة تمنحها الحب، أو ربما يكون الحب شيئًا آخر، ولكنها على أية حال اختارت أن تعيش من أجل هؤلاء.

شرد عنها متلفتًا يدور بنظراته المنبهرة بأعماق الريف الساحرة المختبئة في جوفه، وكأنها جنة الله على الأرض، انتبه إليها ملبيًا دعوتها للجلوس على مقعد عجوز يستظل بشجرة، بينما جلست هي قبالته على مرتفع من الأرض يجاور الشجرة، قرأ في صمتها برهة دهشتها لزيارته المفاجئة، فاجأها يخبرها بأزمته المالية التي جعلته حتى الآن لم يسدد مستحقات دخوله المعرض، أدهشها استخفافه بطرح الحلول وهي تسأله بجدية عن الحل، قائلًا:

- «ربنا هيبعت المنقذ»

وعرج بالحديث ملتفتا للعامل الذي يقدم له الشاي يسألها عن سر سعادتها بهذا الشقاء، فوجدته مدخلًا يليق بأن تشرح له مفهومها عن السعادة:

- «تخيل المزرعتين والأرض فاتحين تقريبًا أغلب بيوت القرية، دا مش سبب كافي يخليني أحافظ على مصدر رزق الناس دي كلها، للأسف بدل الحكومة ما تساعدني، كل يوم تفتي فتوة جديدة وكإنها بتعجزني، عشان أبيع كل دا وأقفل باب الرزق في وش الناس دي كلها»

فأثنى على كفاحها ناقمًا على الحكومة التي تنتوي أن يبيع الناس "هدومهم" بدعوى محاولة انتعاش الاقتصاد، على الرغم من أنها تهدم المصانع، مستهزئًا يذكر لها هدمها لمصنع الحديد والصلب، غير عابئة بتشتيت عمال هذا الصرح العظيم، تصب اهتمامها على تكسير الطرق السليمة، وإهدار أموال الدولة من غير عمل خطة للأولويات، يسألها مستنكرًا:

- «الناس تأكل وتشرب وتحس بآدميتها، ولا تكسر الطريق بدعوى تعديله، وفي النهاية الحكومة ترفع إيدها نهائي عن الدعم، اللي هو أقل حق للمواطن»

أجابته بأسى:

- «مصر دولة عظيمة بخيرها، الخير دا من حق الفقراء، الدولة كشفت الغطاء عن المستورين، في الوقت اللي بتحمى فيه رءوس الأموال، بتدعمهم وبتزود شوكتهم، وبتضخم كيانهم، أغلب الشعب افتقر، وانتهت الطبقة المستورة، ومن بجاحة الحكومة بتطلب من الفقير يضحي عشان بلده ويصبح عليها بجنيه، الناس ماعادتش ملاحقة بعد ما تحولت حياتها لسداد فواتير منين ما تروح مطالبة بدفعها، دا غير الضرايب اللي هتخرب بيوتنا»

فعرج بالحديث قبل أن تستفيض مستغرقة في همومها يسألها عن مشاريعها القادمة في الكتابة، فأجابته بأنها تؤجل جميع المشاريع حتى يطبع لها الرواية،

فتحمس وهو يؤكد لها أن الحكاية مسألة وقت، طالبًا منها الوقوف بجانبه ليعبر هذه الأزمة بسلام، حتى يتسنى له طباعة روايتها التي سيتقدم بها لمسابقة (نجيب ساويرس) فانفعلت غاضبة تحذره من أن يهينها هذه الإهانة مستنكرة غاضبة تقول:

- «(نجيب ساويرس) الرأسمالي اللي جمع ثروته من دم الغلابة، كان أولى بيه إنه يقيم العدل في توزيع الأجور على العاملين في مؤسساته الكتيرة، بدل ما يروج لنفسه بالأموال اللي جمعها من دم الغلابة، ويحول دمهم لثروة تخصه هو لوحده، للأسف بيشتري المثقفين بفلوسه، أنا مش فاهمة أومال فقراء إيه اللي كنت بتتكلم عن حقوقهم في أشعارك، ورأسمالية إيه اللي كنت بتضطهدها، ثورة إيه اللي كنت ماسك فيها لافتة بتقول "عيش، حرية، عدالة اجتماعية"، أي عدالة اجتماعية اللي كنت بتتكلم عنها انت والمثقفين، وانت بتحني راسك للرأسمالية، وبتشحتوا منهم تشجيع الأدباء؟ الأديب الحقيقي واقف في وش الرأسمالية، مش بيجري يعمل صداقة معاها، ويدي فرصة للرأسمالية لتخضع الثقافة وتستغلها لمصلحتها»

فشعر بالخجل وراح يسحب كلامه موضحًا وجهة نظره يقول:

- «دا جزء من حق الناس، مش لازم الناس ترفض حقها، لكن لازم تطالبه هو وغيره بالحقوق دي»

فرمته بنظرة أسف لن يفهم معناها أبدًا، تقول لنفسها شاردة:

- «دلوقتي بس عرفت ليه الثورة فشلت، لأن اللي قاموا بيها اتقتلوا، واللي سرق أحلامهم ناس بتوع شعارات مايفهموش معناها»

حاول أن يلطف الحدة التي وصل إليها حوارهما، راح يثني على أفكارها الجريئة والتي اكتشفها من قراءته لروايتها، يناقشها بجدية مستفسرًا:

- «هل من المفترض أن ينقل الكاتب الواقع كما هو؟ هل هذا يعني أنه يفتقر القدرة على الخيال؟»

ابتهجت تتبدل نبرتها فرحًا بقراءته لروايتها رغم انشغالاته الكثيرة، ناقشته باهتمام:

- «إذا كان الواقع يطرح الكثير من الأسئلة المعضلة، فلماذا يلجأ الكاتب إذًا للخيال والواقع ذاته يحتاج إلى الطرح الصادق المباشر، قدرة الكاتب في أنه يلضم الحكايات في حكاية واحدة تقول شيئًا عن الواقع هي أبلغ من الخيال المفتعل»

انتبهت وهي تناقشه بجدية مركزة النظر إليه، إنه أنيق جدًّا في وضح هذا النهار الرائع، ولكنها لاحظت أثناء انهماكه في الحديث زبد لعابه يخرج عند التقاء الشفتين، على الرغم من بريقه وسحر عطره المثير، إلا أنها بهذه الملاحظة انتابها شعور بالقرف ورغبة مفاجئة في القيء، وسرعان ما تبدل إحساسها نحوه، لم تكن تتوقع قبل هذه اللحظة أن المشاعر العظيمة التي ظلت تكابدها لسنوات طوال ممكن لها أن تتبدد بهذه السهولة، ومن موقف كان يتطلب منها أن تكون أكثر إنسانية.

لم يذهلها هذا الانصراف عن الحب الذي اعتقلها كل هذه السنوات، لأن لها علاقات كثيرة عاشتها على الفيسبوك، كانت في بدايتها تظن أنها حكاية للحب، فتفاجأ بنفسها تنصرف عن الحكاية التي اقتحمتها بقوة لأسباب أقل تفاهة من هذه، كأن تفاجأ بسنة مكسورة يتلخبط لرؤيتها جميع مشاعرها تجاه الشخص الذي رسمت له في ذاكرتها تخيلات كثيرة، فتنسى الحب ومعاناته بمنتهى السرعة، أما الذي آلمها حقا هو أنها لم تكن تتوقع أن يحدث لها نفس الشيء مع (إبراهيم) حبها الأول وحلم عمرها، النجم الذي سمح لها بأن تدخل حياته الممتلئة بالنجمات الفاتنات، لقد ظلت شغوفة بوسامته التي لم يفقدها لأسنانه الأمامية الغليظة المصبوغة بسواد التبغ، أو احمرار عينيه واصفرارهما أحيانًا، شغوفة به في شيخوخته ونحوله أكثر من شغفها به في شبابه، مفتونة

بتفاصيل شيخوخته المعافرة، لم تكن تصدق أن كل هذا الشغف الذي لازمها سنوات عمرها سيطيح به تقلباتها المزاجية، تفجعها كثيرًا حقيقتها التي تؤكد لها أنها غير قادرة على التعايش مع انكسارات البشر، وتصدرت أمامها الحقيقة الجديدة، وهي أن حبها لـ(إبراهيم) ذهب كما ذهب من قبله ألف حب وحب، وعندما غاصت في تفاصيله مرة أخرى، تجلت لها حقيقته عندما فقدت عيونها العاطفة.

استكملا الحديث حول الأدب بجدية بالغة يباغتها بسؤال ينتشلها من شرودها:

- «لكن الحقيقة ماقدرتش أفهم انتي شاغلة نفسك بالكتابة ليه وانتي عندك كل المسئوليات دي؟»

استفزها سؤاله فانطلقت تقول له:

- «أكتب من أجل سبب يمكن يكون تافه بالنسبة لك، أكتب من أجل أن يتصالح الإنسان مع نفسه، مجتمعاتنا العربية بتتعمد قهر الإنسان من أجل بقاء السلطة، وأسهل وسيلة للقهر إنهم يسلطوا رجال الدين لتأويل أحكامه بما يفيد هيمنة السلطة، عشان يعيش الإنسان في دايرة محدودة يكره نفسه تحت وطأة استبداد الشعور الدائم بالذنب، والحاجة الدائمة للتطهرمن الذنوب، مع إن كل ذنوبه ما هي إلا إنه طاوع رغبته في الحياة، رجال الدين قدروا يحولوا الرغبة دي لجريمة وكبائر، السلطويين سجنوا الإنسانية وقهروها وجرسوها مستغلين الجنس اللي هو فعل طبيعي لاستمرار الحياة، حولوه لوسيلة يجرسوا ويقهروا بيها البشرية، بيقتلوا أي وسيلة للفرح، لأن الفرح يشعر الإنسان بذاته، بآدميته، أما القهر هيعيشه مهموم، مخذول، من السهل السيطرة عليه، باسم المجتمع مرة، وباسم الدين مرات ومرات، لن يكون الإنسان إنسانًا إلا إذا تصالح مع نفسه، وقدر يقهر أي سلطة تحيل بينه وبين الحياة والطبيعة»

شرد عنها خارجًا يتأمل الطبيعة هامسًا:

- «شمس الريف رومانسية بتدينا النور والبرد، بعكس شمس المدينة، الريف هو الطبيعة العذراء لها وجه الملائكة»

قال لها ذلك وهو يعترف موجوعًا باعترافه أنه ليس قاهريًّا أصيلًا، وأن القاهرة التي عاش في حارتها ما يقرب من أربعين عامًا ليست هي مدينته، وأنه حين يموت سيدفنون جثمانه بجوار أهله في أرياف محافظة الغربية، رق قلبها له وهو يعيش لحظة حنين حقيقية يخرج منها مسرعًا يقول لها:

- «رغم ذلك لا أتحمل الحياة في الريف أكثر من يومين، تعرفي ليه؟، لأن الشوارع والأزقة والحارات الضيقة والمباني الخانقة والدوشة والصراع شبه الإنسان، يشبهون امرأة مجربة، تمتلك فنون الغواية، في القاهرة المخنوقة بعرف أتنفس، لكن للأسف ماقدرش أتعايش مع البراءة البشعة، أقدر أتحمل كل ما في القاهرة من قسوة وغل ونفاق وصراع، لأنها المرادف الحقيقي لمعنى الحياة، أما هنا في الريف وفي الحياة البسيطة دي ماتنفعش إلا إنها تكون هدنة من الحياة، يعني أجازة من الحياة، أو بمعنى تاني حياة مزيفة»

قالت له (نهال):

- «أو ممكن الوجه الآخر للحياة، الوجه اللي مابيختاروش إلا الزاهدين في الحياة، اللي شايفين إنها ماتستحقش كل هذه المعارك»

فقال لها:

- «الإنسان المهموم بالوطن كائن متطور، يفر دايما للحضر، مهتم بأن يقود الإنسانية نحو الحضارة»

انزعجت من كلامه تقول:

- «الإنسان كائن متطور ورغم كدا تلاقيه يحن لأفعال بدائية، ممكن من غير ما ياخد باله تلاقيه يعبث بفتحة أنفه يتشمم نتانتها، أو

يتمسك بلهجة لها جلافة في النطق والمفرادات لأنه نشأ عليها، وممكن مايقدرش يستجيب لأفكار التحضر السلوكي تفضحه دايمًا عفويته، رغم إعجابه بالسلوكيات المهذبة، لأن الحضارة وهم، الحضارة سجن ماقدرش يتعايش معاه، لكن المهم ليه الحضارة ماقدرتش توحد العالم تحت راية الإنسانية»

وشردت عن هذه المبارزة النقاشية وهي تصب له ولها شايًا آخر تهمس لنفسها: "يمكن يكون جاي يطلبني للجواز؟! لكن أنا مش ممكن أتجوز بعد (فتحى) أنا مابطيقش سجن الحب، لكن الحنين هو اللي بياخدني للحياة بطعم الحب".

وكان الحب حقًّا هو الحالة الوحيدة القادرة على جلب إنسانيتها وتصالحها مع نفسها، عندما يغيب الحب تكون في قمة تعاستها، تتملكها الكراهية والنقمة على هذا العالم، لا توجد لديها منطقة وسطى ما بين الحب واللا حب، إما الحب أو التعاسة والحزن والكراهية، الحب مخدر يجعلها تصفح عن جميع جرائم الحياة التي ارتكبتها في حقها، الحب هو الشيء الوحيد القادر على أن يذيب هذه الجلطات المتكومة في قلبها، الحب يلطف من الوحشية التي اكتسبتها روحها وهي تعافر من أجل البقاء، اختارت أن تعيش في أوهام الحب ومغامراته، لأن الإنسان لا بد له من وهم يهون عليه قسوة الحياة ومرارة الوحدة، الوحدة التي فرضتها على نفسها للأبد وفاءً للحب.

فور انتهاء المؤذن من آذان العصر، اتصلت بأم (رمضان) لتستعد بتجهيز الغداء، وبدون مناسبة ذكرت لأم (رمضان) بأنهما أقارب لوالدها، يريدان منها مصلحة، لتغلق دائرة الأفكار السوداء، التي قرأتها في نظراتها.

وبعد الغداء أعدت لهما في البرندة الكبيرة، مائدة تتراص فوقها العصائر والشاي والقهوة والفطائر والفاكهة، لكنهما يتبادلان (الشيشة) يتأملان روعة حديقتها، أبدى (حامد) إعجابه ببيتها وببرندته التي تطل على هذه الجنة، قالت له مستنكرة:

- «أحيانًا بتجيني رغبة مجنونة، أبيع كل ده وأشتري شقة صغيرة في وسط البلد أعيش فيها»

فاندهش (إبراهيم) قائلًا:

- «أنا لو منك أشترى ڤيلًا واسعة في الهرم، بجنينة كبيرة وبيسين»

فأجابته شاردة هائمة:

- «لكن أنا بعشق وسط البلد، ولو اتنفيت في ڤيلًا في الهرم مش هينوبني غير إني أقضي اليوم في وسط البلد، وأرجع عالنوم في الڤيلًا الواسعة أم جنينة وبيسين ومدخل فدان، دا غير إني مابحبش الڤيلل ولا القصور، الڤيلًا لازم هاحتاجلها ناس يخدموني، يفتحولى البوابة، يضربولي تعظيم سلام كل ما يقابلوني، وواحدة تطبخ وعشرة ينضفوا، وسواق وخدم وحشم يقابلوني بوش بيضحك، وقلوب ماليها الغل والحقد، عليا وعلى والوضع الحقير اللي خلاني أنا أملك وهما يخدموا، لا يا سيدي أنا مش مكسحة، أنا بصحتي أهو الحمد لله، كفاية عليا شقة صغيرة على قدي، أخدم نفسي بنفسي، والناس تحبني بإخلاص»

مر وقت طويل يتحاكون في مواضيع كثيرة، يدخنون (الشيشة) ويشربون الكثير من الشاي والقهوة، يتبادلون الكثير من الصمت الذي يجتاحه خرفشة أوراق الشجر التي تهتز بالهواء تارة، وبالعصافير تارة أخرى، حتى باغتته بالسؤال عن المنقذ الذي ينتظره ليحل له أزمته المالية، أجابها (حامد) نيابة عنه:

- «متعشمين فيكي يا (نهال) باب الحجز للمعرض هينتهي الأسبوع ده»

فتلهت عنهما بهاتفها تفتح موضوعًا عن مشكلات شبكة الهواتف في الريف، وعندما أذن المؤذن آذان العشاء، شكراها على ضيافتها يستأذنان.

كانت تودعهما يدوي في أذنيها وهما يبتعدان صوت (فتحى) وهو يقول لها:

- «سيبي نفسك للحب، القسوة بيداويها الحب»

كانت هذه هي رسالة الحب التي تركها لها زوجها قبل أن يفارقها، كان مصرًا على أن ينتزع القسوة من قلبها ليصبح قلبًا يستوعب الإنسانية بخيرها وشرها وقوتها وانكساراتها، يستوعب بشاعة الإنسان.

وفي مساء اليوم التالي تمزق قلبها ألمًا، تفر الدموع من عينيها عندما قرأت على الفيسبوك منشورًا لـ(إبراهيم) ينعى فيه بحرقة بالغة (جلجل) يسب ويلعن حلاقه الجاهل الذي أعطاه دواءً خطأً ليحمي فروه من الحشرات، لم تكن تتصور أنها يومًا ما ستحزن على موت كلب، وأن الحزن الذي يصيبها من أجل أشياء عظيمة جدًّا ذات قيمة عظيمة، يسكنها بكل قوته من أجل موت (جلجل) ولم لا؟

إن (جلجل) حقق لها معجزة، لم تكن تتحقق حتى ولو أنها قرأت جميع كتب العالم لتستعطفها على الحيوانات، لما تفتحت لهم أبدا مشاعرها، (جلجل) حفر في أعماقها مجرىً للحب، لهؤلاء الذين لا يعلم عالمهم إلا الله.

مرت عدة أيام دون أن تشغل نفسها بما وصل إليه حال (إبراهيم) حتى جاءت الليلة قبل الأخيرة لافتتاح للمعرض، اتصل بها (حامد) يطلب منها صراحة إنقاذ الموقف، فصفعت أذنه بردها المفجع:

- «أنا مشغولة جدًّا مع المزارعين والمستأجرين والتجار والمزارع، وإنذارات الضرايب، مش فاضية نهائي يا (حامد) أرجوك اعذرني، معلش هأستأذنك وهبقى أتصل لما أفضى»

كان (إبراهيم) مستسلمًا، يلاطم أمواج الصمت والحزن على مكتبه، في عمق حجرته العجوز الواسعة، في ليلة شتوية من ليالي يناير، لأول مرة منذ إنشاء هذه الدار التي ذاع صيتها خاصة بعد ثورة يناير، هذه الدار التي اتخذها أغلبية الكتاب والفنانين المشهورين بالوطنية مقرًا، تنعقد فيها الاجتماعات وتطبع المنشورات والملصقات، يتناوب فيها الثوار الاسترخاء، وتقام السهرات للشرب والتدخين وما يتطلبه ضبط أمزجة الفنانين والكتاب، باعتبارهم أشخاصًا

تختلف أمزجتهم عن أمزجة العاديين من البشر، لم يكن (إبراهيم) من ذي قبل مهمومًا بأحوال البلد، ولكن الثورة ألهبت وطنيته، شعر فجأة بنيران الثورة تغلي في أعماقه، تضخ دماء الوطنية في شرايينه ملتهبة بالشعارات المدوية، اجتاحه شعور بأن هذه الثورة التي تهز أعماق الميادين في جميع أنحاء الجمهورية خرجت بندائه الثوري، تعايش مع روحه الجديدة وصدقها، وصدق أن له تاريخًا وطنيًّا كان محفورًا في أعماقه، وكانت الثورة سببًا كبيرًا في ذيوع صيت هذه الدار حتى أصبحت من أهم دور النشر الموجودة في الجمهورية، خصوصًا بعدما راحت تطبع لكبار الكتاب السياسيين، غير عابئة بنشر أفكار تعادي سياسة الدولة، ومع ذلك كان بمنتهى السهولة يحصل على موافقة لدخوله معرض القاهرة الدولي للكتاب في مكان يليق باسم الدار، دون التقيد بدفع الالتزامات المقررة على الناشر بل إنه كان يحصل على امتيازات كثيرة، حتى ينتهي المعرض دون أن يشعر أحد بأزمته المالية، التي تصل إلى تملصه من دفع المستحقات حتى يتطوع أحد بحل الأزمة وينتهي المعرض على خير، لكن الأمر اختلف هذا العام؛ بعدما فقدت الثورة هيبتها أصبح أمر التحاقه بالمعرض مشروطًا بتسديد الالتزامات أولًا، خاصة بعدما عرف عنه أنه يلجأ إلى التحايل على القوانين في نهاية المعرض للتملص من الوفاء بالالتزامات، حتى أن الأمر وصل إلى التحفظ على الكتب لعدم وفائه بالالتزامات في المعرض السابق، ومنع نهائيًّا من دخول المعرض قبل أن يسدد المستحقات المقررة على جميع دور النشر، تعود (إبراهيم) أن يترك الأمور تسير كما تسير، وفي اللحظة الحاسمة يتصل بأحد أصدقائه الرأسماليين الذين يرفعون شعارات اليساريين ليثبتوا تأييدهم للثورة، كان يثق تمام الثقة في مساندتهم الجادة، لكن الأمور تبدلت بعدما استعادت الدولة سلطانها وانتهت الثورة إلى ما هو أسوء مما قامت من أجله، وماتت الشعارات التي أصبح ثمنها الآن الاعتقال، وبانت الوجوه على حقيقتها، تهربوا جميعًا منه، بعدما أصبح من العته أن يأخذ أموالهم هذا المعتوه باسم الود والمحبة والإنسانية وأشياء كثيرة، ربما لو كان هو من يمتلك هذه الأموال لما تبرع بها لينقذ أحدًا باسم هذه الشعارات، لأنه أكثر الناس إدراكًا لبهتانها، أو ربما لأن أصحابها الحقيقيين قد ماتوا في المعركة

الأولى للثورة، وربما قتلهم هؤلاء الذين سرقوا الشعارات وأعطوها بريقًا أكثر؛ لينالوا بها أكبر قدر من المكاسب، (إبراهيم) ساقته الظروف ليصبح في قلب الحدث حتى أصبح جزءًا منه بالصدفة، وحصل على مكاسب كثيرة أهمها شهرته، ولكنه الآن في موقف لا يحسد عليه، بعدما ضاع منه الأمل في كل السبل التي سلكها من أجل إنقاذ الموقف، ولم يعد لدى صديقه الكاتب المعروف (حامد الزيني) وسيلة ليعبر به الأزمة ككل سنة.

(حامد) ليس صديقه الصدوق كما تستحق الصداقة، لكنها المصالح المشتركة، باعتباره أحد المؤسسين لهذه الدار، وعضوًا من أعضاء مجلس إدارتها، المعرض بالنسبة لـ(حامد) فرصة لبيع كتبه الكثيرة لدى الدار، لتزيد نسبته في المبيعات حتى ولو أن (إبراهيم) يماطله دائمًا في دفعها، ولكنها على أية حال دين في رقبته، المعرض فرصة للندوات واللقاءات والاحتفاءات والتوقيعات من خلال الدار، من مصلحته أن تحتفظ هذه الدار بقيمتها، دون أن يهتز اسمها لأنه في الباطن يستفيد من سمعة التصاقه بصداقة كيان كبير كهذه الدار، ولو أنه في حقيقة الأمر لا يكن لـ(إبراهيم) ودًّا حقيقيًّا، أو أنه أساسًا لا يعنيه الود، إن ما يعنيه هو مصالحه التي سيجنيها من وراء هذا الود، ربما في قرارة نفسه يطربه شقاء الآخرين وخيبتهم، ولكنه رغم ذلك كان جادًا في حديثه مع (نهال) لتدفع لصديقه مستحقات المعرض، ربما كان يهدف أيضًا إلى أن ينال ودها، عندما تلمس فيه هذه الإنسانية وهو يتصدى لمشكلات صديقه، أسباب كثيرة تتضافر مكونة موقف (حامد) ولكن جميعها تؤكد رغبته لانتهاز الفرص.

جلس (حامد) قبالته حزينًا حزنًا حقيقيًّا تدمع عيونه، يتراءى له صديقه (إبراهيم) في ورطته كعصفور في فم وحش، يستفذ فيه رغبة حقيقية لينقذه، يشعر أنه لو كان يمتلك هذا المبلغ، لما تأخر في أن يدفعه له تحت سطوة هذه اللحظة من لحظات الضعف الإنساني، التي من الممكن أن يفعل فيها الإنسان أشياء لا يتوقعها من نفسه، لكنه حقًّا لا يمتلك مالًا، فما هو في نهاية الأمر سوى موظف من موظفي وزارة الثقافة، لا يمتلك سوى راتبه، أحدثت رنة جرس الباب ضجيجًا رهيبًا يدوي في أعماق هذا الصمت الموحش، استقبل

(مكرم) مساعده الكاتب (جمال رءوف) الذي جاء يستعلم عن طباعة كتابه الذي عشمه (إبراهيم) بأنه سيلحق بالمعرض، ولكن (إبراهيم) تعلل مخذولًا بأن التأخير من المطبعة، فأحرجه غاضبًا يعلمه أنه سأل في المطبعة، ولم يجد فيها للكتاب أثر، ولكنه عدل عن غضبه مشفقًا عليه بعدما تراءى له في قمة حرجه وضعفه عاريًا، وعندما فهم من (حامد) حجم المشكلة استأذن بعدما راح يواسيه قائلًا:

- «لازم يكون في حل، ماقولتش ليه من زمان كنا لحقنا اتصرفنا يا (إبراهيم)؟»

يقول له ذلك وهو يعلم جيدًا أنه غير قادر على التسول من أجله.

عاد الصمت ينهش أعماق الحجرة المستسلمة، تسيل الدموع على وجه (إبراهيم) لكثرة الضغوط التي توالت وتضافرت متكاتفة عليه، موت (جلجل) تدهور أحواله المالية، تخلت زوجته وأولاده عنه بسبب افتضاح علاقاته النسائية من رسائله مع عشيقاته على الفيسبوك، اكتشافه حقيقة صداقاته الوهمية، شعوره المفجع بالعري بعدما كان يظن أنه مستور بأصدقائه، الذين أوهموا العالم بشعارات الثورة والمبادئ والإنسانية، اكتشف الآن أنه كان يعيش في الأوهام، اخترق الصمت فجأة رنة نوكيا العتيقة، تصدر من هاتف (حامد) يظهر له اسم (نهال) راح يقلب نظارته ليتأكد من سلامة رؤيته، يفز مندهشًا قائلًا:

- «دي (نهال)»

فيشوح (إبراهيم) بكلتا يديه خارجًا من الحجرة قائلًا:

- «مش عاوز أسمع اسمها تاني»

فتح عليها (حامد) الخط متلهفًا مسرعًا قبل أن يفصل الاتصال، ويضطر إلى أن يغرم مكالمة، قالت له (نهال) بلهجة حادة مقتضبة:

- «(حامد) أنا دفعت مستحقات المعرض لـ(إبراهيم) هبعتلك التفاصيل في رسالة عالفيس، وبكرة الصبح هابعتلك عربية نص نقل، وأربع شيالين يساعدوكم في نقل الكتب»

لم يصدق (حامد) نفسه مهللًا من الفرح:

- «أنا عارف إن قلبك كبير، ربنا ما يحرمنا من إنسانيتك»

وسمعه (إبراهيم) وهو يهلل يشكرها؛ ففهم أن الغمة انزاحت، اندفع إليه (حامد) يحتضنه ويغسله بدموع الفرح، تلخبط كيانه تجتاحه مشاعر تمتزج فيها الدهشة بالحيرة والفرح، تباغته كلمات كثيرة تريد أن تخرج، كلمات تشتمها وكلمات تمتن لها، وشعر أنه من العار أن يقبل منًّها عليه بسهولة، دون إباء، فأفلت من أحضان (حامد) يشوح بكلتا يديه قائلًا:

- «هو أنا تحت رحمتها؟ أنا مش عاوز من البني آدمة دي حاجة، دي مش تصرفات أدباء، دي تصرفات ناس بتبيع وتشتري»

وأدرك (حامد) زوبعته الفارغة، وسرعان ما نسي كل شيء في أحضان أصدقائه، الذين جاءوا مهللين مباركين بعدما اتصل بهم يدعوهم للمشاركة في تجميع الكتب.

انتهى المعرض على خير وعلى الرغم من ذلك، لم يكلف نفسه مكالمة واحدة يشكرها فيها على ما فعلته من أجله، وكأن ما فعلته كان فرضًا عليها، لكنها هي التي اتصلت به لتستعلم عن طباعة الرواية، رحب باتصالها مؤكدًا أنها لدى المصحح اللغوي، مر ما يقرب من ثلاثة أشهر تنتظر فيها النسخة بعد التصحيح، ولكن لا جديد، اتصلت تستفسر فأجابها مؤكِّدًا أنه في خلال أسبوع ستصلها، ومر أسبوع وراء أسبوع ومرت عدة أشهر دون جدوى؛ فقررت أن تفاجئه بمقابلة وجهًا لوجه، لتفهم لماذا كل هذه المماطلة.

ضغطت على جرس الباب في الثالثة عصرًا تقريبًا، استقبلها (مكرم) مساعده يصطحبها يعبر بها الطرقة إلى حجرة مكتبه، التي أخطأت في تقدير مكانها نظرا

لخفوت الضوء، وتبدل الحال الذي أصبح أكثر ترتيبًا بعدما انتهت كركبة أيام المعرض، فاجأها مرحِّبًا يهاجمها دون مقدمات يخطف قبلة من شفاهها، أربكتها هذه المفاجئة التي لم تكن في مخيلتها، ربما هاجمها الحنين كثيرًا لأوقاتها الحلوة معه، وربما يكون هذا الحنين كان دافعًا لزيارتها، ولكنها قررت أن تلغي نهائيا مشاعرها، ستكون جادة حازمة لتحديد مصير طباعة الرواية، انصرف مبتعدًا بعدما تمنعت، ربما اعتقد أن التمنع دلال، تركها وحدها في مكتبه مستئذنا لحظات، ليؤمن فيها كل شيء يحتاج إلى تأمين، وعاد يغلق باب مكتبه عليهما، وكانت هي هائمة تبحث عن أثرها في هذه الفوضى قبل أن تخرج من حياته، إن الذي سيؤلمها حقا أنه سينساها سريعًا دون ألم، تدقق النظر في هذا الكرسي الذي تراءى لها أنه يتأملها ساخرًا، لأنها سمحت لنفسها بأن تصبح مجرد لحظة عابرة ستمضي دون أثر، وأنها أحقر من أن تأخذ دور البطولة في حياته.

جذبها إليه بقوة ولكنها أفلتت، كانت تود أن يعطيها فرصة لتقول له أولًا أنها تحبه، تود أن تسكن لحظات في عمق عينيه، أن تتشعلق في رقبته في دلع، أشياء كثيرة جدًّا اختزلها ليدخل مسرعا في الحكاية، أفلتت من أحضانه تقاومه، بينما هو يصر على أن ينزع عنها ملابسها، كان ينتوي أن يفعلها بينما هي تمنعه بميوعة، شيء داخلها يتمنى أن يفعلها، وشيء آخر يتمنى أن تفشل الحكاية، لأنها لا تريدها هكذا، ولكنها أيضًا تحبها هكذا، ولكنها استراحت أكثر عندما فشلت الحكاية، راح مسرعًا يفتح باب البلكونة وباب الحجرة، يتركها خارجًا عندما سمع جرس الباب، عاد إليها بعد لحظات يحمل زجاجة البيرة مرتبكًا يجلس على مكتبه، سمعت دربكة بالخارج فهمت أن هناك زوار في حجرة الكتب، وفهمت أن دورها قد انتهى، رسمت الجدية على وجهها تسأله عن أخبار الرواية، بعدما انصرف عنها تمامًا متلهيًا بصفحته على الفيسبوك، أكد لها بجدية أنها ستتسلمها في خلال شهر، وهاتف المصحح أمامها لتتأكد أن التأخير بسبب كبر حجم الرواية، استأذنت غير عابئة بتمسكه الفاتر ببقائها حتى يضايفها، عبرت وحدها الطريق الطويل من مكتبه إلى باب الخروج، دون

أن يعانق كفها أو يقبلها كما كان يفعل، ورغم ذلك لم تشعر بالندم في هذه الحكاية على شيء، لقد كان بالنسبة لها كتابًا يغويها وكانت حتمًا ستفتحه.

لم يكن (إبراهيم) يدرك معنى للحب سوى أنه تلك الرغبة التي تدب في جسده، عندما تجلس قبالته أنثى على هذا الكرسي، سينساها وسينسى كل ما كان بينهما بمجرد أن يندلق فوران رغبته على أي مكان، حتى ولو كان على بلاط غرفته الباردة، لكن الحب عند (فتحى) كان شيئًا آخر، كانت تظنه ناقصًا، لأن جنون الروح يحتاج إلى جسد يترجم هذا الجنون، جنون الروح يحتاج جسدًا يستجيب لجنون الحياة، (فتحى) يمتلك روحًا لا حدود لجنونها، روحًا تتمزق داخل جسد لا يستجيب، عاشت جنون روحه بكل كيانها، لكن شعورًا بالنقص ظل يلازمها، لتظل تائهة تبحث عن شيء لا تعرفه، لقد حلقت مع (فتحى) في سماوات الروح وتفنن في إسعادها بكامل طاقته، ورغم ذلك ظلت في أحضانه شريدة تبحث عن شيء لا تعرفه، حلقت مع (إبراهيم) في جنون الجسد ولكنها كانت تبحث أيضًا عن شيء لا تعرفه، مارست في الكتابة جنون الحياة، تركت نفسها مع أصدقائها الكثيرين على الفيسبوك لحكايات كثيرة تندفع وراء شيء لا تعرفه.

الجسد كهف ربما تختنق فيه الروح، وعلى الرغم من ذلك منحها (فتحى) حياة كاملة، تعكرت بذلك الوهم الذي ظل يطاردها، قال لها ذات مرة وهي تسأله عن الحب:

- «الحب هو أن تطلق للروح سراحها لتحلق خارج هذا المدار الذي يضيق بها»

وندمت عندما نظر إليها حزينًا وهي تقول له:

- «لكن الحب هو الوصول إلى شيء»

الآن أدركت أن (فتحى) منحها حياةً عظيمة، وتركها وحدها لتدرك أن الحياة تتوقف عند الوصول.

مرت على زيارتها لـ(إبراهيم) عدة أسابيع ولم يحدث أي تقدم، نشرت على صفحتها منشورًا، تفضفض فيه عن تألمها لتأخر طباعة الرواية، لدى دار النشر ذاكرة اسمها، فوجئت بتعليقات كثيرة للأصدقاء تصفها بأنها دار تشتهر بسهرات العربدة، واتهامات كثيرة لصاحبها الذي يضيع أموال الأدباء، مستغلًا لهفة الشباب للطباعة لديه، مغاليًا في طلباته، مبددًا أموالهم على هذه السهرات، ولم يعد قادرًا على الوفاء بالتعاقدات، على الرغم من أنها تصدق ما يقولون، إلا أنها لا تتوقع أن تصير روايتها إلى هذا المصير.

ذهبت إليه مشحونة بالغضب، ذات يوم ربيعي كئيب بارد برياحه المتربة، وشمس كسيحة تعافر لتشق لنفسها طريقًا، فتفاجأ بأن كل شيء في الكون يعمل ضدها، استقبلها مساعده يصطحبها إلى غرفته بمودة فاترة، بدت لها حجرته غريبة وهي تسبح في الضوء، لأن البرندة كانت مفتوحة على وسعها، بينما البؤس يسكن نبرته وهو منهمك في مهاتفة كشفت عن مزاجه السيئ، وكان ذلك لإعلامه برفع صاحب العمارة ضده قضية للطرد، ومطالبته بدفع المتأخر من الإيجار، وأنه بصعوبة استطاع أن يتصالح مع شركة الكهرباء، بينما فصلت شركة المياه خدماتها عنه، انتهى من مكالمته يرحب بها بائسًا يرتشف جرعة من زجاجة البيرة الموضوعة أمامه، البيرة قادرة على أن تداوي مزاجه السيئ في لحظات، يتحول معها إلى شخص بلا ماضٍ، بلا تاريخ، بلا مستقبل.

قاطعهما دخول سيدة صارخة الاستعراض لأنوثتها، وقف لها مرحِّبًا يدعوها لتجلس على الكرسي الأبيض قبالته، التفت إلى (نهال) يرسم على وجهه هيبة مدير لم تعد لائقة عليه، بينما فتاته تغسلها بالنظرات، لم تجلب في نفس (نهال) شعورًا بالمنافسة، تدرك أن هذه التي أنفقت ساعات طويلة تتفنن في إبراز أنوثتها، تتساوى مع أي امرأة لم تجهد نفسها في أي شيء، وأن هذا الكرسي لا يميز امرأة عن أخرى، استهترت بنظراتها، على الرغم من أنها ينتابها ألم حقيقي إذا تضاءلت أنوثتها أمام أنوثة أخرى، ربما تألم (إبراهيم) لهذا الاستهتار، ربما كان يخطط لاستفزازها متلذذًا بغيرتها، أو أنه كان يخطط ليصرف ثورتها ومطالبتها الملحة بالطباعة إلى ثورة الحب والغيرة، لكنها سألته

بلهجة مهذبة غاضبة عن المعيقات التي سببت تأخر الطباعة ما يقرب من العام، أكد لها بمكابرة يداري بها حرجه، متعللًا بأن الرواية كبيرة الحجم تحتاج وقتًا طويلًا للمراجعة والتدقيق اللغوي؛ فطلبت منه بلهجة صارمة أن يحدد لها موعدًا نهائيًّا لتحصل على الرواية مطبوعة، فطلب منها أن تمهله شهرًا آخر ليحسم فيها الأمر مع المدقق الذي يعذره لكثرة أشغاله، مؤكدا أن هذا التأخير يهدف إلى الوصول إلى الدقة المتناهية في إخراج الرواية، وكان ذلك مخرجًا منطقيًّا يعزز موقفه أمام صديقته التي من المؤكد أنه وعدها بطباعة كتابها الأول، بالغ في اهتمامه بها ليمتص شحنة غضبها يطلب لها شايًا فاعتذرت، لأنها مدعوة لتأخذه مع الكاتب (محمود طه) صاحب دار الثقافة للنشر الذي اتخذ مقرها في الشقة المقابلة له، دعاها إليه عندما التقت به صدفة على السلم، فرحب يواري خزيه وكأنها تقصد أن تقزم له ذاته بذكر العمالقة.

ذكر لها (فتحى) زوجها ذات يوم متأسفًا على الحال الذي وصل إليه اليسار الذي هو ميزان القوى في المجتمع، أنه آخر اليسارين في العالم، مستشهدًا بموقفه الشهير عندما رشحته وزارة الثقافة لتمنحه جائزة الدولة التقديرية، التي رفضها ذاكرًا على الملأ أنه لا يتشرف بجائزة تصدر له من دولة ليس لها موقف جاد تجاه الغزو الأمريكاني على العراق، لقد كان الكاتب (محمود طه) هو مَثَل زوجها الأعلى، وأثبتت لها تجاربها الكثيرة بعد ذلك، صدق ما قاله لها زوجها عن زيف اليسار.

ابتلع (إبراهيم) ما تبقى من زجاجة البيرة جرعة واحدة، تائها تتنقل نظراته بين جدران الحجرة، تتضخم له وحدته رغم وجود صديقته، التي تتأمله مندهشة من لخبطة كيانه لحديث امرأة تافهة، التفت إليها متذكرًا حاجته إلى المبلغ الذي ستدفعه كجزء من تكاليف طباعة كتابها، وربما تتغاضى عن تأخر الطبع باسم اللحظات الحلوة، تاركًا نفسه لها عندما همت تغلق باب البرندة، تسحقه ميوعتها ورغبتها الملتهبة وهي تلاحقه بالقبلات، مدركًا أن هذه اللحظات جزء من المبلغ المتفق عليه، أفرغ تورم جسده من الرغبة مسرعًا يتظاهر بالإرهاق، معللًا

بأنه ما زال يتعافى من نوبة من نوبات البرد الحادة التي تهد العظام، فناولته دفعة من المبلغ، وأصلحت هيئتها مندهشة مستأذنة، أسرع بفتح باب البرندة يستطلع الشارع الطويل شاردًا، ربما يلحق بـ(نهال) وهي تعبره، مرت فترة طويلة ينتظر فيها أن يرى خيالها ولكنها لم تمر، خمن أنها غادرت قبل فتحه البلكونة، انشغل بأشياء كثيرة متلهيًا عن مراقبة الشارع، يعد شايًا، يذهب حجرة الكتب، يفتح صفحته ويغلقها، ولكنه بين هذا وذاك يرقب الشارع يائسًا، يراقب ساعته حتى مر من الوقت ما يقرب من ساعتين، استبعد فكرة بقائها كل هذا الوقت، وهي التي دائمًا متعجلة، ولكنه في تلك اللحظة رآها تعبر الشارع بصحبة الكاتب (محمود طه) وبعض الأصدقاء، تضحك وتتحدث بانفعال، ظل يراقبها حتى اختفوا جميعًا في التقاطع.

ارتمى على الكرسي تتمزق روحه حزنًا لا يستطيع مداواته بزجاجات البيرة التي تجرعها، لم يكن يدرك قبل هذه اللحظة ماذا يعني الحب، لكنه الآن أدرك أنه عاش لحظة التئام حقيقية لشتات روحه، في ضمتها المرتعشة بقوة وهي تقبض بكل كيانها على كيانه.

وصلت (نهال) إلى عبود، تستلقي في الكرسي الذي يجاور السائق كعادتها في الميكروباص الذي انطلق عائدًا إلى المنصورة، يمر بها الطريق مسرعًا، الأشجار تجري واللافتات والسيارات، كل شيء حولها يجري، والطريق لا ينتهي وكأنها سقطت من السماء ويحيل الزمان والمسافات بينها وبين الوصول، أو أنها ثابتة مكانها والكون يدور من حولها دورانًا لا ينتهي في رحلة المسافات والزمن، شاردة تقول لنفسها: "كل هذا الطريق قطعته مرات ومرات من أجل أن تلمس عيوني عيونك، أو تعبث شفاهك بكفي، أن تخترق أنفاسك روحي، كل هذا الزمن يا (إبراهيم) كنت أعيشه وحدي، لم ينشغل بالك لحظة بكم المعاناة التي يعانيها المسافر إلى أحلامه، أو بصدمته أو بفرحته لحظة الوصول، لن تشغل بالك لتقرأ الحب قراءة تخصني أنا وحدي، الحب يا (إبراهيم) يعني أن تترك مساحة للكلام ليخترق الصمت الذي باعد بيننا، الكلام، الموسيقى، الرقص، الطيران، الحياة التي تسجنها في هذا الكرسي، سأخرج الآن من حياتك إلى الأبد، لأنني لا

أستطيع أن أعيد صياغة الفوضى التي تملأ روحك، أشياؤك الفوضوية المتربة المهملة، المركونة في جنبات حجرتك العجوز الداكنة، دخلت حياتك تبتهج دون أن تحترس من الوصول إلى هذه النهاية المؤلمة، إن ما يؤلمني حقًّا هو أنني أزحت الستار عن الأمل الأخير، أو الوهم الأخير، لكن عزائي أن الأنثى التي تهب الحياة إلى الأرض وهي تقاوم الموت، لن يموت أبدا في روحها الأمل".

يطل عليها وجه (فتحى) مبتسمًا وديعًا يمد لها يده ليأخذها إلى السحاب، فتروح هائمة في الذكريات، عندما ذهب بها إلى الإسكندرية ليلة عرسها كان طوال الطريق يحتضن كفها صامتًا، بين الحين والحين يعانقها بنظراته حتى غافلها متسربًا إلى روحها دون ضجيج، تبدد الخوف وتاه الزمان وتلاشت المسافات لحظة استسلام نظرتها لسحر نظراته، كان هو الدواء لداء الشعور بالغربة التي لازمتها، الدواء الذي فرض نفسه بقوة يرضخ لها المريض، الدواء الذي لم ينتظر حتى يشكره المريض، انتابها شعور مفاجئ بأنه هو أصل الحياة، وأنها جاءت بدون أم أو أب، وأن روحها انسلخت من روحه، تتراءى لها الأشياء مختلفة، كانا يتكلمان في الصمت، كما يتكلمان في الكلام، تسمعه شغفة لأن يقول ويقول فتشعر أن أعظم ما في الوجود هو الكلام، تراقبه كطفلة تسأله عيونها بسذاجة:

- «منين بيجيلك كل الكلام ده؟»

عندما وصل إلى الشاليه الذي يمتلكه في منطقة بعيدة على البحر، فتح لها باب السيارة لتخرج إلى الحياة أميرته يحني لها ظهره قائلًا:

- «مولاتي، امنحي الطاقة الكامنة اللي جواكي فرصة لتنفجر»

اندفعت وراء رغبتها تجري على الرمل، ذاهبة إلى البحر، لحق بها يجري وراءها، وعلى شاطئ البحر أمسك بها يلهث يصرخ فيها:

- «عيشي اللحظة زي ما تحبي تعيشيها بمنتهى الحرية»

طوحت بطرحتها التي تقبض على شعرها مدفوعة بجرأة مباغتة لتطير مع الرياح، ينسدل شعرها الأسود الذي زالت عنه تجاعيده يمنحه الهواء القدرة

ليتراقص لأول مرة على خدودها، فاجأها يخلع لها (بلوزتها) و(جيبتها) ويطوحهما في الهواء، تقرأ في عينيه كلامًا جديدًا عليها، لأول مرة في حياتها تقول لها عيون رجل إنها جميلة، وأنها جزء من هذه الطبيعة الصارخة، وكأنه مكلف بأن يعيد إلى الطبيعة جزءها التائه عنها؛ فراح ينفذ قراءته لرغبتها يفك لها (سونتيانها) وينزع بقوة (أندرها) وهي تصرخ فرحًا وتقاومه خجلًا، وراح يطوح هو الآخر بملابسه متلذذًا بصرخة الخجل التي تبتهج لها الطبيعة، يخطفها مسرعًا بقوة لتلتصق بجسده العاري، ليؤكد لها أنها منه وأنه منها وأنهما جزء من هذه الطبيعة التي تنسجم مع عريهما دون خجل، لتفهم أن الطبيعة قوية عارية ترفض أن يحبسها أحد، يقول لها بعدما تمرغا فوق بعضهما على الرمل تارة وفي البحر تارة، بعدما أشبعت روحهما الحرية، يهمس لها:

- «عيشي الحياة بحرية مطلقة، عيشي الحياة على هواكي»

فقالت له بائسة:

- «في المدرسة قالولنا، إن ربنا خلق الإنسان في امتحان دائم مع هواه، لأن الهوى من الشيطان»

فقال لها:

- «الهوى هو الفطرة، الإنسان حبس نفسه جوه هدومه، وحبس نفسه جوه جدران، وحبس نفسه وكأنه شايف إن الحبس هو الإنسانية، مع إنه عمره ما هيكون إنسان إلا لو كان سعيد، والسعادة هي الحرية، الإنسان مخلوق بائس، كل الكائنات سعيدة بتعيش الحياة ببساطة، الدنيا كلها ملكها، لكن الإنسان اللي بيملكها، حابس نفسه جوه مخاوف هو اللي اخترعها»

وفي المساء على ضوء القمر الذي كان ثالثهما على شاطئ البحر راح يسألها:

- «إيه لسة في نفسك ماعملتهوش؟»

قالت هائمة مع القمر:

- «أرقص مع صاحباتي في حفلة المدرسة رقصة القمر»

فز واقفا يقول لها:

- «بس القمر أهوه، اعتبريني أنا صاحباتك»

وجذب ذراعيها ليراقصها على الرمل ويغنيا معًا كل الأغاني التي غناها الناس للقمر، قضيا في الإسكندرية شهرًا كاملًا، وعندما عادا إلى القرية ظنت أنها كانت في حلم، وأنها استيقظت من حلمها على سجنها الأبدي، لكن (فتحى) أخذها إلى حرية أخرى، تتعايش فيها مع أحلام وأفكار البسطاء، لتفهم أن الإنسان سيكون أعظم مخلوق في الوجود عندما يفتش في نفسه على إنسانيته، إذا استطاع أن يصير طيرًا ينشر في الأرض والسماء أحلام البشر، أن يعيش مهمومًا بهؤلاء البسطاء، أن يصنع لهم أعيادًا، أن يساعدهم لتترعرع شجر الإنسانية في قلوبهم، يقول لها أن الله لم يخلق للحياة الناس فقراء وأغنياء، الله خلق الحياة للناس جميعًا؛ فسألته متعجبة:

- «القرية أغلبها فقراء وانت واحد من الأغنياء»

فأطلعها على سياسته التي لم تكن تفهمها:

- «أنا مجرد مدير بدير باستشارتهم إدارة صحيحة وبأعلمهم فنون الإدارة، لكن صدقيني أنا أملك ولا أملك كل واحد فيهم بيعمل وكأنه بيعمل في ملكه، بيأخدوا من خير الأرض والمزارع اللي يخليني زيي زيهم، بقسم الرزق بالعدل مش بستقطعهم لخدمتي»

وبدأ يدربها على هذه المهمة، ويحملها الأمانة، عرفت معه معنىً آخر للحرية، أن تعيش تملك وأنت لا تملك إنها الحرية الكاملة، ولكنه لم يكن يدري أنه يسجنها في الحرية وهو يحملها الأمانة.

وذات ليلة ساحرة تذوب فيها الأرواح كذوبان العتمة في النور، يستمتعان بلحظات رومانسية إنسانية حالمة، مالت عليه هامسة تذوب في عينيه تسأله عن أحلامه تتمنى أن يكون من بينهما حلم تتبنى تحقيقه له، قبلها وهو يهمس لها حزينًا:

– «أنا مبسوط لإني أخدت إيدك لنفسك، ماتسجنيش نفسك أبدًا مهما حصل، ماتسجنيش نفسك في فكرة ولا في النهارده ولا في بكرة، عيشى حرة من كل شيء، الإنسان مظلوم، لأن كل اللي حواليه بيقيدوه بالأفكار، اخلقي أفكار جديدة زي ما تحبي، لكن اوعي تسجني نفسك في فكرة، اتعاملي مع الفكرة على إنها شمس تبزغ أول النهار، لكنها بتنطفي آخره، عشان تدي الفرصة لآلاف الأفكار الجديدة إنها تتولد»

وشرد عنها هائمًا يحدث نفسه متناسيًا وجودها:

– «أنا بحلم بالسفر، هو أمنيتي الوحيدة، يمكن يكون السفر هو الموت، لكن الموت سفر بلا عودة، وأنا عاوز أرجع، السفر مقرون بالحنين، ماحدش يقدر يضمن لي لما أسافر للموت إن هتفضل جوايا الرغبة في الرجوع، ومش ممكن نعرف إذا كان اللي مات عنده حنين إنه يرجع تاني ولا لأ»

قاطعته تقبله ليخرج من هذا الحزن الذي تملكه فجأة، ولكنه تمادى فيه هائمًا يقول لها كلامًا عن الموت:

– «ربما يسألني ملك الموت/ لحظة أن أكون في قبضته/ عن الأشياء التي أريد أن أبصق عليها/ قبل الرحيل عن هذا العالم/ سأطلب منه بتناكة أن يفك قبضته أولًا/ سأتلكأ ساعة/ لأدخن السجائر التي/ حرموا عليَّ تدخينها/ ثم أبحث عن زاوية بعيدة/ لألتقط صورة وحيدة لهذا العالم/ لأتأكد أنه حقيقة
وفي اللحظة التي سيضيق فيها صدره/ وتطق عيونه شررًا يتعجل/ سأبصق في وجهه ليفهم/ أنني أبصق/ على دفاتر الحضور والانصراف/ التي في هذا العالم أجمع/ وأولهم دفتره/ الذي جاء في غير موعده»

لم يكن (فتحى) يقصد أن يأخذها إلى الحرية بكف، ويدفعها إلى السجن بكفه الأخرى وهو يحملها أمانة أن تحقق له حلمه، لأنه أكثر منها إدراكًا للحقيقة، كان

يستنهض فيها حماسها للعهود بعيون بائسة حزينة واثقة، أنها ستفشل في الوفاء بالعهد، قال لها وهو يحملها الأمانة:

- «الخيانة تمرد على سجن العهود، الوفاء فوق طاقة البشر، وكأن سر هذه الحياة مرهون بأن يفشل الإنسان في الوفاء بالعهود، الإنسانية تفشل دائمًا في الوصول إلى الكمال في شيء، الكمال يعني النهاية، والحياة تستمر بنقصها بحثا عن الكمال، الإنسان دوره في هذه الحياة هو أن يتعذب لتكتمل سيمفونية الكون الحزينة، لأنه ما جاء إلى هذه الحياة إلا ليثبت شيئًا مثبتًا، وهو أنه لا يستطيع أن يحمل أمانة»

بنى (فتحى) لنفسه حجرة متطرفة تجاور البيت الكبير، فرشها فرشًا أنيقًا، جعل منها غرفة نوم رائعة ذات سرير رائع التصميم، ذات مراتب قطنية وغطاء حريري، كانا يزورها كثيرًا يعتني بمدخلها ذي الممر الطويل، يزرع فيه الأشجار والزهور التي يحبها، وعندما سألته (نهال) عن حلمه الذي من الممكن أن تحققه له، طلب منها شاردًا، أن تضع جثمانه بعد موته على هذا السرير، وتضع فوق جثمانه هذا الغطاء الحريري، دون أن تغطي وجهه، وأن تضيء أنوار الحجرة وتغلق الباب وراءها وتمضي، قال لها دامعًا إنه يريد لعظامه أن تظل هنا على فراشه، تتغطى بغطاءٍ ناعم، إنه لا يريد أن يدفن في قاع الأرض، يريد أن يبقى هنا فوق الأرض، يطلب منها أن ترعى أشجاره التي زرعها في مدخل الحجرة، وعندما تزوره تضبط له الكاسيت على الموسيقى.

وأن تبرر للناس هذا الفعل بأنه كان يحب الحياة، وأنه ظل يقاوم بكل قوته ذلك الوحش الذي ظل يتربص به بعيون مخيفة، ومخالب وحشية وأنه قضى حياة طويلة عريضة كان همه فيها أن يفر من محاصرته، ولكنه انتصر في النهاية، انتصر لأنه هو المنتصر الوحيد في هذه الرواية.

- «ولكنني أرفض هذا الانتصار، ولن أسمح أن يفرض عليا بالرجم تحت التراب»

أصابها ذهول وهو يرجها يؤكد عليها ألا تسمح لهم بدفنه تحت التراب، لأنه قضى عمره تحته وهو حي، وليس من العدل أن يحارب عمرًا كاملًا كي يعيش فوق التراب، ثم ينتهي الأمر ليدفن تحته ليس من العدل أن تنتهي حياة الإنسان إلى الرجم بالتراب.

تركها (فتحى) ومضى وهو يحملها مسئولية حلمه، حملها أمانتين ولم تستطع حملهما، وحملت هي نفسها أمانة الإخلاص له، ولكنها أيضًا لم تستطع وكأن الرسالة الحقيقية للإنسان في هذه الحياة أن يثبت أنه غير قادر على أن يحمل مسئولية شيء، وأنه ما هو إلا عابر سبيل ربما يضع أثرًا غير مقصود أن يضعه، ولكنه لن يستطيع أن يحمل نفسه مسئولية أن يضع أثرًا، لأنه في حقيقة الأمر لم يطمح أبدًا إلى الخلود، إنما يطمح إلى الانعتاق من المسئولية والشعور الدائم بالذنب.

سألته متعجبة من أفكاره:

– «هل تقصد أن تقلد بناة الأهرامات؟»

فأجابها ساخرًا:

– «ربما كان بناة الأهرامات يقصدون شيئًا آخر غير الخلود، لقد بقيت الأهرامات وأكل الدود أجساد بنائيها»

اعتذرت له كثيرًا تبكي في سرها، لأنها لم تستطع أن تدافع عن حلمه، عندما اجتمع أصدقاؤه لدفنه عارضتهم بكل قوتها مصرة على تنفيذ العهد، تروي لهم وصيته وعهدها الذي أخذه عليها، فاتهمها أهل القرية بالجنون، وانقض عليها المشايخ يرمونها بالكفر، وأنها تثير فتنة في الأرض، وأنها الآن تزهق روحه الطيبة، واختطفوه منها تقيدنها النسوة لتسير جنازته إلى القبر، وعادوا إليها يعتذرون بعدما دفنوه، لم تستطع أن تحقق له حلمه الأول ولا أن تحافظ على حلمه الآخر، لأن الحكومة فاقمت حسابات الضرائب، وهددتها مصلحة الضرائب بالحجز على الأرض والمزرعة ما لم تسدد الضرائب الباهظة التي فرضتها عليها، دون أن تعرف هذه الحكومة الغاشمة أنها لا تكتنز الدخل

لنفسها، وأنها توزعه بعدالة على فقراء القرية، وعلى الرغم من أن المحاسب الذي يتولى التعامل مع الضرائب أعد لها تقريرًا، يظهر فيه ارتفاع الأجور وتكاليف الزراعة الباهظة، التي تفرضها الحكومة، لكن التقرير رفضته مصلحة الضرائب بحجة عدم معقوليته، وأرسلت خبيرًا من المصلحة ليعد هو بنفسه تقريرًا افتراضيًّا، يفترض أن التقارير المقدمة تهدف إلى التهرب من الضريبة، وماطلت في الدفع أملًا في زوال هذه الحكومة، ربما تقوم في وجهها ثورة أخرى كثورة يناير، ولكن الحكومة تقوى شوكتها يومًا عن يوم، ولا شيء يتغير.

لم تستطع أن تحمل أمانته التي حملها لها، ولم تستطع أن تعيش مخلصة للعهد الذي أخذته هي على نفسها، وكأن أصعب شيء على الإنسان أن يحمل أمانة، أو أن يخلص لفكرة، لكن عزاءها أن (فتحى) الذي سجنها بالعهد، هو أيضًا الذي حررها منه عندما قال لها:

- «ماتسجنيش نفسك جوه فكرة، ولا في امبارح ولا في بكرة»

عندما تمردت على جميع مسئولياتها تصب طاقتها في الانشغال بطباعة الرواية التي أصبحت أملها الوحيد، الأمل الذي سينقلها إلى عالم آخر يخلصها من شعورها الدائم بالمسئولية والعجز، بمجرد أن يطبع لها (إبراهيم) الرواية ستشعر بنجاحها بالوصول إلى شيء، ستهب نفسها للكتابة التي تمنحها حياة رحبة، ولكن لا شيء يتحقق، تمر الأيام وهي سجينة حلمها لترى كتابها الأول تفر صفحاته بين يديها.

حتى نفذ صبرها من وعوده، تطورت الحكاية إلى معركة عندما اكتشفت أنه طبع كتابًا لكاتب مشهور، دون أن تربكه أزمته المادية في أن يحتفل به في حفل يضم أشهر النقاد والمثقفين، مزق بهذه الفعلة جميع خيوط تعاطفها معه.

تأزمت الحكاية بينهما أكثر بعدما طالبها بعجرفة يبتزها، مدعيا أن حجم الرواية أكبر من توقعه، وأن حساباته كانت خاطئة، يلزمها بدفع مبلغ إضافي مستحق حتى يتمم إجراءات الطباعة، اندفعت ساخطة عليه تتهمه بالنصب والاحتيال، وتطور حديثهما إلى وصلة من (الردح) خلال رسائلهما على الماسينجر، حتى انتهى الأمر بها إلى إلغاء صداقته.

قادها الغضب لتلجأ إلى أصدقائه أصحاب المراكز المرموقة، ربما يشفي غليلها أن تضعه في موضع محرج، حكت تفاصيل الأزمة لصديقهما المشترك (رأفت) المخرج المسرحي المعروف، فراح يلومها على إصرارها على الطباعة في دار نشر مشهورة، كان عليها ألا تلقي بالًا لشهرة الدار؛ لأن دور النشر الكبيرة تبحث عن أسماء رنانة توزع أرقامًا في الكتب، دون أن تهتم بقيمة ما يكتبون، وسيفاجأ الأديب الناشئ بنفسه محبطًا أمام أدباء توزع كتبهم بأسعار عالية، عندما تتعامل معه الدار بإهمال، بينما تبالغ في إبراز الأدباء المعروفين بعمل ندوات لأعمالهم، لمجرد أنهم تحايلوا بجميع الحيل لينال أحد أعمالهم جائزة، تنهدت بائسة تسأله:

- «ماذا يفعل الكتاب الجدد ليقرأ الناس لهم وسط هذه الهالة من النجوم، التي صنعتها الجوائز الفارغة؟»

أجابها ساخرا ليخفف عنها أزمتها:

- «ربما صنعت الجوائز خصيصًا لأجلهم»

أكدت له أن تجربتها القاسية مع هذه الدار، ستجعلها لا تهتم بعد ذلك بالطباعة إلا في دور نشر جادة، تحترمها حتى ولو لم تكن ذائعة الصيت، لن تقدم بعد اليوم على الطباعة في دار تتجاهلها، بينما تنفخ في أدباء ذات أسماء براقة، تهتم بتلميعهم بينما تقتل في الأديب الناشئ طموحاته، تؤكد له ندمها وسوء تقديرها للأمور لأنها لو اختارت دار نشر جادة تحفر اسمها على مهل، لكان ذلك خيرًا لها، لأنها ستكبر مع الدار، فقال مؤكدا لها أنه من المؤسف أن دور النشر البراقة التي تدفع لها أثمانًا باهظة لتلميعك، هي التي تكفي عليك ماجورًا؛ لأنها عندما تشارك في المسابقات لن تشارك إلا بالأسماء البراقة، تنهدت متحسرة على قلة حيلتها، كيف لها أن تفضح وحدها هؤلاء المرتزقة، الذين شوهوا الحياة الثقافية، تبكي (فتحى) زوجها الذي تؤكد لها الأيام أنها تغرق في أزماتها بدونه، لو أنه موجود لاستطاعت أن تواجه العالم متحدية جبروته، انتهى حديثها مع (رأفت) بعدما وعدها بأن يساعدها.

فوجئ (إبراهيم) بـ(نهال) و(رأفت) أمامه دون موعد مسبق، فتح لهما الباب لأنه كان وحيدًا في الدار، وحيدًا مع محنته المادية، وحيدًا مع فقره دون جنيهات قليلة يشتري بها علبة سجائر، وحيدًا مع زجاجة وحيدة من البيرة ربما تبقت من سهرة الأمس، أسهب في الترحاب لإخفاء حزنه وربكته المفاجئة، لم يكن يفهم أنه يحبها حقًّا إلا هذه اللحظة التي رآها تتأبط ذراع (رأفت) لم يعد بوسعه شيء وهي تفاجئه بكل هذه القسوة لتضعه في موضع نصاب جاءت بصديقها لينقذها منه، حاول السيطرة على أعصابه يغمرهم بالترحاب، مستعدًا للأسئلة بأجوبة منطقية، لأنهما ما جاءا إلا لإحراجه ورؤية الأمر على واقعه، الواقع المرير الذي يزداد سوءًا، الواقع الذي لن يعذره أحد فيه، لأنه لم يمر أحد منهم يومًا بأزمة مادية ليفهم ما يعانيه، عندما أبرم معها عقد الرواية كان يعرف أنه سيتأخر بعض الوقت حتى يطال أموالًا جديدة بتوقيع عقد آخر، كانت نيته أنه سيفي بعقده معها كما كان يفعل كثيرًا مع الأدباء، حتى اشتهر بمواعيده (الفالصو) وأنه يلبس طاقية فلان لعلان، ولكنه حتى الآن لم ينصب على أحد، ولكن الأمر ازداد سوءًا هذه المرة وتفاقمت الأزمة، وانتشرت أزمة الدار، ولم يُقبل على الطباعة سوى صديقته التي دفعت جزءًا كبيرًا من المبلغ لحظات حارة، وأصدقائه الذين يطالبونه بالنشر دون تحمل أية أعباء للطباعة كتخليص حق، ليتنازلوا عن حصتهم في إيرادات الكتب، مضطرًا إلى الهرب من ملاحقتهم حتى أصبح وحيدًا، اصطحبهم إلى مكتبه وقبل أن يدخل معهم سمع الجرس فاستأذنهم ليفتح الباب، كانوا شلة قديمة من أصدقائه وأصدقاء (رأفت) بدا له الموقف كخطة محكمة، حتى ولو أن الأمر كان مصادفة، راحوا يتعانقون يرحبون بعضهم ببعض، أربعة من الفنانين والكتاب المعروفين، حافظ على تماسكه مرحبا مستأذنًا ليعد لهم الشاي، اكتشف أن زجاجة المياه المعدنية التي يشتريها يوميًّا ليس بها ماء يكفي للضيافة؛ فقدم لهم شايًا في (الروبعينة) متعللًا بعدم وجود مساعده ليشتري زجاجة ماء، استعاد توازنه منهمكًا في تقديم واجب الضيافة، بينما (نهال) تقرأ تعبيراته بطرف عينها وهي تجاور (رأفت) على الكنبة الكبيرة، تاركين الكراسي للأصدقاء، تضع حجرًا على قلبها لتتمادى في قسوتها، تقنع نفسها أنها لا بد أن تنتصر لكرامتها بإجباره

على أن يحترمها، ويطبع لها كما يطبع لأصدقائه من الأدباء المشهورين، القسوة هي الحل الوحيد لإشفاء غلها، تترك نفسها لملاصقة (رأفت) متفاخرًا بأفعال صبيانية على الملأ كمراهق ستيني، لم تكن تشعر بذراعه التي تحاوطها لأنها هامت تتذكر لحظاتها الأولى في هذا المكان، يرن في أذنيها صراخها عندما هاجمها (جلجل) يتسلق ساقها، تتذكره جالسًا متعجبًا أمامها هنا على هذه الأرض، ودموعها عندما اعترض خروجها يقف بعرض الباب يمنعها من الخروج، تتذكر لهيب جسدها لحظة أن لامست شفاه (إبراهيم) كفها لأول مرة لحظة الوداع، هامت في اللحظات القليلة التي جمعتها بـ(إبراهيم) هنا في هذا المكان، وفي نفس هذه الفوضى وفي سحر ليلة كهذه الليلة، ولكنها الآن في خريف العام التالي عادت إليه بصحبة رجل آخر لتجده وحيدًا حزينًا بين فوضى حياته، رغم هذا الحزن الذي لا يقرؤه سواها، لكنها مصرة على قسوتها، تتظاهر بالتفاعل مع مشاعر (رأفت) الهائجة في وسط هذا الجمع من الأصدقاء، وهو يتحسس فخذها الملاصق لفخذه متعمدًا ذلك، عندما دخل عليهم (إبراهيم) يحمل أكواب الشاي الربعية، منشغلًا بتقديمها للضيوف، مراقبًا ملاصقتهما وحديثهما الجانبي، تعتدل لتنتبه إلى حديث الأصدقاء المنفعلين بحلاوة الذكريات مع عمهم (إبراهيم) وخاصة أيام الثورة، وقد تعودوا أن ينادوه أيامها بـ"عم (إبراهيم)"، وجدها (رأفت) فرصة ليغير ضفة الكلام ويسأله عن الجديد المنتظر من مطبوعات الدار، فأكد له أنه في خلال أيام ستصدر رواية (نهال) وبعض أعمال الأصدقاء فلاحقه (رأفت) قائلًا:

- «انت مزعل (نهال) يا عم (إبراهيم)؟»

فأجابه متجهمًا يؤكد له أنه سيحصل على رقم الإصدار في خلال يومين، وسينجز كل شيء على وجه السرعة، وأحكم (رأفت) خطة محاصرته حتى أخذ منه وعدًا بالطباعة على آخر الأسبوع، وعندما تطرقوا مستنكرين أزمة الدار المادية، شعر أنهم يعايرونه بزلاته التي لا يرجو من الله أبدًا الشفاء منها، تجيبهم تعبيرات وجهه قائلة لهم إنها سلوته الوحيدة في هذه الحياة السخيفة، وأنه سيحاول جاهدًا أن يفعل كل ما بوسعه من أجل أن يحصل على القدر المناسب

لمزاجه من الخمور والدخان، لأن الحياة لا تحتمل بدونهما، يقول ذلك لنفسه في سره وتقرؤه (نهال) في سكاته، ويخفق قلبها لحاله، يكفيها إهانته بصديقها الذي جاءت به لينقذها من ابتزازه لها.

استأذنوا جميعًا بعدما عصروا الرجل النحيل، بعدما أسقطوا حجرًا ليجثم لليالٍ طويلة على صدره، راح يتابعهم من البرندة وهي تتأبط ذراعه ويلف هو خصرها بذراعه، يغيبان معًا بعدما تجاوزا الشارع العريض، ليستكمل هو البقية في ذهنه متوقعًا أنها ستمضي الليلة في أحضانه.

جلس على كرسي مكتبه لا يصدق ما يحدث له، يسند رأسه على كفيه مغمض العينين يخيل إليه أن جرس الباب يدق، فينتفض ذاهبًا ليفتحه، فيجدها عادت إليه وحدها، فيرقص قلبه فرحًا، وهي تفتح له ذراعيها تأخذه في أحضانها، ليعود إلى حنان ذلك الحضن الدافئ الذي يحتاجه الآن، لكنه يفيق على الهواء الذي بين ذراعيه، ليدرك أن (نهال) بعدت عنه إلى الأبد.

لم يستطع (إبراهيم) المواجهة ولم يعد يرد على مهاتفات أحد، يتهرب من المقابلات، حتى نفدت جميع حيلها معه، خاصة وأن (رأفت) صديقها انشغل في بروفات مسرحياته منسحبًا بلطف، بعدما تأكد له أنه دخل معركة خاسرة، لم تفلح خطتها بإحراج (إبراهيم) بطرق شتى، ولم يطبع لها روايتها، وتفاقم داخلها الشعور بالدونية، وأنه يحتقرها ويعتبرها شخصية تافهة غير قادرة على إجباره على احترامها، ورغم شدة غضبها التي كانت تؤكد أنها لن تترك المعركة قبل الوصول إلى الهدف، إلا أنها تركت الساحة منشغلة بأم (رمضان) التي تعتمد عليها في إدارة البيت، اكتشف ابنها صدفة أنها تعاني من أورام خبيثة تستلزم خضوعها للجراحة، لكنها رفضت بإصرار لأن تخضع جسدها لمشرط الطبيب.

لم تستجب حتى لفكرة الراحة وجدتها تتصارع مع الأشياء في المطبخ، تطبخ وتعجن وتخبز وترعى دواجنها بهمة ونشاط أكثر مما كانت قبل أن تعرف أنها لا بد أن تدخل العمليات فورًا، تفرغت (نهال) لمتابعتها مذعورة من أن تفقدها، تصرخ فيها تأمرها بالذهاب إلى فراشها للراحة، ولكن المرأة كانت تعاندها تستهزئ بها ساخرة تضحك، تؤكد لها أنها تنسى أوجاعها وهي تشتغل، وأن هذه

الأوجاع تعاني منها منذ أكثر من عشرين عامًا، وأنها ما زالت على قيد الحياة، وأنها ستموت يومًا ما على فراشها حتى لو استأصلت الورم، لأن هذا الجزار الذي يقطع لحمها لا يستطيع أن يقرر مصير الحياة أو الموت، وهي في جميع الأحوال تتعايش مع الوجع.

تركتها (نهال) مصدومة أمام إصرارها، ولكنها اكتشفت أن هؤلاء لا يستأصلون أورامهم الخبيثة أبدًا، وأن لهم قدرة عجيبة في التعايش مع أورامهم الخبيثة، يفضلون الموت بها عن الموت متعافين منها، لأنهم في جميع الأحوال سيموتون، وأن كل ما سينوبهم أنهم خضعوا من أجل التعافي لمشرط الطبيب، ربما يكون هذا هو حلهم مع كل خبيث يلتقون به، تسأل نفسها: "مين الصح ومين الغلط؟"، وانتهى بها الأمر إلى أسئلة وأجوبة محبطة: "هل من الممكن أن يصنع هؤلاء ثورة للتغيير، كيف لها أن تقوم الثورة والناس تتعايش مع إحباطاتها، التعايش يقتل الرغبة في التمرد، الثورة يلزمها أن تحافظ على شعورك الدائم بالكراهية والغضب لهذا الواقع المرير".

كعادتها لم تخلص أبدًا لقضية تتبناها، نسيت أم (رمضان) كما نسيت الرواية ومشكلاتها مع الضرائب، وراحت تسمع الموسيقى وتبحث عن القمر، لم يستطع شيء في هذه الحياة أن يأخذها إليه بكامل كيانها إلا القمر، كان يتشتت تركيزها سريعًا من قضية إلى أخرى، حينما كانت تقرأ كانت تقرأ بنصف ذهن، تترك نفسها للقراءة لتأخذها هي إذا استطاعت، وعندما تحب كانت تحب وكأنها تحب بنصف قلب ليأخذها الحب إلى ما يأخذها إليه، كل شيء في هذه الحياة كان يأخذها بنصف انتباه ونصف تركيز ونصف قلب، الوحيد الذي كان يأخذها كاملة هو القمر، عندما كانت ترقص هي وصديقاتها له، ولكن خالتها التي خطفتها من أعماق الحقيقة لم تستطع أن تخطفها منها كاملة لأن جزءًا منها كان هناك مع صديقاتها والقمر.

الإنسان في نهاية الأمر معذور لأنه مدفوع إلى غرفة مظلمة محاط بأسئلة تستفسر منه عما رآه، ولكنه في نهاية الأمر سيقف عاجزًا يقول: "امنحني ضوءًا ولو خافتًا لأجيبك"، فيقول له: "العظمة أن ترى الأشياء حين نفتقد وسائل

الرؤية"؛ فيقول له: "أنا لا أبتغي العظمة، أنا إنسان أحتاج للحياة عيونًا وضَوءًا لأرى سوءاتها وأنفعل بمفاتنها"، فمنحه العيون والضوء ولكنه لم يفهم في نهاية الأمر ما هي الحكمة من كل هذا العذاب وما هو إلا آلة ليثبت بها شيء لا يعنيه في شيء.

❊❊❊❊

(١٢)

نزل المهندس (جمال حامد) من سيارته الفارهة، التي ركنها أمام ذلك المطعم الفاخر، الذي يليق بالصفوة من رجال المجتمع، بصحبة خطيبته الحسناء التي تختال بنفسها، كتمثال مرسوم بعناية فائقة، يبرز عراقة أسرتها التي تليق برجل أعمال من مشاهير المجتمع، والذي تأخر زواجه حتى تجاوز الأربعين من عمره، من أجل أن تجتمع كل هذه المواصفات في فتاة واحدة.

تعرف (جمال) على (نرمين) في نادي المهندسين، بعد عودتها مع عائلتها من فرنسا للاستقرار في القاهرة، لأن والدها يطمح في الوزارة، بعدما قضى عمرًا يعمل في السلك الدبلوماسي في باريس، درست (نرمين) الآداب في جامعات باريس، وأقامت بها معرضها الأول للفن التشكيلي، وكتبت عنها الصحف الفرنسية والمصرية، لم تتسرع في اختيار زوج المستقبل على الرغم من مشارفتها على الثلاثين؛ لأنها هي الأخرى اشترطت مواصفات توافرت جميعها في (جمال) صاحب أكبر شركات المقاولات، ويعد من وجهاء المجتمع ومشاهيره، وينتظره مستقبل تفتخر به، حتى ولو لم يكن يتمتع باسم عائلة ذات أصول رنانة، فهذا لا يهمها في شيء، المهم أنها ستحافظ على مكانتها بين صفوة المجتمع، ورغم ذلك لم يكن (جمال) سعيدًا بما هو ماض فيه.

(جمال) كان لقيطًا، ليست له عائلة ينتسب إليها، ربما تتضاءل ماهية النسب أمام ضخامة ثروته، ولكنها تشوهات روحه التي تتجسد له، عندما يسقط قناع الوجاهة ويفاجأ بنفسه أمام مرآته عاريًا، يتحسس جروحه مدركًا أنه يستطيع أن يبني قصورًا ليسكنها أولاده، ولكنه لا يستطيع أن يجلب لهم لقبًا حقيقيًا لتسكن فيه أسماؤهم، في قرارة نفسه يحتقر هذا المجتمع الذي يرفض أن يكون وحده نواة أسرته، مصرًا على أن يلتحق اسمه باسم آخر لإثبات الوجود، لا يفهم ما هو الضرر الذي سيسببه لهذا المجتمع إذا كان مجهول الأصل معدوم التاريخ؟! ألا تكفي نجاحاته الهائلة للتدليل على أصول ربما تكون عريقة؟! أم أنها دليل المهانة والذل الذان خلقا في روحه طاقة التحدي؟

يتجسد له الفشل شاخصًا ساخرًا من جميع نجاحاته، لأن اسمه لن يلمع في الأفق، ولن يرن في الآذان إلا إذا كان مسنودًا بلقب يسكن فيه. اخترع اسم (حامد) أي (حامد) في العالم! المهم أن إلحاقه باسمه سيصرف عن الأذهان التفكير في أنه جاء إلى الحياة بطريقة غير شرعية، الشرعية التي تحيل بين المرء وبين لحم البعير إذا ذبح دون أن يذكر اسم الله عليه، تلك هي الشرعية التي تتحكم في مصائر البشر، اختار لنفسه أبًا وهميًّا ليرتاح المجتمع، واختار لنفسه صورة تليق به، لأن الحياة رغم قساوتها منحته فرصة ضئيلة للاختيار؛ فرسم صورته كما يريدها أن تكون، ونفخ فيها الروح لتمضي في الطريق الذي رسمه لنفسه، كان مقتنعًا بأن الأصل والنسب تابوت الإنسان، ورغم ذلك تفجعه عبارة مكتوبة في ورقة رسمية تندس بين أوراقه، تظهر له في عز نجاحاته ساخرة، تخرج له لسانها باسمه الأول مقترنًا بعبارة "مجهول النسب".

تلك العبارة التي تعصف وتتبدد في حضورها جميع إنجازاته وجميع مخططاته، تجسد له عجزه عن أن ينتسب لزبال أو حمار له سلسال، مهما كانت وضاعته فهو أشرف من أن يكابد عار هذه الورقة، ربما يستطيع أن يمحيها من الحياة كلها بأمواله ولكن كيف لها أن تبرح الذاكرة.

لم يطبطب أحد في هذا العالم على آلام ذلك الصبي المقهور، في ذلك العنبر الشاحب البارد من عنابر ملجأ الأيتام في محافظة بورسعيد، وهو يكابد عار وجوده في حياة تمارس عليه غلظتها بهذه الوجوه الغليظة، حتى بيوت الله التي ذهب إليها متعشمًا بين جدرانها شفاءً لأوجاع روحه، فيفزعه الصدى الذي يرج جدرانها مرددًا صوت خطيب المسجد بنبرته الشرسة المتشنجة، وكأنه يشاور لذلك الجمع الغفير عليه، يردد الحديث الشريف الذي يدعم به خطبته العصماء: "تخيروا الأنساب فإن العرق دساس يمد إلى سابع جد".

فتنهنه روح الصبي مسرعة للاختباء بين الحواري والأزقة متسائلة للرسول:

- «وما بالك بمن ينتسب لملاجئ الأيتام يا رسول الله؟ هل الإنسان يمتلك حرية اختيار نسبه يا رسول الله؟!» لم تجد روحه ملجأ لترتاح

فيه، كل الملاجئ كانت تصدها حتى بيوت الله، رغم ذلك كان (جمال) مدركًا أن أوجاعه هي سر نجاحه، وربما يفقد كل شيء لحظة أن يشفى منها.

انكفأ الطفل على الدراسة متحديًا غلظة القلب والملامح لمشرف الملجأ، الذي اتخذه سخريته عندما أطلعه الطفل البريء على حلمه بأن يكون مهندسًا كبيرًا يمتلك أموالا كثيرة، تجعله سيد العالم كبطل المسلسل العربي، الذي كان يتابعه خلسة متلصصًا وهو يغافله مختبئًا في حجرة الإشراف، مشمئزًا من منظره وهو يعبئ كرشه الواسع بعشاء أطفال الملجأ، ومتحديًا ذلك المدرس القذر بهيئته المهلهلة، الذي كان من أبناء الملجأ، ورغم ذلك يكيل اللعنات يوميًّا لأبناء الزنا الذي يدرس لهم، يغرس في نفوسهم درسًا أضافه إلى دروس المقرر؛ ليفهموا أن الله لم يخلق الناس سواسية وأن الناس أفاضل وأشراف، وهؤلاء يجيئون إلى الحياة بطريقة شرعية، أما السفلة والمنحطين أمثالهم فلا، وأن ذلك شيء طبيعي، لأن قوام المجتمع يقتضي أن يكون له أقوام أشراف وأقوام دنيئون، وأن القدر يختار على مزاجه، وأن الرضا لخيارات القدر فرض على الإنسان، ولكن (جمال) كان يكره هذا المدرس البدين الفظ السمج، ويكره ما يقوله، وقرر بينه وبين نفسه أن يتحداه، ويفرض على القدر أن يبدل خياراته، لأنه لن يرضى إلا أن يكون من الأشراف.

ظل صابرًا يتحمل غلظة مشرفي الملجأ وغلظة مدرسيه، حتى نال دبلوم الصنائع بتفوق، ثم فر هاربًا إلى القاهرة، يتقدم بدبلومه إلى التنسيق الذي تجأر بغلظة يفرض عليه أن يدخل امتحان المعادلة، فراح يتسول المعلومات من كل من يظن به علمًا عن أية معلومة تخص هذا الامتحان، ودخل الامتحان ونجح فيه بتفوق، ولكن التنسيق كان يسخر من الولد المجنون، الذي يريد أن يلتحق بكليات القمة، فألحقه بالمعهد الفني الصناعي المتوسط، وكأنه يقول له: "احلم على قدك".

وقبل (جمال) التحدي ودخل المعهد، وراح يعمل ليل نهار في أي مهنة تتوفر له، حتى انتهت دراسته بالمعهد سنتين بتفوق، ودخل التنسيق مرة أخرى، ولكن

التنسيق أراد أن يكسر له مجدافه الخفي فحدفه في هندسة أسيوط، لم يفهم التنسيق أن الولد ليس له بيت يحن إليه، ولا أرض سيفجعه هجرانها، ولا حضن دافئ سيتألم لبرودة أيامه المقبلة بدونه، لم يفهم التنسيق أن الولد قذفه رحم أمه للتراب وأن جسده ظل مغمسًا بالتراب سنواته الأولى، وأن حنينه الحقيقي لن يكون إلا للتراب لا للبشر، راح يحمل أحلامه ذاهبًا إلى أسيوط، يبيت على المقاهي وفي الشوارع، وفي بئر سلالم العمارات التي كان يمسح سلالمها بمبلغ زهيد، حتى انتهى من إعدادي الهندسة بتفوق متقدمًا بطلب لانتقاله إلى جامعة القاهرة.

وعندما عاد إلى زحام القاهرة، أخذ يلتقط أنفاسه تتراءى له نفسه سيدًا على هؤلاء البشر، الذين يملئون الشوارع والذين جاءوا إلى الحياة بطريقة شرعية، والذين أذاقتهم الحياة حلاوة دفء الأهل والعائلة ولكنهم يتخبطون في بعضهم البعض دون هدف، استخدم ذكاءه منذ أول لحظة له في الجامعة راح يستطلع عالمه الجديد، نجح في استمالة عطف أحد أساتذته، متقربًا إليه حتى وصل اقترابه لدرجة الملازمة، متسربًا بقوة ناعمة إلى حياته لدرجة الاعتياد والاعتماد الكامل عليه، عندما وجده منقذًا لجميع أزماته، يوفر له ما يحتاجه من الكتب موصيًا عليه جميع أساتذته، وعندما حصل على بكالوريوس الهندسة المعمارية بامتياز، توسط له للعمل في شركة مقاولات يمتلكها أحد أصدقائه، ومنذ اللحظة الأولى لدخوله عالم المقاولات رسم (جمال) في خياله موضعه، وفي ظرف سنوات قليلة أصبح صاحب أكبر شركة للاستثمارات العقارية، وأصبح الأمر الأهم بالنسبة له الآن، أن تكون له عائلة يهبها نجاحاته واسمه اللامع الرنان، الذي رغم شنته ورنته في آذان جميع من يسمعه، إلا أنه هو وحده الذي يدرك زيفه، يدرك أنه يحتاج إلى أصول حقيقية ربما تعوضها أصول زوجته.

يمسك جمال برومانسية كف خطيبته، ويمضي بها وكأنه الأمير (ريتشارد) وهي الأميرة (ديانا) ليقطعا الممر الطويل الذي ينتهي بهما إلى صالة المطعم، كان هذا هو لقاءهما الأول بعدما انشغل كلًا منهما عن الآخر أسبوعًا كاملًا، يتلقيان فيه

التهاني والمباركات، ينتفخان بمديح عائلات الطبقة (الهاي كلاس) لحفل خطبتهما، ويتلذذان باستفزاز حقد الطبقة العاملة المحيطة بهما، وشغف الطبقة المتوسطة التي تتابع أخبار مشاهير المجتمع في الصحف والمجلات، الذين سيمصمصون شفاههم لهذا البذخ المفرط في الحفلات، أما الفقراء المنعدمين وهم السواد الأعظم للمجتمع، فلا يهم أمرهم في شيء، ربما لأن هؤلاء ينزون في جحورهم قانعين يحمدون الله على فتات حياتهم، لا تبطش أعينهم أضواء هذه الفخفخة التي تسحق الأبصار، أما العقول فغيبها المشايخ الذين ينفخون في أبواق المساجد ليل نهار، أن شرط الإيمان هو الإيمان بالقدر؛ فباتت العقول مستسلمة لفكرة أن الله اختار على الأرض ناسًا ليظلمهم، راضين بأن يحرمهم من النعم التي يمنحها للآخرين، وكأن الله ليس بقادر على أن يخلق الحياة بنعمها لهؤلاء سواسية، تغيبت العقول باسم القدر لا تستوعب أن الظلم هو فعل البشر.

لم يكن (جمال) سعيدًا على الرغم من تحقق أحلامه بصورة أكبر مما تخيلها، هذه العروس التي يحسد نفسه قبل الآخرين عليها، لم تترفع وتتصل به مرة واحدة ولو من باب التظاهر بالاهتمام به، غير عابئة بغيابه عنها أسبوعًا، ولولا أنه هو من عرض عليها الزواج بنفسه، صابرًا على تدللها في إبداء موافقتها وهو يلاحقها في النادي، قبل أن يتقدم رسميًّا لخطبتها، لظن أنها مغصوبة عليه، دعاها الليلة على العشاء بعدما اتصل بها صباحًا ليطمئن عليها مستفسرًا عن تجاهلها، فصدمته بدلالٍ تلومه ليفهم أن الاهتمام فرض عليه، وعندما سألها عن الحب تدللت ليفهم أن الحب طريق بدايته الرجل، انتابه شعور بأنه مقدم على معركة تقتضي أن يغتصب فيها مشاعرها، حاول ألا يستسلم لهذه التخمينات السوداء يقنع نفسه بأن الوقت كفيل بأن يجعل الحب سيدهما، ولكنه كلما رمح بخياله ليريح رأسه المتعب على صدرها البض، تصعقه نظرتها الصاخبة المتوهجة، فيفيق من خيالاته مفزوعًا غير قادرٍ على الاستغراق في حلم، كلما حاول أن يطوع مشاعره لتستسلم لسلطان جمالها الفتاك، تزوغ منه المشاعر غير عابئة بجمالها الذي يفقد شيئًا فشيئًا سلطانه على حواسه، حتى أيقن أن خطيبته كالماس، لا يملك إلا أن يتباهى بها أمام الناس لتمنحه

غطرسة إضافية، بينما هو يحتاج امرأة كالعبير يتسلل إلى مسامه، فتتحول ملوحة أيامه إلى نهر عذب، وتتزلزل في قلبه جبال قسوته، عندما تمنحه خيالًا يمرح فيه على راحته، يعيش فيه هانئًا بحياة إضافية.

على الرغم من مغامراته النسائية الكثيرة لم يسكنه يومًا ما عبير امرأة، جميعهن يختلفن ثقافة وفكرًا ومركزًا اجتماعيًّا، لكنهن كخطيبته في الحب، انتابته لحظات كان فيها ناقمًا على ثروته، التي حتمت عليه أن يدفع ثمن كل شيء حتى بشاشة وجوه البشر، يحسد ذلك الرجل الحقير بهيئته البذيئة الذي اختار التسول أمام عمارته، فيفاجئه بواب عمارته الفقير وهو يستضيفه مطبطبًا عليه، واضعًا أمامه جميع ما يمتلك من أطعمة، فيرمقه ذلك المتسول بنظرة تلومه على أنه جهز له الطعام متناسيًا دورق الماء، فيهم البواب معتذرًا يناوله الدورق بوجهٍ بشوش، يلحقه بالشاي ليكون ملك يديه فور انتهائه من الأكل، ثم يجلس إلى جواره منتشيًا بابتسامة الحب والرضا التي تتطاير من عيون ذلك المتسول، بينما (جمال) الذي دفعه الفضول ليراقبهما خلسة مفتعلًا انشغاله بمهاتفة خلوية، تتمزق روحه ألمًا، يهاجمه سؤال أحمق: لماذا لم يترك نفسه لهذا المصير؟ ليصبح كهذا المتسول يخدمه الناس بمحبة خالصة، ويعطونه أعز ما يمتلكون، بدلًا من أن يغتصب أتفه الأشياء من الناس بأمواله؟

ويمضي يستكمل طريقه متحسِّرًا على نفسه مدركًا أنه اختار الطريق الأخطأ، اختار أن يكون نصيبه من الحياة الابتسامة المغصوبة، والوجوه المصبوغة بالبشاشة، مقتنعًا بأن هذا المتسول أذكى منه ألف مرة، لأنه يأخذ من الحياة كل شيءٍ بمودة، دون أن ينتظر منه أحد أن يدفع ثمنًا لما يأخذ، بينما هو كل شربة ماء يناولها له شخص لا بد وأن يكون لها ثمن، ولكنه رغم ذلك لن يرضى لنفسه إلا بهذا الوضع.

باغتته عطسة وهو يمسك بكف أميرته في منتصف الممر الذي سيصل بهما إلى صالة المطعم، تفلت كفها من قبضة كفه الناعمة، تمشي بجانبه تحاذر الملاصقة، يكذب هاجسه بأن عطسته جعلتها تحاذر من أن يعديها بالعطس، على الرغم من أن عطسته قد تكون بسبب حساسية لنوع من الزهور، التي

فاجأتهم بها هذه البنت وهي تفرض عليهما عقدًا من الزهور تستدر به عطف هؤلاء الوجهاء، لأنها تظن هي وأمثالها أن الإنسانية تختبئ في قلوب هذه الوجوه البراقة، وأنهم حتمًا سيشترون الورد دون تردد بثمن محترم، لكن خطيبته أشاحت كف الفتاة بعيدًا عنها بعنف واحتقار، ابتعدت البنت مقهورة نادمة تبادلها احتقارها بعيون تتحجر فيها الدموع بكبرياء، نغزت نظرتها قلب (جمال) واتسعت زاوية انحراف مشاعره عن عروسه، ولكنه لا يملك سوى أن يهمل الموقف، ماضيًا في طريقه يدخل بها المطعم، يصحبهما موظف الاستقبال الأنيق إلى المنضدة المحجوزة باسمه، ينظر إليها وهي أمامه في قلب هذه الأضواء الخافتة الرومانسية، ولكن سحابة الغطرسة على وجهها حجبت عنه أية ملامح للرومانسية، بادلها ابتسامة ماسخة ردًّا على ابتسامتها الموزونة بميزانٍ حساسٍ ككل شيء فيها دون أن تتلفظ بكلمة، حاول بنظراته أن يستفز فيها شاعرية يفرضها المكان وأضواؤه وديكوراته وموسيقاه الحالمة، ليدخلا هذا الجو الرومانسي، تجاوبت مع نظراته قائلة بعذوبة خادعة:

- «حاسة إنك داخل على دور برد، حاول تاخد (أنتي بيوتك) عشان مايتطورش»

فضحك مباغتًا هامسًا:

- «خايفة عليا؟»

بينما هي تحافظ على خداعه بابتسامتها، كحائط أنيق يضمن لها أن تقول ما تريد:

- «أنا بخاف جدًّا من عدوى نزلات البرد»

ضحك ساخرًا:

- «يعني لو جالي برد هتنامي في أوضة وأنا في أوضة»

فقالت:

- «أنا أساسًا ما أحبش أنام مع حد، لازم تكون ليا أوضة مستقلة، وانت لك أوضة مستقلة، كل الناس الراقية بيعملوا كدا»

أطاحت كلماتها الصارمة برومانسية العالم من قلبه وعقله، وتخشبت مشاعره، وتحول قلبه كحائط صلب لن تنفذ منه أية مشاعر لها مهما حاولت، ولم يعد قادرًا على التمثيل أو المحاولات أكثر من ذلك، وجاهد حتى يظل محتفظًا بابتسامة تواجه ابتسامتها اللزجة، محافظًا على اللياقة والذوق حتى تنتهي هذه الليلة، التي حددت معالم علاقتهما، تعجل بطلب العشاء مستكملًا مراسم الليلة دون أن يحاول أن يدخل معها في أية حوارات أخرى، على الرغم من محاولاتها القليلة بعد ذلك إلا أن جميع الحوارات بينهما أصبحت مبتورة، تبترها كلمة حادة تخرج بحروف ناعمة من شفتيها الجميلتين، وعندما خرجا من المطعم بعد تناول العشاء، متعللًا بالإرهاق كان حريصًا على أن تكون هناك مسافة مناسبة بينهما، استوقفتهما جلبة خارج المطعم، شاهد فيها بائعة الورد تقطع جزءًا من طرف ثوبها، لتربط به جرح الولد الذي كان يتقافز بفوطة بين السيارات لتلميع زجاجها، ظنت البنت أنه مجروح بزجاج سيارة سقط عنها زجاجها فجأة وهو يلمعه؛ فاندفعت مذعورة بحنان تربط له خدوشًا افترضتها، يلتف حوله جميع البنات والأولاد السريحة ممن يعملون في هذا الحى الهادئ.

بلطف مصطنع راحت عروسه تداري احتقارها لهذا المكان الذي لا يليق بمستواها، تذكر له عدة مطاعم أفخم منه ذات (جراجات) مستقلة ولا يرتادها السريحة بهذه الهمجية، فأجابها بلباقة متأففة وهو يفتح لها باب السيارة أنه يحب هذا المطعم بالذات لشاعريته.

ومضت الخطبة في طريقها لاستكمال الزواج دون أن يعود مهتمًا بحكاية المشاعر بينهما، وانشغل في صفقات جديدة استحوذت على جميع طاقاته.

وذات مساء كان مرهقا كئيبًا للغاية، يشعر بالجوع دون شهية للأكل، يرفض عرض مدير أعماله لطلب وجبات جاهزة من المطعم الرومانسي الذي يتردد عليه على فترات متباعدة، فتذكر آخر زيارة لهذا المطعم مع عروسه وكيف نغصت عليه الاستمتاع برومانسيته؛ فقرر فجأة أن يأخذ هدنة من جميع التزاماته ذاهبا للاستمتاع بسحر رومانسيته وحده، اعتذر لمدير أعماله يؤجل جميع أعمال اليوم إلى الغد، انطلق بسيارته منشرحًا لهذه الرغبة المفاجئة التي

تملكته، وعلى أبواب المطعم أمسك بنفسه يتلفت بحثًا عن البنت التي كانت تبيع الورد، متذكرًا دمعة الكبرياء التي نفذت من عيونها موجعة قلبه، لكن البنت لم يكن لها أثر، دخل المطعم وتناول عشاءه دون شهية ودون أن يؤثر سحر المكان على مزاجه كما كان يتوقع، وتمددت تعاسة روحه وكأن طاقة مسجونة فيها تعذبه، لأنه غير قادر على يطلق سراحها، وفي لحظة خروجه من المطعم التصقت نظرته البائسة بنظرتها المبهجة المحملة بآمال الحياة، فانطلقت في روحه فرحة صاخبة، لكن البنت خطفت نظرتها مسرعة تبتعد، دون أن تعرض عليه شراء الورد، رغم أنها راحت تعرضه بإلحاح على المارة، بينما هو تلخبطت مشاعره، ولأسباب مجهولة ظل يراقبها يفتعل انشغاله بمكالمة تليفونية، اتجه يمشي ناحيتها، عندما رآها تستند مبتعدة على عمود الإنارة توليه ظهرها هائمة مع القمر.

اقترب منها يفتعل انشغاله في مكالمة هاتفية، أثارته رائحتها، لم تكن عطرًا باريسيًّا كتلك العطور التي كانت تزكم أنفه في الحفلات (الهاي كلاس) العطور التي يتكالب الرجال والنساء عليها يتحملون أثمانها الباهظة لتترك أثرهم في الأماكن، بينما هذه البنت تحتفظ برائحة جسد طازجة، إنه يعرف هذه الرائحة، تلك الرائحة التي تفتحت لها مشاعره الأولى، وانتفخ جسده منطلقًا ينفجر بمشاعر حلوة، رائحة تستدعي من ذاكرته تلك الفتاة التي داعبت مراهقته في مدرسة الملجأ المشتركة، يتذكر تعاطفه مع وحشية نظرتها، التي تختفي وراءها مرارة دفاعها عن وجودها في حياة ترفضها، وشعرها الملبد الذي يحكي تفاصيل قسوة تتراكم مشتبكة كعقدة لا بداية ولا نهاية لها، أما تلك الرائحة التي كانت تفوح من جسدها فسكنت أنفه بهدوء دون أن تجرح جيوبه الأنفية، تتسلل بأسرارها إلى أعماق روحه فمنحته بهجة انتشت لها ذاته، رائحة استقرت في ذاكرته كدليل يسترشد به على وجود الحياة، كرائحة الندى في لحظات الصباح الأولى، كرائحة البحر، ورائحة الشجر، رائحة الطبيعة بعد المطر، لم ينشغل كثيرًا بهذا الحنين الذي انطلق من أعماقه مبتهجًا لهذه الرائحة، لأنه ترك العنان لخياله يمزق من فوق جسد هذه البنت ملابسها المهلهلة، تتراءى له بجسدها العاري خجلة تداري بكفها شعر عانتها، وتضم

ذراعيها لتحجب عنه انتصاب حلماتها فتتجلى له كثافة شعر إبطيها، فتتطاير رائحتهما التي كرائحة التراب وهو يعانق المطر، في هذه اللحظة رآها امرأة حقيقية، عرفها برائحة الطبيعة العالقة بجسدها، الرائحة الحقيقية القادرة على أن تترك أثرها في أي مكان تنزل فيه، فتتلاشى أمامه الجميلات أصحاب المساحيق والعطور الباريسية، لأن (جمال) الذي باستطاعته أن يشتري أغلى العطور، يدرك أن الحياة الحقيقية لها عطر لا يباع ولا يشترى.

انتبهت البنت لوجوده بجوارها عندما عطس بدون إرادة، فالتفتت متلهفة عليه تقول:

- «ألف سلامة على حضرتك، أروح أشتريلك مناديل»

فابتسم لها شاكرًا يعلمها أن مناديله في سيارته، يفسر لها عطسته أنها ربما يكون سببها حساسيته لنوع من الزهور التي تمسكها، فضحكت بعذوبة مندهشة تقول:

- «معقولة في حد يجيله حساسية من الورد؟! دانا لولا الملامة عمري ما كنت أبيعه للناس، لأنهم بيشتروه عشان يرضوني، وبعدين يرموه في الزبالة، لو كنت أملك كنت أملابه حارتنا، ومابيعوش أبدًا»

هفهف قلبه لكلامها، وتبدلت ملامحه ونبرته، وكأن إشارة منها فهمها ذلك الصبي الشارد في أعماقه يعذبه، ليخرج منطلقًا إلى الحياة يغازلها، فقال لها بعذوبة هامسًا:

- «طيب ما تشتغلي في محل ورد»

فتوارت تداري حزنها تقول:

- «شغل المحلات عاوز شهادات، وأنا أمي طلعتني من المدرسة قبل ما أدخل امتحان الإعدادية»

تركها متأسيًّا دون أن ينطق بكلمة واحدة، وكأنها جسدت له آلام يتمه مدركًا أن الحياة ملأى بأيتام أمهاتهم على قيد الحياة، يمنع كفه من الطبطبة عليها،

لأنه لا يؤمن بأن الكف خلقت لتمسح دموع البشر، تتبعته البنت بنظراتها مذهولة تتهمه بالجنون، بينما هو انطلق بسيارته لا يعرف إلى أين، ولكنه على أية حال وصل بعد دوار طويل في شوارع القاهرة إلى فراشه، غط في نوم عميق، واستيقظ في الصباح على رنات المنبه ناسيًا كل شيء، ذاهبًا إلى مكتبه منهمكًا في إنجاز صفقاته، يتابع في مكالمات خاطفة مع خطيبته رأيه فيما اختارته من ديكورات ڤيلًا الزواج، تجر الليالي بعد تلك الليلة بعضها البعض حتى عاد إلى نفس السأم، استرسل لليال عدة ينجز أعماله مقاومًا سأمه، لم يكن يحصل فيها على النوم إلا بأقراص مهدئة، لكنه دون أن يخطط لشيء ترك مكتبه ذات مساء ملخبطًا نظام العمل لمدير أعماله، ذاهبًا إلى المطعم وكأنه طوال هذه الليالي كان يقاوم رغبة ملحة انتصرت عليه في تلك اللحظة.

اغتبط قلبه عندما رآها من على بعد تبيع الورد لشاب وفتاته، قبل أن يركن سيارته ناداها:

- «يا بتاعة الورد»

تنبه متعجبًا من نفسه لأن روحه التي ارتبطت بها طوال هذه الليالي لم تنشغل بأن تعرف اسمها، مشت إليه البنت بدلال وفرحة ساهمة عندما تأكدت من أنه هو، قفز من عينيه ذلك الصبي المختبئ في أوردته يعذبه، ليعبر عن نفسه دون أدنى حسابات لمكانته ووضعه الاجتماعي، يسألها هائمًا عن اسمها فقالت:

- «(لبنى)»

عطس، فابتعدت لأنها فهمت أن رائحة الورد تؤذيه، نزل من سيارته يتبعها إلى عمود الإنارة التي استندت إليه، في ليلة كان يطل فيها القمر بوجهه مشرقًا يراقب حكايةً آن الأوان لها أن تبدأ، قطع صمت حديث العيون الساهمة تحت ضوء عمود الإنارة برهة قصيرة وعلى طلة وجه القمر قائلًا:

- «أنا عاوزك تعدي عليا كل يوم الصبح في مكتبي ومعاكي صحبة من الورد بتاعك»

همست له بدلال تفتعل التعجب:

- «مانت ممكن تتفق مع أحسن محل يبعتلك أحسن ورد كل يوم»

فتنهد قائلًا:

- «الورد بتاعك فيه نوع بيعملي حساسية، عاوز أعود نفسي عليه فترة عشان تروح الحساسية»

وناولها مبلغًا تحت الحساب، وبطاقة تحمل اسمه وهواتفه وعنوان مكتبه، وتركها في دهشتها ومضى.

تركها هائمة في نظرته الساحرة، كانت خبرتها القليلة بالحياة تكفي لأن تفرق بين نظرة إنسان اطمأنت روحه لروحها، ونظرة وحش يهمه أن يفترسها، لم تكن (لبنى) تعرف ماذا يعني الحب، ولكنها تشعر بدغدغة ساحرة لروحها، تغمض عيونها الخضراء برموشهما الكثيفة برهة قصيرة ترقص في خيالها بعودها النحيل كعصفورة يهفهف فستانها الأزرق بطرحته الشيفونية بين صديقاتها تغني للقمر:

- «لمين يا قمر، تطلع لمين، تسهر لمين، لمين يا قمر، إحنا يا حبيبي، في رحلة سفر، والسماء عالية وبعيد القمر»

اندهشت السكرتيرة عندما دخلت عليها (لبنى) في الصباح بهيئتها المهلهلة، تناولها الكارت بكف بينما يحمل كفها الأخرى صحبة الورد، وبلغت الدهشة حدتها عندما تبدلت ملامح مديرها الجامدة مرحبًا بفتاة الورد، يدعوها لترص الورد بنفسها في (الفاظة) التي أمامه، عطس عندما اقتربت (لبنى) من مكتبه، ابتسم قائلًا:

- «ماتقلقيش هي عطسة واحدة وبعد كدا خلاص»

طلب من السكرتيرة أن تتركهما بعدما طلب لها وله الشاي وهو يصطحبها يدعوها للجلوس بجواره في صالون مكتبه، وعندما جلست في الكرسي الذي

يجاوره أثارته رائحة انفعالات جسدها الطازجة بالحياة، ربما لأن الصابون أبو رائحة رفاهية لا تدخل حمامات الفقراء، كان حمامها اليومي ماءً ساخنًا يملأ دخانه الحمام مستمتعة بحرارته حين تداعب السخونة شعر إبطيها وعانتها، تجفف جسدها بعد وصلة التلذذ بهذه السخونة يوميًّا، فيحتفظ جسدها برائحة انفعالاته الطازجة دون أية عطور دخيلة، رائحة جسدها المنفعلة بالحياة لتوها أثارت حواسه وأبهجت مزاجه.

هام فيها يتأملها لحظات لخبطت كيانها، فأسعفها قائلًا ينظر في ساعته:

- «بصي.. قدامك ربع ساعة ممكن تقولي فيها كل اللي يخطر ببالك، بعد كدا هكون مشغول جدًّا»

فتعثرت الكلمات مندهشة تهز كتفيها، ليفهم أنها ليس لديها كلام تقوله، فسألها:

- «انتي شايفاني إزاي يا (لبنى)؟»

فأجابته بنظرة اندهاش ثاقبة متعجبة لا تفهم مقصده، فيقول لها مفسرًا:

- «يعني شايفاني حد كويس، ولا حد وحش؟»

فقالت بعفوية صادقة:

- «شايفاك حد طيب أوي»

هام في عيونها الخضراء مستشعرًا صدق كلماتها يقول:

- «طب قوليلي أنا ممكن أساعدك في إيه؟ صدقيني يا (لبنى) أنا حاسس إني عاوز أساعدك، عاوز أعملك أي حاجة تسعدك، وماليش أي هدف من كدا»

شكرت له مشاعره الطيبة، بينما يدخل العامل يقدم له شايه ولها الشاي ويخرج، يستأنف (جمال) كلامه يؤكد لها أن باستطاعته أن يحقق لها ما تريد دون أي هدف، فقالت له متأسية أن أحلامها ماتت يوم أن حرمتها أمها من

امتحان الإعدادية، وحرمتها من حضور حفل المدرسة التي كانت سترقص فيه رقصة القمر مع صديقاتها، الرقصة التي تدربت عليها عامًا كاملًا وكانت مدربة الرقص تقول لها دائمًا:

- «انتي عصفورة القمر يا (لبنى) بترقصي زي عصفورة طايرة رايحة للقمر»

تألم ألمًا حقيقيًّا لحزنها وكأنه الحزن الذي يصيبه كلما تذكر أن بمقدوره أن يشتري سفينة يذهب بها إلى القمر، لكنه عاجزالآن عن أن تكون له عائلة ليأخذه الحنين إليها، قرر جمال أن يحقق لها حلمها قائلًا:

- «عشان تحققي حلمك لازم تمدي إيدك للإيد اللي هتتمدلك عشان تشدك لفوق، وتنشلك من قعر البير الغويط اللي انتي عايشة فيه»

وفسر لها ما يقصده صراحة؛ لتفهم أن الحل الوحيد هو أن تهرب بجلدها بعيدًا عن أهلها، لتنتشل نفسها من الضياع، اعترضت (لبنى) رافضة في بادئ الأمر تبالغ في حبها لأبيها وأخيها الصغير، ومترددة وهي تحكي عن قسوة أمها وأخيها الكبير، تحاول أن تقنعه بأن واجبها أن تنشلهم معها، ولكنه استطاع أن يقنعها أن تنشل نفسها أولًا، وتتمهل حتى تصبح (لبنى) أخرى، (لبنى) القوية المتعلمة المثقفة، حتى تكون قادرة على أن تمد لهم يدها لتعبر بهم إلى حياة أفضل، كان يقول لها هذا الكلام، بينما يجول بخاطره كلام آخر، لأن قناعاته أن الإنسان عندما يصبح وجيها، يتبرأ من كل شيء يذكره بوضاعته، بينما اقتنعت (لبنى) بكلامه، وفي صباح اليوم التالي جاءته هاربة من أهلها، تحمل ضياعها بدلًا من باقة الزهور هذه المرة.

❊❊❊❊

(١٣)

ذهب (جمال) إلى مكتبه باكرًا، لا يشغله شيء في الوجود سوى كيفية حصوله على أراضٍ في المدن الجديدة، التي تطرحها الدولة للتعمير، وعلى طاولة اجتماعاته ناوله مدير أعماله مقالًا منشورًا في إحدى جرائد المعارضة للدكتور (سمير حنا) المشهور بمقالاته اللاذعة ضد الطبقة الرأسمالية والذي يعده (جمال) عدوه اللدود، لأنه أشار إليه في إحدى مقالاته، متسائلًا عن الثروات التي تظهر فجأة، دون أساس يؤهلها لتنمو نموًّا طبيعيًّا عبر الأجيال، يتهم الدولة بأنها هي المسئول الأول عن وجود هذه الظاهرة، التي تكتسح الحياة بقوة متوقعًا أنها ستزلزل كيان الوطن، لذلك كان (جمال) يتابع بشغف مقالاته، يتصيد فرصة لمقاضاته وزجه في السجون، أخذ يقرأ عنوان مقاله ساخرًا بصوتٍ مسموع:

- «هل الدولة تحارب الرأسمالية المتوحشة، أم أنها هي الحجر الأمين الذي يعتني بتفحلها؟»

واعتدل يقرأ مسترسلًا في سخريته المسموعة جزءًا من المقال:

- «إذا أردنا أن نفهم تاريخ تكوين الرأسمالية فعلينا أن نتابع هذا المسلسل المعاد، الذي انطلقت فيه الدولة تحمل شعارات الاشتراكية البراقة، تخترق الصحراء لتبني عمارات للشباب كنواة أولى لتعمير البقعة الصحراوية، تسخر وسائل الإعلام لتطلع الشعب على خطتها المحكمة لاستكمال مشروعات الامتداد العمراني تحت لواء شعارات براقة، أهمها أنها وضعت حلًا لمجابهة الرأسمالية الجشعة المتسببة في أزمة السكن خاصة للشباب، ولكننا في نهاية المسلسل كالعادة نكتشف أن الحكاية ما هي إلا وسيلة جديدة لتضخم أموال الرأسمالية، هذه المشروعات التي تهيج لها معدة أصحاب رءوس الأموال، لأموال ليس لها صاحب لأن صاحبها هو الشعب، والشعب

يترك أمواله في يد أمينة، لأن الشعب يأمن السلطة، واثقًا في أجهزة الرقابة التي تراقب نيابة عنه، فتصير الأمور في نهاية الأمر إلى تواطؤ جميع الأجهزة من أجل مصالح الرأسمالية، ويكتشف أن الرقيب يحتاج رقيبًا آخر، ولا ينوب الشعب سوى اتساع دائرة آكلي أمواله، الشعب قليل الحيلة يفهم كل شيء، ولكن ليس في استطاعته شيء لأن كل شيء يمضي تحت عباءة الحكومة والرقابة والقانون، فإلى من يلجأ هذا الشعب الذي لا يملك إلا أن يجلس على الكنبة ليعض أنامله غيظًا؟ تاركًا هؤلاء لتعلو تلال ثرواتهم لأن الحامي لا بد وأن ينقلب إلى حرامي»

توتر (جمال) ساخطًا يلعن هذا الرجل، وتزداد حدة توتره عندما انهمك في اجتماعه، تطلعه دائرة استخباراته عن تحركات كثيرة لشركات المقاولات الصغيرة والكبيرة، ووجد نفسه محاصرًا بالكثير والكثير من المنافسين كبارًا كانوا أم صغارًا، مدركًا أن هذه الفرصة تجعل بين عشية وضحاها من الصغير كبيرًا ومن الكبير غولًا، فراح يضاعف من خططه منشغلًا عن جميع أموره الشخصية، يدرس جميع السبل التي تمكنه من الحصول على تسهيلات الدولة، لامتلاك أكبر قدر من هذه الأراضي، يدرس مع مجموعة من الموظفين الأكفاء الذي جندهم لهذه المهمة، مكونًا شبكة تعمل لصالحه تحصر له أسماء المدن الجديدة، التي يخطط لإقامة استثمارات كثيرة بها، وأسماء الأشخاص في أجهزة الدولة، التي من الممكن تجنيدهم لتسهيل الأمور.

كانت حجرة مكتبه تعج صاخبة بالموظفين المتناثرين على عدة مناضد، يتنقل (جمال) بينهم يسمع ويدرس ويعطي قراراته، يمر الوقت دون أن يشعروا بمروره، حتى دخلت السكرتيرة بصحبة عاملٍ لتنبههم بتناول الوجبات، فسمح لهم (جمال) باستراحة قصيرة بينما يعود هو لاستكمال مقال الدكتور (سمير) بصوت حاد يرن في آذانه وحده:

- «هذه المدن التي أنفقت الدولة فيها ميزانيتها على البنية الأساسية، وأقامت خطة التعمير الأولى حتى أصبحت فرصة عظيمة لناهبي أموال

الشعب، من هؤلاء المستثمرين الذين سيصبحون هم المتحكمين في أسعار هذه الأراضي، وأسعار الوحدات السكنية التي ستصل إلى أضعاف أضعافها، وتتفاقم أزمة السكن بدلًا من حلها، إن هذا البحر العميق الذي سيغرفون منه أموالًا لا حصر لها هي شغلهم الشاغل، لأنها هي التي ستدعم نفوذهم ليكتبوا بها وثيقة دخولهم إلى قائمة المستثمرين المتحكمين في مصائر الدولة، ومما يثير الدهشة أنهم أعدوا عدتهم، من خلال شبكة الموظفين التي تعد لهم الدراسات الكاملة عن المدن الجديدة، وأجهزة التعمير التي بيدها الأمر في جميع المحافظات، وبمساعدة كبار وصغار الموظفين بأجهزتها الفعالة، والتي استطاعوا تجنيدهم بالرشى، بخطة محكمة مكونين شبكة عظيمة تعمل جاهدة لخدمة مصالح الرأسمالية وتحقيق أهدافها، إن هذه الشبكة المجندة من الموظفين يعملون في غاية الإخلاص والاستشهاد في سبيل تحقيق أهداف أكثر ما ينالهم منها مكافأة، وربما يحصلون على تسهيلات ليحجز كل منهم شقة لأولاده، على الرغم لو أن الأمور جرت في مجراها الطبيعي، كانت ستذهب الوحدات السكنية لمن يستحقها زاحفة إليه، ولكن الرأسمالية التي فرضها الرأسماليون على العالم لا تفهم سوى لغة واحدة، وهي لغة الخطف والنهب، وعلى ما يبدو أنها أصبحت اللغة الرسمية لهؤلاء الموظفين، غير منشغلين بحجم الثروة التي يسهلونها لتصب في خزائن الرأسمالية، لا يفكرون في الأمر من زاوية أخرى وهي أنهم يساهمون في توحش غول سيلتهمهم في اللحظة المناسبة، يسهلون لهؤلاء سرقة أموالهم وحقوقهم وأراضيهم، وأنهم أصبحوا جزءًا من عصابة الأربعين حرامي، تلك العصابة المخلصة لزعيمها غاية الإخلاص تستحرم أن تسرق زلعة، تجاهد بكل طاقتها لتصل بجميع الزلع آمنة إلى خزائن الرأسمالية، وكأن جميع ما في الكون يتواطأ بإخلاص مشتركًا في المؤامرة، ولم لا؟! وصاحب الحق ذاته يحمله على كتفيه يناوله للحرامي مبسوطًا وفوقه قبلة»

مزق جمال الجريدة يلعن الدكتور (سمير) والجريدة التي سمحت له بنشر هذا الكلام الفارغ ودعاهم مرة أخرى لمواصلة اجتماعه، الذي انتهى منه منهكًا معلنًا لحظة الصفر، ليبدأ التنفيذ العملي بالانطلاق في جميع الخطوط المتوازية في آن واحد.

بينما كانت (لبنى) تنتظره، متكومة في ضياعها على كرسي في آخر زاوية من زوايا مكتب سكرتيرته المندهشة من مديرها، الذي يرج الحوائط زعيقًا وتوترًا، ودراسات وخطط، نهمًا لالتهام الثروات، ولكنه يفاجئها بهذه الإنسانية، انتهى (جمال) منهكًا من اجتماعاته متوترًا يستعيد ذهنه النقاط المهمة يدون أفكاره الطارئة في أوراقه، غير مهيأ لأية أمور شخصية، يتجاهل اتصالات خطيبته متغافلًا عن الرسالة المقتضبة التي تركتها له مع مدير مكتبه، لتعلمه أنها انتهت من تجهيز قُبيلًا زواجهما وتنتظر اتصاله ليرتبا معًا لحفل الزفاف، ورغم ذلك استشعر وجود (لبنى) عندما دخلت بها سكرتيرته، قفز وجهه من بين أوراقه مطلًّا عليها، تسترخي جميع حواسه المنهكة على براءة طلتها وعيونها المرعوبة من القادم، ابتسمت لها روحه يدعوها للجلوس.

يدور ببطء بكرسي مكتبه دورة كاملة مغمض العينين، ويدور رأسه بالأسئلة والأجوبة: لماذا (لبنى) وهل هذا وقته؟ هل ما سيفعله معها هو الغباء بعينه؟

ربما يحتاج الإنسان الغباء كما يحتاج الذكاء، الغباء ربما يعطل طموحه المادي لحظة، يعطي فرصة لروحه لتحلق على هواها دون أية حسابات، الغباء سيجعل ذلك الولد المحبوس في الأعماق يحلق بأحلام البراءة، ليخطف البنت التي أشعلت الرغبة في روحه للحياة طائرًا بها إلى أبعد زاوية في العالم، الغباء هو الذي سيجعله يبحث عن ثقب تنفذ منه طاقة الخير، ربما تكون سببًا لتطمئن روحه الشريرة بأن لها مكان عند ربها في الجنة، تخطر بباله تلك الحكاية الساذجة لمدرس الدين في المدرسة الابتدائية عن الرجل الذي كان يفعل جميع المعاصي، ولكن الله كان يحبه، فأرسل له هرة ليطعمها، لتكون سببًا ويدخل من أجلها الجنة، ألا تكون (لبنى) هي هذه الهرة التي أرسلها الله ليدخل بسببها الجنة؟ استسلم عقله الجبار لهذه الفكرة الساذجة، وقرر أن

يخلص لهذه الفكرة غاية الإخلاص، لأنها ستكون دافعًا لأن يرتكب جميع ما يحلو له من المعاصي؛ لأن حياته أصبح فيها خير مستور، الخير الذي يضبط ميزان البشر ليستكمل مسيرة الشر، وينطلق في الحياة دون ألم، لأن هناك خير مستتر يضمن له مكانا في الجنة، بينما الشر لازمٌ لاستكمال مسيرة الحياة، حسم أمره مسرعًا ينادي سكرتيره الخاص، يكلفه بأن يذهب بـ(لبنى) إلى شقته الخاصة، يحمله مسئوليتها وتدبير جميع ما يلزمها، وأن يذهب بنفسه إلى مدرستها الإعدادية لنقل ملفها إلى مدرسة الدكتور حاتم الإعدادية الخاصة، واستدعاء المدرسين اللازمين لتدخل امتحان الإعدادية هذا العام.

انشغل (جمال) عدة أشهر يتنقل فيها من محافظة إلى محافظة على حسب الخطة التي وضعها لنفسه، للاستحواذ على حصص كبيرة من المدن الجديدة، يؤسس له في هذه المحافظات مكاتب إدارة لأعماله، لتنفيذ خططه المستقبلية للاستثمارات فيها، تاركًا أمرين معلقين في القاهرة: (لبنى) و(نرمين)

(نرمين) زوجة المستقبل التي سيبني بها إمبراطورية يكون هو جدها الأعظم، تحمل أعراقًا وتاريخًا وبطولاتٍ وحضارات ستكون أغلبها وهمية، ولكن سيصدقها الناس لأن الناس يصدقون أصحاب الثروات في كل شيء يقولونه.

أما (لبنى) فلم يضع لحكايته معها أية خطة، (لبنى) كانت الشيء الوحيد الذي في حياته تركه ليمضي دون أن يرسم له طريقًا، ربما يكون هذا الطريق هو الذي يستوعب حماقاته.

نفذ سكرتيره الخاص جميع تعليماته بالنسبة إلى (لبنى) وترك لها مبلغًا من المال لتشتري الأشياء التي تلزمها، تركها تغمرها الفرحة والحيرة في الأشياء التي تلزمها، تدور رقصًا حول نفسها في براح البرندة الواسعة، بعدما فتحتها على مصراعيها فاردة ذراعيها، لتعانق السحاب الأبيض الذي يظهر لها في سمائها الزرقاء الوديعة، يملؤها الحنين إلى الورد فتقرر أن تملأ أركان برندتها بقصريات تزرع فيها الورد، وستضع في منتصف هذا البراح (مرجيحة) لتتطوح بها ذاهبة إلى القمر، تتذكر (المرجيحة) التي كانت تصنعها مع صديقاتها من الحبل المجدول، تشبك أطرافه في المفصلات المتقابلة لباب الحجرة الذي يفتح على سطح منزل

صديقتها (ليلى) يتمرجحن بقوة حتى تحدفهن (المرجيحة) عند القمر، وتذكرت الفستان الشيفوني الأزرق، لقد كانت تدور حول المحلات التي تعرض فساتين الشيفون الأزرق، تحلم بأن تشتريها، لأن مدربة الرقص اختارت لكل واحدة منهن لونًا يناسبها، واختارت لـ(لبنى) اللون الأزرق، إن هذه الشقة الفاخرة لا يعنيها من فخامتها سوى هذه البرندة الواسعة التي ستحيطها بالزهور، وستشغل منتصف براحها ب (المرجيحة) لتتطوح بها وهي تغني للقمر، لم يستهويها شراء العطور الباريسية أو المساحيق، ظلت كما هي (لبنى) كل الذي جد عليها، أنها بدلت ثوبها المهترئ بزناخته بفستانها الشيفوني الأزرق، متمسكة ببشرتها الصافية السمراء، التي تلمع على ضوء القمر، مقتنعة بجمالها لأن مدرسة الموسيقى كانت تحب عيونها الخضراء وبشرتها الصافية السمراء، التي تؤكد أنها حفيدة إيزيس، وكان تغيير ثوبها كافيًا لأن يجعلها شخصًا يحترمه الناس، وعندما خرجت من محل الورد وجدت نفسها في مواجهة أمام محلٍ كبيرٍ للحلويات، يعرض في فتارينه (التورتات) بأشكال كثيرة، تذكرت لحظتها أحد أحلام طفولتها العظيمة الذي كان تائهًا في الذاكرة، وهو أن تشتري (تورتاية) كبيرة، ذات طبقات كثيرة من الكريمة والشكولاتة، لتأكلها وحدها دون أن يشاركها فيها أحد، راحت تتأمل بعيون متلهفة مولعة، ومعدة ملتهبة، ولعاب يسيل على (التورتات) المعروضة، أشارت للعامل الذي دوخته معها في حيرتها للاختيار، حتى استقرت على (تورتاية) كبيرة ذات طبقات كثيرة من الكريمات والشيكولاتات، أخذتها مسرعة تحلم باللحظة التي سيغلق عليها وعلى هذه (التورتاية) باب واحد، وعندما دخلت شقتها أسرعت بإخراجها من علبتها وهي تدندن فرحًا، وضعتها أمامها على منضدة السفرة وجلست أمامها تتأملها، لا تصدق نفسها أن كل هذه (التورتاية) لها وحدها، تخطط في قرارة نفسها أنها ستشتري كل يوم (تورتة) بل ربما تشتري بكل ما يتركه لها (جمال) من أموال (تورتات) تلعق جزءًا من الكريمة يذوب في فمها مستمتعة على مهل بذوبانه، وبمصمصة أصابعها تتذكر عندما كانت تتعرج الشوارع هي وصديقاتها للوصول إلى محل الحلويات الفخم في وسط البلد، فيسيل لعابهن ويلعقن الزجاج دون وعي لأنه هو الذي يحجب عنهن (التورتات) المعروضة بأشكالها المغرية المثيرة

للشهية، يتابعن العامل الذي يوزعها على المناضد أمام الزبائن، يتابعن بشغف وقع المذاق على الوجوه، يتوقعن أن مذاقها سيطيح بالعقول، وأن الزبائن ستصرخ فرحًا من روعتها، لكن يصيبهما الإحباط عندما يأكل الزبائن دون أدنى انفعال بالمذاق، فيثيروا فيهن الرغبة أكثر لمعرفة أسرار هذه التورتة، وذات يوم كانت هي وصديقاتها واقفات منهمكات أمام المحل تشاور كل واحدة منهن على التورتاية التي تحلم بأن تلتهمها وحدها، فتحركن فزعات يسرعن بالهرب عندما فاجأهن عامل المحل، ليدعوهن إلى الدخول، وتسمرن واقفات مذعورات عندما أمسك بـ(لبنى) وظل يضحك ليقنعهن بأن صاحب المحل الأستاذ (جرجس) يعزمهن على (تورتاية)وأخذ يترجاهن للدخول معه، وبينما هن يزغدن بعضهن البعض فرحًا بجلوسهن في هذا المكان الفخم، بينما يد العامل تضع أمامهن أفخم (تورتاية) يضع أمام كل واحدة منهن في طبقها قطعة مثلثة كبيرة، وتركهن محتاسات في الكريمة التي (تتزفلط) من الشوكات، فيضطررن إلى (اللغوصة) بالأصابع ومصها باستمتاع أضحك الأستاذ (جرجس) الذي جاء بنفسه ليتأكد من أن (التورتة) أعجبتهن، شكرنه في نفس واحد بينما (تتزفلط) في أفواههن الشكولاتات، تتأجج وجوههن (الملغوصة) بالكريمة والشكولاتة والفرح والامتنان، فتركهن مغتبطاً ليأكلن على مهل براحتهن يفيض وجهه البشوش بالسعادة لأنه استطاع أن يسعد إنسانًا، وبعدما انتهين من أكلها كلها يتخطفن آخر قطعة من بعضهن البعض، لأن هذه الحلاوة لا تزيدهن إلا رغبة في المزيد، يظهرن التأدب عندما يلتفتن ويشاهدن أصنام النازلون حولهن يأكلون دون حركة، سألت (لبنى) صديقاتها وهي منهمكة بالتلذذ في مص الكريمة والشكولاتة التي غرقت فيهما أصابعها:

- «أكيد الجنة بس هي اللي هنلاقي فيها تورتات كتيرة زي دي»

فتزغدها صديقتها (نهال):

- «يا عبيطة التورتة بيصنعها عمال، هي الجنة فيها عمال؟ الجنة فيها فاكهة»

فحزنت (لبنى) قائلة:

- «بس أنا مابحبش الفاكهة، أنا عاوزة أفطر وأتغدى وأتعشى كل يوم بتورتاية مليانة كريمة وشكولاتة زي دي»

وعندما انتهين من لعق الأطباق تمامًا ذهبن ليشكرن الأستاذ (جرجس) فانشغلت (لبنى) بأن تبحث في ملامحه عن أدلة طيبته، وخرجن من المحل يراقصن الشوارع فرحًا تقول لهن (لبنى):

- «أول مرة أعرف إن المسيحيين بيأكِّلوا الفقرا وبيسعدوهم وبيعملوا الخير زي المسلمين، يبقى إيه الفرق بينَّا وبينهم طالما هما طيبين زينا وبيعملوا الخير زينا»

فقالت لها (مروة):

- «يا هبلة هما دينهم المسيحية وإحنا ديننا الإسلام»

فقالت (لبنى) بعفوية:

- «بس في دين واحد بيجمع الناس كلها هو حب الفقراء والغلابة»

لم تذق (لبنى) طعم التورتة منذ ذلك اليوم، ولكنها لم تنس حلاوتها التي لولا الأستاذ (جرجس) لما عرفتها، تقول لنفسها أحيانًا ربما كان الأستاذ جرجس خبيثا، ربما كان يقصد أن تظل تعاني مرارة الحرمان، لذلك أراد لها أن تتذوق حلاوة لن تطولها أبدًا، ولكنها كانت تتصبر بخيالها الذي صور لها أنها يومًا ما ستمتلك أموالًا كثيرة وستشتري كل يوم (تورتاية) لتأكلها وحدها، لكنها الآن بفستانها الأزرق و(مرجيحتها) والليل والموسيقى والقمر، وأفخم (تورتة) تنتظرها لأن تلتهمها وحدها، لكنها لم تفعل ولم تستطع أن تأكل حتى قطعة صغيرة منها، شعرت بأن روحها تزهدها فجأة، لأن شيئًا مهما كان جزءًا من المتعة هو وجود صديقاتها، وزغدهن ولوعتهن المشتركة، وشيئًا آخر ينغص عليها وأفقدها الرغبة تمامًا فيها، وهو إحساس مفجع بأنها ستأكل (تورتاية) وحدها، بينما أخوها الصغير لا يستطيع شراء الحلوى التي يحبها، وأنها لن تستطيع أن تهدي جزءًا

منها لأبيها الذي كان يقسم معها نصيبه من الأكل، إنها الآن أمامها (تورتاية) كبيرة تنتظرها لتأكلها وحدها، ولكن في تلك اللحظة تتبرم معدة أهلها جوعًا، ظل ذلك الإحساس حائلًا بينها وبين الملذات جميعها.

تمر الليالي عليها وحيدة لا يشغلها سوى نتيجة الامتحان، والحنين الذي يمزقها لأهلها ووعدها لـ(جمال) بأن تنساهم، وفي غمرة وحدتها انقادت وراء حنينها تجرب أن تخل بالعهد، ذاهبة إلى الشارع الذي يبيع فيه أخوها الصغير المناديل، فتسمرت أمامه تناوله ورقة من فئة المائتين جنيه، فانشغل الولد بالورقة غير عابئ بهذه الفتاة ذات الفستان الأزرق، التي يبتلع نصف وجهها نظارة شمس ذات إطار أبيض، ويغوص وجهها في شعرها الكثيف المصفف بتسريحة أضاعت ملامحها، لا يمكن للولد الصغير أن يتجرأ ويفترض مجرد افتراض أن هذه الفاتنة تشبه (لبنى) أخته، التي ربما لم يعد يتذكر ملامحها، تماسكت رغم دموعها الساخنة التي سالت خلف نظارتها، تكابد الحنين الذي يعصرها لتأخذه في أحضانها وتطير به إلى عالمها السحري، عندما تتذكر (جمال) الذي شرط عليها أن تنسى ماضيها، ليكتب هو حاضرها ومستقبلها.

يصيبها الفزع كلما استسلمت عيونها للغفلة، بينما ذهنها متربص للحظة التي سيفاجئها (جمال) يطالبها بالاستسلام له، محتارة أمام السؤال الذي يفرض نفسه عليها هل ستصرخ رافضة هذا الاستسلام، ليكون مصيرها إلى الشارع؟ لكن (جمال) هو من قضى على الفزع من حياتها نهائيًّا، الفزع الذي ظل ينغص عليها صحوها ومنامها، عندما فزعت من نومها على أخيها الأكبر يعبث بجسدها، متحسسًا فخذيها وما بينهما وهي نائمة على البلاط في ليلة صيفية، يهجم عليها ليكتم أنفاسها المتلاحقة المفزوعة، منذ تلك الليلة وهي تكره أخاها وتكره الفقر الذي لم يرحم مراهقته، الفقر الذي ألقى بكتل اللحم لتتكوم أمام رغباته المكبوتة على البلاط، كانت تظن أن (جمال) سيفزعها نفس الفزعة، ولكنه جاء ليشفيها من كل أنواع الفزع، عندما فتحت الباب للطارق ذات مساء فوجدته أمامها يقف منتظرًا إذنها ليدخل شقته، ودخل يقبل جبينها فرحًا يهنئها بنجاحها وتفوقها، يأخذها من يدها ليكتشف جمالًا في شقته لم يكن

يدركه، مندهشًا كطفل يجلس جانبها على (المرجيحة) فتقوم هي ببراءة طفلة تحكي له عن أحلام طفولتها، وعن (المرجيحة) التي كانت على سطح صديقتها وكن يسهرن الليل يتطوحن بها ذاهبات بأحلامهن إلى القمر، الذي كان بدرًا ساحرًا ليلتها، وبدهشة طفل فرح باكتشاف معجزة أن القمر يزور شقته فاردًا ضياءه على جبهته، وكأنه الشمس التي تشرق على وجه رمسيس يوم ميلاده، أراح رأسه على فخذيها يسمعها، وهي هائمة في الحنين تحكى عن صديقاتها وعن الرقص والقمر، فطلب منها ملحًا أن ترقص له الرقصة التي كانت سترقصها مع زميلاتها في حفل المدرسة، مسترخيًا على (المرجيحة) مستمتعًا برقصتها وهي ترقص على موسيقى "آه لقلب والقمر إذا بدا وقت السحر".

تهفهف عليه بشالها الشيفوني الأزرق، فيداعبه النوم الذي كان يجافيه، تاركا نفسه له مستسلمًا ليغط في نوم عميق، واستيقظ على رائحة الأكل فتذكر أنه كان جائعًا، وراح يأكل بشهية مفتوحة ليشبع سنواته الجائعة، يضحك على طفولتها وبراءتها وهي تناوله الشاي بكفها الصغير، وفي الفجر قبَّل جبينها وتركها ومضى، فتنهدت مسرعة ترتمي على فراشها، لتنام لأول مرة وهي تشعر بالأمان غير عابئة بباب حجرتها المفتوح.

توالت زيارات (جمال) إليها غير عابئ بأن يفهم سر ابتهاج روحه لفوضويتها، التي تتأكد له كلما زارها فجأة، مكتشفًا انقلاب حال شقته وزركشة أثاثها فرِحًا وهو يكتشف أسرار شخصيتها المتوترة القلقة، التي عندما ملت الأنتريه راحت تجر كراسي السفرة واحدًا تلو الآخر إلى البرندة، لتجلس على كرسي وتمدد ساقيها على الآخر، وتجر جوارها كومودينو حجرة النوم لتسند بعضًا من الكتب التي تحتاجها عليه، بينما تنشغل جميع المناضد الكبيرة والصغيرة بالكتب والجرائد والمجلات، فيسقط مرتميًا جانبها مقهقهًا على الملاءة التي فرشت بها بلاط البرندة، ليسكن معها في دائرة زجزاجية من الكتب المبعثرة، تحيطها زجاجات الماء وأقداح الشاي الفارغة وفناجين القهوة، راحت تمنعه في خجل عندما أصر على أن يكتشف مصائب المطبخ، فيقاومها مقهقهًا يشهد كركبة الحلل والأطباق على منضدة المطبخ بشكل مقزز، تلمع حبات السكر مختلطة بحبات

الشاي والقهوة تشوه سطح البوتاجاز، يلمع سواد براد الشاي وكنكة القهوة، بينما حوض الغسيل يمتلئ بالأطباق والحلل التي على ما يبدو أنها تراكمات عدة أيام، ويدخل حجرة نومها متوقعًا تلك المعركة التي مؤكد أنها تدار على فراشها، مستشهدًا بنعكشة ملاءتها وفركشة المخدات الصغيرة والكبيرة، ولكنه رغم ذلك يرتمي على فراشها مستسلمًا لحلاوة هذه الفوضى، مسترخيًا تتخدر روحه برائحة جسدها التي تعبئ فرشتها، فيكتشف ساعتها أنه يسأم حياته المنظمة التي تسير على شريط مستقيم، وأن روحه تعشق فوضى (لبنى) التي ترفض أن يأتي لها بخادمة لترتب لها الأشياء، مصرة على أنها ليست فوضى وإنما هي حياتها كما تعيشها.

بددت زيارات (جمال) القليلة وحدتها، متسللًا بعذوبة إلى روحها، حتى أصبحت هي التي تتمنى أن يطلبها، ولكن (جمال) لم يكن يريد منها سوى أن تظل موجودة في حياته، لتضبط ميزان روحه، فتلخص دورها كشجرة يفر إليها مسترخيًا على تربتها، يستظل بأوراقها لحظات بعيدًا عن العالم، يعبئ صدره برائحة حنينه إلى الطين، تاركًا روحه لتعبر سجن هذا الكون، محلقة إلى هناك في مكان خارج الحياة ولكنه لا يعرفه.

كلما استبد به الشوق إلى النوم العميق، كان يفاجئها يطلب منها أن تسمح له بالنوم على فرشتها، فتستوقفه ليمهلها حتى تبدل له الملاءة، لكنه يسبقها مندفعًا يرتمي على فرشتها يستنشقها منسجمًا برائحتها التي تخترق مزاجه، توجعها ملامح اليتم التي ترتسم على وجهه، وهي تتأمل وداعته مندهشة استسلامه سريعًا للنوم العميق، تظل بجانبه ليستيقظ آمنًا على وجه أمه، فيستفز حنانها يطلعها على رغبته في الأكل، تقبله بفرحة أم يطلب منها طفلها الزاهد في الأكل فجأة، وتلبي مسرعة تطعمه بيدها، حتى أنه قال لها ذات مرة حزينا شاردًا:

— «تعرفي إني عمري ما نطقت كلمة "يامَّا"؟»

فتضم رأسه إلى صدرها ليغسله بدموعه ومخاطه، وتغسل هي جبينه بدموعها وهي تقبله موجوعة، تطلب منه أن يقولها لها.

على الرغم من كل هذه المشاعر التي كانت تربطه بـ(لبنى) إلا أنه مضى في خطبته تاركًا نفسه لخطيبته التي أحكمت حصارها حوله، حتى أتم الزواج بها وأنجبت له طفلين، على الرغم من أنها حرمته من جميع مشاعر الأبوة، التي تفجرت فيه بمجرد علمه بحملها، لكنه تركها لتدير حياة أسرتها بنظام صارم تتقطر فيه العواطف، استسلم راضخًا لطريقتها، يجد عوضه في زيارته الخاطفة لـ(لبنى) بينما تأكل المشاريع وتضخيم الثروة معظم وقته.

ولكن (لبنى) لم تعد هي (لبنى) بعدما تجاوزت المرحلة الثانوية، والتحقت بكلية الآداب جامعة القاهرة، تكشّفت لها الحقيقة شيئًا فشيئًا، وفهمت أن الحب شيء آخر، الحب يحتاج إلى النور والوصال، بينما نصيبها من (جمال) كان الهجر والظلام.

لقد كانت تنتظره بمشاعر متأهبة لتبدأ بينهما قصة الحب التي تنتظرها أن تبدأ، ولكن مشاعرها المتوهجة كانت تحط على أرض رخامية باردة، حتى ملت الانتظار، حتى سلمت بينها وبين نفسها بأن (جمال) يمنحها بردًا يجرح كبرياء روحها، ويزيدها احتياجًا وتعطشًا للحب والحياة، ربما لو لم يكن موجودًا في حياتها لاستقامت مشاعرها، وتوازن احتياجها للحب، ولكنها تشعر بزلزلة تصيب نفسها لاهثة وراء الحب رغم أن لديها ما هو أهم.

❊❊❊❊

(١٤)

كان الدكتور (سمير) أستاذ الأدب الإنجليزي في كلية الآداب بجامعة القاهرة يبحث عن (إيزيس) و(إيزيس) هي توأم روحه التي انشطرت عنها في مكان ما على وجه الكرة الأرضية، كان يؤمن أنه حين يقابلها سيعرفها من بين آلاف البشر، ستحن روحه ذاهبة إليها لتلتئم، لقبه صديقه الدكتور (أحمد) أستاذ الأدب الفرنسي مازحًا بـ"التائه عن (إيزيس)".

عندما رفض عرضه للزواج بدكتورة مسيحية جميلة، ذات حسب ونسب وأستاذة علم الاجتماع في نفس الكلية قائلًا له:

- «أنت من الصعيد الجواني يا دكتور (سمير) و(إيزيس) التي انشطرت عن روحك، مؤكد إنها هناك في الصعيد قاعدة تستناك»

فأجابه شاردًا في ملكوته غير عابئ بنبرته الساخرة:

- «ربما تكون انشطرت عن روحي منذ أربعة عشر قرنًا من الزمان، كان أجدادي وقتها يعيشون في قرى الدلتا وعندما غارت قبائل العرب على مصر يفرضون الجزية على من يتمسك بدين آبائه، لكن أجدادي رفضوا أن يتركوا ديانتهم لأنه ليس من الشرف أن يترك الإنسان دينه ليعتنق دين الأقوى، وأن أشد أنواع القهر الإنساني أن يطلب منك التنازل عن دينك ثمنًا من أجل التخلص من بطش الرومان، لأنها مساومة دنيئة، ارتكزت على استغلال ضعفك، إن العرب تصيدوا ضعفنا، استغلوا ما نمر به من قهر لنتغاضى عن فكرة أننا نخرج من احتلال إلى احتلال»

فنظر إليه الدكتور (أحمد) نظرة عتاب متهربًا من الحوار:

- «التاريخ يشهد بحسن معاملتهم للمسيحيين يا صديقي العزيز»

لكنه استفز روحه الثورية التي تتقد لأتفه الأسباب قائلًا:

- «إيه الاختلاف بينهم وبين اللي بيعمله (بوش) في العراق؟ احتل العراق من أجل أن يخلص العالم من (صدام) يا ترى لو (بوش) طلب من العراقيين أن يتركوا الإسلام ويخترع لهم دين يحبك لهم تعاليمه وسماحته، كنتوا هتكتبوه في التاريخ الفتح الأمريكاني للعراق؟ هل كان التاريخ سيرحم أهل العراق إذا تنازلوا عن دينهم، من أجل النجاة بأرواحهم، أو تماشيًا لمصالحهم الجديدة مع الأمريكان، هل كان سيرحمهم التاريخ عندما يتنازلون عن هويتهم بهذه السهولة؟!»

فقال له الدكتور (أحمد):

- «يا صديقي العزيز كثيرًا من الدراسات أكدت أن الإسلام دين سماوي»

فقال له:

- «كل الأديان السماوية والأرضية تحمل تعاليم نبيلة، وشعارات براقة، حتى الأحزاب إلى مالية الدنيا تتبنى شعارات نبيلة، لكن البشر ينتمون إلى الأحزاب ويدخلونها بإرادتهم لتحقيق المصالح واكتساب النفوذ، والوصول إلى السلطة ليس إلا، فسدت الأديان وفقدت سماحتها، عندما استغلتها الحكومات دعمًا للنفوذ ووصولا للسلطة، الأديان أصبحت كالأحزاب يا عزيزي»

احمر وجه الدكتور (أحمد) لأنه لا يحب أن يتطرق لهذا الجدل الذي يضطره إلى الدفاع عن دينه، وقناعته أن الدين لا بد وأن يكون قادرًا على الدفاع عن نفسه؛ فقال له على استحياء لينتهي من هذا النقاش:

- «أعتقد إن وجودك على دين آبائك بعد ١٤ قرن من الزمان، يؤكد إن الإسلام دخل مصر فاتحًا، وليس غازيًا وأظنك تفهم الفارق بين المعنيين»

فقال له بائسًا:

- «دفع أجدادي الجزية بدلًا من ضياع دين الآباء، وهاجر من هاجر منهم إلى الصعيد، بينما تنازل آخرون عن دينهم داخلين في الإسلام ضمانًا لمصالحهم التي ستكون في أيدي الحكم الجديد، وتوزعت روح (إيزيس) على البلاد»

فتركه ساخرًا يدعو له بأن تهطل عليه روح (إيزيس) حتى يرتاح من أفكاره المجنونة بـ(إيزيس) وبالسياسة والدين.

ذهبت (لبنى) إلى أول محاضرة لها للأدب الإنجليزي بوجه صبوح يخلو من المساحيق، تلمع بشرتها السمراء من حرارة يوم صيفي، ترتخي نظرة عيونها الخضراء ذات الرموش الكثيفة، ينسدل شعرها الأسود على كتفيها، يهفهف فستانها الشيفوني الأزرق على جسدها النحيل، بدت في رشاقتها كعصفورة من عصافير الجنة، وبسبب تعجلها لدخول المحاضرة في موعدها خبط كتفها في كتف الدكتور (سمير) وهي مندفعة إلى القاعة؛ فأطلَّ في وجهها معتذرًا يظن نفسه مخطئًا لاستغراقه في النقاش مع أحد طلابه، يبتهج قلبه لطلتها الطفولية الباسمة، ويتلخبط كيانه يقول لنفسه ساهمًا هامسًا: "(إيزيس)".

أربكتها نظراته الهائمة الرزينة، وانشغل بالها طوال المحاضرة، هائمة حائرة في همسته لها:

- «إيزيس»

وبعدما انتهت المحاضرة سألت صديقة تستعين دائمًا بها لتشرح لها الأشياء الغامضة في الكلية لأنها تسبقها بعامين، كانت قد تعرفت عليها في الكافيتريا في أول يوم دراسي، ودعتها (لبنى) إلى الشاي وتبادلا أرقام الهواتف، مدحت لها صديقتها إنسانيته، وأشعاره ولوحاته، لأنه شاعر وفنان تشكيلي وصاحب أفكار سياسية خاصة، تثير عداوة رئيس الجامعة وخاصة ندوته الشهيرة بندوة الخميس في أتيليه القاهرة، والتي ستكون نواة لتأسيس حزب جديد يدعو الشباب إلى الانضمام إليه، ودعتها لحضور ندوة هذا الأسبوع التي ستكون

للمناقشات العامة في الدين والسياسة والأدب والحياة، تنبهها لتعد سؤالًا جادًا لتطرحه في الندوة، ليكون فرصة للتعارف.

وفى الندوة اشتبكت نظرته بنظرتها الحلوة الحالمة، وهو يجول بنظراته بين الطلبة ليستمد طاقته من حماس الشباب وثورته على الأوضاع، واندفاعهم يجهرون برغبتهم في إنقاذ الدولة من الغرق، يعدون أنفسهم لمعركتهم القادمة جادين في تحمل المسئولية، اندمجت (لبنى) كلية مع هذا الجمع الصاخب الصاخت، تشعر بأن الدماء التي في شرايينها تتغير، هذا الجو الجديد عليها تمامًا استفز فيها أفكارًا غير مرتبة، فجر في قلبها وعقلها ثورتها المكبوتة، لتفهم أن نقمتها الدائمة على سوء الحظ كانت خاطئة، لأنه أبدًا ليس حظًا، ولكنها السياسة التي اختارت تفقير طبقة من الشعب، لتتدنى إلى هذا الحد من الفقر والجهل، وأن الإعلام الفاجر الذي يحكي ليلًا ونهارًا متفاخرًا بإنجازات الحكومة، وجهودها المبذولة في محو الأمية وتحسين الحياة الاجتماعية كاذبًا، لأن الدولة تسعى بكل قوتها إلى إغراق الشعب في الجهل ومحو الهوية وإفساد الذوق وتدني الإحساس وطغيان المادة، تلخبطت مشاعرها بين نيران الثورة وفرح ميلادها الجديد، وفرحة أخرى نخبشت قلبها، لحظة اشتباك نظرتها بنظرة الدكتور (سمير)

اعتلى الدكتور (سمير) المنصة وبجواره الطالب الذي كلفه بتدوين أسماء الطلبة الراغبين في طرح الأسئلة، يطلب منهم الهدوء تجنبًا لإهدار الوقت لأنه ثروة الفقراء، يدعوهم لاستثمار كل لحظة من العمر في الإنجاز، أي إنجاز حتى ولو كان لحظة سعادة حقيقية، مؤكدًا أنه تحقيقًا لمبدأ تكافؤ الفرص سيتم طرح الأسئلة، بداية بطالبة يليها طالب وهكذا حتى ينتهي الكشف.

بدأت الندوة المزدحمة بالشباب حتى أن المقاعد لم تكف الحضور، فتجمهر الشبان واقفين آخر القاعة، تاركين المقاعد للبنات، بدأوا طرح الأسئلة بداية بأول طالبة بالكشف.
فقالت طالبة:

- «ما هي تصورات حضرتك عن الموت وما بعد الموت؟»

رد الدكتور (سمير):

- «الموت من الغيبيات التي تدعو العقل للتخيل والافتراض؛ فربما نصير كائنات أخرى في عالم آخر، ربما، الاحتمالات كثيرة مفتوحة أمام العقول وعلى العقول أيضًا أن تدلل على أسباب افتراضاتها، وعلينا نحن أن نناقش العقل بالعقل، من منا لا يشعر بالحنين الدائم إلى شيء مجهول، أو الشرود حينما تهاجمنا مشاعر تعاسة أو سعادة خفية تحلق الروح فيها بعيدًا، إلى أين ذهبت؟! ومن أي مكان وزمان جاءتها هذه التعاسة أو السعادة؟! وكأن الروح تعيش حيوات أخرى لا نعرف منها سوى ما نعيشها هنا، بينما تختفي عنا حيوات كثيرة ستنكشف لنا في موعدها»

قال طالب ثانٍ:

- «لماذا لا نتعامل مع الشرع كما نتعامل مع العرف؟ ولماذا لا نعمل على تغييره لما يناسب العصر؟»

أجاب الدكتور (سمير):

- «هتكلم عن الشرع من خلال مثال شرعية العلاقة الزوجية:

الشرع مابيعتبرش إن انبهار الست بأفكار شخص غير جوزها خيانة، لأن دا بند مش موجود في عقد الزواج، عقد الزواج وسيلة من وسائل الشرعية، بيقر إن حق الزوج في الزوجة هو الجسد، لأنه وفى التزاماته ودفع المهر اللي اتفق مع أبوها عليه، وكإنها بيعة اشترى فيها جسمها، وأصبح هو الوحيد اللي من حقه يتمتع بجسمها، في الوقت اللي ممكن تربطها بألف راجل غيره حاجات كبيرة جدًّا أهم من الجسد، من غير مهر ولا صداق.

عقد الزواج بيتفقوا فيه على المودة، طب هي المودة محتاجة عقد؟! المودة بينها وبين الناس كلها بتحصل من غير عقد، لكن للأسف بين

الزوج وزوجته بتفتر لأن بينهم عقد بينص على الامتلاك يبقى هيحتاجوا المودة ليه، عقد الزواج في الدين الإسلامي مثلا بيفرض على المسلمة إنها ماتتجوزش إلا مسلم؛ بمعنى أنها ماتسلمش جسمها إلا لمسلم، طيب وعقلها وروحها وكيانها تعمل فيهم إيه؟ الشرع يتغافل عن كيمياء التوافق الجسدي للذكر والأنثى اللي هي مرتبطة بحاجات كتيرة غير الدين اللي بيفرضه الشرع، يعني المفروض الإنسان يعيش حياة بيكرهها ومغصوب عليها عشان يرضي الشرع، أو يعيش بجسمه مع شخص ويعيش بروحه وعقله مع شخص تاني عشان يرضي نفسه، كل اللي أقدر أقوله إن الكثير من الشرع غير شرعي، كما أن التطور الطبيعي للحياة مرهون بالثورة الدائمة على التشريعات، سواء كانت خاضعة للعرف أو حتى لأحكام الدين، الشرع مصدره الأديان السماوية وعلى سبيل المثال أيضًا في الدين الإسلامي هذه الآية التي تقول:

"ما كان إبراهيم يهوديًّا ولا نصرانيًّا ولكن كان حنيفاً مسلمًا"، ألا تدل هذه الآية على أن هذا النص المقدس به من العنصرية ما يخدم مصلحة طائفة بعينها؟

أي عقل يصدق أن الله خلق الأديان، ثم يتبرأ منها ومن رسالاته ليعلي شأن دين على دين وهو من أرسله، هل سيعيب (إبراهيم) إن كان يهوديًا أو إن كان نصرانيًّا، السياسيون وحدهم هم من يهتمون بفكرة الإعلاء والتدني لقوم دون قوم، ودين دون دين، جميعها أفكار تدعو إلى التناحر والتعالي من أجل السيادة والسلطة، لا من أجل الله.

هل يليق بالله -جل جلاله- أن يهزأ برسالاته السماوية التي كانت مهدًا لآخر رسالاته؟!

لماذا لا نفترض أن يكون الشرع الذي يبني أحكامه على هذا النص المقدس كان أيضًا مسوسًا للسيطرة؟ وخاصةً سيطرة الرجل على

المرأة لإخضاعها وإذلالها له، ألا يدعو للدهشة أن العلاقات الإنسانية داخل القرآن ترتكز على سياسة تجارية؟! حتى العلاقة الروحية بين العبد وربه، على سبيل المثال الآية: "من ذا الذي يقرض الله قرضًا حسنًا"، "الحسنة بعشرة أمثالها"، " مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم".

العلاقة بين الإنسان وربه في القرآن من وجهة نظري علاقة مشوهة، علاقة رب يستجدي عباده للطاعة بالمنح، وكأنه يشتري منهم طاعته أو إنه يساومهم عليها، أو أن هذه الطاعة ستكون على أشياء لا تستحق الطاعة عليها، كل ما أقصده أن هناك خلل في رسالة النص المقدس؛ مما يستوجب له إعمال العقل، لأنه غير قادر كلية على التشريع وقيادة مجتمع يتغير كل يوم بسبب اكتشافاته العلمية المذهلة، التي يتضاءل أمامها ما يفرضه النص المقدس»

قالت طالبة:

- «هل تظن أن فكرة استتار المرأة فكرة شاعرية؟ وأنها جزء من لعبة الحياة بين الرجل والمرأة لتجعل من الحكاية بينهما شيقة، وأنها كانت سببًا من الأسباب التي كانت فيها الحياة وردية، حينما يلمح الرجل طيف امرأة يطل من وراء الشبابيك، أو يظهر خيال رجل لامرأة من وراء قضبانها، فتسقط عليه أحلامها وتشاغله بحياء لتلفت انتباهه، تقضي أيامها تنتظره ليحارب العالم من أجل تكسير قضبانها من أجل الوصول إليها، ألم تكن هذه الحبكة الدرامية كافية لتجعل الحياة ذات حلاوة افتقدناها؟ غابت معها المشاعر الملهمة بعدما أصبح كل شيء متاح، وكل شيء مكشوف فقدت الحكاية إثارتها، وتفاقمت مادية الحياة»

امتزج مزاح الدكتور (سمير) وضحكاته الوديعة مع ضحكات الطلبة قائلًا:

- «دا سؤال ولا حدوتة؟»

استعاد سريعًا جديته قائلًا:

- «عمومًا في الحالة دي كان الاتنين بيعيشوا الحياة في حكاية وهمية من صنع الخيال، بعيدة كل البعد عن الحقيقة، أي راجل هيشوف أي ست هتحرك مشاعره، وكذلك المرأة، لكن فتح الأبواب المغلقة على مصراعيها بينهما أعطى فرصة للعقل والقلب إنهم يشوفوا من غير ما يكونوا واقعين تحت تأثير الافتقاد والحرمان»

قال طالب:

- «إيه رأي حضرتك في الثورة؟»

رد الدكتور (سمير):

- «الدستور يكفل للشعب حق الثورة، بينما الثورة من وجهة نظر رجال الدين حرام شرعًا، بيتسلطوا على ودان الفقراء بالأدعية اللي تهتم بالبركة والرضا والنعيم اللي بينتظرهم في الآخرة، ليقتنعوا بأن الله في عليائه يبارك أصحاب الثروات والنفوذ والسلطة، ويوجب طاعتهم لأنهم أولي الأمر ولأنهم الأعلون؛ فيتغافل الفقراء عن الحقيقة، مستسلمين لهؤلاء "الأعلون" أصحاب النفوذ والسلطة، متغافلين الدستور اللي هو قانون البشر، واللي هو بيكفل لهم حق التعبير عن رفضهم لاختيارهم فقراء الحياة، الدستور هو القادر على أن يقود المجتمع، ليعود به إلى نقطة التوازن، بينما رجال الدين والسلطة يهمهم تحقيق أغراضهم باستسلام الشعوب وإخضاعها إخضاعًا تامًا، لذلك يلجأون إلى النص الإلهي وتفسيره وتطويعه لما يناسب سياستهم لتحقيق السيطرة على العقول، وقد تبدو الثورة مستحيلة عندما تصطدم بهؤلاء الذين يتبرمون جوعًا، وفي ذات الوقت يغضون البصر

عن الثروات الفاحشة بل ويتضرعون إلى الله يدعونه بالبركة لهؤلاء الأثرياء الذين يزورونهم في الأعياد بالصدقات، لدرجة أنهم يعتبرونك عدوهم لأنك تريد أن تمنع عنهم خير أصحاب الثروات رافضين أي دعوة إنسانية للثورة على هؤلاء الطيبين المباركين، لكن لا شيء أبدًا مستحيل؛ فقد تتقد شرارة الثورة فجأة لأسباب تافهة، وسريعا تصير نارًا تلتهم كل من يقف في طريقها، لتطهر الحياة وتعطيها فرصة لتبدأ من جديد»

تداخل طالب بعدما سمح له الدكتور (سمير) بالكلام عندما رفع يده قائلًا:

- «الثورة وهم كبير بيجني نتيجتها ناس مابتفهمش قيمتها، وبتضيع بسببها ناس مالهومش أي ذنب، عندي مثال حي على كدا، أبويا عامل من عمال مصنع الغزل والنسيج، تبنى في يوم من الأيام مطالب العمال في المصنع اللي منها مطالبة بزيادة الرواتب للتساوي مع رواتب مصانع تانية، والحصول على يوم إجازة بخلاف الجمعة نظرًا لزيادة ساعات العمل اليومية، الوقفة اللي عملها أبويا أغضبت الحكومة، جت قوة من الأمن قبضت على أبويا واتنين معاه بتهمة التظاهر بدون تصريح، ومافيش حد من عمال المصنع قالهم انتوا فين؟ أبويا وزمايلوا أخدوا فيها ٣ شهور، دقنا فيهم أنا وإخواتي الذل وبيعنا اللي ورانا واللي قدامنا عشان يخرج أبويا بكفالة ٥٠٠٠ جنيه، وماحدش من عمال المصنع قالهم حتى شكرًا، على الرغم من إن قيادات المصنع نظرت في المطالب، وأعطتهم السبت إجازة مساواة بالحكومة، ومنحتهم علاوة لزيادة المرتب، هلل العمال وفرحوا وزيطوا ونسيوا إن اللي دفع تمن فرحتهم أبويا واتنين من زمايله، تفتكر الناس دي تستحق ثورات؟!»

فقال الدكتور (سمير):

- «الناس عاشت سنين من القهر والاستعباد والخوف والظلم يخليها تعمل أكتر من كدا، ولو بتطرح أسئلة يبقى لازم يكون السؤال هو إحنا ليه وصلنا لكدا؟!، لازم نوقف عملية التجريف اللي تمت لنفوسنا تحت سطوة الذل والقهر قرون وقرون، ونحاول نستعيد من جديد نفسنا وعمر ده ما هيحصل إلا بثورة، الثورة هي الحل الوحيد اللي يخلينا نقف قدام نفسنا ونشوف إحنا وصلنا لأي درجة من البشاعة، كل اللي أقدر أقوله إن مافيش مستحيل، لو في ناس قلبها حقيقي على البلد دي أكيد هتيجي لحظة تجمعهم، وهتكون البداية»

قالت طالبة:

- «إيه رأي حضرتك في ظاهرة النقاب؟ وإزاي نخلص المجتمع منها؟»
- «أغرب ظاهرة في القرن الحادي والعشرين هي ظاهرة النقاب، يعني لما رجال الدين خايفين على الرجال من الفتنة طب ما ينقبوا الطبيعة اللي هي أكتر فتنة وسحر على العقول من وجه المرأة، ما ينقبوا السماء والنجوم والورود ويخنقوا صوت البحر وحفيف الشجر وهمس الليل وضحك الصباح وجلجلة الشمس في عز النهار، ليه سايبين كل دول ما هم برضه لهم سحر أكتر بكتير من سحر النساء على عقول الرجال، طب بلاش دول، ما في رجالة أجمل بكثير من النساء وبيفتنوا الرجال والنساء ليه مابيتنقبوش؟! وليه النساء مابنخافش عليها من الفتنة؟! هي مش من لحم ودم هي كمان وبتحس ولها غريزة زي غريزة الرجل؟! المرأة في الغرب تحققت حتى أصبحت تنافس علماء الذرة لما تخلصت المجتمعات الغربية من تفاهاتها، لما انتبهوا أن تعطيل عقل المرأة جزء من تعطيل نهضة الأمم، انتبهوا لأن المرأة أكتر من الرجل قدرة على خدمة البشرية، ستظل الحقيقة مختفية لأنه هناك من أراد لهذه الأمة أن تنطفئ إلى الأبد، فسلطوا فيها قومًا على قوم، الرجل تسلط على المرأة، والرأسمالية تسلطت على المجتمع تشطره إلى طبقات،

تتقاتل مع بعضها في ظل السلطة الدينية التي تقهر الإنسانية لاغية العقل والسمع والبصر، يتفنن ناهبي حضارات الشعوب في تغفيل أصحاب الحضارات بإلهاء الشعوب بالقضايا الدينية، للأسف إحنا أهل الحضارة وصل بينا الأمر إننا نولي أمورنا لناس عاشوا أزمنة بثقافة دفن الإناث أحياء لأنهن يجلبن العار، وتطورت أفكارهم الشرسة وطوعوها لتناسب الأديان لأن الدين حرم القتل، فاختاروا قتل الإناث ودفنهم بطرق أخرى كان أحدها النقاب والسواد، لكم أن تتذكروا أنه في الوقت الذي كان هؤلاء ثقافتهم هي قتل الإناث أحياء، كنا نحن نقدس الأنثى ومع ذلك اخترتم أنتم لاغين عقولكم ثقافة دفن الأنثى وهي على قيد الحياة، وتبرأتم من الحضارة التي تؤمن بفضل الأنثى على الحياة.

تبرأتم من الحياة البسيطة التي كانت تحمل في جوهرها المعنى الحقيقي للفرح، لاهثين وراء من يدعون إلى الوجوم والكآبة وينهون عن الضحك والدعابة وكأنها دعوة صريحة للحيوانية، هل رأيتم ذات مرة حيوانًا يضحك؟! الضحك والفرح خص بهما الله الإنسان وحده، وهؤلاء يكرهون للإنسان الفرح، لأن الفرح يجعله قويًّا شامخًا، يجعله إنسانًا معطاءً محبًّا متفائلًا للحياة»

طالب آخر:

- «أفهم أن الحرمان يولد في الإنسان طاقة لا تشبع للخطف والنهب، ولكن الذي لا أفهمه هو أن الشبع يولد في الإنسان طاقة جبارة للاستحواذ على جميع سبل الحياة، تتملكه رغبة القهر والاستعباد والإذلال والتحقير للآخر، يظنون أن المال والسلطة والنفوذ والعلم مصادر القوة، وأن الذي لا يتصارع من أجل الحصول على أحدها ضعيفًا يستحق أن تسحقه أقدام الأقوياء، هل خلقت الحياة من أجل هذا الصراع الذي لا نهاية له؟ وهل هذه الرغبات أصيلة في

الإنسانية؟ بمعنى أنها لن تفقدها حتى لو تبدلت المواقع وأصبح الضعيف قويًا والقوي ضعيفًا؟»

- «الشبع أخطر على الإنسانية من الحرمان، علينا أن نقرأ تاريخ الإنسان على الأرض لنتأكد أن هذه الرغبات تنطلق من مكمنها عندما تتوفر لها الظروف، وربما يعتبرها البعض رغبات حميدة لأنها تدفع بالحياة إلى الاستمرار، وجعلت من الحياة قضية عظمى ينشغل بها الإنسان ليدفع عن نفسه قهر أخيه الإنسان، وربما الطيبون هم أكثر من الأشرار امتلاكًا لهذه الرغبات، ولكن الظروف وحدها هي القادرة على إخراج هذه الرغبات من مكمنها.. الإنسانية جميعها هكذا، اقرأوا التاريخ؛ فستكتشفون أنه لا يوجد زمان أو مكان على وجه الأرض مرت به الحياة كانت فيه الإنسانية على ما يرام، جميع العصور التي مرت بهذا الكوكب تحكي قصة واحدة تعيد نفسها، وهي أن إنسانًا مقهورًا يقاوم الآخر الذي انتهك إنسانيته»

قالت طالبة:

- «هل السادية صفة لصيقة بالألوهية؟ هل الإله يتلذذ وهو يشوي عباده في النار؟ هل الإنسان الذي زهد الدنيا بنعيمها وقضى حياته لهثًا وراء أفكاره وبحوثه العلمية فرحًا باكتشافاته العظيمة وهو يفك شفرات الكون العظيم ويحل ألغازه سيكون فرحًا عندما يجد نفسه انتهى به الأمر إلى جنة لا يهمه فيها سوى الملذات وأن هذه الملذات التي لم تكن تعنيه في الدنيا هي النعيم وهو الذي كان نعيمه في البحث والمعرفة؟ هل الجنة أو النار هي النهاية التي تليق بهذا الإنسان العظيم وهذه الحياة الجبارة، أم أن للحكاية نهاية أخرى محجوبة لا تدركها عقول البشر؟»

الدكتور (سمير) مازحًا يضحك للحظات تخفف من الحدة التي وصلت إليها الندوة قائلًا:

- «دا مش سؤال دي أجندة أسئلة»

ثم يستعيد جديته مستكملًا حديثه:

- «إن الأديان تقدم للبشرية إجابات يفهمها الناس على أنها إجابات يقينية لا تحتمل التأويل، على الرغم من أنه ليس في هذه الحياة يقين، كيف لنا أن نثق بأن الأديان تعطينا اليقين ونصها المقدس الذي هو مصدر يقينها خاضع للتأويل، وما زلنا نبحث وراء تأويلاته؟
إن الإنسان خلق في صراع مع قدره، ربما تكون هذه هي قصة الحياة الحقيقية، ربما أراد الله أن يختبر قدرة الإنسان على تحدي القدر، أليست هذه الحكاية تستحق أن تقام من أجلها الحياة، بدلًا من فكرة الوصول إلى الجنة أو النار، لماذا لا تخترع العقول أوهامًا كثيرة تصلح لأن نصدقها بدلًا من وهم واحد نستسلم له.
أنا لا أعلم يقينًا عن الآخرة التي سينتهي إليها الإنسان، ولكنني أفترض مثلًا أن العدل الذي افتقده الإنسان في الدنيا سيكون هو سيد الآخرة، وما هي إلا أفكار قد تكون مخطئة؛ لأن قصة الحياة بأكملها تحتمل التأويل وإلا لماذا خلقها الله مبهمة، وكأنها دعوة للعقل ليكتشف كل منا أسرارها على طريقته.
أنا مثلًا بيجيني هاجس إن الحياة هتنتهي فجأة نهاية عبثية، قد تكون على يد طفل يعبث في تربة، يحفر حفرة ليخفي دواءً بعيدًا عن أمه لا يريد أن يأخذه لمرارة طعمه، ويمر الزمان وينسى الطفل دواءه المدفون، وتتفاعل المواد الكيماوية مع باطن التربة وعوامل الطبيعة مكونة مادة ذات طاقة جبارة، تعيد إلى الحياة الموتى، وكأن الموت هو افتقاد الجسد لتلك المادة، لتجعل الأحياء بدونها أرواحًا دون أجساد، وتصبح كائنات لا نراها تتعايش بيننا بطريقة لا ندركها، وربما تنشطر الأرض عندما تتمدد هذه المادة في باطن الأرض بقوة جبارة، تشطرها إلى أجزاء تسبح في الكون بسرعات مختلفة، يستقر من يستقر بالقرب من الشمس أو بالبعد عنها أو بمعنى آخر من الجنة أو النار، ما هي إلا

أوهام ولكنها تقبل للطرح والمناقشة، سيظل العقل يبحث وراء الحقيقة لأنه لا سبيل سوى أن يتصور العقل أشياء، ثم يحاول إثباتها.

إن في الأديان حلقة مفقودة ربما طمست معالمها، لأن هناك من يهمهم أن يقهروا الإنسان من أجل استعباده، أو أنها محجوبة لتعطينا الحق في البحث والافتراض في كل الأزمنة لنختلق تصورات مقبولة، تتناسب مع العقل في زمان ما، وتتغير وتصبح أيضا مقبولة في أزمنة أخرى، لتتماشى الأفكار مع العقل الإنساني الآني، وتتماشى أيضا مع التاريخ»

وتداخل طالب قائلًا:

- «ربما يقصد الله في اقتصار الجنة على الملذات، لأنه الخطاب الذي يفهمه البسطاء، الذين هم السواد الأعظم للبشرية»

رد الدكتور (سمير):

- «الإنسان الذي خلقه الله بحجم هذا الكون العظيم، وبحجم غموضه ووحشيته وأسراره، لا يمكن أن ينتهى مصيره إلى هذه السطحية، عندما نعطي العقول فرصة لتتدبر، سنكتشف أن السياسة التي تمارسها الدول العظمى هي التي حكمت على شعوب بأن يقبعوا في المنطقة التافهة، لا يتطلعون في هذه الحياة إلى شيء سوى الملذات، السياسة التي جعلت شعوبًا ترضى بأن يكون دورها مجرد رعاع تستهلك إنتاج الدول العظمى، وأن يكون أقصى ما يطمحون إليه هو ما يسد غرائزهم، وهذا يقودنا أكثر إلى أن وصف الجنة والنار وصف سياسي، الغرض منه تطويع البشرية وإرهابها والسيطرة عليها باسم الدين، مش قادر أتصور إن الإنسان العظيم دا، مفروض عليه إنه يعيش عبر الأزمنة المتغيرة محكوم بمنهج ثابت، ليه ما يعيش الإنسان بمنهجه اللي بتحدده قناعاته واكتشافاته، ما يمنهج عليه إنسان الأمس، لا يصلح أبدًا لأن يكون منهجًا لإنسان الغد، الحياة تتغير كلما

تكشفت لنا أسرارها، فكرة إنسان ممنهج بمنهج معين، فكرة معطلة للحضارة وللتطور، فكرة تدعو لتوقف الحياة وتعطيل مسيرتها»

قال طالب:

- «حضرتك مؤمن بالفكر الاشتراكي، وترى أن فشل الاشتراكية لا يعني نهايتها، لكننا لا نفهم حقيقة موقفك من زعيم الاشتراكية في مصر (جمال عبد الناصر)»

أجابه الدكتور سمير:

- «هل سيفرح الشعب إذا أصدرت الدولة قانونًا يمنع خدمة البيوت مثلا حفظًا لكرامة الإنسان، أم أن من سيثور على القانون هو الشعب نفسه؟
لأن الشعب كل الذي يهمه هو أن يسد جوعه قبل أن يحفظ كرامته، تلك هي قصة الخلاف بين الشعب و(عبد الناصر) أما أنا فأؤيده، ولكنني أختلف معه في شيءٍ واحدٍ فقط، وهو تلخيص هويتنا المصرية في الهوية العربية من أجل حصوله على الزعامة العربية، مصر دولتنا العظيمة لها تاريخ طويل، تأثرت فيه بثقافات كثيرة وبنت حضارات كبيرة، الهوية المصرية هي خلاصة جميع ما مر بها من ثقافات، لماذا يتم تلخيص هذا التاريخ الطويل لهذه الدولة العظيمة في الهوية العربية؟ لا يعني ذلك أنني ضد القومية العربية، أو ضد الوحدة العربية أبدًا، لكن الهوية المصرية هي ما تخصني وتخص كل مصري، ماكنتش هبقى سعيد أبدًا لو كانت مصر اسمها الجمهورية المصرية العثمانية تأثرًا بالاحتلال العثماني، ربما يكون الاحتلال العربي لمصر مختلفًا بسبب المصالح المصرية العربية، وبسبب حالة التعايش السلمي بين الشعب المصري والعربي، لكن دا مش مبرر لتلخيص الهوية المصرية وما مرت بها من ثقافات وحضارات في هوية واحدة، من حسن حظ الاحتلال العربي أن طبيعة الشخصية المصرية مسالمة

تعمل في صمت وصبر وتحمل وجلد قانعة بما يملأ بطنها ويضمن سلامها، تنحني للسلطة احترامًا وتوقيرًا وثقة في أنها تعمل دائمًا لصالح الإنسانية حتى لو لم تقدم هذه السلطة الأدلة على ذلك، ولكن الشعب الطيب المسالم سيكتشف الحقيقة، ربما يكتشف بعد فوات الأوان أنه صنع من الأراجوز سلطانا عليه»

سألت طالبة:

– «هل نسلم عقولنا للعلم الذي يقدم للبشرية تفسيرات، ثم يأتي من يثبت عكسها بعدما استخدمت المنطق وأقنعتنا زمنا بها، كيف نثق بالعلم وتفسيرات العلم هي الأخرى تتلاعب بالعقول؟»

أجاب الدكتور (سمير):

– «العلم يقدر يحدد نشاط هرمون السعادة في جسم الإنسان لما يكون في حالة الحب، لكن العلم كمان مايقدرش يحدد مين اللي كان سبب في وجود التاني، الحب ولا الهرمون، القصد لا تتركوا عقولكم للمطلق، افترضوا دائمًا أن للحقيقة أوجه عدة، وأن العلم يقدمها من زاوية، وعلى البشرية أن تحاول رؤيتها من الزاوايا الأخرى»

نادى الطالب على الاسم الأخير بالكشف وكانت (لبنى) التي انتبهت مرتبكة تتلفت حولها، يصفع آذانها اسم (لبنى) يتكرر بنبرة عالية، وقفت تستجمع شتات صوتها، تسأله عن مفهومه للحب؛ فلم تكن مؤهلة لأسئلة عن السياسة أو الدين.

أثرته نبرة صوتها المدغدغة يقول لها وكأنه يكلمها هي وحدها:

– «كلنا غرباء يا (لبنى) والحب هو الذي يبدد الإحساس الموحش بالغربة، عندما نتقابل بأرواح تشعرنا بأنها ردتنا إلى أوطاننا، عندما نتخلص من الشعور الدائم بالغربة تلك هي أعظم لحظة للحب»

وبعدما انتهت الأسئلة استبقاهم الدكتور (سمير) ليقول لهم كلمة أخيرة:

- «حاولوا أن تستخرجوا مفاهيمكم عن الحياة بعقولكم بعيدًا عن كليشيهات الأديان، فما ذنب وجودنا في حياة دخلناها دون إرادة، ليكون وظيفتنا فيها هو اختبار قدرتنا على الطاعة العمياء للخالق؟ على الرغم من أن كل مخلوق منا له ظروف تختلف نشأته فيها عن الآخر، يختلف تكوينه عن الآخر، والمدهش أننا ندخل جميعًا نفس الاختبار، ليكون مصير كل واحد منا الجنة أو النار، ولماذا الجنة والنار اختيار، بينما جئنا الحياة نفسها دون اختيار، أي عدل يقول ذلك؟ ولماذا تصادر الأديان حق الإنسان في التجربة، وتفرض عليه طريقًا واحدًا تفترض له أنه هو الطريق المستقيم؟ بينما هو طريق التعساء الذين يعيشون حياة ممنهجة، لتصبح جريمتنا في هذه الحياة أننا نعيشها كما تراها تصوراتنا العقلية، مع أن الله خلق لنا عقولًا متفاوتة تختلف في قدرتها على الفهم والإدراك، وليس لأحد ذنب في قدراته العقلية التي هي أساسًا نتاج ظروف معيشية مختلفة، ونتاج جينات ذات كيمياء تحدد قدراته، هذه الكيمياء تتأثر ببيئتها تتأثر حتى بأنواع الأغذية، الأغذية التي توفرها البيئة تتحكم في كيمياء البشر وأمزجتهم، فآكلي اللحوم بكثرة لهم شراسة وعدوانية وهمجية ووحشية وفحولة جنسية مسيطرة خاصة أصحاب البيئة الصحراوية، وعندما تعتدل الطبيعة تعتدل المقومات الإنسانية لتناسب غرائز البشر، كيف تكون المحاكمة إذا عادلة، والإنسان أساسًا لم يختر بيئته، ولو أن لديه القدرة على الاختيار لما اختار لنفسه كل هذا العذاب الذي يعانيه من أجل أشياء يجهلها، الخالق هو الذي خلقه لهذه المعاناة دون أن يطلب منه أو يسأله أن يخلقه، أعتقد أن الله خلقنا محبةً لا عداءً، وأن الله معنا جميعًا وأنه ليس ضدًّا لأحد، مع الطيب والشرير في آن واحد، مع السارق أو القاتل عندما يطلب ستره، مع الضعيف عندما يطلب عونه، مع الغارق وهو يصرخ لينقذه

من الغرق، ومع البحر الذي يطلب منه الاستمتاع بالضحايا، مع الحيوان الشرس يسهل له سقوط فريسته، وربما يتغافل عن استنجاد الفريسة لأنه سيعوضها بحياة أجمل، ولكنه أيضًا مع فريسة أخرى ضعيفة لا تمتلك أي شيء تدافع به عن نفسها فينقذها بمعجزة من وحش يتربص بها، مع الطبيعة حينما تحارب الإنسان بوحشية، ومع الإنسان الذي يتحداها، مع الحاكم الفاسد ينصره عمرا يقهر فيه شعبا، ومع الشعب ينصره لحظة يفرح فيها فرحًا وهميًّا كمكافأة عن صبره ومقاومته، مع المستعمر المغتصب الذي يتلذذ بالقتل وسفك الدماء واغتصاب الأرض والعرض، ومع الشعب الذي يصبر دهرًا ينتظر النصر في معركة غير متكافئة مستلهمًا قوته الخارقة التي يحقق بها الأهوال من شدة الإيمان به، إن الله معنا جميعًا وجميعنا أحباب الله»

وانتهت الندوة بعدما فقد الدكتور (سمير) السيطرة على هدوئها، عندما اقتحم المنصة طالب مدفوعًا بغضب أحمق قائلًا:

- «دي مش ندوة، دي دعوة صريحة للإلحاد، أنا شايف حضرتك متحامل على الدين الإسلامي، وكإنك صاحب دعوة تقصد منها التخلي عن الدين الإسلامي»

رد الدكتور (سمير):

- «أنا أحاكم الأديان جميعها، مؤمنًا أن الرسالة السماوية مبتغاها سعادة البشرية، ولكن البشر طوعوها للسيطرة على البشرية وجعلوا منها أغلالًا تحرمهم الحياة، إن كان ولا بد أن تسميها دعوة فهي دعوة للفكر»

ولكن الطالب كشر عن أنيابه مطلقًا لغضبه العنان، يتهمه بأنه يقود حملة للإلحاد، انتهت الندوة على حالة من التوتر والحوارات الجانبية، وتعكر صفو

الدكتور (سمير) منشغلًا بهذا الهجوم المفاجئ لذلك الطالب الذي لا يعرفه، يستشعر فيه سوء النية.

مضت (لبنى) مدهوشة بعد انتهاء الندوة تشعر أنها تولد من جديد، لقد تفتح عقلها على أفكار كثيرة، جعلتها تجوب المكتبات بحثًا عن الكتب، لتدعم ثقافتها الجديدة، التي فرضت نفسها عليها بعدما تابعت عدة ندوات أخرى للدكتور (سمير) وتفتح عقلها على حقيقة صادمة، أن (جمال) الذي تبنى أحلامها وحققها لها، (جمال) الذي ينام على صدرها كطفل وديع يشكى لها سوء قدره، أنه هو نفسه (جمال) الذي نهب أحلام البسطاء، وأنه أحد زعماء الرأسمالية الجشعة آكلة حقوق الفقراء على الأرض، وأن واجبها الآن أن تحارب (جمال) وأمثاله، لأنهم هم من حرموها من أحضان أبيها ودفء أسرتها، وتسبب في تفشى البؤس والقهر والمرض في المجتمع، وتبدلت صورته الملائكية بصورة وحش لقيط، يخطف الأولاد من أحضان آباءهم ليتحولوا إلى لقطاء مثله، وحش لا يفهم أن الإنسان يعيبه فقط ألا يكون إنسانًا، وتلخبطت مشاعرها نحوه ما بين الخوف والبغض والشفقة، ولم تعد تحتمل الاستمرار في هذه التمثيلية.

بينما ظل الدكتور (سمير) يراقب إيزيسه من على بعد فرحًا بحضورها ندواته، وفي الليلة التي قرر فيها أن يعترف لها بحبه، لم يسعفه الوقت، حدث في صباح ذلك اليوم خلاف شنيع بينه وبين رئيس الجامعة، عندما فرض رئيس الجامعة على هيئة التدريس الانضمام إلى حزب المستقبل لدعمه، حسب التعليمات التي تلقاها في اجتماع لجنة السياسات، لكن الدكتور (سمير) المؤمن بالفكر الاشتراكي، والذي يحمل على عاتقه تنشئة جيل جديد، يعيد من خلاله أمجاد الأفكار الاشتراكية، رفض دعوته المتوارية ساخطًا على توجهاته المخزية، التي تضمن له بقاءه في منصبه، وحدثت مشادة كلامية بينهما في مكتبه، انتهت بأن يصرخ في وجهه قائلًا:

- «أنا حر في انتمائاتي»

فعارضه رئيس الجامعة قائلًا:

- «أنت حر في دينك، لكن مش حر في انتماءاتك الوطنية»

فقال له دكتور (سمير) ساخطًا:

- «للأسف أنا لا حر في ديني، ولا حر في انتماءاتي، ولا حر في بلد لا تؤمن بالأحرار»

فبيت له رئيس الجامعة النية لإبعاده عن الجامعة، خطط التمثيلية للطالب الذي زج به إلى ندواته ليفسدها، وطلب منه أن يحرر محضرًا ضد الدكتور (سمير) يتهمه فيها بدعوتهم إلى ندوات ثقافية يزدري فيها الدين الإسلامي، كما مارس القهر على بعض الطلبة لرفع المذكرات إليه يتهمون فيها الدكتور (سمير) بنفس التهمة، حتى تم القبض عليه في عصر ذلك اليوم، الذي انتوى فيه أن يحكي لـ(لبنى) عن حبه، وأحكمت القضية وتشعبت التهم ما بين ازدراء أديان ودعوة للإلحاد، وإشاعة الفوضى السياسية بما يضر بصالح البلاد، وقضت المحكمة بحبس الدكتور (سمير) ٥ سنوات.

فجعت (لبنى) بالخبر المتداول بين الطلبة، بعدما فجعوها بموقفهم مع الدكتور (سمير) ولم تجد سبيلًا لأن تذهب لزيارته لأن الطلبة جميعهم تخاذلوا مبتعدين عن الصورة، تخوفًا من أن تصيبهم نفس التهمة، ينصحونها بالابتعاد عن الصورة مشتتين أفكارها ناحيته، متشككين في حسن نواياه، يفترضون أنه فعلًا كان يزدري دينهم مستغلًا جهلهم بالفقه الإسلامي، لذلك لا بد وأن تترك القضية لمن هم أكثر منهم فهمًا للدين، مروجين للأفكار التي يقولها أساتذة الجامعة عن أنهم يفتخرون ببلاد السيادة فيها للقانون، بينما (لبنى) التي لم تحضر سوى بضع ندوات للدكتور (سمير) جعلتها تقرأ العديد من الكتب عن التنوير، وعن سيطرة السياسة باسم الدين على العقول، وسيطرت السياسة حتى على القانون، مؤمنة بقلبها بأن الدكتور (سمير) صاحب أفكار تنويرية عظيمة، ولكن ليس بوسعها شيء تفعله من أجله.

ظلت (لبنى) تتردد على الأتيليه ربما تتقابل هناك مع من يساعدها في زيارته، أو تقديم أي مساعدة له، ولكن رواده كانوا منشغلين بالندوات واللقاءات، ولكنها على أية حال انخرطت في مناقشاتهم، وتعرفت على أسماء الكتب التي صبت اهتمامها لتقرأها، فزاد وعيها عن اليسار واليسار المتطرف، واليمين واليمين المتطرف، والاشتراكية والليبرالية والإمبريالية التي تحكم العالم، والبرجوازية التي تجتاح المشهد بجسارة، والرأسمالية المتسلطة التي تتفتح لها جميع السبل، وعن الحروب والثورات والأدب والروايات، وتاهت في عالمها الجديد بين انبهارها بـ(سمير) ورؤيتها العميقة الكاشفة لـ(جمال) تكابد شعورها الدائم بالاحتياج إليه تتلذذ بهمسات يناديها فيها بـ(إيزيس)؛ فتذهب إليه في زنزانته بأرجوحتها وهي تغني للقمر بصوتها الحزين:

- «أنا وانت يا قمر سهرانين، جمع بينَّا السهر والأنين، بنفكر في البشر والسنين، وندوب ويا الوتر والحنين»

❊❊❊❊

(١٥)

وفي أثناء السنة الأخيرة لها بالكلية، كانت مشحوذة الهمة للحصول على الامتياز، تخطط لتعيينها معيدة في الجامعة، مستغلة علاقات (جمال) قبل أن تنتهي من علاقتها به نهائيًّا، لم يشغلها ذلك عن الالتزام بحضور بعض الندوات الأدبية التي تقام في الأتيليه، وفي إحدى هذه الندوات وعلى غير المعتاد فوجئت بتوقف الندوة، وجمهرة الحاضرين من الشباب حول شخص بمجرد دخوله، استعادت مديرة الندوة مسرعة سيطرتها على الندوة مرحبة بالضيف، المخرج المسرحى (فادي توفيق) تمدح عرضه المسرحي "عودة اليسار" الذي كسر الدنيا، بينما (لبنى) منصتة لحديث جانبي لفتاتين يتفاخرن بصداقتهن لـ(فادي) ينخطف انتباهها وهو يعتلي المنصة ملبيًا دعوة مديرة الندوة للحديث عن أحلام الاشتراكية في مسرحيته الأخيرة "عودة اليسار".

يسيطر على عقلها حضوره الطاغي بقميصه الأبيض المفتوح، كاشفًا شعر صدره القليل، وبنطلونه الجينز القامط على بطنه بارزًا مؤخرته ومقدمته، ونظارة الشمس التي يحجز بها شعره الناعم الفاحم الكثيف من أن ينسدل على جبهته، منطلقًا بلباقةٍ أخاذة وثقافة واعية يتحدث عن سجناء الكلمة والباحثين عن الحرية في كل بقاع الأرض، عن الحالمين بمستقبل أفضل في بلادهم، يتمنى أن تكون مسرحيته قدمت رؤية للواقع المرير، انتهى من حواره شاكرًا مديرة الندوة محييًا الجمهور، مسرعًا يقفز درجات المسرح قفزة واحدة بحيوية وشباب تختفي معهما دلالات ملامحه الأربعينية، أخذ مكانه في الصف الأول بجوار أصدقائه الفنانين، تتابعه (لبنى) الجالسة في الصف الثاني بنظرات منبهرة بتلخيصه الواقع السياسي والقهري على المثقفين، الذين يحاولون إفاقة المجتمع، معجبة بجرأته وهو يتحدى الجهات الأمنية غير عابئ بمصيره، ولكن الشجاعة التي رأتها (لبنى) كان لها معنى آخر لم تدركه وقتها، هو أن الجهات الأمنية ذاتها هي من تسمح بين الحين والحين بفتحات التهوية للتنفيس، بدلًا من الوصول إلى الانفجار، وأن السماح لإعلان الأفكار المضادة هو جزء من

خزعبلات الدولة الديمقراطية، القادرة على أن تكتم أنفاس البشر في اللحظة التي تحددها، إضافة إلى السيناريو العالمي للمنظمات العالمية التي تعمل في العلن لمصلحة الشعوب، بينما في الخفاء تستقطب المثقفين لإثارة قضايا مجتمعاتهم، من أجل المصلحة العالمية التي يهمها بلبلة الشعوب وضمان تفككها، إن أخطر ما يهدد النظام الرأسمالي العالمي هو وحدة الشعوب على هدف واحد، وأن ضمان بقاء هذا النظام هو زعزعة الصف من خلال إبراز تفاقم الأزمة بين السلطة والشعب، على الرغم من أن هؤلاء المثقفين يثيرون قضايا فعلية ذات أهداف نبيلة، ولكن السياسة العالمية تستخدمها لتحقق مصالحها لا لتتحقق مصلحة الشعوب، هذه الرؤية لم تنكشف لـ(لبنى) وقتها.

التف الشباب حول (فادي) بعد انتهاء الندوة، بينما ظلت (لبنى) بعيدة وحيدة مسحورة بالمخرج الوسيم، الذي اجتمع فيه جميع ما سحر عقلها في الرجال، كان وجيهًا لامعًا كـ(جمال) جادًا شاحبًا مهرجلًا كالدكتور (سمير) صبيانيًّا كزملائها في الجامعة، ذا نبرة آسرة واهنة كنبرة والدها، انتابتها رغبة لتزيح هذا الجمع من حوله بزغدة واحدة، ليكون نجمًا يلمع في سمائها وحدها، ومضت مجنونة بتلك الرغبة.

دخلت شقتها يرقص قلبها فرحًا مسرعة تفتح البرندة على وسعها، يدغدغها الهواء وهي تندفع بالأرجوحة بكل قوتها ذاهبة بها إلى القمر يغني قلبها:

- «يا قمرنا يا قمرنا يا قمرنا، ضوي ضوي فوق شجرنا يا قمرنا، خلي الدنيا وردي، خلي الحب وردي، وردي يا قمرنا»

خطر ببالها أن تبحث عن صفحته على الفيسبوك، وكان جديدًا عليها دخولها هذا العالم، حتى أصبح سببًا من أسباب ارتباطها اليومي بفتح صفحتها لتتابع أخباره ومنشوراته، تكابد كل يوم رغبتها لأن ترسل له رسالة تعبر له فيها عن إعجابها به، حتى تملكتها الرغبة وأرسلت الرسالة، كان لطيفًا سعيدًا بمبادرتها، وكانت فرحتها عظيمة عندما طلب منها المكالمة التليفونية، أقنعت نفسها أنها فرصة عظيمة للمناقشات في السياسة والأفكار، التي شغلت عقلها منذ أول

ندوة حضرتها للدكتور (سمير) الذي تركها وحدها دون أن تجد من يتفق معها أو يختلف، أو يناقشها عندما أخذت تسقط هذه الأفكار على الواقع، ظنت أنها أخيرًا ستتبدد وحدتها بمن يشاركها حياة حقيقية، تتوقع أنه هو الآخر كان ينتظرها، وبسذاجة المحبين يحضرها مشهد تحبه لـ(سعاد حسني) و(حسين فهمي) في فيلم "خلي بالك من (زوزو)"، لحظة أن قبَّلها (سعيد) قبلة الحب الساحرة يقول لها بعدها:

- «تعرفي يا (زوزو) وأنا ببوسك دلوقتي شفت استعراض كامل بممثلينه وديكوراته، لازم أبدأ في تنفيذه حالًا»

فتجيبه بفرحة وكأنها شريكة حقيقية في تحقيق أحلامه:

- «انت فنان حقيقي يا (سعيد)»

ظنت (لبنى) أنها ستكون بطلة حقيقية في حياة فنان حقيقي، تعتقد أن الحب هو الحياة، هو الإنسان الذي يشاركك الأفكار والمشاعر، أو تولد على يديه الأفكار والمشاعر، لكن (فادي) جعلها تفهم أن الحب الذي في الأفلام شيء والحقيقة شيء آخر.

بدأ حديثهما بالتعارف السطحي، تحكي له عن انبهارها بمناقشته ليلة الندوة، تثني على أفكاره التي تهدف إلى تحقق العدل، تبالغ في فرحتها بالحديث معه، تفتح له طريقًا للحديث عن الحب، وهي تصرح له بحزنها الشديد من الروايات التي قرأتها عن الحب، والتي تجسد البطلة دائمًا من طبقة عليا والبطل من طبقة وضيعة، وكأن الحب لم يخلق لبنت فقيرة، لذلك كانت تظن أنها هي وبنات طبقتها لم يخلقن للحب، وأن العمل الفني الوحيد الذي تحبه هو "خلى بالك من زوزو"؛ لأنه عدل ميزان الحياة، بذهاب الحب إلى الفتاة الوضيعة والمجتمع الوضيع، ولكنه أخذ بلطف يوقف سيل حماسها عن الأفكار، مشعرًا في نبرة صوتها الناعمة، انتشلها من حديثها المأساوي عن العدالة والحب إلى الكلام عن الرغبة والجسد.

بخيال الشعراء راحت تحدثه عن القمر وعن مشاعرها، بينما هو يلاحقها بما يشعل في أعضائها الرغبة من عبارات، بهوادة يدغدغ كيانها بنبرة صوته الموجوعة بالرغبة، ورغم استسلامها كانت تستفيق مصدومة بألفاظه الفاحشة المتمردة اللذيذة، التي اكتشفت أنها تلهب فيها الرغبة، حتى ولو أنها كانت تشعرها بالقرف بعدما تنتهي من المكالمة وتعود إلى نفسها وحيدة، تتذكر كيف كانت تؤذيها أن تسمع مثل هذه الألفاظ البذيئة من عامة الناس في الحارة، كانت تنأى بنفسها تختار قاموس ألفاظها من الأغاني والأشعار التي تحفظها وتغنيها للقمر، لكنها الآن يتبدل قاموسها بألفاظ فاحشة كريهة إلى نفسها، تعيشها وتدغدغ أنوثتها مع رجل من صفوة المجتمع الثقافي.

تكررت مكالماتهما التليفونية وكانت في كل مرة تنبه على نفسها اليقظة، حتى لا يستدرجها مقتحمًا أنوثتها لاغيًا أفكارها، كان على استعداد أن تطول المكالمة بينهما ساعات وساعات طالما أنها في الجنس الفاحش، ولكنها إذا حاولت أن تغير مجرى الحوار ليكون إنسانيًا، يشمل الكلام عن الآلام والأحلام أو حتى حوارًا في السياسة وأحوال المجتمع يصدها صدًّا منيعًا، وتنتهي المكالمة بينهما بأن يتركها متعطشة لأن يسمع حكايتها، أو أنها تكون جزءًا من حياته، أو أن يكلمها عن أي شيء يخصه، حاولت كثيرًا أن تدرب نفسها على محبة هذا التدني للألفاظ الجنسية الفاحشة، لتقتنع بأن هذه الألفاظ المتدنية جزء من الحالة، وربما تكمن الإثارة والمتعة الجنسية في التمرد على الجمال، أو ربما يتحقق الإنسان في الانحطاط أكثر من تحققه في السمو، وربما يتحقق في الخفاء أكثر من تحققه في العلن، وربما يتحقق في الظلام أكثر من تحققه في النور، تقنع نفسها بأن النور له ألفاظه بينما الظلام له ألفاظ أخرى، حاولت أن تتأقلم مع هذه الأفكار ولكنها لم تستطع، ولم تكن تشعر أنها تحتاج إلى التخفي والانحطاط والظلام، لأن توازنها النفسي ينبع من عشقها للحياة والسمو والنور.

ظلت متعطشة لأن يطلب منها أن يخرجا معًا للتنزه في البساتين، ليخطف منها قبلة تحت شجرة الحب، أن يتأمل وجهها بدلًا من الاكتفاء بصورتها التي على صفحتها، أن يعصر كفها بكفه وتتعانق الأرواح والأجساد حينما تتشابك

الأصابع، أن يلتهم شفاهها بوحشية في الحقيقة بدلًا من أن يلتهمها في الخيال، أن يأخذها إلى البحر يتعريان على شاطئه ويتمرغان فوق بعضهما على الرمال، أو أن يقتحم شرفتها ليسهر معها ليلة مع القمر، أو حتى يدعوها لحضور (بروفات) مسرحياته كجميع الحبيبات اللاتي أحببن مخرجًا مسرحيًّا في الأفلام العربية القديمة، ولكنه ظل قانعًا بمكالمتهما التليفونية يلخص الحياة كلها في اشتعال الرغبة الجنسية، التي يحدد هو موعدها لتلائم ظروفه، بينما هي تترك محاضراتها المهمة من أجل هذه المكالمة التي تشعر بعدها بالرغبة في القيء، ولكن شيئًا ما لا تفهمه يجعلها تعود متلهفة عليه، ربما لأنه أول رجل يعبث بأنوثتها مفجرًا طاقات الجسد الدفينة، التي لم تكن تدركها، ربما استعباد الرجل للمرأة يبدأ بالجسد، حتى أصبحت تعيش معاناة لا تفهمها، حالة من الاستغراق في السعادة بمجرد أن تسمع رنته، وتوتر وقلق ورغبة في القيء وضيق في الصدر وصداع في الرأس وهي بعيدة عنه، مصطدمة بعجزها للخلاص من هذا المخدر الذي أدمنته لتتعافى منه وتستعيد سلطانها على نفسها، وتفاقمت معاناتها بعدما أطلق العنان لنفسه في الإفصاح عن رغباته مستغلًا استعباده لرغباتها الجسدية، إذا به يفاجئها في ذروة الحالة يطلق سراح رغباته بميوعة مقززة، إن جميع ما مر بينهما من نبرات وتأوهات كانت تتغير على حسب درجة الانفعال والوجع اللذيذ، كتعبير عن توهج الرغبة وحرقة الجسد، ولكنه كان يحتفظ فيها برجولته مهما بلغت أوجاعه التي تزيد أوجاعها أوجاعًا لذيذة، لكن تحول نبرته لميوعة لا تشبه رجل ولا تشبه امرأة، حتى جعلتها من شدة قرفها تفقد القدرة ذات مرة في السيطرة على رغبتها الشديدة في القيء معتذرة تنهى المكالمة، تأخذ قرارًا حاسمًا بينها وبين نفسها بانتهاء هذه العلاقة نهائيًّا، ولكنها بعد ساعة أو ساعتين هاجمها الحنين والعطش وحاجتها إلى مكالمته، ربما كان السبب هو الوحدة، وربما كان التعود، وربما إشباع الجسد وعطش الروح سر من أسرار هذا الاستعباد، ولكنها في نهاية الأمر أدركت أنه ما هو إلا كذبة كبيرة، خاصة عندما وثق فيها أكثر متماديًا في الإفصاح عن رغباته مستغلًا سكرتها وهي في قمة نشوتها، يطلب منها أن تقبل مؤخرته وأن تعبث فيها بأصابعها، لأنه يحب أن يفعل به كما يفعل بها...

فزعت تستفيق مستنكرة رافضة أن تفعل ما يطلبه، فضحك مستهزئًا بقلة خبرتها في الحياة وفنون اللذة القابعة في الجسد، وعدم استيعابها للروح التي تحب الحياة والتمرد، وبعدما انتهيا من إفراغ الرغبة، راح لأول مرة يناقشها ليحسن صورته التي شعر باستقباحها لها، لتفهم أن الحكاية بين الرجل والمرأة لها صور كثيرة، المرأة فيها سماء بلا حدود والرجل عصفور يكره الحدود، يطلب منها أن تفك قيود روحها لتنطلق دون حدود دون منهج محدد، أن تترك لها العنان، لأن الروح فيها تختنق تبحث عن الخلاص، والخلاص شيء مجهول، ربما ما يظنه الناس دناءة ما هو إلا تحليق في سماوات لا تراها أرواح محدودة الرؤيا.

تلخبطت مشاعرها وامتزجت الدهشة بالقرف بالخوف بالكره بالاشمئزاز بالغثيان، دوار أصاب رأسها وتتشابك الأسئلة:

- «هل يكون الحب هكذا؟!»

لكنها بعد مداولات كثيرة مع نفسها، أقنعت نفسها أنه مريض وأن واجبها هو الوقوف بجانبه ومساعدته للعودة إلى الطبيعة التي فطر الله الناس عليها.

اتصلت به كعادتها في موعد مكالمتهما وهي تنتوي هذه المرة أن تغمره بالحب، تعتقد بسذاجة المحبين أن الحب هو القادر على علاجه، وكعادته راح يمارس دغدغة مشاعرها لتستسلم لرغباته، لكنها تصدت مصممة تقول له:

- «إيه رأيك النهارده مناقشات علمية ولا مالكش في العلمي؟»

ضحك ساخرًا:

- «لا أنا كنت أدبي»

فقالت:

- «لا بجد يا (فادي) أنا من آخر مرة كنا فيها سوا، وأنا دماغي عمالة تروح وتيجي، وعاوزة أسألك أسئلة كتيرة، وعاوزة أفهم حاجات كتيرة»

فقال لها بنبرة جادة:

- «اسألي»
- «انت ليه كدا؟ انت لازم تعترف إنك مريض، أنا هاقف جنبك لازم تتعالج»

فراح غارقًا في الضحك، مستخفًّا بأفكارها كطفلة تقول كلامًا عبيطًا يقول لها:

- «لكن أنا مش مريض يا (لبنى) أنا طبيعي جدًّا، لو افترضنا إن اللي بياكل بإيده الشمال مريض يبقى أنا مريض، الناس كلها بتاكل بايدها اليمين، بين كل عشرة آلاف واحد تلاقي ربنا خلق واحد بياكل بإيده الشمال، ومهما حاولتي تعوديه على اليمين مش هيتعود، السؤال هنا ليه أعوده على اليمين وهي دي طبيعته؟ الناس هي اللي لازم تفهم إن دي هي الطبيعة، لازم تتعود تقبل الآخر بطبيعته اللي هو عليها، مش اللي هي فارضاها عليه في دماغها، لازم الناس تتعايش مع الاختلاف»
- «لا أنا مش فاهمة اللي انت بتقوله، ومش مقتنعة بيه، وما زلت مصرة إنك محتاج لعلاج، وإنك لازم ماتستسلمش»
- «الحكاية إن دي رغبات، والرغبات جزء من تكوين الإنسان، الرغبات هي سر سعادته، لأنها حالة شعورية بحتة لا عقلانية فيها، اندفاع يخرج من مكمنه منطلقًا يعبر عن نفسه بلا حدود، نداء من خارج الحياة، وعلى الإنسان أن يستجيب، لأن هذا الاندفاع الذي لا يفهم سره، سيظل يعذبه حتى يتحقق، حالة مبهمة وكأنها انفجار بيخرج من الأعماق في لحظة محققًا سعادة لا نفهم سرها، لكن المجتمع والعادات والناس والدين والشرع كل دول عاوزينك تكبح هذا الاندفاع، كل دول عاوزينك تتعذب وتعيش تعيس تحارب نفسك وتكرهها، تحاصرها بالأسلحة تكره وتكره وتكره وكأن الكره بالنسبة لهم هو سر الوجود، حينما تتملك من الإنسان الرغبة، فهي تريد أن تمنحه سعادة تهون عليه الحياة، بينما الأفكار تعبر عن تحصيله

العقلي، لازم تفهمي إن كل إنسان له رغبات، وممكن جدًّا إن الرغبات لا تتفق مع أفكاره، قدر الإنسان إنه يعيش في صراع مابيتحسمش لأفكاره مع رغباته، أزمة الإنسان الحقيقية في الحياة هي الحرب المفروض عليه يعلنها على رغباته، تصالح الإنسان مع نفسه بيتحقق لما بيفصل بين رغباته وبين أفكاره، ويفهم أن الرغبة بتكمله، وإنها جزء من تكوينه الخاص اللي بيفرقه عن غيره، الإنسان عشان يبقى طبيعي لازم يصنع لنفسه عالمه الخاص اللي بيحقق فيه رغباته، عشان يوصل لتوازن نفسه، لكن اللي بيكابروا إما بيصابوا بالبلادة الشعورية والجمود، والإنسانية إلى جواهم بتموت أو يصابوا بالجنون، تقدري تقوليلي إيه الحكمة من إن الإنسان يعيش طول عمره ضد نفسه، يعيش في حرب على رغباته؟»

- «انت كدا بتحارب الطبيعة، بتديها بالألم على وشها عشان تتغير وتبقى على كيفك»
- «المشكلة إنكم مش قادرين تتعاملوا مع أوجه الطبيعة، يا عزيزتي الطبيعة لها أوجه عدة، ولا تستحق إلا أن نعيشها كما هي، ولا تستحق منا التقويم، إحنا مش جايين الدنيا عشان نغير فيها كل حاجة على مزاجنا، مش هنلبِّس عيونها السوداء لينسز أزرق عشان العيون الزرقاء هي الأحلى أو الأصح، يا عزيزتي اتعودوا الاختلاف، الطبيعة ماتستحقش نضربها بالألم على وشها، ونقولها لازم تكوني زي ما إحنا فاهمين، لأننا فهمنا إن للطبيعة شكل واحد مفروض على الجميع، الطبيعة ببساطة هي اللي بتفرض نفسها بنفسها، يعني لازم نقبلها ونعيشها زي ما هي، سعادة الإنسان إنه يعيش طبيعته من غير ما يتهم بإنه شاذ، لمجرد إنه مختلف والاختلاف سنة الطبيعة وجمالها»
- «بس دي تعليمات ربنا في كتابه العزيز يا (فادي) تذكر الآية "أفرأيت من اتخذ إلهه هواه"، يعني ربنا حذرنا من اتباع الهوى»

- «كل آيات القرآن لها تأويلات مختلفة يا (لبنى) أنا مش مقتنع أساسًا إني المفروض أعيش حياتي في حرب مع نفسي، حرب على طبيعتي، أو إني أقهرها أو أسجنها، وأظن إن مش منطقي أبدًا إن ربنا يخلق لنا طبايع يعذبنا بيها، ويطلب مننا نعيش حياتنا نحارب طبيعتنا، إيه هيبسط ربنا في إني أعيش أتعذب؟»

وفي هذه اللحظة رن في أذنها كلام الدكتور (سمير) وهو يقول: "إن في الأديان حلقة مفقودة، طمست معالمها، طمسها من هم يهمهم أن يقهروا الإنسان من أجل استعباده، وأن في الحقيقة أشياء محجوبة، فأصبح لنا الحق في البحث والافتراض، لنصل إلى وسائط تجعل من الحكاية مقبولة للعقل الإنساني الآني، وتتماشى مع التاريخ".

أضاف (فادي):

- «لو اديتي لنفسك فرصة للتفكير هتكتشفي إنك زيك زي كل الناس، فاهمة إن الجنس هو اللقاء القصير اللي بيتم بين الراجل والست، لكن الحقيقة غير كدا نهائي، اللقاء الجنسي بين اتنين مش هو بداية الحكاية الجنسية، الناس بتقضي يومها كله من أوله لحد اللحظة دي تمهيد للوصول للحظة دي، التمهيد دا بالنسبة للست مثلا بيكون من محيط علاقاتها، صديقاتها وهما بيحكوا لبعض عن اللي عمله معاها جوزها أو حبيبها أو قالهولها في التليفون، الجنس حكاية طويلة جدًّا بنعيشها طول اليوم كلام وملاصقات وملاطفات، البنت ممكن تلاقيها بتهزر مع صاحبتها وتقرصها في حلمتها من باب الهزار، ممكن يقفلوا عليهم الباب ويقلعوا بلابيص بحجة ينتفوا لبعض الشعر الزايد تحت باطهم وشعرتهم، ويعملوا كدا وهما بيحسسوا وينكتوا ويهزروا، الأمور دي كانت ماشية طبيعية ماحدش كان بيتهم التاني بالمثلية ولا ممارسة الجنس الفاحش، الناس كلها عايشة حالة جنس تمهيدي نهايته إن الراجل والست بيتقابلوا وهما مأهبين، بعقولهم وأجسامهم وكل شعرة فيهم متأهبة للجنس، بأفعال طبيعية ماحدش كان بيجرمها، الراجل

مع الراجل طول النهار في الشغل أو على القهوة أو وهما على السقالة في عز الحر، أو في المكاتب بيقلبوا في الورق بين كل ورقة وورقة يألفوا نكت جنسية، يتكلموا عن الانتصاب عن قوة بتاعه بيعمل قد إيه، وممكن جدًّا في الهزار يعملوا إشارات مثيرة بالصوابع، الكلام دا مش قاصر على طبقة معينة دا تلاقيه بين أعلى الطبقات علمية وثقافة، زي ما هو موجود بين ولاد البلد والفلاحين والناس البسطاء بتلقائية عادية جدًّا، الحكاية بتبسط عشان كدا مابنبطلش كلام فيها، كل شيء بنعمله بنسقطه على الجنس، بكل أشكال الكلام والملاصقات والضرب والقرص والزغد، جزء صغير جدًّا منها هو اللي بتقوم الدنيا وماتقعدش عشانه هو لحظة اللقاء، اللي مش ممكن تتم بمنتهى الأريحية كدا، إلا إذا كانت بعد حياة كاملة عاشها أصحابها بالتمهيدات الحياتية التلقائية البسيطة اللي الناس عايشاها ببساطة، كل دا يا (لبنى) هو الطبيعة والناس ماكانتش بتجرم كل دا، التجريم بدأ لما بدأت السلطة تقحم الدين في حياتنا، سامعاني ولا روحتي فين؟»

كانت فعلًا (لبنى) شاردة تطابق كلامه مع مشاهد مرت بحياتها اليومية، تتذكر إحدى صديقاتها في الجامعة، عندما رأتها وهي تداري كفها بالكتب، لتحك بين فخذيها خلسة وهن واقفات بين جمع من الفتيات، فتزغدها مباغتة تتمايل عليها بميوعة تقهقه قائلة:

- «هو بياكلك ولا إيه؟»

فيحمر وجهها خجلًا مبتعدة عن جمعهن، وعندما أثارها الفضول لتعرف على أي شيء يقهقهن بالساعات هذه الشلة من البنات، التي تنضم إليهن ابنة أشهر أستاذ للأدب المقارن في كلية الآداب، والتي يدوي اسم عائلتها في أكبر المناصب بالدولة، كانت تجتمع هذه الشلة بشكل يومي متهربة من المحاضرات في ركن بعيد ورحبن بانضمامها إليهن ذات مرة، ليصيبها الذهول عندما اندمجوا في حواراتهم التي تطورت سريعًا، يتلذذن بالكلام عما يصيبهن وهن ينتفن

شعرعانتهن من دغدغة للحواس وإثارة، تذكر إحداهن ببجاحة اسم عضوها الأنثوي بميوعة، تفتعل الخجل فتثير قهقهة الأخريات يتلذذن بسماع اللفظة المثيرة بميوعة تظهر لذة وقع مباغتة سماع اللفظة على عقولهن، فتزغدها زميلة أخرى تتمايع بوحشية أنثوية:

- «عشان كدا كل يوم بتنتفيه يا علقة»

فيصرخن البنات ضحكًا وقبل أن تفيق من ذهولها، تلحظ إحداهن في حديث جانبي شبه مسموع وهي تتحسس فخذ زميلتها التي تتمايل عليها بميوعة لتقول لها علنًا:

- «بكرة يعملك كدا عشان يوصل لكدا»

ساهمة تاركة كفها يسرح على راحته بين فخذيها مستفيقة قبل أن تفضحها الوصول إلى ذروة اللذة بينما يفضحها احمرار وجهها، وهي تزغدها بخجل وميوعة لتبعد كفها فينتبه الجميع وهي تصرخ فيها قائلة:

- «يا قليلة الأدب»

وعندما لاحظن ضحكتها البلهاء وعيونها المتابعة ببلاهة واندهاش تتنقل بينهن، سألتها إحداهن عن فتى أحلامها وماذا يفعل معها، فراحت تواري خجلها تسألهن هي عن القمر، وهل يجتمعن معًا على ضيائه ويحكين له عن الأحلام؛ فصرخن في وجهها ضحكًا ساخرًا ضاعف من خجلها، وأكد لها شدة بلاهتها، لكنها فطنت إلى أن غياب القمر عن حياتهن هو الذي أفسدها، وربما كانت العلاقات الإنسانية جميعها تحتاج القمر ليضبط قوامها، تتذكر صديقات القمر التي على الرغم من مراهقتهن، إلا أن أكثر ما دار بينهن من حديث عن هذه الخصوصية، كان عن خضتهن بمفاجئة الدورة الشهرية، وربما تكلمن عن آلامها التي كانت من الممكن أن تمنع واحدة منهن عن الرقص، بينما ظلت جميع حكاياتهن الأخرى عن الأحلام والرقص والغناء والمستقبل والحب والقمر، مضت وحدها حزينة تغني للقمر:

- «إحنا يا قمرنا لو نغلط بشر إوعى يا قمرنا تزعل من البشر»

انتبهت لـ(فادي) تؤكد له أنها معه منصتة تسمعه، بينما هي شاردة تقنع نفسها بأن حال البنات كلهن مع بعضهن هكذا دون أن يجرمن أفعالهن، أو أنها فعلًا ليست جريمة، إنها هي الطبيعة كما يقول لها (فادي) الطبيعة التي كانت تسير بالحياة بهدوء ونعومة ولذة، قبل أن يفسدها الناس باسم الدين، وشعرت بلخبطة في أفكارها تقول له:

- «مش قادرة أفهمك، مش قادرة أفهم حاجة نهائي»

واعتذرت تطلب تأجيل المناقشة، أغلقت الخط بينها وبينه إلى الأبد، دون أدنى محاولة منه للاتصال بها مرة أخرى، ربما لو فعلها لتراجعت عن موقفها كعادتها، ولكنه لم يفعلها.

وانتهت العلاقة بعدما أفاقت على واقع زلزل أوهام الرومانسية التي كانت تسبح في خيالها، حاولت التعايش مع إحباطها وأغلقت البرندة وأهملت الأرجوحة، ونسيت القمر، وتمنت لو أنها تقابل (سمير) الآن وتسأله:

- «هل الله هو من خلق الرغبات للإنسان ليعذبه بها تارة، ويحاسبه عليها تارة، أم أنها جزء من تكوينه النفسي وأن عليه أن يكون أكثر قدرة في السيطرة على نفسه وامتلاك زمامها، وأن ينقذ نفسه من الاستسلام لرغبة حتى ولو كانت ستتحقق فيها سعادته؟ هل من العدل أن يفرض الله على الإنسان أن يعاند طبيعته، أم أن الاستسلام لها هو الرضا الذي يحقق لنفسه السلام الذي يحافظ على إنسانيته التي تتحقق بالضعف، بدلًا من أن يتحول إلى وحش شرس يتباهى بالوجوم والقوة والعنف ضد نفسه؟ كيف له بالقدرة على أن يفعل ذلك؟»

ولكنها لم تجد (سمير) وأفاقت على حقيقة مفجعة، هي أن حياتها سلسلة من الاستسلامات، استسلامها لـ(جمال) لتحقق رغبة استكمال تعليمها، استسلامها لـ(فادي) لتحقق رغبتها في الحب، ولكنه يفجر فيها رغبات الجسد المدفونة،

ورغم ذلك لم تكن سعيدة، لأن روحها متعطشة لتلك الحالة الصوفية التي تتماهى فيها الأرواح دون أن يفسدها العقل أو المنطق.

وعلى الرغم من إحباطها في علاقتها بـ(فادي) إلا أنها تجاوزت محنتها بانخراطها في المذاكرة والامتحانات، ونجاحها بامتياز وتعيينها معيدة بمساعدة (جمال) كما كانت تخطط، حتى حدثت المفاجأة العظيمة بعودة الدكتور (سمير) إلى الجامعة بعدما تم الإفراج عنه، وتمت إقالة رئيس الجامعة تماشيًا مع سياسة الدولة الجديدة من تغيير لدمائها، ومحاولة لامتصاص غضب الشعب، الذي فطن لتهيئة ظروف الدولة لتمرير فكرة توريث الحكم.

ذهبت (لبنى) إلى مكتب الدكتور (سمير) مع جميع الأساتذة لمباركة عودته، لم تكن تظن أنه ينتظر مباركاتها أكثر من أي شخص في العالم، يعتب عليها أنها لم تهتم لغيابه بعدما استبقاها لتنتظر فرحًا بتعيينها معيدة، يطرح عليها رغبته لتعمل معه في نفس القسم، وبعدما انفضت المباركات راح يعتب عليها أنها لم تسأل عنه في محنته وكان يظن منها موقفا آخر؛ فخجلت من نفسها معتذرة تواري خزيها في أنها كانت مؤمنة بأن الله سينصره، فوجد نفسه أمام لحظة عظيمة من الخلوة والمشاعر الخالصة، وعليه أن يستغلها ليعترف لها بمشاعره التي زادها البعاد تأججًا، فوقع هذا الاعتراف على رأسها كالصاعقة، لأنها كانت تؤمن بالأستاذ (سمير) وبأفكاره وإنسانيته وأشعاره ورواياته ومسرحياته، ولكن اختلاف الدين حجب عن مخيلتها أن يكون فتى أحلامها، وباغتته متسائلة كيف له أن يتجاهل هذا الاختلاف الذي يحيل وجود علاقة رسمية في النور بينهما، فسألها مستهترًا:

- «هل الدين يمنع القلب من الحب؟»

وراح هائمًا يشرح لها أنه عرفها بقلبه، وأنها (إيزيس) التي انشطرت عن روحه، ينتابه شعور بأنها منه وأنه منها، لكن قبائل العرب التي أغارت على أجداده هي التي شطرتهما عن بعض، وأنه آن الأوان لتفهم أنها توارثت دين آباء اضطروا إلى التخلي عن دينهم من أجل سلامة وجودهم وسلامة مصالحهم، فكيف لها

أن تجعل من الدين حاجزًا نفسيًّا يحول بين قلبها وقلبه، لكنها لم تكن تتصور أن يومًا ما ستضطر للتنازل عن ديانتها من أجل الحب، أو أن رجلًا ما سيترك دينه من أجلها باسم الحب، رغم مكانة الحب عندها، إلا أن كل شيء يهون أمام قداسة الأديان، كان هذا هو اعتقادها، معتقدة أنه من يتنازل عن دينه لا يمكن له أن يعرف الحب ولا يؤتمن عليه.

قالت (لبنى):

- «يعني عاوز تقول إن دين استمر ١٥ قرن من الزمن كان دين وهم؟»
- «كل اللي عاوز أقوله إن العرب استغلوا الدين عشان يسودوا العالم، وفي شعوب استسلمت، وشعوب واعية ماقدروش عليها، وبعدين تعالي نتكلم بالمنطق، أي إله دا اللي ممكن له أن يتبرأ من دياناته إلى أرسلها لأهل الأرض عشان في النهاية يسود دين ويعادي أصحابه الدين إلي قبله، الإله كل اللي يهمه من البشر إنهم يعبدوه بقلوبهم، ويتجلى هذا الإيمان في معاملاتهم وأرواحهم الطيبة، ودا مالوش دعوة بالدين، دي دعوة الفطرة الإنسانية، لكن فكرة العنصرية هي اللي فرضت الأديان، دي حيلة من حيل البشر اللي بيستخدموها من أجل السيادة»
- «معنى كلامك إن المسيحية زيها زي الإسلام متهمة؟»
- «أنا بعتنق المسيحية لأنها دين أجدادي، ودليل بيِّن على عزتهم، وعدم خضوعهم للاستعمار العربي، وتنازلهم عن دينهم من أجل خوفهم من غضب الحكومات الجديدة، أو لأنهم مايملكوش يدفعوا غرامات، الحكاية كلها سياسة في سياسة»
- «لكن المسيحيين في قرارة نفسهم عاوزين يسودوا العالم زيهم زي المسلمين واليهود، كلهم شركاء في صناعة الصراع»
- «الصراع دا هيجيله يوم وينتهي، لأن الدين الحقيقي هو الدين الذي يجمع البشرية كلها باسم الحب، الإنسانية الآن هي الأهم أما طاعة الله وحبه فلا تحتاج إلى أديان، الدستور والقانون هما اللي يقدروا يحكموا مجتمع ما في زمان ما ومكان ما، القانون والدستور هما اللي

يقدروا يسايروا متغيرات المجتمع؛ لأن اللي ينفع النهاردهماينفعش لبكرة، مال الدين ومال احتياجات الناس اللي بتتغير مع طبيعة العصر، كل عصر قادر على أنه يقود نفسه بنفسه، ويحط هو قوانينه اللي تحافظ على قوامه، صدقيني يا (لبنى) اللي قال المسلمة ماينفعش تتجوز يهودي ولا مسيحي دا بشر، مصلحته سيادة وجوده واستعلاء قومه، الحياة أبسط من كدا، الأديان هدفها الأساسي خدمة المجتمع، أي مجتمع دا اللي هينصلح حاله بعلاقات إنسانية ممزقة، مرة بسبب الدين، ومرة بسبب الوطن ومرة بسبب الطبقية، طبقية الفقر والجهل، مع إن القمر وحده قادر إنه يجمعنا بالحب»

- «يعني عشان الحب أتنازل عن ديني؟»
- «ليه بتسميه تنازل؟ تعالي نبصلها من زاوية تانية، أهلك كانوا في المبتدأ على نفس الدين، وأجبرتهم الظروف على أنهم يتخلوا عن دينهم لدين تاني، تعالي نفرض إن المسيحيين قاموا بحروب سادوا فيها العالم، وأجبروا الناس يعودوا تاني للمسيحية إيه هيكون موقفك؟ هو لازم نكون مع الأقوى، هو الدين معناه إن الأقوى هو اللي يسود؟ الإسلاميين غلطوا لما عملوا فيها قطاع طرق وعصابات، وبعد ما يتمكنوا يقولوا للناس لا دا إحنا طيبين وجايين عشان نصلح أموركم بس اسمعوا كلامنا، لو الحكاية كدا كان يبقى الاستعمار اللي عمل ثورة ونهضة كان حقه هو كمان يملكنا»

تركته حائرة صامتة تتخبط في الأفكار، وابتعدت معتكفة على قراءة كتب الأديان وتحليل المفكرين لها.

وعلى الرغم من ذلك لم تستطع أن تحدد شكل علاقتها بـ(سمير) على الرغم من تعمق صداقتهما حتى أنها حكت له عن علاقاتها بـ(جمال) و(فادي) لكن وجوده في حياتها لم يستطع أن يشغل فراغها، حتى وجدت نفسها وحيدة تذبل لم يعد يهتم بها أحد، (جمال) كان مشغولًا في استثماراته، و(سمير) كان منخرطا في الأوضاع السياسية وما آلت إليه من سوء، وجدت نفسها تهمل كل شيء،

تمضي وحدها في طريق دون هدف، مستسلمة إلى الهرب من الصحوة والوحدة والحزن تتملكها رغبة عارمة في النوم، وبين الحين والحين تذهب إلى الكلية تقضي بها ساعة أو ساعتين متثاقلة تهمل مظهرها، مقتضبة تنهي محاضراتها مسرعة لتعود إلى فراشها هاربة من الحياة كلها، وذات غفوة استغرقت ثلاث ليالٍ متواصلة انتهت بكابوس، شاهدت فيه والدها يغرق في منتصف البحر، بينما هي واقفة على الشاطئ تصرخ من أجله دون أن تدخل إليه لتنقذه، استيقظت مفزوعة من نومها عازمة على أن تذهب إلى أهلها.

دخلت الحارة تقرأ الطريق الذي لأول مرة تهتم بأن تقرأه، تلمع نظراتها للوجوه الشاحبة والأبنية الهزيلة، تحاول أن تعثر لهم عن بيانات في الذاكرة، تنزلق قدماها وهي تنزل السلالم للغرفة المدفوسة في قاع منزل قديم آيل للسقوط في حارة ضيقة من حواري السيدة زينب، بينما باب الغرفة الهزيل مفتوح على وسعه، كانت أمها عاصبة الرأس بطرحة سوداء وجلباب أسود، تجلس مهمومة وحدها على حصيرتها المتهالكة، تنتبه لدخول شابة شاحبة هزيلة في هيئة الأثرياء؛ فتظنها ممن يهتمون بالعطف على الفقراء، فراحت تبالغ في الترحيب بها فجثمت (لبنى) على ركبتيها تغسلها بدموعها تحضن رأسها وتقبلها، وعندما اكتشفت أمها مذهولة أنها (لبنى) لم تستسلم لحنينها وأشاحت وجهها بعيدًا عنها؛ فأصرت (لبنى) على أن تحضنها وتستعطفها متوسلة لها لأن تسامحها، وتسألها عن إخوتها وأبيها، فأجابتها بنبرة قاسية:

— «أبوكي في مستشفى الأورام بيموت»

فتذكرت الكابوس الذي أفزعها بالأمس؛ فتركت أمها ذاهبة إلى مستشفى الأورام التي تدخلها لأول مرة في حياتها، وكأن قدمها انزلقت فجأة لتدخل بها مدينة الموتى، لم تكن تتوقع أن من يزور مستشفى الأورام سوف يصاب بالإغماء من الطلة الأولى، ربما ذلك لرقة مشاعره التي ستفجعها رؤية هؤلاء الأشباح الإنسانية وهي في أوقات الراحة، بعدما منحها المعذبون هدنة قصيرة ليأكلوا ويشربوا، ليسمنوا قليلًا ثم يستأنفون التعذيب مرة أخرى بالعلاج الكيماوى والإشعاع، كانت تلك هي مشاعرها الأولى تجاههم في بادئ الأمر، لكن

بانقضاء بعض الوقت تتلخبط المشاعر، وربما تصاب تدريجيًّا بالبلادة وربما بالنفور، وربما بالجهامة والقسوة عندما تشهد غلظتهم وهم يرفضون طبطبة محبة خالصة، بينما تنفرج أساريرهم لعشرة جنيهات تسقط من كف غليظة في حجورهم، فتتبدل مشاعرها لتتهمهم بأنهم جناة يستحقون ما هم فيه عقابًا على ذنوب لم تشهدها، وربما ينتابها شعور مباغت بالتباهي بالحياة التي اختارتها لتعيشها بكل مباهجها، واختارت لهؤلاء كل هذا العذاب، وربما يخفق قلبها عندما تقرأ على وجوههم الشاحبة في لحظات أخرى علامات الانتظار لتلك القلوب المشفقة، التي تحولت بالاعتياد إلى نفس الجهامة والقسوة، ولكنهم يتصبرون أحيانًا بكلامهم عن القصور التي تنتظرهم في الآخرة، وأحيانًا أخرى تزوغ أعينهم شاردة في الفضاء البعيد، ليفهموا أنهم لا يرغبون هذه القصور التي لا تساوي لحظة انكسار واحدة في هذه الحياة، إنهم يريدون أن تتحطم هذه الأسوار التي تحيطهم من جميع الاتجاهات، تنفيذًا لأوامر القدر الذي اختار لهم الحياة في مدينة الموتى، بينما يختار للآخرين حياة يتمرغون في مباهجها يطمحون فيها إلى المزيد.

عندما زارت (لبنى) أباها في المستشفى، كان في غيبوبة استمرت ساعات، وعندما بدأ في الإفاقة منها، ظل ينازع من شدة الألم، هرولت بين حجرات الممرضات وهي تصرخ، لأنها لم تجد من ينقذه في مستشفى يعج بالإهمال، بينما تصفع آذانها هتافات الأطباء والممرضين والممرضات مع الهتافات الخارجية التي تقول أن البلد اجتاحتها نيران الثورة، بينما هؤلاء المرضى يكابدون آلامهم لا يجدون من ينقذهم في مستشفيات قذرة ودورات مياه تعبئ الغرف برائحة نتانتها، ليكتمل المشهد القبيح لمرضى ذوي ملابس قذرة ملطخة بالدماء المتسرب من الكالونات، ووجوه شاحبة مصفرة تقول أنهم بين أيدي لا ترحم، ولكن حناجرهم تهتف في الشرفات بكل قوتها مع من يهتفون في الشوارع، يطالبون بالعدل والحياة الكريمة.

اتصلت (لبنى) بـ(جمال) تستنجد به لينقذ أباها وينقله إلى مستشفى خاص بدلًا من هذا المستشفى الحكومي الذي يتعذب فيه، لكن (جمال) اعتذر لانشغاله بترتيب أموره لأن أوضاع البلد غير مستقرة.

مات أبوها دون أن يشعر بصراخها من أجله وهي عاجزة تشهد زهقان روحه من ألم الكالونة المغروزة في شرايينه، تجثم عليه بكل قوتها لتمنعه من أن ينزعها، لكن قوتها عجزت أمام قوته، لتصعد مع انتزاعها روحه إلى بارئها، في تلك اللحظة التي جثمت فيها الحكومة على روح الانتفاضة الثورية، التي انطلقت من نقابة الصحفيين ترفض التوريث، وتطالب باستقالة الحكومة غير القادرة على أن توفر حياة آدمية للشعب.

ولأول مرة في حياتها ترى الموت رؤية العين، ليفجعها ذلك الوحش المفترس الذي يفاجئ الإنسان وهو ينساه تمام النسيان، لا يعطي له بالًا ليفاجأ به يلتهم بين فكيه متلذذًا شخصًا كان يظنه سيظل أبد الدهر، فينظر إليه مبهوتًا عاجزًا لا يمكن له أن يفعل من أجل إنقاذه شيء، وبعد فوات الأوان يلوم نفسه يظنها كانت قادرة على إنقاذه، يتهمها بالتخاذل والحقيقة أن الإنسان أحقر من أن ينقذ أحدًا من الموت.

عادت (لبنى) إلى فراشها هاربة من شدة آلامها إلى النوم، هاربة من هذه الحياة التي لم يعد لها فيها رغبة، جاءها (جمال) بعد عدة أيام، يحمل إليها التورتة التي تحبها وهو متأكد من قدرتها الساحرة على مصالحتها، لقد صرحت له ذات ليلة من الليالي الصافية بينهما، بأن أعصابها تنهار أمام التورتات، تؤكد له مازحة بأنها من الممكن أن تتنازل عن جميع أحلامها مقابل قطعة من التورتة، وضحك معها من قلبه وهي تمزح قائلة، لو أنها قاضٍ وجاء إليها المجرم الذي يستحق الإعدام شنقًا بتورتاية، لمنحته من أجلها البراءة؛ فجاء إليها (جمال) بالتورتة واثقًا بأنها ستقبل اعتذاره، وأن عدة أيام مرت كانت كافية لتهدأ، وتستوعب أنه لم يكن ملكًا لنفسه، إلا بعدما تأكد من سيطرة الدولة على الوضع متخذًا جميع احتياطاته، وأنه جاءها عندما أصبح عقله مهيأً ليفهم تفاصيل معرفتها بمرض والدها وما وصل إليه حاله، ولكنها صدمته تجيبه بلهجة ساخطة يائسة:

– «مات»

شعر بنفسه غارقًا في الخجل من نفسه ومن تورتته التي تركها على منضدة السفرة، معتذرًا توجعه نظراتها الساخطة وهي منصتة لتأسفاته، بينما هو

يشرح لها موقفه متحججًا بأنه كان مهمومًا بأحوال البلد، التي كانت في طريقها إلى الخراب، مبررًا يقول لها:

- «الوطن أهم»

استفز صمتها مستهزئة بمبرراته قائلة:

- «الوطن! وإيه هو الوطن؟! مين هو الوطن؟! الوطن كان أبويا اللي سرقتني من حضنه، الوطن هو الناس الشقيانة اللي مرمية تحت الكباري، اللي انت وغيرك سرقتوا أراضيهم، الناس المرمية في المستشفيات، اللي مش عارفة إذا كانت عايشة ولا ميتة، هما دول الوطن اللي بتتغنوا بيه، وهما دول الوطن اللي بتفعصوه برجليكم»

اندهش (جمال) من ثورتها لا يصدق أن هذه هي (لبنى) وكأنه يراها لأول مرة، ولأول مرة يشعر بحماقته، هل فعل بنفسه مثلما فعل فرعون موسى؟! عندما تبناه طفلًا ليؤمن له مستقبله، ولكن موسى أعلن الحرب عليه ليطيح بألوهيته، تركها غاضبًا ناقمًا، ربما يخطط لأن يتخلص منها قبل أن تدمره ثورتها، بينما هي التفتت حولها فلم تجده، ولكنها انتبهت لتورتته التي جاء بها للتصالح، فحملتها مشحونة بالغضب لتلقيها في أقرب مزبلة، ولكنها تراجعت تقول لنفسها ما ذنب التورتة، جاءها هاتف ينصحها بأن توزعها على روح أبيها، فقررت تقطيعها قبل أن تنادي على أولاد البواب لتوزيعها عليهم، ولكنها عندما تراءت لها التورتة الكبيرة الغارقة في الكريمات والشكولاتات والفواكه والمكسرات، تذكرت طفولتها والليلة التي أطالت فيها تأملها مع صديقاتها واقفات يخترقن بنظراتهن زجاج فاترينة عرض التورتات في محلات حلويات الأستاذ (جرجس) يسيل لعابهن من روعتها، تتذكر حلاوة أول قطعة تذوقتها، تلك الحلاوة التي لم تبرح الذاكرة؛ فيسيل لعابها أمام روعة التورتة وتغريها الشكولاتات التي تغطيها، ودون سيطرة منها على نفسها أخذت تلعق الشيكولاتة بأصابعها تقول لنفسها:

- «طز في كل شيء»

وتركت نفسها تهيم في لذتها سابحة في ذكريات لذتها الأولى، عندما دعاها الأستاذ (جرجس) هي وصديقاتها على أول تورتة تأكلها في حياتها، لقد كانت ترقص فرحًا تتضخم فيها المتعة والحرمان، المتعة للذة ذوبان الكريمة والشيكولاتة في فمها محدثة أنغامًا تطرب خلايا جسدها، والحرمان لأنها عرفت طعم اللذة في اللحظة التي ستحرم فيها منها، ولكنها الآن بين يديها تورتاية كاملة، وتستطيع أن تشتري كل يوم تورتاية بشكل آخر، وكانت التورتة وسيطًا بينها وبين الحياة، أخذت بيدها لتستأنف مشوارها الذي بدأته، تستسلم لرغبتها إلى اللذة الحقيقية في هذه الحياة، اللذة التي لا أحد يلومك فيها، لذة تفهمها المعدة وتشترك فيها جميع المخلوقات على هذه الأرض، اللذة التي لا يتدخل العقل فيها بأسئلة تعجز عن الوصول إلى أجوبة عنها، اللذة التي يتفاخر الناس بها دون خجل، ستكرس لها نفسها، لأنها لا تشترط أن يشاركك فيها أحد، ولن يلومك عليها أحد، اللذة التي لا دين لها ولا وطن، ولا أخلاق ولا فضيلة، اللذة التي لم ينشغل بها الأنبياء أو الخطباء أو رسالات الرب، اللذة التي بلا قوانين أو قيود تحكمها، لم تخضع الرغبة لفكرة مجابهتها أو السيطرة عليها لأنها رغبة لا يحرمها أحد، ولا يجرمها دين أو قانون، ولأول مرة تطلق للرغبة فيها العنان لتحلق في براح لا حدود له، تتملكها دون خوف أو ألم أو ندم، تصنع فيها أية سعادة دون سلسلة من الحروب بينها وبين نفسها، أو بينها وبين الله أو بينها وبين الناس.

أطلقت في روحها المدى لسعادة تحققها في رغبة، كرغبات طفلة بلهاء تتملكها السعادة عندما تغيظ بتصرفاتها الكبار، أو رغبة تسفيه الآخر التي أطلقت لها العنان لتتملكها رغبة السخرية الدائمة دون أسباب مقنعة من الآخر، دون أن تأخذ بالها من أنها هي نفسها أصبحت تثير سخرية الآخرين،

زارها (جمال) بعد عدة أيام فلاحظ انصرافها عن نظرات الاتهام، تدعوه بلهفة إلى مائدة فاخرة بها أصناف كثيرة من الأطعمة والحلويات، فتشكك في بادئ الأمر ربما وضعت له سمًّا، ولكنه لبى دعوتها، عندما وجدها تتصارع مع

الأصناف، تأكل بنهم وكأن لها عامًا جائعة؛ فشاركها يأكل متعجبًا من هذا التحول وهذا الانصراف عن ثورتها عليه، ولكنه بعد عدة شهور لم يصدق نفسه، بعدما تحولت إلى حيوان شره لا يفقه في الحياة شيئًا سوى إرضاء معدته، ينبهها (جمال) لتأخذ بالها من شكلها كلما لاحظ تضخمها، حتى وصل به الأمر ليوبخها بين كل مرة ومرة يزورها متسائلًا عن سر تغيرها وسر بلاهتها، ولماذا لا تنظر لنفسها في المرآة لتفجعها ضخامتها، ينبهها لأن وضعها الاجتماعي الذي سيقودها إلى أن تصبح أستاذة في الجامعة يستدعي المحافظة على مظهرها، في بادئ الأمر آلمتها نظرات القرف المحرجة لكبريائها في عيون (جمال)؛ فعزمت على كبح رغبتها وحاولت مرات ومرات ضاغطة على نفسها حد البكاء، ولكن في كل مرة كانت تنهار قوتها خاضعة لحلاوة الاستسلام لتلك الرغبة، حتى أصبحت تستقبل نظرات القرف من الجميع مبتسمة ببلاهة الأطفال دون أدنى تأثر بأي تسفيه لها عن هذا التحول الوحشي، الذي استقر إلى أقصى شكل وحشي من الممكن أن تصل إليه أنثى من الضخامة والبلاهة، انقطع (جمال) نهائيًّا عن زيارتها متأسفًا على (لبنى) العصفورة الرقيقة، دون أن يفهم نظراتها التي كانت تقول له، أن الإنسان يحتاج أن يطلق لرغبة واحدة في حياته العنان، يحتاج إلى أن يعيشها بسلام دون أن يعلن الحرب عليها أو على نفسه، جميع الرغبات تستهلك حياة الإنسان في الحروب، لكن هذه الرغبة التي لا تضر أحدًا ستتحقق فيها حياة مسالمة.

بعد عدة سنوات أصبحت (لبنى) أستاذة في كلية الآداب، كان الطلبة يسخرون من بلاهتها وهرجلة مظهرها وضخامة جثتها، وشعرها المقصف المهمل كشجرة بفروع شيطانية تخرج من أي مكان، ووجهها الكئيب بعدما تاهت عيونها الجميلة في نظارتها المقعرة.

وعندما قامت ثورة يناير ابتعدت ساخرة من بلاهة الشعب، الذي يظن نفسه قادرًا على إسقاط نظام مستبد كنظام (مبارك) تهكمت مستهزئة لطلابها بالشعب الذي فجأة قرر أن يحدد مصيره بنفسه، تسخر من الشباب زاعقة فيهم في المدرج تقول:

- «انتوا فاكرين إنكم هتقدروا تغيروا نظام الكون، عيش وحرية وعدالة اجتماعية!، انتوا بتحلموا!»

وعندما سقط نظام (مبارك) راحت تتابع الأخبار على الفيسبوك مذهولة بأحداث تثير العجب، بداية بـ(جمال) الذي ظل صامتا طوال الفترة الأولى للثورة، ولكنه بعدما سقط نظام مبارك انضم إلى الحركة الثورية بقوة، وفي غمضة عين أصبح من قادة الثورة، تقرأ له شعارات ومنشورات عن حقوق الفقراء، وعن نظام (مبارك) ومحسوبياته، لم تصدق نفسها عندما فاجأتها رأسمالية (جمال) متحولة بمنتهى السرعة، إلى هذه الاشتراكية العمالية الشعبية، رافعة شعاراتها الرنانة، ليصبح بين عشية وضحاها من النخبة الثورية، و(فادي) الذي كانت تتمنى منه أن يعطيها جزءًا من وقته ليتكلم معها عن الأفكار، لكنه الآن على الفيسبوك زعيم من زعماء الأفكار الاشتراكية، تتعجب من أين جاء بكل هذه المنشورات المهمومة بكل هذه الأفكار، ولماذا كان يلخصها في الكلام عن الجسد بكل هذه الشراهة؟! لماذا لم يحك لها مرة واحدة عن أحلامه العظيمة هذه من أجل الفقراء، هذه الأحلام والأفكار النبيلة التي يتفاعل معها كل هذا الجمهور العظيم، بكل هذه الثقة يعطيها الإعجابات والتعليقات المؤيدة.

أما الذي أذهلها كل الذهول، هو أن (جمال) و(سمير) يظهران لها في صورةٍ واحدةٍ في الصف الأول لرجال الثورة والنخبة، التي راحت تتفاوض على مطالب الشعب، كيف لها أن تثق في ثورة ألفت بين القاتل والمقتول؟! أين القضية إذًا؟! وكيف لهم أن يبدأوا عصرًا جديدًا يتآلف فيه الذئب مع الغنم دون أدنى توقع لأن الذئب حمل وديع، حتى نسلمه بأيدينا الغنم؟! كل هذه الفئات المتآلفة من الشعب التي كانت تسبح بالثورة، لم تستطع أن تقنع (لبنى) بهذه التمثيلية، تتهم هذه الصورة التي لا يظهر فيها سوى المتغنيين بحب الوطن، بينما تخفي الكادحين، بأنها صورة باطلة.

كانت تتهكم من النتائج التي وصلت إليها الثورة، ساخرة تقول لمن يتعمد إثارتها:

– «دي سياسة عظمى وانتوا لعبة في إيد اللي بيحركوها»

اتخذت لنفسها مكانًا بعيدا عن الثورات والهتافات والانتفاضات التي عقبت ثورة يناير، كثورة الشعب مرة ضد العسكر ومرة ضد الإخوان، حتى احتال العسكر لتعود الدولة العسكرية للحكم مرة أخرى بكل قوتها، بعدما اخترقت هتافات الناس في الشوارع سماوات العالم أثناء ثورة ٣٠ يونيو، تدعو بإنقاذ البلد من يد الإخوان، توحدت جميع قوى الشعب بسحر ساحر، وأصبح (جمال) و(فادي) و(سمير) يدًا واحدة تتصدر الصفوف الأولى، يرددون هتافًا واحدًا يردده الشعب: "يسقط يسقط حكم المرشد"، كل هذه الهتافات التي هزت قلب العالم، لم تهز فيها شعرة وكانت تصر على أنها تمثيلية بوليسية.

ظلت تترقب الأحداث تبالغ في تهكمها من الثورة والثوار في حضرة طلابها، يكابدون زغراتها بعيون شرسة لحماسهم ودفاعهم عن الحريات، يهزءون ويسخرون ويتغامزون عليها سرًا، يطلقون عليها الكثير من النكات والألقاب التي أشهرها "رائدة حزب الكنبة".

وعندما تجرأ طالب متبجحًا يعارض تهكمها مدافعًا عن الشباب الذين يضحون بأنفسهم، بينما أمثالها يرفضون المشاركة في صناعة المستقبل، بينما الثورة الشبابية قادرة على أن تهدم أصنامًا أمثالها؛ طردته من محاضرتها ساخطة عليه، تقسم أنه لن ينال نجاحًا في حياته بسبب مادتها، اندفع وراءه الطلبة يفرون من هذه الوحشية التي تنهش أحلامهم البريئة، يتركونها وحدها تنزف أعماقها دموعًا حارقة لا يراها أحد.

وعندما اشتكاها الطلبة للدكتور (سمير) مستائين من شراستها للثورة وللثوار، ومن موقفها المخزي ضد أحلام البسطاء، راح يحكى لهم عن (لبنى) العصفورة الرقيقة ساهمًا بائسًا يقول:

– «عندما يكفر الإنسان بالحب، يتحول إلى وحش مخيف»

وفى ظل هذه الأحداث والمشاحنات والاستفزازات والبكاءات اليومية التي لا تنتهي، استيقظت ذات مرة من نومها مفزوعة تبكي، تجرى إلى البرندة التي

كانت قد أهملتها؛ فتجد القمر مكانه وكأنه لم يبرحه أبدًا، وكأنه كان ينتظرها، بكت له بكاءً مريرًا ساخطة على كل شيء تقول له:

- «أيوة أنا بكره الثورة، لأن الثورات في النهاية بتجيب نفس الحكام اللي بيقهرونا، وبكرهك انت كمان يا قمر، لأنك خليتني أعيش أحلم، وسيبتني أغرق في الحلم، وضاعت مني السنين من غير ما أفهم إن الحياة اغتصاب، أنا إنسانة فاشلة، أنا بس اللي فاهمة إن النجاح في البلد دي مش نجاح، الاستسلام عمره ما ينفع نسميه نجاح، النجاح عشان يكون نجاح، كان لازم أتحدى فيه ظروفي من غير تنازلات، النجاح في البلد دي مابيحققش شيء، لأنه غير شريف، لازم يفهموا إن ثورتهم فاشلة، وهتفشل كل الثورات، لأنها باطل بيدعي للحق، والباطل مايجيبش إلا باطل»

❊❊❊❊

اختارت (أبلة كريمة) مدرسة الموسيقى بمدرسة زين العابدين الإعدادية للبنات بالسيدة زينب، أربعًا من الفتيات الجميلات الرشيقات، للتدريب على الرقص، لتقديم عرض مسرحي راقص بعنوان "آه لقلبي والقمر".

للمشاركة في مسابقة أفضل عرض فني للمدارس، كانت (أبلة كريمة) تستدعي أعضاء فرقتها الأربعة من الحصص للتدريب المكثف، خاصة عندما اقترب موعد المسابقة، كانت (ليلى) تتسلل خلسة لتقف بعيدًا، حتى لا تكتشف المدربة وجودها فتطردها كما فعلت مرات عديدة، كانت ترتسم الحركات في ذهنها، تتخيل نفسها ترقص معهن بخفة وطلاقة، وكأن قدمها الثقيلة التي تجرها بصعوبة بالغة أصبحت بخفة الريشة، تطيعها بخفة في زيها الشيفوني الأبيض، تدور بحركات راقصة منظمة حول صديقاتها؛ فيشع لونها الأبيض بضوء يختلط بألوان فساتين صديقاتها، وكأن زيها الأبيض هو وجه القمر الذي يعكس ألوان الإنسانية كلها في ضوئه، تردد معهن الأغاني بطلاقة دون تأتأة في الحروف، كل شيء يحدث في عقلها الباطن بسهولة وطلاقة غريبة، ولكنها عندما تحاول إقناعهن بأنها قادرة على نفس ما يفعلن، تجد كل شيء يعاكسها، تتتأتأ الحروف محشورة في حنجرتها تخرج أطرافها وتبتلع آخرها فتتوه معالم الكلمات، ويتحول جسدها إلى جبل غير قادرة على إزاحته، ليطاوعها مستديرًا يؤدي الحركات الراقصة، التي كان يطاوعها ويؤديها في خيالها بسهولة؛ فتسقط على الأرض بين صديقاتها، مصرة تحاول إقناعهن بأنها تصلح لأداء نفس الحركات، فيسقطن فوقها غير قادرات على الإمساك بجسدها الثقيل الذي يدفعهن وراءها على الأرض، فتختلط ضحكاتهن بدموعهن الحارقة، يتألمن من أجلها ذاهبات باكيات يستعطفن المدربة، لتقبل (ليلى) ضمن فرقتها التي اختارتها بعناية فائقة وأخضعتها لتدريبات قاسية، مصرة على أن يفوز عرضها بالجائزة، وعندما يفشلن في أن يفعلن شيئًا من أجل إسعاد (ليلى) يحاولن إقناعها بأنها تصلح لأشياء كثيرة أخرى كالرسم بالألوان، وربما تصبح ذات يوم أكثرهن شهرة، لكن (ليلى) تصر على الرقص والغناء الذي يسعدها أكثر من أي شيء في الوجود؛ فيضممنها إلى أحضانهن باكيات ناقمات على حظها الذي اختار لها ذلك العجز، يتكاتفن حولها يساعدنها لتقف، يفصلن حركاتهن على

إيقاع حركتها العرجاء، وينطقن الكلمات بتأتأة، وينتهي الأمر بأن يضحكن ويفرحن ويصرخن فرحًا على أفعالهن الساذجة.

(ليلى) هي الابنة المعاقة لتاجر من تجار حي زين العابدين بالسيدة زينب، الحاج (إسماعيل بهجت) الذي خاف من أن تأكل ابنتاه الجميلتان المتعافيتان حق (ليلى) في الميراث؛ فلذلك كان يكتب كل شيء يشتريه باسم (ليلى) لكن الحاج (إسماعيل) توفاه الله فجأة، عندما اشتعلت النار في خزائن الأقمشة التي كان يحتكرها ليحتكر سوق الأقمشة، ولم يكن مقتنعًا بفكرة التأمين، كان يظنها وسيلة للنصب، حتى فوجئ بأنه يواجه إفلاسًا وديونًا، وثلاثة من البنات أكبرهن (ليلى) التي حصلت على شهادة كلية الفنون الجميلة، تزوجت أختاها بثريين من أثرياء السيدة زينب قبل فجيعة الوالد، بينما (ليلى) لم يتقدم لها أحد لظروفها الخاصة، ومات والدها حزينًا على إفلاسه وملاحقة الدائنين، وعلى حظ (ليلى) عاجزًا عن أن يفعل شيئًا من أجلها، لم ينبها من أختيها سوى الشماتة والقسوة وزغرة قاتلة تنتقم منها ومن الأب الظالم، الذي كان يفضل عليهما هذه البلهاء، التي لا تستطيع أن تلضم الحروف مع بعضها لتخرج من جوفها كلمة يفهمها أحد بسهولة، تركتاها وحيدة تواجه مصيرها المجهول مع الديون والوحدة، وحملها الثقيل الذي حملت به نفسها لتحافظ على اسم والدها ليظل براقًا بين تجار الأقمشة، ولكنها لا تعرف كيف يكون السبيل إلى ذلك؟!

أخذت (ليلى) قرارًا حاسما بأن تفتح دكانة والدها الخربة، نزلت متفائلة بجرأة حمقاء إلى السوق لتصارع عالم التجار، تعافر لتشق لنفسها طريقًا غير طريق العجز الذي فرضته الحياة عليها، تظن أن الحياة تحتاج من البشر بعض الحماقة في التقدير، وأنها سترضخ منكسرة ضعيفة أمام حماقات البشر، يصور لها خيالها أن الإنسان يمكنه أن يفرض نفسه على الحياة، يمكنه أن يراهن على إخضاعها بما يمتلكه من قدرات، لأن الحياة مقامرة ربما بالقليل الذي ستضعه على منضدة اللعب تفوز بكل ما يمتلكه الآخرين، تتأزم حياتها بعدما هجرت الألوان والخيال والقمر والموسيقى والرقص في الأحلام مع صديقاتها، تاهت منها أحلامها وتصدر لها شبح يناديها بصرامة:

- «التجارة هي الأهم، هي المستقبل»

فتحولت حياتها الهادئة إلى معارك مع التجار تارة، ومع أختيها تارة، ومع الحياة تارة، دون أن تتسلح بالأسلحة اللازمة لكل هذه المعارك؟!

بدأت رحلتها الجديدة وحيدة بعدما فرقت الأيام بينها وبين صديقاتها، وأخذت منها أباها الذي كان سندها الوحيد، راحت تفتش في حسابات الدائنين ونجحت في تحصيل جزء منها، بمساعدة عم (نشأت) الرجل الوحيد الذي ظل بجانبها من مساعدي والدها، ولكنها فوجئت بأختيها يطالبانها بما حصلته من أموال؛ فقذفت في وجهيهما كشوفات الدائنين ليحصلاها هما بدلًا منها، تآمرا عليها يستقطبان عم (نشأت) يتهمانه بأنه يستكمل طريق الأب الظالم الذي كان يخطط ليحرمهما من ثروته؛ فتركها الرجل عازفًا عن الدخول في معارك لن ينال منها فائدة، اعتذر لها متعللًا بصحته السيئة وتركها وحيدة، جففت بكفها دموعها الحارقة، وقررت أن تواجه الصعاب بشجاعة، تحاملت على نفسها تجر جسدها حتى وصلت إلى باب المحل، ظلت لحظات واقفة تنظر إلى الأقفال الغليظة التي تستهزئ بضعفها، عافرت دون أن يعطف عليها أحد أو يبادر بتقديم المساعدة ليفتح لها الباب الموصد، الذي ظلت أمامه عاجزة أكثر من ربع ساعة، حتى استطاعت أن تثني ركبتيها وتفتح الأقفال وترفع الباب الحديدي إلى أعلى، هذه الحكاية البسيطة جدًّا كان يقوم بها طفل من الأطفال الكثيرين الذين كانوا يأتون تطوعًا لمساعدة عم (نشأت) استلقت على أول كرسي يقابلها، تلتقط أنفاسها ساخرة حزينة من واقع يقتضي بأن تقوم بذلك المجهود يوميًّا، لأنها لن تستطيع أن تدفع راتبًا لشخص تستأجره ليساعدها، وقفت تقاوم اليأس الذي يحاول أن يفتك بها، عازمة على المقاومة تجر جسدها إلى مكتبها تعافر لتخرج الدفاتر الثقيلة من أدراج المكتب، تعبث وتبحث في الفواتير عن التجار الكبار أصدقاء والدها الذين كانوا يعطونه البضائع بثقتهم دون أن يطالبوه بالدفع الفوري، نجحت في إعداد كشف بأسمائهم وأرقام هواتفهم، لكنها عندما راحت تجري أول مكالمة لم تستطع أن تشرح للتاجر أي شيء، خذلتها قدرتها على الكلام، والتاجر وقته من ذهب لن يضيع وقته في تأتأة

لم يفهم منها شيئًا؛ فعدلت عن الفكرة منهارة تبكي في مكانها، وعندما دخلت زبونة لتشتري أمتارًا من القماش تصلح ملاءة لسرير طفلة، راحت تعافر كي تتعرف على أي من المرصوص في هذه الأرفف العالية التي تحتاج منها رشاقة وليونة لتقف على الكرسي دون أن يختل جسدها، لتأتيها بالثوب الذي ستشاور لها عليه، لكن السيدة تأففت مستأذنة تتصعب على حالها بتعبيرات وجهها قائلة:

– «معلش يا بنتي هجيلك تاني، لما ييجي عم (نشأت) هو اللي عارف طلبي»

تضخمت لها قسوة حظها الذي يصر على أن يسجنها في عجزها، يخطف منها أي عكاز تحاول أن تتسند إليه، حتى أصبح السقوط محتمًا، استلقت بائسة على الكرسي تبكي بحرقة يلح عليها شعور مفجع بشدة الاحتياج إلى صديقاتها، وحدهن قادرات على أن يقفن جانبها لتتجاوز هذه المحنة، فشلت محاولاتها العديدة لمعرفة أخبارهن من الأقارب، هداها تفكيرها إلى البحث عن صفحاتهن على الفيسبوك، ولكن البحث العادي لم يصل بها إلى نتيجة، أخذت تعبث بالصور الكثيرة التي رسمتها لهن من خيالها، فجاءتها فكرة أن تنشر إحداهن على صفحتها مصحوبة برجاء من الأصدقاء لإعادة النشر على صفحاتهم للبحث معها عن صديقاتها، وتعاطف (الفيسبوكيون) مع منشورها، الفيسبوكيون أشخاص ليسوا من كوكب آخر، الفيسبوكيون أشخاص من كوكب الأرض، إنهم أيضًا يعيشون بيننا في الواقع بقلوب ووجوه غليظة، لكن ذلك الوجه القاسي الواقعي للمجتمع يحوله الفيسبوك إلى وجه آخر، وجه يثبت ازدواجية الإنسان الذي يمتلك وجهين للخير والشر معًا، مجتمع الفيسبوكيين غالبًا طيب متعاطف مع الأفكار النبيلة والأخلاق والفضيلة، حتى تظن أن الأرض تطهرت من الشر نهائيًا، على الرغم من أن أشخاص ذلك العالم الافتراضي هم أيضًا أشخاص العالم الواقعي بكل بشاعته، اقشعر جلدها من شدة التعاطف مع منشورها وتم نشره على نطاق كبير من صفحات الأصدقاء، إلا أنه لم يسفر عن أية نتيجة ولم تكن سوى محاولة من إحدى محاولاتها الفاشلة.

تمكن منها الشعور باليأس، تفر الأيام منها دون أن تحقق شيئًا، حتى استسلمت لعجزها تاركة كل شيء، عائدة إلى مرسمها على سطح منزلها تفتح النافذة على مصراعيها، تنظر من عين صندوقها الخشبي، الذي يواجه النافذة، تطلع إلى السماء في ليلة يتجلى فيها القمر وضاءً في صفحة الليل الحالك، راحت تبكي فرحًا هائمة في عالمها الحقيقي، تتراءى لها صديقاتها يرقصن حوله رقصة "آه لقلبي والقمر".

بينما هي تنتصفهم هائمة ترقص بزيها الأبيض، الذي يعكس ألوانهم الزاهية، تهيم روحها بالرقص والموسيقى والألوان، هذه اللوحة التي رسمتها كثيرًا لهن بحركات مختلفة، قررت الآن أن تعيد رسمها وهي ترقص معهن بقدم عاجزة على الدوران، كانت الألوان تهفهف راقصة متموجة في صفحة الليل الحالك، وكأنها تقهقه فرحًا ذاهبة للقمر.

كان والد (ليلى) مولعًا بزيارة الأولياء، حريصًا على حضور الليلة الكبيرة لموالدهم مصطحبًا (ليلى) يطوف بها مقاماتهم آملا أن يمنحوا ابنته الطفلة المعاقة البركة والشفاء، وفي الليلة الكبيرة لمولد (السيد البدوي) بطنطا، أثار انتباه (ليلى) ذلك الرجل البدين القصير بقبعته الداكنة وبدلته العتيقة البالية، واقفًا بجانبه صندوق يرتكز على حامل خشبي ومغطى بملاءة سوداء، كان الرجل ينادي المريدين ليشاهدوا من فتحة الصندوق التي تطل على الأزمنة ويحفظ داخله حكايات البشر، ينبه على المريد أنه سيُظهر له جزءًا من حياته في زمن ما ربما مر به وربما سيمر به، وقفت (ليلى) بجانبه مذهولة تراقب ما يحدث، تتأمل متعجبة هذا الصندوق الذي يحبس فيه جميع حكايات البشر، يشتاط عقلها مذهولة بصيحات المريدين وتكبيراتهم وتهليلاتهم، بعدما يركزون إحدى أعينهم مغمضين الأخرى للحظات قليلة من فتحته، تلح على والدها ليسمح لها بأن تجرب أن تنظر هي الأخرى من هذه العين، لتفهم ماذا يحدث داخل هذا الصندوق ولتكتشف أسراره، لبى والدها رغبتها ضاحكًا على سذاجتها، ساخرًا من الحكايات الكثيرة لهذه الدنيا الكبيرة المحبوسة في ذلك الصندوق الصغير، بينما (ليلى) أذهلتها الصور التي تتراقص كأشباح، تروح

وتجيء داخل الصندوق، وكأنها الأشباح التي كانت تراقبها وهي تتحرك على وجه القمر، تتراءى لها نفسها بساقها العرجاء بين أربع فتيات يرقصن ويختفين فجأة تاركين إياها لترقص وحدها؛ فتسقط على الأرض عاجزة عن الوقوف، غابت (ليلى) عن الحياة دقائق سارحة مع أشباح الصندوق تفسر حركات الأشباح كما يحلو لخيالها، عادت مدهوشة إلى والدها تحكي له عما رأته بتوتر يضخم من تأتأتها، حاول تهدئتها ليسمعها بمهل حتى راح غارقًا في الضحك يقنعها أن ما رأته ما هو إلا خدعة، لأنها أطلقت المحبوس في خيالها ورسمته على حركة الأشباح، ولكنها لم تقتنع بكلام والدها ودعته ليجرب بنفسه فرفض متعللًا بضيق الوقت، مضطرًا إلى أن يتظاهر بتصديقها متعاطفًا مع خيالها البريء، ظلت سارحة مع خيالها شغوفة للقاء صديقاتها صباحًا في المدرسة، راحت تحكى لهن الحكاية بشغف وتأتأة فيمهلنها لتتكلم على مهل حتى يفهمن ما تقول؛ فتعيد عليهن الحكاية بهدوء تخرج الكلمات واضحة وكأنها شفيت من التأتأة تمامًا، تربط لهن ما رأته داخل الصندوق بما رأته من قبل على وجه القمر، فيسخرن من اكتشافاتها التي تظن أنها ستغير وجه العالم، لأنها اكتشفت أن القمر هو الصندوق الذي يحفظ حكايات البشر، تعترض على سخريتهن متسائلة:

— «لماذا إذًا خلق الله القمر إن لم يكن خلقه لتلك المهمة؟!»

تذكرهن بالمرة التي كن يتطلعن فيها إليه، وصاحت فيهن عندما تعمقت في رؤيتها ورأت أشباحًا تروح وتجيء على سطحه، وأنهن هللن مثلها حين دققن النظر، اعترضت إحداهن تذكرها بما درسوه في كتاب العلوم الذي يصف القمر بأنه كوكب معتم، عبارة عن حجارة وأن ضوءه خدعة كبيرة، فنظرت لها (ليلى) نظرة حزينة، لأنها تتوقع أنه عندما يخذلها الناس جميعًا ستنصفها صديقاتها، كان صمتها الحزين يمتلك الإجابة، ولكنه غير قادر على أن يصيغها، عدلت صديقتها مسرعة عن موقفها، تتبعها جميع الصديقات تهليلًا يضخمن لها عظمة حكايتها لتخرج (ليلى) من حزنها، منذ تلك الليلة و(ليلى) شديدة الولع بالقمر، تقتنع بأنه يحفظ حكايات البشر، لأنه الشاهد الوحيد الذي يتأمل حكايات الناس جميعًا عبر الأزمنة، في جميع أنحاء العالم، وكبرت (ليلى)

ونضجت جميع أفكارها، ولكن هذه الفكرة باتت محفورة في ذهنها تبحث عن أدلة يقينها، حتى توصلت إلى رأي يحل لها اللغز وهو أن العلم لا بد أن يدرس الأشياء من وجهتين، وجهة مادية؛ وهي الوجهة التي أثبتت أن القمر كوكب معتم يمتلئ بالأحجار، ووجهة معنوية؛ كتلك التي نرى بها البيوت تتشبع جدرانها برائحة الأرواح التي سكنتها، بينما البيوت ما هي إلا جدران من طوب ورمل وزلط، الرؤية المعنوية لا تنفي الرؤية المادية لكن الحقيقة لها أوجه عدة، اقتنعت بأن ما يسميه العلم المادي بخرافات البشر ليس خرافات، ربما نكتشف حقيقتها لو أننا حاولنا أن نفتح في أنفسنا طرقًا جديدة للرؤيا، راحت صديقاتها يشاركنها فكرتها سارحات في الخيال، ولم تعد تشغلهن الحقيقة، واكتشفن أنهن كن يحتجن القمر وأن (ليلى) أهدتهن طريقًا ممتدًا يصل بهن إلى ما وراء الحياة، أهدتهن الحكاية التي جمعتهن كثيرًا على سطح منزلها، والتي ستظل يجتمعن عليها عبر الأزمنة والأمكنة، وظل القمر قاسمًا مشتركًا بينهن حتى بعدما فرقتهن الحياة، وسكنت خيالهن فكرة جديدة هي أن القمر مخزن الحكايات، وعندما لاحظ والدها غياب توترها وتحسن نطقها للكلمات، غمرته الفرحة مستبشرًا ببركة السيد البدوي، راح يشجعها على جميع أفكارها التي تخترعها لتتجاوز بعالمها الخيالي محنتها، تمنح نفسها قوة خارقة تخترق الزمان والمكان، وتتسع دائرة عالمها إلى عوالم جميع البشر، يصنع لها والدها صندوقًا يرتكز على حامل خشبي غطاه بملاءة سوداء، تاركًا عينه المضخمة التي تطل على القمر، عندما تنظر منها تقترب السماء بالنجوم والسحب ويقترب وجه القمر، مؤكدًا أن حياة ما دائرة خلف أضواءه، تستدل عليها بهذه الأشباح التي تتحرك، تعودت (ليلى) أن تسهر هي وصديقاتها مع القمر أغلب لياليه، وأحيانًا كن يصنعن أرجوحة، بأن يربطن طرفي حبل سميك بمفصلات الباب، ليتطوحن به واحدة تلو الأخرى يغنين ويحكين للقمر الحكايات، وهن يقتنعن أنه سيحكيها يومًا ما لمن يطلب منه أن يحكي عنهم.

لم تسعد (ليلى) بشيء في حياتها مثلما أسعدتها تلك الفكرة، التي كانت ملهمة لخيالها ورسوماتها، خاصة لوحتها التي ألهمت مدرسة الموسيقى بفكرة العرض المسرحي "آه لقلبي والقمر".

عندما فاجأت (ليلى) المنشغلة عن درس الموسيقى برسم فكرة ألحت على خيالها، فاجأتها المدرسة غاضبة تخطف منها كراسة الرسم لتمزقها، لكنها بدلًا من أن تمزقها أو تعاقبها أو تزغدها في كتفها لتنتبه، هللت عيونها تقبّلها فرحًا وإعجابًا بلوحتها، لا تصدق أنها صاحبة هذه اللوحة وصاحت متأملة مهللة:

- «برافو عليكي يا (ليلى) هي دي الفكرة اللي كنت بدور عليها، عشان المسابقة بتاعة العرض المسرحي»

أخذت منها المدرسة لوحتها التي رسمت فيها القمر وضَّاءً مبتسمًا عاليًا في ركن صفحة سوداء، بينما ترقص (ليلى) هي وصديقاتها له في الركن المقابل أسفل اللوحة، اختارت لنفسها فستانًا من الشيفون الأبيض، بينما اختارت لكل واحدة منهن اللون الذي يناسبها، اللون الذي تنسجم روح كل واحدة منهن معه؛ فتبدو خفة رقصها كأنها تطير إلى القمر، اختارت لهن الألوان بفن وكأن اللون يعبر عن صاحبته، (مروة) اللون البنفسجي و(نهال) اللون الأخضر وسميحة اللون الأحمر و(لبنى) اللون الأزرق، ظنت (ليلى) أنها ستكون واحدة من فتيات العرض ولكن المدربة بجلافة قالت لها:

- «انتي رسامة هايلة لكن ظروفك تمنعك من الرقص»

بينما اختارت للرقص صديقاتها، فكان لصديقاتها الرقص مع القمر، بينما هي تذهب كل ليلة إليه من عين صندوقها الخشبي، فتتراءى لها على سطحه حكايات وصور ساحرة خيالية، كانت تختزنها في عقلها وتنقلها إلى لوحاتها، حتى أصبحت لها لوحات كثيرة مبهرة، فجرت طاقتها وهونت عليها تسرب صديقاتها من حياتها واحدة تلو الأخرى، حتى وجدت نفسها فجأة وحيدة دون صديقات، وحيدة دون والدها.

تيقنت (ليلى) أنها سلكت طريقًا خاطئًا، تستهدف فيه بقاء اسم والدها على محلاته، وعندما أعادت النظر في كل ما مر بها، توصلت إلى أنها من الممكن أن تصل إلى هذه النتيجة بطريقة أخرى؛ فكتبت لافتة على المحل تقول إن المحل للإيجار بشرط عدم تغيير النشاط أو اسم صاحبه، وقررت أن تعيش في

مرسمها على السطح الواسع الفسيح، بعدما عرضت شقتها للإيجار، عادت إلى الفن توليه اهتمامها، وتستعيد طموحها تخطط لمعرضها الأول.

وعندما قررت أن تقيم معرضها الأول، تذكرت ذلك الرجل الذي ستظل إلى آخر عمرها مدينة له بفكرتها الملهمة، ذلك الفنان الذي يدور بفنه في الموالد سعيدًا مكتفيًا بزاده الذي يأتيه من باب الله، لا يطمح إلى أموال أو ثروات، لقد تأثرت أفكارها عن الفن بذلك الرجل، الذي رسخ في عقلها فكرة أن الفنان الحقيقي تكمن عظمته في أنه لا يهتم أن يأخذ من الحياة سوى ما يسمن من جوعه، ذلك الرجل الذي كان سببًا لتفهم، أن الفن الحقيقي يذهب إلى الناس في الشوارع، الفن الحقيقي يجبر أصحاب القصور ليخرجوا من قلوعهم ذاهبين لرؤيته بين الناس في الموالد والميادين وعلى المقاهي، الفنان الحقيقي هو أعظم شخص في العالم، لأنه يفني حياته مخلصًا للفن، يهتم بأن ينتج فنًّا للخلود دون أن يهتم بأن يخلد الفن اسمه، ستظل مدينة لفنه البسيط العميق الذي صنع لها طريقًا إلى القمر وطريقًا إلى الحياة، وجعلها تتفهم أفكار البسطاء الساذجة، تؤمن بأن الفكرة العظيمة لا تنبت إلا على أشلاء فكرة ساذجة، عندما تذكرته ألهمها فكرة جريئة أخرى، وهي أن تقيم معرضها الأول على سطح منزلها القديم، في ذلك الحي الشعبي الفقير الذي يعيش منعزلًا عن الفن والفنانين، بينما الطقوس اليومية لبسطاء حاراته من الممكن أن تخرج منها أعظم اللوحات الفنية، اختارت له اسم: "للقمر عاشقة وحيدة".

عندما اكتشفت أن غالبية لوحاتها للقمر، عزمت على تنفيذ فكرتها ترسل بطاقات الدعوة إلى معارفها من الفنانين، وكان مجهودًا جعلها مرة أخرى تشعر بحاجتها الماسة لصديقاتها، فعاودت المحاولة مرة أخرى تنشر على حسابها على الفيسبوك منشورًا مدعومًا بلوحة من لوحاتها، لوحة تجمع بينها وبين صديقاتها في إحدى حركات الرقص لرقصة "آه لقلبي والقمر"، وكتبت أعلاه:

«دعوة لأصدقاء القمر لحضور المعرض الأول للفنانة (ليلى إسماعيل) والذي سيقام فوق سطح منزلها بالسيدة زينب.. أرجو من جميع الأصدقاء مشاركة الدعوة»

وانتشرت الدعوة على صفحات التواصل الاجتماعي، وانشغلت تستعد وحدها لإقامة المعرض تتوقع أن يفاجئنها بين اللحظة والأخرى.

خطر ببالها فكرة أكثر جرأة، وهي أن تأتي بأربعة فتيات من الحارة في سن صديقاتها وتدربهم على رقصة "آه لقلبي والقمر".

ليقدمن ذلك العرض في ليلة الافتتاح، تتوقع أن يأتيها إعلام عريض لتغطية الحدث، تظن أنها ستفاجئهم بمفاجأة عظيمة عندما تستقبل المدعوين على الأنغام والرقصات، اختارت بعناية فائقة أربعة من الفتيات كثيرات الشبه بصديقاتها الأربعة، ولكن الفتيات أثناء التدريب كانت كل واحدة منهن تأتي معها بصديقاتها وقريباتها حتى امتلأ السطح عليها بفتيات الحارة، وفتيات من حارات أخرى، وجدت نفسها مضطرة إلى أن تكون حازمة تختار من بينهن العدد المناسب متغاضية عن كل هذه الرغبات الفياضة للرقص، ولكن قلبها تمزق وجعًا عندما دمعت عين طفلة لم يكن اسمها مكتوبًا بين الأسماء التي اختارتها، تذكرت (ليلى) لحظة انكسارها عندما رفضت المدربة حضورها التدريبات مع صديقاتها؛ فعدلت عن موقفها تختارهن جميعًا، تقوم بتقسيمهن إلى مجموعات، لترقص كل مجموعة ليلة من ليالي المعرض، هللت الفتيات فرحًا يحضنها ويقبلنها، بدأت التدريب ينتابها الخوف من عدم قدرتها على أداء الحركات، كيف لها أن تدربهم على حركة بينما هي نفسها غير قادرة على فعلها؟! لاحت لها فكرة ابتكرت فيها طريقة جديدة للتدريب، وبسهولة تفاعلن الفتيات يلتقطن الحركات التي ترسمها لهن، بدوران أصابع كفها متراقصة مستندة إلى المكتب، فينفذن الحركات بأجسادهن بسهولة، اختالت فرحًا بنفسها، ومن فرط سعادتها أرسلت دعوة لمدرسة الموسيقى لتحضر المعرض لتشهد نجاحها، لكن الدعوة ردت إليها مع اعتذار من أهلها لأن المدرسة توفاها الله، راحت تبكيها وتبكي غياب صديقاتها، تتمنى لو يفاجئنها داخلات ليشهدن كيف أصبحت مدربة للرقص، بعدما رفضها الرقص ذاته، ولكنهن أيضًا لم يحضرن.

عندما انتهت من تجهيز المعرض وتدريب الفتيات، عادت إلى الفيسبوك لتتابع رد فعل منشور دعوتها لحضور المعرض، أفجعتها قراءة التعليقات مذهولة بالوجه

الآخر للفيسبوكيين، لقد تحول الوجه الناعم اللطيف إلى وجه وحش مفترس، يعكس لها فكرة أن العالم لطيف عندما يظنك تافهًا، لا تهتم بأن يكون لك دور في هذه الحياة، ولكنه سيهجم عليك متوحشًا ليهدمك، فور أن يكتشف أنك تحاول أن تعبر عن ذاتك بأفكار تتمرد على الواقع، تزامن منشور دعوتها مع منشور أحد أصدقائها الفنانين، يستعرض فيه صورًا كثيرة لزملائها ومعارفها الفنانين يزورون معرضًا يقام في (جاليري القاهرة) بالزمالك، وكانت التعليقات ودودة مهذبة تحمل لصاحبها التهاني والمباركات، بينما كانت أغلبية التعليقات على منشور دعوتها لمعرضها الذي سيقام على سطح منزل قديم في حي السيدة زينب، تسخر من فكرتها يتهمونها بأنها استهزاء بالفن وبالفنانين، ولم يلتفت أحد لرأيها الذي ذكرته عن الفن مستشهدة بذلك الفنان الذي هو مثلها الأعلى الذي قابلته في مولد السيد البدوي، أغلقت الفيسبوك متوترة دون أن ترد على التعليقات، وراحت تعيد التأكد من ترتيباتها للمعرض، تاركة الرد على السخرية إلى ما بعد المعرض، استعادت إصرارها على أن تستكمل طريقها مدركة الفارق الكبير بين من يستكمل طريقه يدوس فوق الصعاب، مدفوعًا بالتحدي الذي يستلهمه من ضعفه، وبين من تذلل لهم الطرق وتلتقطهم الكفوف الحانية لتمنعهم من السقوط، تمنحهم الابتسامات تشجيعًا يهون عليهم الصعاب، سيصل هؤلاء وهؤلاء إلى نفس النقطة دون أن يهتم أحد كيف كان طريق الوصول، لكن مذاق النجاح مؤكد سيختلف.

على الرغم من أنها هيأت سطح منزلها بأضواء خافتة ليكون المعرض في الأيام التي يظهر فيها القمر، فأصبح وكأنه حقًّا احتفال بالقمر أو عرسًا للقمر أو سهرة مع القمر، وكان القمر طوال ليالي المعرض بطلًا حقيقيًّا يطل على لوحات تشهد أن (ليلى) وصديقاتها كن عشيقات للقمر، ولكن الحكاية انتهت إلى أنه لم يعد للقمر في هذه الحياة من عشيقاته سوى (ليلى)

عندما جاء موعد المعرض لم يأتها أحد لزيارتها، حتى ولو من باب المجاملة من زملائها الفنانين، تماسكت مطبطبة حزينة تواسي فتياتٍ بائسات ينتظرن جمهورًا ليرقصن له رقصة القمر، معتذرة بائسة عن خطئها لأنها تخيلت أن

الأحياء الشعبية أماكن تصلح لأن يزورها الوجهاء والمثقفون كما يزورها القمر، انفضت الفتيات من حولها، وعادت (ليلى) وحيدة تبكي بحرقة إلى القمر ليعيد إليها صديقاتها، فيعود إليها صدى صوتها يخرجن من وجه القمر واحدة تلو الأخرى يواسينها، ويرقصن معها حتى الصباح.

انزوت (ليلى) منطوية على نفسها في مرسمها مع اللوحات والألوان سنوات طوال، كانت تتابع صفحتها على الفيسبوك في صمت بقلب ينزف من قسوة هذا العالم، تقرأ المنشورات دون أن تعلق أو تهتم بمجاملة أو مواساة أحد، حتى ظهر لها منشور لوزارة الثقافة يعلن عن مسابقة للفنون؛ فبرق لها شعاع للأمل لتخرج من حزنها تتذكر الصورة التي رسمتها في طفولتها لها ولصديقاتها وهن يرقصن أمام القمر، تلك الصورة التي هللت لها فرحًا (أبلة كريمة) مدرسة الموسيقى لأنها ألهمتها بفكرة العرض، الذي أطلقت عليه اسم "آه لقلبي والقمر".

فزَّت (ليلى) من مكانها تحضر لوحة سوداء، تستلهم من ذاكرتها تلك الوجوه البريئة بسهولة، وكأن الزمن قد توقف في ذهنها على وجوههن، راحت ترسم كل واحدة بفستانها الشيفوني الذي استشعرت فيه روحها، ورسمت القمر مضيئًا مبتهجا في أعلى ركن من أركان اللوحة، بينما هي وصديقاتها يتضاءلن بعيدًا في الركن المقابل للقمر أسفل اللوحة، يرقصن منتشيات محلقات كفراشات هائمات سابحات في الظلام فرحًا بنور القمر.

تقدمت (ليلى) للمسابقة بلوحتها قبل انتهاء موعد التقديم بلحظات، وعادت فرحة تشعر أن القدر سينصفها هذه المرة وستفوز بالجائزة، وستصفع من تعمدوا تهميشها صفعة مدوية على وجوههم، وعندما عرضت لوحات المتسابقين على اللجنة المكونة من خمسة أعضاء، أشادوا جميعًا بلوحة (ليلى) ما عدا واحدًا هب غاضبًا يتهمها بأنها دعوة واضحة إلى عبادة القمر! على الرغم من إصرار بقية الأعضاء على الدفاع عن إيحاءات اللوحة؛ إلا أنهم رفضوا اختيارها للفوز، بسبب ذلك الالتباس الذي من الممكن أن يكون خادشًا لأفكار المجتمع، وعندما أعلنت النتيجة حزنت (ليلى) على انهيار الأمل الذي سرعان ما

يولد وسرعان ما يموت، وعندما راحت تسترد لوحتها قابلها الدكتور (مراد) أحد أعضاء اللجنة، والذي كان شديد الإعجاب بلوحتها يقول لها متحسرًا:

- «لوحتك حلوة جدًّا، بس حظك هو اللي وحش»

وكانت (ليلى) تتحاشى الكلام لأن كلامها لا يفهمه أحد، فحافظت على صمتها ترسل له رسالة بعيونها الحزينة، فتألم الرجل من أجلها قائلًا:

- «انتي فنانة كبيرة حقيقي، لكن ابعدي عن المناطق اللي ممكن يتفهم منها أفكار غلط، إذا كان الفنانين قروها على إنها دعوة لعبادة القمر، أومال الناس العادية هتقراها إزاي؟»

فارتسمت علامات الدهشة والحزن على وجهها، وانصرفت دون أن تفهم مقصده، قادها الحزن والألم إلى أن تنشر الصورة على صفحتها في محاولة أخرى تناشد فيها صديقاتها لأنها في أمس حاجتها لوجودهن، تناشد أصدقاء صفحتها على الفيسبوك لينشروا الصورة على صفحاتهم، وعندما وصلت الصورة إلى العضو الذي اتهمها بأنها تدعو لعبادة القمر، ظن أنها تتحداه، وراح يثير ضجة حول أفكارها، يحشد الأصوات ضدها ويجعل منها (تريندًا) جديدًا يزاحم التريندات الكثيرة للفيسبوك يقول فيه:

- «#لا_للفن_الذي_يهدم_العقائد»

يشحذ حمية المحاربين دفاعًا عن العقيدة لأن ينشروا هذا الهشتاج، وعندما قرأت (ليلى) ما نشره ضدها، علقت على منشوره تستهزئ بكلامه، تتهمه بأنه ليس بفنان وأنه لا يفهم شيئًا عن الفن، فاشتاط عقله يشن الحرب عليها، ينشر الصورة على أكبر نطاق من الصفحات الدينية، ووصل الأمر إلى أن كلف أحد المحامين لتحرير محضر ضدها يتهمها باستخدام الفن لهدم العقيدة، مستشهدًا برأي عدد من الفنانين أمثاله، سواءً كانوا مأجورين أو ممن أقنعهم بفكرته السوداء، وفوجئت (ليلى) باستدعائها وحتمية حضورها إلى النيابة في الصباح الباكر.

ذهبت (ليلى) إلى النيابة وحيدة، لا تصدق نفسها أن ما يحدث لها واقعًا تعيشه وتمر بتفاصيله فعلًا، وبينما هي مذهولة لا تعرف ماذا ستفعل، يفاجئها أحد المحامين الذين ينتهزون فرصة الدفاع عن قضايا حرية الرأي سعيًا وراء الشهرة، يطمئنها بأنه سيتبنى الدفاع عنها وسيحضر معها تحقيق النيابة، وكان وكيل النيابة فظًّا غليظ الوجه والقلب، راح يقذفها باتهام أنها تستخدم الفن كوسيلة لهدم العقيدة، انفعلت غاضبة تتتأتأ لتشرح له أنها صورة صديقاتها يرقصن رقصة "آه لقلبي والقمر".

لكنه لم يفهم مما تقوله شيئًا، نظر إليها يسخر منها مستهزئًا يقول:

- «وكمان بنص لسان»

فنزلت جملته على سمعها كالصاعقة تصعق مخها وقلبها، وتمزق خلاياها وشرايينها فكست عيونها حمرة، حتى كادت تنفجر دموعها مغمسة بالدماء، يتدخل المحامي مسرعًا ليرد عنها الأسئلة مع وكيل النيابة الذي بدأ يشعر بجريمته، استطاع المحامي أن يجعلها تخرج بكفالة على ذمة القضية.

مضت (ليلى) دون هدف تتقاذفها الشوارع تنهنه روحها ألمًا، تقول لنفسها يائسة من هذه الحياة: "الحياة التي لم نستطع أن نقودها، أكرم لنا أن نوقفها، وكفانا أيامًا لا تزيدنا سوى انهزامًا".

وعندما عادت إلى سطح منزلها في المساء، وجدت القمر يبتسم لها وكأنه ينتظرها، تتراءى لها صديقاتها يرقصن بجواره على السحابة الكبيرة البيضاء، يمدون إليها بسلم طويل يصلهم بها، ينادونها ويمدون أذرعهم الطويلة ليساعدوها على الطلوع؛ فتمسح (ليلى) دموعها، يرقص قلبها فرحًا وهي تعافر تتسند بذراعها لتصعد فوق السور، ممسكة باللوحة لتصعد معها، فتسبح في الهواء.

ترطم بالأرض محتضنة اللوحة التي تغمست بدمائها، ويفجع حي السيدة زينب بصرخة وهزة أرضية تهز القلوب، يندفع الناس إلى الشرفات وإلى الشوارع في

ليلة كان القمر فيها بدرًا وضَّاءً، أصبحت سوداء فجأة بعدما تكاثفت السحابات الداكنة في السماء لتوارى عن الحياة القمر، انقلب حال الحارة رأسًا على عقب في صراخ وعويل ينشرون الخبر بأصوات مدوية:

(ليلى) انتحرت.

❋❋❋❋

النهاية

بينما كان أهل الأرض منشغلين بقضية "هل تجوز الرحمة على (ليلى)؟"، كانت روحها ترقص بجسد ممشوق، وتغني بصوت عذب ينطلق بالكلمات بسهولة، كانت روحها ترفرف بطرحتها الشيفونية البيضاء على السحابة التي تجاور القمر، بعدما تحررت من جميع قيودها.

لم يصلِّ صلاة الجنازة على (ليلى) أو يبكيها بحرقةٍ سوى صديقاتها الأربع، لأن رجال الدين أذاعوا فتوى بأنه لا تجوز صلاة الجنازة على المنتحر ولا يجوز الدعاء له بالرحمة.

وقبل الوداع ذهبن الصديقات الحزينات إلى سطح ليلى، يتشوقن لرؤية القمر من عين صندوقها، يتعشمن أن تطل لهن روحها ترقص وتغني على ضوئه، خذلتهن الحقيقة عندما بدا لهن القمر ككهف مخيف غائر في سحابات أسفلتية، بكت إحداهن شاردة، تقول لهن أن هذه هي حقيقته التي كانت تختفى عندما كن يشاهدنه بعيون ليلى، وأنه أجمل خدعة اخترعتها من أجل الحياة ليلى، الخدعة التي ظلت تجمعهن في الغياب، الخدعة التي كانت تهون قسوة الحياة، لكن هذه الخدعة على ما يبدو تحتاج إلى عيون ليلى، وكيف لها أن تعود إلى الحياة ليلى!

تمت

❊❊❊❊